جيرالد دي غوري



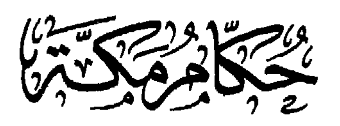
ترجمة:

محمد شهاب

تنسيق ومراجعة

محمد علي سويد

مكتبة مدبولي


حكام مكة

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

مقدمة المؤلف

إن مكة ما تزال المدينة الوحيدة في العالم التي لا يسمح لغير المسلمين بدخولها ومن أراد دخولها من غير المسلمين فإنه سيتحمل عواقب ذلك.

إن الحكام الحاليين للمملكة العربية السعودية سيكونون مستائين من رؤية الدم المراق هناك، ولكن ضمن حشود الحجاج القادمين من كل البلاد الإسلامية لا بد وأن يكون هناك بعض المتعصبين وسيكون غير المسلم ملاحق من قبلهم وربما ضحيتهم فيقتل بطريقة تشعر قاتليه بالفخر وقبل أن يستطيع أحد إنقاذه. إن قليلاً من المسيحيين قد ذهبوا إلى هناك وبأساليب متنكرة واستطاعوا العودة سالمين. والقلة القليلة قد تخلت عن عقيدتها بطريقة سليمة وقانونية وزارت مكة بصفة إسلامية وهكذا فإن مكة لا زالت المكان المقدس والمجهول في آن.

أما الصعوبة بالنسبة لكاتب معني بالكتابة عن مكة فإنه يصبح أمراً أكثر تعقيداً بالنسبة له.

إنه لمن المحرج حقاً أن أذكر بعض أسماء الأفراد الذين ساعدوني بطريقة أو بأخرى دون ذكر الآخرين، ولكن يجب التنويه إلى أن معظم التاريخ المتعلق بحقبة العصور الوسطى قد تفضل مشكوراً رجل مسيحي من بغداد اسمه يعقوب سركيس باعارتي كتاب مخطوط وذلك على رغم أهميته وقيمته، وسوف يكون مدوناً لاحقاً ضمن أسماء المراجع تحت اسم مؤلفه الحسيني، ويُعتقد بأنها النسخة الوحيدة المتبقية من الكتاب الأصلي المفقود حالياً، أن نسخة أعمال

الحسيني الحالية والتاريخ المطبوع بواسطة ابن زيني دحلان وكان مفتياً لمكة في عصر سالف قد هيأوا جميعاً الأسباب للمعلومات الخاصة بحقبة العصر الوسيط، وهو المصدر الوحيد حيث لم يُعط معلومات عن مواضيع أخرى فيه. وككل المؤرخين العرب القدماء فقد دُونت الأحداث بالتسلسل الزمني وغالباً تحت عنوان سنة كذا. . . أو يتم تدوين السنة في الهامش وقد تم تجنب تدوين رقم الصفحة كمرجع.

إن مكتبة الرجل المثقف والفذ، رؤوف الشديرشي من بغداد تلك المكتبة المجهزة تجهيزاً جيداً قد وُضعت بتصرفي وقد استخدمتها لانتقاء مواد من عصر الحكم التركي للجزيرة العربية، السيد حسين تيمور موظف لدى السفارة البريطانية في بغداد قد أبدى اجتهاداً ملحوظاً في الترجمة وأعمال السكرتارية متطوعاً، وبالرغم من أنه كان يملك الحرية المطلقة لأداء مثل هذا العمل في فترة ما بعد الظهر وكلفه فعل ذلك وفي مناخ كمناخ بغداد مما يدعو إلى الإعجاب الشديد بعمله هذا.

وهناك مجموعة كبيرة من الرسميين المهمين الذين قدموا خدماتهم ومساعداتهم ونصائحهم والتي نقدر لهم ذلك كثيراً.

ويجب أن أخص بالشكر الشريفين عبد المجيد ومحي الدين حيدر لنصحهما لنا وكذلك الشريف حازم ابن سالم باشا صهر الوصي على عرش العراق، وكذلك الشريف محمد أمين حيدر والذين سعيا كلاهما لتقديم معلوماتهما ومكتبتيهما لتكونا بتصرفي. وقد تابعا بأدب جم الإجابة على كل التساؤلات.

إن تزويد كتاب حكام مكة بالصور يمثل صعوبة واضحة وذلك لأن أي صورة لأي إنسان أو لأي مخلوق أو أي جسم بداخله قد يعطيه صفة الوثنية وكان ذلك لحقبة طويلة من الزمن شيء ملعون ومكروه. ولا يزال هذا الحدث مكروهاً بالنسبة للمتشددين ولهذا لم يقم أحد بعمل أي صورة لأي حاكم إلا متأخراً.

أما في أنقرة واسطنبول فقد تلقيت مساعدات ونصائح من مسؤولين أتراك وبريطانيين وكذلك مدنيين، والذين أقدم لهم كل شكر وسيتم لاحقاً تدوين ملاحظة عن الأمبراطورية العثمانية في الفهرس رقم I.

هذا ولقد تفضل الفلكي البريطاني بمقارنة التواريخ الخاصة ببعض الظواهر المسجلة بواسطة الحسيني (أنظر فهرس II) مع تلك الظواهر المعروفة التواريخ والتي تطابقت في كثير من الأحيان بطريقة صحيحة ومذهلة. وهذا ما يؤكد دقة الحسيني.

وعندما أعارني مشكوراً الوصي على عرش العراق وابن آخر شريف قصر الملك علي في بغداد وهو القصر الذي عاش فيه والده بعد أن ترك الحجاز ولقد وضعني في جو ملائم تماماً للحالة.

ولقد كان لدي التصميم على وضع تاريخ الحقبة الغامضة للعصر الوسيط أمام القارىء البريطاني. وكنت أضع في اعتباري أن ما أقدمه قد لا يلائم مخيلة وأماني الرجل المسلم وما يودني التأكيد والتركيز عليه، وذلك لأنني لم أتطرق لأمور حصلت مؤخراً في التاريخ السياسي والتي هي بالمقارنة مع ما سبقها أصبحت معروفة لدينا جميعاً. وأشعر أنهم قد يعتبرون بأن الحالة التي أبحثها هي في مقابل أو نظير بحثي لأحداث زمن النبي محمد (ص). ولهذا فأنا أستميحهم عذراً وذلك أنني أردت حين التدوين كان لتسجيل جميع التاريخ الهاشمي التاريخي البحت دون المساس إلا فيما ندر أو حيثما اضطررت ولاستمرارية السرد على بعض نواحي الأخلاقية الإسلامية والطريقة التي تعلم بها النبي محمد وقد دُونت كثيراً من الكتب وبعدة لغات عن ذلك وبالتفصيل.

وبالرغم من أن المتحدرين من سلالة النبي يعتبرون ذوي مكانة وأفضلية بالنسبة لحكام مكة فإن نفس العشائر كان بإمكانها استلام زمام السلطة في أي مدينة وبدون دعم مادي سوى ذلك المقدم من قبل الحجاج في موسم الحج وفي خضم طموحات الجيران.

لقد كانت العشائر في نزاع دائم مع بعضها البعض ولكن عندما تصل

حداها إلى السلطة فإنها تتكاتف ضد العشيرة الأخرى وخصوصاً في العصور الوسطى فإن الحاكم كان مدعوماً من اثنين أو ثلاثة أو حتى أربعة شركاء من عائلته وهذا ما عكس طريقة الحكم مع فارق ثابت بالنسبة لمشاعر العائلة وخوفها المستمر من العشيرة الأخرى من خلفها. فمن ناحية الإعتزاز والمكانة الخاصة بالمتحدرين من سلالة النبي ومن ناحية أخرى الديمقراطية البسيطة لسكان الصحراء المحيط بهم والتي يعود أصلهم هم نفسهم إليهم ومع هذا فقد حكموا حتى ما قبل ربع قرن مضى وحتى وقعت مكة أخيراً في قبضة الغازي العربي.

عند تقديم هذه القصة ما على الكاتب إلا أن يقدم في النهاية عظيم امتنانه للذين ماتوا في الشرق وللشرقيين الذين يدين لهم بهذا العمل.

جيرالد دي غوري

الفصل الأول

نشأة مكة

نشأة مكة

كانت الجزيرة العربية قد تعرضت في أواخر عصر التحولات الأرضية إلى عوامل جيولوجية أدت إلى إطلاق المياه الجوفية الموجودة في باطنها، وبقيت الزاوية الجنوبية الخصبة والتي ترويها مياه الأمطار الموسمية. وبسبب تواجد الأعشاب الشوكية والشجيرات الضعيفة التي تنمو في سهول الجزيرة العربية فإنها تعتبر حتى اليوم أراض قاحلة تماماً.

يمتد على طول الساحل الغربي للجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب جبال صخرية ذات تكوينات بركانية وتوجد على طول هذا الساحل انحدارات شديدة ومنبسجة وهذا يدل على قوة الحرارة التي تعرضت لها هذه المنطقة من العالم. وفوق أرض كهذه كان من الصعب جداً على أعتى وأقوى البشر أن يجازفوا ويأتوا من الجنوب بحثاً عن مجاري السيول أو عن أعشاب طفيلية كمراع لإبلهم في سهولها القاحلة. إن الجزيرة العربية كانت أرض الأساطير والرعب، وكان أكثر الأساطير رعباً أكثرها عمقاً في التاريخ وأكثرها أساً.

روى المؤلف القديم ـ الطبري ـ أن جبال قاف تحيط بالعالم على شكل دائرة بلون الزمرد، وأن اللون الأزرق الموجود في السماء هو بسبب انعكاس هذا اللون عليها، ويروي أيضاً أن سكان جبال قاف يتواجدون في منطقتين سبوقه وجابولزة، وهؤلاء السكان لا يعلمون حتى اسم آدم ويعيشون على الأعشاب ولا يرتدون الثياب وإنهم لا يودون إنجاب الأولاد لأنهم جميعاً من الذكور، ويقال إن هؤلاء البشر يعيشون في مكان ما وراء مغرب الشمس، وإن

ذو القرنين العظيم، الإسكندر المقدوني كان مضطراً لأن يمشي في الظل لمدة شهرين حتى يصل إلى تلك الأرض.

ولا يزال هنالك جبال تسمى قاف في وسط الجزيرة العربية، هذا وإن قصة السكان المذكورة آنفاً ربما تعود إلى روايات الرحالة عن عصر عرب ما قبل الإسلام، حيث كانت عادة وأد البنات عند الولادة سائدة حينها، أو ربما يعود أصل تلك الإعتقادات لتغيب أكثر الرجال والشباب الذكور عن الجزر جنوبية لمدة نصف عام أثناء موسم الحصاد؛ (إن شجر البخور في الشوارع لن يلوث الجو عندما يرسل عبقه إلى معابد الغرب).

كانت القوافل العظيمة القادمة من جنوب الجزيرة العربية ـ أرض البخور ـ باتجاه الشمال محملة بالإضافة إلى البضاعة المعتادة التي كانت تحملها، بضاعة أخرى أغلى وأثمن كالحجارة النفيسة، والتوابل، والبهارات والكماليات الأخرى من الهند وكذلك العبيد من الحبشة وكل ما يغري العالم الغربي.

وهكذا نمت في جنوب الجزيرة العربية موانىء غنية ونشأت فيها معابد مثل شبوه أو مثل معبد «إله الشمس» في جزيرة سوقطرة في المحيط الهندي بالقرب من القرن الإفريقي.

أما في جنوب أو جنوب غرب الجزيرة العربية فإنه قد نشأت هناك نقاط التقاء ومراكز اتصال تجارية بين أسواق الشرق والغرب، وظهرت ممالك غنية ومزدهرة حيث أن القوافل لا بد وأن تعبر الوادي الموحش الذي حفرته مياه الأمطار التي تهطل فوق الهضبة العربية، أي على امتداد ساحل البحر الأحمر أو ما يسمى بالحجاز.

إن أسرع جمل لا يستطيع راكبه الوصول من عدن على ساحل المحيط الهندي حتى غزة على ساحل البحر المتوسط بأقل من شهر أما إذا كان ضمن قافلة تمشي الهوينة فإن هذه القافلة تحتاج لثلاثة أشهر على الأقل حتى تصل، لأنه لا بد من التوقف المتكرر للراحة وإعادة التجهيز وذلك لتبديل أو شراء دابة مكان دابة أما في منتصف المسافة وحيث الجبال الشاهقة والتي يصل امتدادها

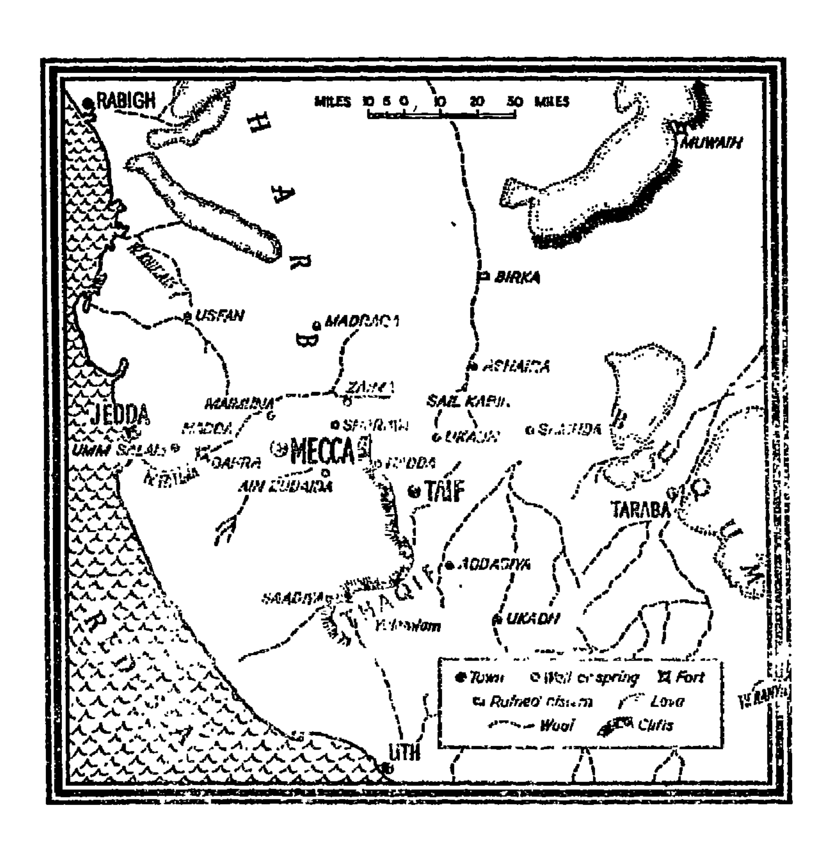
إلى عشرة آلاف قدم أو أكثر من الشمال إلى الجنوب فيصل ارتفاعها إلى ثلاثة آلاف قدم عن سطح البحر، وخلف تلك الجبال وفي الأرض السهلية المنبسطة والمحاذية للجبال من الداخل وحيث يتواجد البدو، إن المدخل إلى قبائل وسط الجزيرة العربية والذي يتميز بوجود أدلاء صحراويين وجمال، فكانت القوافل تتقي مشاكسات البدو حيث تهادنهم وتحاول إنشاء تحالف معهم يفيد هذه القوافل غالباً، وذلك حيث أن المنطقة ما خلف الجبال في وسط الحجاز تعتبر منطقة وعرة جداً ولا يؤمن جانبها، أما في المنطقة الشمالية على بعد مسيرة أيام من الموقع السابق فإن الساحل المرتفع ينحرف صوب وسط البحر ولكن لا أمان حول تلك المناطق أنها كالكابوس المرعب. تلال جرداء تلمع وأخاديد تمتد بعيداً في عمق التيه وضمن أحد تلك الأودية توجد مكة، حيث الحرارة الخانقة حتى في فصل الشتاء الحرارة التي لا يمكن تحملها حتى من قبل العرب أنفسهم في الصيف.

وفي الهضبة المنبسطة فوق الحجاز وسكانها البدو ا لعاشقين للمال كانوا يُستفزون بشدة وتقوم المشاجرات بينهم بقوة وذلك نتيجة للشمس الساطعة بقوة والمجففة لكل شيء. وكان هناك أسياد الآبار وحفر الماء وهناك البحر الخطر ليس بعيداً حيث المياه ضحلة قرب الشاطىء ذي الصخور المرجانية. وقد كان الرجال يخشون الذهاب بعيداً خوفاً من الإنحدارات القوية للشاطىء الصخري بالإضافة إلى تيار الهواء الشمالي الجارف.

وأكثر من ذلك فإن السهل الساحلي المنفتح على الشاطىء هش وملحي حيث تغوص أرجل بعض الحيوانات فتتعب من إكمال المسيرة. وهكذا فإن طريقاً يصل بين الهضبة والساحل كان لا بد من تدعيمه.

هذا الحجاز ويعني بالعربية الأرض الحاجزة. وهو عبارة عن نتوء كبير بارز فوق سطح الأرض وتتخلله تجاويف قليلة مزينة ببعض الأشجار وخصوصاً أشجار النخيل وأشجار أخرى، وذلك حيث يمكن للإنسان أن يسكن فيها بحياة مستقرة وعند مسافة كل خمسين ميلاً تقريباً يوجد وادياً. وفوق الهضبة يوجد دوائر ضخمة من صخور الحمم البركانية نتيجة البراكين القديمة وقطع صماء من

البازلت منتشرة فوق السطح أو على المنحدرات سوداء اللون كأنها من حديد مما يزيد من رعب العرب وخصوصاً في ذلك الزمان الغابر حيث كانت البراكين ما تزال تقذف حممها.



خريطة مكة وجوارها

وبين وسط الجزيرة العربية الساخنة والجافة المناخ، وبين الرطوبة القادمة من الحجاز يتكون عند الإلتقاء عاصفة كهربائية سريعة ويوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة من قمم الجبال إلى أسفل الوديان يبدأ البرق بالتفاعل ودون توقف ولساعات طويلة وحتى اليوم ومن حين لآخر أثناء فصل الشتاء تتجمع غيوم كثيفة وتتفجر بالبرق فوق هضبة جرداء تقريباً، حيث تبدأ السيول الجارفة بالجريان في الأخاديد ومجاري السيول فتجرف معها الإنسان والبهائم.

لا يوجد في مكان آخر على وجه الأرض يجمع كل هذا التناقض الغريب في الطقس ولا يشبهه إلا مكان واحد هو في منطقة البحر الميت الذي يجمع بين الرطوبة العالية للبحر والجفاف القاسي القادم من الجبال المحيطة بالبحر كالبرج فوق غور الأردن في عمق الأرض الفلسطينية.

ولكن الحرارة أقل قساوة عند غور الأردن من تلك التي على الساحل المرجاني للحجاز.

إن الإنسان في بلد كهذه قد اعتاد على الجو غير المألوف وكثرة التقلبات المناخية فأستنبط وسائل تلائم هذه التقلبات الطبيعية فأخترع أو أستورد ما يحتاج لذلك. وبعدها أصبح عبداً للآلهة والطقوس الوثنية، كان ذلك قبل أن تصبح مكة مكاناً مأهولاً ومستقراً على طريق القوافل. وكانت مثل أختها الطائف محطة على طريق على كتف الهضبة مكاناً مقدساً ومعبداً.

ذكر المؤلف العربي الأزرقي وهو واحد من كثير من الكتاب الذين تناولوا نفس الموضوع، وهو عن أسطورة مكة المكان المقدس منذ ما قبل الجاهلية الأولى.

حدث في سالف الأيام أن قافلة لبني جرهم كانت قادمة من الجنوب فلاحظ أصحابها وجود نبع ماء حيث لم يكونوا يعلمون بوجودها من قبل في ذلك المكان، فتوقفت القافلة وترجل رجلين للتحقق من الموضوع. وقد رأوا امرأة وطفلاً ذكراً بجانبها. قالت لهم بأن اسمها هاجر وأن النبع لهما هي وابنها. وقد أناخ هؤلاء القوم عندها بعدما سمحت لهم بذلك وقاموا بنشر خيامهم حول ذلك الماء ومنذ ذلك الوقت بدأوا باستعمال البئر وكان اسم ذلك البئر زمزم وأصبح بعد ذلك جزءاً من الحرم المكي.

ونشأ اسماعيل ابن هاجر في قوم بني جرهم وهي قبيلة نزحت من جنوب الجزيرة العربية، وتزوج بامرأة منهم وكان يعتاش من الصيد. وحضر إبراهيم من الشام ليبحث عن زوجته وابنه حيث وصل بينما كان اسماعيل خارجاً للصيد، وبما أنه قد استقبل استقبالاً فاتراً من قبل المرأة ترك لديها رسالة، وهي

أن تخبر زوجها اسماعيل بأن عتبة بيته لم تعجبه وهو سيفهم عليه بعد ذلك، وهكذا فقد تزوج اسماعيل بامرأة أخرى بدل الأولى من بني جرهم وفرح إبراهيم لذلك لأنه عندما حضر للمرة الثالثة وجد اسماعيل يشحذ نباله قرب البئر. قال له إبراهيم حتى يرضى الله عنا يجب أن نبني له بيتاً، وقد اختار مكاناً مرتفعاً بالقر.

«تُبع أسد الحميري» كان شخصية تاريخية مهمة وملكاً من ملوك اليمن وقومه قد اعتنقوا الديانة اليهودية وقد تبنى أحفاده بعد ذلك هذا البيت بالرعاية وعملوا له باباً وأقفالاً، وقد جلب الملاك جبريل هذا الحجر من فوق جبل قبيس القائم فوق مكة مباشرة وكان حينها يلمع ويشع وقد أصبح أسود فيما بعد وذلك أثناء عصر الجاهلية حين اشتعلت نار عندما حاولت إحدى النساء تقديم البخور في ذلك المكان قرب الحجر. أما قبيلة قريش أحفاد بني جرهم في مكة أعادوا بناء البيت وكانت حيطانه مغطاة بالجلود ولكن بعد ذلك عندما كان الحجاج الأغنياء يأتون للحج كانوا يقدمون ثيابهم الحريرية عند صباح التضحية إلى حراس البيت الذين يقومون بعمل غطاء لحيطان البيت من تلك الأقمشة.

ويروي أبو الفداء أنه كان هناك صنم لإبراهيم في مكة وكذلك كانت تروى روايات أخرى عديدة عن قصة إبراهيم في مكة ولكن القصة الحقيقية هي التي تليت آنفاً وهي لب الروايات جميعاً.

أما المقدسي فإنه ينسب أحداث الرواية إلى أيام بني جرهم حيث أنه أصبح عادة لدى القبائل والمسافرين أن يتنقلوا ويحملون معهم قطع من ذلك الحجر الأسود الموجود في بيت الله الذي بناه إبراهيم وذلك حيث تعودوا من قبل على الطواف حوله بإجلال وخشوع وبعد هذا التعود تحولوا شيئاً فشيئاً إلى عبادة الحجر وهكذا فقد سمح بعمل الأصنام بعد ذلك فعبدوا الأصنام وهذا كان حسب رواية المقدسي.

كان رجال القبائل والمسافرين العابرين والقوافل يتركون أو يؤسسون عند الكعبة شيئاً من عباداتهم وآلهتهم حتى أصبحت الكعبة محجاً لكل الناس.

أما في اليمن ونجران فقد اعتنقوا الديانة اليهودية.ولا يزال اليهود هناك حتى يومنا هذا، وكذلك في خيبر والمدينة في منطقة الحجاز إلى شمال وجنوب مكة. أما المسيحية فقد اعتنقها بعض عشائر ربيعة في شرق الجزيرة العربية وفي الحقبة المتأخرة قام الأحباش بإدخالها إلى اليمن. ولكن معظم القبائل وكثير من سكان الواحات في قلب الجزيرة العربية كانوا قد بدأوا بعبادة إله القمر اللطيف «ود» وتعني حب، وكان أفضل الآلهة لديهم ومفضل حتى على إله الشمس عندهم. وحتى عند بعض البدو الرحل وحتى يومنا هذا يعتقدون بأن القمر هو المسيّر لأمورهم وهو الذي يكثف بخار الماء ويتسبب بوجود الندى على العشب ويرسل المطر بواسطة الثريا أو أي مجموعة كواكب أخرى مثل بنات أطلس، ولكن ومن ناحية أخرى فإن إلهة الشمس المؤنثة وهي المسؤولة عن الزراعة وتحب أن تقضي على البدو وعلى كل الحيوانات وهي قاسية وفظة. وهكذا فإن كنانة أجداد قبيلة قريش في مكة قد عبدوا القمر إله النور بينما عبدت قبائل لخم وجرهم المشتري وبني أسد عطارد أو كما عبدت طيء آخرين مثل سهيل والشعرى، وهناك البعض الآخر الذين اعتقدوا بأن الموت هو نهاية المطاف والبعض الآخر اعتقد بأن هناك قيامة بعد الموت وأن الروح تطير على شكل طائر وكانوا يسمونها صعدا وهو يأتي مرفرفاً ومتقلباً في الهواء فوق القبر وحوله ومعه طيف يبكي ويخبر الميت بكل ما فعله أولاده من بعده.

ولكن ومنذ زمن بعيد، كان العرب تقريباً قد آمنوا بفكرة أن الله هو الإله الوحيد المسيطر وقد يؤمنون بأن هناك من يشاركه الألوهية ويتوسلون بهم عنده.

«وكان أول مواطن أوروبي وصف ساحل البحر الأحمر وأورد ذكر قدسية مكة هو ديودورس[1] الصقلي إذ يقول: «يوجد على هذا الساحل عدة موانىء وذلك لتعدد جباله التي تمتد بمحاذاته وتُرى أثناء الإبحار فكيفما وجهت نظرك

(١) ديودورس الصقلي توفي سنة ٥٧ ميلادية.

تجاه الساحل تشاهد صوراً بديعة ذات ألوان مختلفة خلابة تبعث البهجة والسرور في نفس المسافرين أن رأس العنيتس المقبل يحيهم وينبئهم بأن يتقدموا لمشاهدة الساحل المليء بالقرى والمدن المسكونة بالعرب ويطلق عليهم اسم النبطيين. وهم يملكون بلداً شاسعاً على طول الساحل ولمسافات طويلة داخل الأرض اليابسة وهي أراض معروفة وغنية بالمواشي والقطعان. ولقد عاشوا فترة تحت حكم عادل وأمان وكانوا راضين بمعيشتهم بما يردهم من قطعانهم وزراعتهم، ولكن بعد فترة من الزمن سمح ملوك الإسكندرية للتجار بالإبحار في البحر الأحمر فسرقوهم كل ما يحملون ولم يكتفوا بذلك بل بدأوا يستخدمون زوارق وعملوا أعمال القراصنة فأتلفوا كل ما تحمله السفن. ولكن في نهاية الأمر هزموا في معركة بحرية مع بعض السفن الشراعية التي أرسلت لحربهم وعوقبوا بنفس الأسلوب السيء».

وبعد الإنتهاء من تلك المنطقة الساحلية تأتي منطقة من السهول الريفية وهي غنية بالمراعي وتنتج كثيراً من أزهار اللوتس وهي بارتفاع قامة الرجل واستطرد ديودورس الكلام عن الشعب المتوطن لأقاصي الجنوب ويقال لهم الشعب البيزوميني ويعيشون على الحيوانات البرية التي يصطادونها وهنا يوجد معبد للتضحية له مكانة مرموقة عند العرب.

يقول هيرودتس إن العرب عبدوا العزى واللات أما الأول فهو نظير باخوس والآخر هو أورانيا والعزى هو الإله الواحد كما يسمى عند العرب أما اللات فهي الإله الأنثى والتي كان مركزها في الطائف على كتف الهضبة العربية وليست بعيدة عن شرق مكة. وهو يصف الإرتباط بالقسم أو ارتباط اثنين من العرب عندما يتعاهدون. ولا تزال تلك العادة متداولة بين القبائل حتى اليوم، فعندما يتعاهد اثنان على الصداقة فإنهما يقسمان على ذلك حيث يقف كل منهما إلى جانبي رجل ثالث بينهما حيث يقوم هذا الأخير بعمل جرح بخنجر حاد في معصميهما من الباطن وتحت الإصبع الأوسط تماماً ويأخذ قطعة قماش من لباسيهما ويغمسها بدمهما ويبلل بها سبعة حجارة بينهما ويذكرون في كل لحظة اسم باخوس وأورانيا أو العزى واللات.

والعرب يحفظون العهد من الناحية الإيمانية أكثر من أي شعب آخر ويضيف هيرودتس أنه إذا عدنا إلى مكة لوجدنا أن طريقة القسم تلزم المتعاهدين إلزاماً مضاعفاً عنه في بلد آخر.

هذه بعض اللمحات الخاطفة عن مكة وطريقة العبادة في الجزيرة العربية في تلك الأيام الغابرة.

وقد سمى بطليموس مكة المكرمة ـ ماكورابا ـ وهي كلمة تعني المقدسة بلغة أهل سبأ العرب. والذين سيطروا على جنوب الجزيرة العربية وعلى التجارة العربية خلال الألف الأخير قبل الميلاد.

ولقد كان الناس يحجون إلى مكة في وقت محدد في فصل الخريف باتفاق متبادل وكانت الحرب ممنوعة في أثنائها آنذاك وكانت الأسماء العربية للأشهر متداولة قبل الإسلام والدليل أن أحد هذه الأشهر يدعى محرم دليل على حرمة القتال وكانت الأشهر المتداولة محددة بالنسبة للأشهر الشمسية وذلك بإضافة بعض الأيام في وقت محدد من السنة وهذا النظام ألغي بعد الإسلام.

وعند الوصول إلى بيت الله أو الكعبة في مكة فإن الحجاج يخلعون ملابسهم تعبيراً عن التواضع ويطوفون حولها ويقبلون الحجر الأسود ويهرولون بين تلال الصفا والمروة ويرمون الحجارة عند منى ثم يقومون بالتضحية تماماً كما يفعلون اليوم من شعائر.

وعندما أقر الرسول تطبيق هذه الشعائر وأنها متطابقة مع مبادىء الإسلام أوجب ممارسة هذه الشعائر وهم مرتدون لملابسهم وهو اللباس المعهود للإحرام. وعندما تكلم عن العادات الوثنية السيئة باستخفاف كيف أنهم يصفقون بأيديهم ويصفرون من خلال أصابعهم أوجب الصلاة التي هي طريقة مختلفة عن ذلك وموحدة لدى الجميع. ولم تزل حتى أيام الرسول إذ استمروا يأتون الكعبة عند الفجر عراة لأداء طقوس العبادة لطلب المغفرة حتى يصلوا إلى الحائط المغطى بالجلود حيث تنتهي الشعائر بفرحة وابتهاج تحت أشعة الشمس.

واليوم لا تزال العادة نفسها فكل من يزمع القيام بواجب الحج فهو يحج بقصد غسل ما علق به من ذنوب.

وبينما كان النبي محمد (ص) ينبه الناس إلى طرق العبادة فقد فند فصل الحج كركن أساسي من الأركان الخمسة للإسلام أما الأربعة الآخرين فهم الصلاة الطهارة (التوحيد) الزكاة الصيام، وقد ذكر القرآن بخصوص الحج:

﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله غني عن العالمين﴾ [آل عمران: ٩٦].

ولقد تابع القرآن في السورة التاسعة الآية رقم ٢٨:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [سورة التوبة: ٢٨].

والسنة المذكورة هي الثامنة للهجرة أو السنة الإسلامية وهي تقابل سنة ٦٢٩ ميلادية ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مكة محرمة على كل الناس ما عدا المسلمين.

وقبل نزول الوحي على النبي محمد (ص) كان مسموحاً لكل الناس مهما كان اعتقادهم الديني ما عدا النساء فإنها لم تكن لتزور الكعبة أيام الجاهلية، ولم يكن إحجامهن عن ذلك غالباً لحق يتمسكن به ولكن لشعور بعدم ملائمتهم ربما للدخول إلى حضرة الآلهة وطلب الإسترحام، وذلك لأن الإستغفار من الذنب أمام الآلهة هو مغامرة ذكورية مثل الصيد والسفر.

ولم تكن المرأة أيام الجاهلية ملاصقة للزوج أو السيد وكما كان يسمى في القديم بعل أو الزوج أو الرب وهذه التسمية شاع استعمالها كثيراً في الجزيرة العربية ما قبل الإسلام بقليل. وحتى بعد أن أصبحت المرأة مسلمة فإن النظام القديم للمرأة والأكثر تحرراً ما زال سارياً كما في السابق، فبقيت المرأة ضمن القبيلة مع شعبها واحتضنت الأطفال والذين أصبحوا جزءاً من مثلها الأعلى وكونت معهم وحدة مؤقتة تستطيع حلها إرادياً متى شاءت. أما في

عصر الإسلام فأصبح ينظر إلى هذا النوع وبالتدريج على أنه شيء معيب والمرأة التي تفعل ذلك ينظر إليها على أنها مومس أو أن هذا النوع من النساء لا يتواجد إلا في قبيلة وضيعة، أما المرأة المكية والتي من أرومة صافية قد أصبحت تعتز بطهارتها وعفتها، ولذلك فإن القيود التي فرضتها في الأساس على الأسيرة أو العبدة قد تقبلتها الزوجة نفسها بعد ذلك واعتبرتها تلقائياً حالة مشرفة وهذا التغير يعزى إلى التأثيرات الأجنبية كعادات أهل الشمال والعالم ما وراء الجزيرة العربية والقول المأثور «الولد للفراش» والذي ما يزال تأثيره يمتد منذ ذلك الوقت وينتشر خصوصاً في مجتمعات الشيعة العرب وعلى الأرجح بين معظم الشيعة الآخرين أيضاً مهما كان انتمائهم العنصري وهو ما يعرف باسم المتعة وهو ما يسمح به للرجل بالزواج لفترة محددة وغالباً ما يطبقها الحجاج والرحالة المسافرين والقوافل أو كل رجل لا تسافر معه زوجة.

ومهما كان هذا الزواج القديم يبدو لنا اليوم غريباً فإنه قد استمر تطبيقه لقرون عديدة وتحت رايته ولدت الفروسية والشهامة ونسخها الغرب عنهم، واللافت أن هذه الطريقة المتحدرة من طريقة «زواج بعل» وحيث الرجل هو السيد أو الرب، أتت فكرة نظام الجواري وعندما نأسف لذكر هذا النظام فإنه من المفروض أن لا ننس أنه نظام دخيل وغريب لفكرة الزواج ويبين لنا باستمراريته مع الوقت غير مرض كنظام زواج وأنه في النهاية ليس النظام المطلوب للحياة وإنجاب وتربية الأطفال تربية جيدة، وعلى أية حال فإن وجود المرأة داخل أسرتها وقبيلتها تعتبر حالة مؤقتة وهي حيث تولد الشهامة.

لقد تغنى الشعراء العرب قبل الإسلام بالليالي الماجنة لمغامراتهم وذلك قبل الإسلام وفي الأيام الخوالي حيث لم يكن نظام الجواري قد وجد بعد. وعلى الأرجح أكثر مما حدث بعد ذلك بكثير حيث كانت هناك قصص حكمة بعد ظهور الإسلام مباشرة وقصص فكاهية ونساء جميلات لعبن دورهن في حياة الأجيال بحرية وربما حكمن مدناً أو ولايات.

إن القدسية التي هي في الأساس جوهر الفروسية والشهامة لم تكن حكراً على مكة في أي يوم كما أصبحت هذه الأيام حيث أن الرجل يعطى حسب

مقدرته لأخيه وحسب طاقته ويحميه عند الحاجة وخصوصاً أن الشرف ركن أساسي في الإلتزام والعهد وقد يفرط الإنسان بمستقبله وحياته لقاء ذلك حتى ولو كان الرجل غريباً ولا يستحق هذه التضحية طالما أن كلمة وعد قيلت فهي مقدسة.

وكل شيخ قبيلة يمنح حمايته بناءً على هذا المبدأ حتى لحالة غير عادلة أحياناً فإن شيخ القبيلة يمنح الحماية لثلاثة أيام فقط وقد يبذل قصارى جهده لمساعدة الهارب في الإفلات من العقاب المقدس مع وجود فرصة لا بأس بها تجعل العقاب مخففاً.

وكل نبيل (شيخ) منهم يجعل مجلسه من خيمة ذات جلد أحمر وبشكل مستدير دليلاً على شهامته.

إن المسكن التقليدي والحماية الصادقة لمن يلجأ وكرم الضيافة وحيث من المحتمل وجود بعض قطع من حجارة الكعبة أو بعض الأجزاء المقدسة يحتفظون بها تقديساً لها.

إن الجمل الذي يحمل البدو الرحل في صحراء الشام ربما يكون متحدراً من الجمل ذي الجلد الأحمر الذي كانت تستخدمه القبائل العربية الوثنية في الجزيرة العربية. وكان نبلاء قبيلة قريش هم أحفاد بني جرهم هم أسياد مكة والذين لعبوا دوراً كبيراً في إثبات وترسيخ هذه السيادة والشهامة حول حياتهم.

ولقد كانت هذه العادات العربية هي المميزة من بين جميع الحجاج الذين كانوا يأمون الكعبة سنوياً مشياً على الأقدام وابتدأت بطانة ناعمة بالتجمع شيئاً فشيئاً من الحشود الوافدة وتزداد من منطقة لمنطقة ومن قبيلة لقبيلة وبدأت مكة تستوعب الزملاء الجدد وكانوا يأملون أن تغفر ذنوبهم وهي بالمداومة على الشعائر الدينية المستمرة في المكان المقدس العظيم.

والناس الذين لا يقترفون الذنوب وهم الذين لا مسؤولية أخلاقية عندهم ومتواجدين في الصحراء فأصبحوا يأتون سنوياً وهم مخلصون لهذا التجمع

الحافل لطلب المغفرة من ذنوب الدنيا وأعبائها وهو بالمشي عراة أمام الآلهة وتقبيل ما يستحق التقبيل، وكان شعورهم أنهم كلما أشعلوا البخور بتأنق أفضل لهم وبما أن أشكال الآلهة كانت مختلفة وكانت تعابيرهم واسعة المضمون فكان من الواجب إيجاد أعمال ترضيهم وتفرحهم جميعاً.

كان موسم الحج عادة في فصل الخريف وعندما اضطر البدو لإرسال قوافلهم إلى الأسواق ليمونوا ترحالهم في الشتاء وذلك في البحث عن عشب وهذا كان بالنسبة لكل بدو وسط الجزيرة العربية.

وكان هناك سوق سنوي يعقد في عكاظ في مكان بين مكة والطائف وعلى بعد خطوات قليلة من هذه الأخيرة في واحة من النخيل. وهنا انحرفوا قبل الوصول إلى الحج إلى مكان إلقاء القصائد الشعرية حيث أتى تجار السهول من الوادي الفقير ومن وادي مُر شمال مكة وأيضاً من حقول الطائف نفسها ومن ميناء الشعيبة وهو نفس مكان ميناء جدة حالياً. ولم تكن هناك روايات دينية في سوق عكاظ ولم تكن هذه السوق لتجمع العشائر والتجار للتجارة قد جعلت الدين شيئاً مميزاً ومهماً بالنسبة لهم أو جعلت معبداً وميناءً للآلهة في مكة والطائف. ومع ذلك فإن البحث عن أسباب غير تلك المذكورة في الأساطير العربية عن استخدام مكة كمدينة مقدسة لا يجد حقيقة مادية ملموسة تدعمها.

إن في الأساطير العربية لب الحقيقة وغالباً ما تكون الحقيقة مغلفة بتحليلات لها الطابع الشخصي الساذج أو ملمعة بالإختراعات لتغطي على ما قد يبدو كريهاً أو غير مفهوم لدى الأجيال المقبلة.

عندما تفتح تاريخ مكة تجد أنها كانت معبداً وثنياً ومركزاً مقدساً وسكناً مؤقتاً وكان الإنسان يخاف من البناء ويُمنع من قطع الأشجار كيلا يكون مذنباً بأن دنس قدسيتها.

وتبدأ المرحلة الثانية من القرن الخامس الميلادي وذلك منذ استقرار تجار من جنوب الجزيرة العربية ومنذ ذلك الحين ابتدأت مكة بالظهور كمركز تجاري كبير بل وأهم مركز تجاري في الجزيرة العربية وظلت كذلك حتى قيام النبي

محمد (ص) بنشر الدعوة الإسلامية أي حتى منتصف القرن السابع للميلاد وكانت حينها قد مرت بمئتي سنة من الخبرة التجارية والشهرة ولم يحدث إلا في السنوات الأخيرة من تلك الفترة أن بدأت القوافل العربية بالذهاب باتجاه الغرب محملة بغنى الشرق والغرب الذي هو في آخر لائحة المنتظرين بحيث ينتظر أخيراً أمراء وتجار الأمبراطورية البيزنطية بفارغ الصبر كما انتظر الذين من قبلهم في روما وفي اليونان وفي مصر القديمة وكذلك في بابل.

وفي هذه الحقبة الأخيرة من ذلك الوقت كانت تحركات أهل مكة محكومة بتحركات تجار عدن في جنوب الجزيرة العربية حيث أن هؤلاء الأخيرون قد فقدوا مركزهم كوسطاء محتكرين مع الهند بالإضافة إلى تراجع تجارة البخور والطيب وكذلك إحجام الغرب عن التجارة مع بلد لا تحتاج إلى استيراد بضائع في المقابل. وكان الغرب مع ذلك لا يزال في حاجة إلى الذهب العربي والجلود للمحاربين. وكذلك المعاطف اللازمة لركوب الخيل وتجهيزها. أضف إلى ذلك الجمال التي كانت المفوضية العليا للدولة البيزنطية في شمال أفريقيا تستخدمها هناك ولها الفضل بإدخالها إلى تلك المنطقة. وفي وسط منطقة الحجاز حيث مقر التجارة الأساسي للجزيرة العربية وكل ما تبقى لهم من تجارة الجنوب منطقة واسعة يجب تنظيم تجارتها. وعلى كل حال فإن الحبشة من خلفهم مملكة اكسوم التي كانت تقترب أكثر فأكثر وخصوصاً عندما عبروا البحر الأحمر. وكان هؤلاء المستوطنون الجدد إما غير واعين لمصيرهم المقبل كتجار قوافل مع الغرب أو ربما واعين فيصبح الأمر واضحاً وملحاً لهم لأن يعيدوا تنظيم قوافلهم بطريقة أكثر دقة وذكاءً وقدرة. ولم تكن صعوبات الطريق أخطر عليهم من غيرهم فقد وضعوا قوافلهم تحت إمرة رجالهم من الذين كانوا على صلة بالبدو ذوي العلاقات الحميمة بمشايخ القبائل.

ولكي يضمنوا مرور هذه القوافل بسلام فقد تعرف هؤلاء الرجال على شاكلة الشركات الضامنة إلى حد ما وهؤلاء البدو الذين سيفقدون مصداقيتهم وشهامتهم إذا ما هوجمت هذه القوافل وغير مستعدين لفقد أيمانهم التي قطعوها على أنفسهم ويتركون القوافل معرضة لأي خطر.

أما حراس هذه القوافل فكانوا أشخاصاً من الأحباش السود معينين من قبل التجار لحراسة هذه القوافل كما يعين أغنياء مكة حراساً من الأحباش السود في حي البتة في بيوتهم أيضاً. إن مكة أصبحت تلك الأيام جنة للمغامرين العسكريين ولسكان الجبال الأحباش وكأنهم الحراس السويسريين لشبه الجزيرة. ولقد نظمت قصائد شعرية فيهم وسموا «الغربان العرب» أو مثل «منتصب كالرمح في اليد دون حراك» وقد كتب ابن دبا الشاعر ما معناه «ألوف الجنود السود كالرعد في السماء تصم آذان الخيول وتبعد الأعادي» «شياطين لا تحصى كحبات الرمل في زوبعة».

وآخر يقول بتهكم عن تجار مكة: «ذوي الأكتاف المربعة السوداء ترسلها كفيلق ينوب عنك»، ولكن هؤلاء ليسوا مثل الأحباش بل كانوا من العبيد الأفارقة أحضروا إلى الجزيرة العربية ولم يكونوا من الحبشة بل من بلاد العاج والعبيد.

لقد حدد ممولي القوافل الرسوم على حمولة القوافل بحدود ١٠٠٪ ولكن وبما أن القافلة قد تغيب عدة شهور ولأنهم يتوقفون مراراً وتكراراً في الطريق وقد يضيعون الكثير فإن هذه الرسوم ليست غالية كما يتبادر إلى الذهن لأول مرة. ولكي يضمنوا سلامتهم فإنهم لم يكونوا يحملون كميات ضخمة من البضائع. وهؤلاء الممولين لا غنى عنهم في أي وقت، وخصوصاً عند نهاية كل رحلة هنا أو هناك.

وهكذا فإن كل ممول مكي كان له وكيل صحراوي ربما شامي يوناني مثل وكيل وشريك الممول المكي الكبير والمعروف ابن جدعان أو أبناء أوليس المهرة. أو مثل وكلاء الشحن الذين نراهم كل يوم هذه الأيام في البحر الأحمر والبحر المتوسط. وبالتأكيد هذه الأيام وفي كل مكان أيضاً. ولقد كان هناك مستعمرات في مكة من كل البلاد المجاورة تقريباً. يهود ـ ومسيحيين كانوا يدخلون ويخرجون بحرية إلى مكة.

في موسم الصيف كانت القوافل تسافر إلى الشام وفي الشتاء إلى اليمن.

ولا يمكن اليوم تصور الإنبهار الذي بعثته القوافل العربية وبضائعها والاشتياق الشديد لوصول هذه البضائع سنوياً من التبر والعطور والتوابل والعبيد السود والجلود أو العاج والصبر والصمغ.

وعند مدينة تدمر كان هناك موقع مهم قد أُنشأ هناك كعلامة فارقة وعلم بالنسبة للقوافل العربية وأصحابها فعندما تقترب القافلة من الموقع فإنه يبعث برسول للإبلاغ عن قرب وصول قافلته فإذا ما كان الوصول سالماً معافاً فسوف يستقبل بقرع الطبول المتواصل احتفاءً بقدوم القافلة ناجية من الجزيرة العربية وكأنها عادت إلى الحياة من بعد الموت.

هكذا يحدث عادة، أما إذا كانت الأخبار سيئة وحزينة فإن المبلغ عن القافلة في محاولة يائسة لمعاقبة نفسه فإنه يقطع آذان جمله حتى تقطر دماً ويمزق ثيابه من الأمام والخلف ثم يقلب سرج بعيره وعندما يصل إلى المدينة فإنه يبدأ بالصراخ مرات عدة «أنا الوكيل قد خسرت كل شيء يا لفقري يا للشيطان خسرت كل شيء». والتاجر الذكي في المدينة يضيع هنا وهناك يخبىء بضاعته ويستفيد بدون أدنى شك فيعد أرباحه بابتهاج كلما ارتفعت الأسعار. ولكنها أخبار سيئة يهمس بها العبيد السمر من بيزنطة ومصر.

«سترابو» المؤرخ الروماني للجزء غير المكتمل من الجزيرة العربية في سنة ٢٤ قبل الميلاد. لقد رأى عند مدينة البتراء سنة ٢٤ قبل الميلاد قافلة عربية تشبه جيشاً جراراً. وكذلك روى الطبري حكاية عن قافلة بألفي جمل وفي ذلك الزمان كانوا يدخلون الأرض البيزنطية عند العقبة عند خليج العقبة حيث كان هناك محطة للفيلق العاشر خلال الإحتلال الروماني للنبطيين العرب منذ سنة ١٠٥ ميلادية حيث كانت توجد ثكنات عسكرية عند ميناء الهوارة وهو ميناء تابع للمدينة وما زالت آثاره موجودة حتى اليوم. وكانت العقبة حينها مدينة حدودية بيزنطية مهمة ومركزاً أسقفياً حيث كانت قطعانه ترعى لمسافة بعيدة. وكان هناك أديرة ونساك في وادي القرى والتي كانت تمر عبرها القوافل وكان [illegible]

التجار أو البدو لا فرق. وكانوا يقدمون لهم الشراب من آبارهم وكذلك الخمر بينما كانت القناديل تضاء طول الليل عند هذه الأديرة حيث يبقى النساك ساهرين وهذه الأضواء ترشد وتشجع العابرين.

قرب أيلة وسابقاً قرب البتراء نفسها كانت القوافل تنقسم كل حسب وجهتها فالذين يقصدون دمشق يتجهون نحو الشمال، بصرى، مزار في حوران والذين يقصدون غزة يذهبون غرباً. وعند دمشق وغزة تناخ الجمال لتفريغ حمولتها فتتنفس الإبل الصعداء من عناء المشقة، وذلك أنهم أطاعوا الإنسان للمرة الخامسة منذ الخروج من مكة ولكن هذا الركوع على الأرض لن يستمر لفترة طويلة والحمولة القادمة ستعود بهم إلى الجزيرة العربية ستكون من زيت الزيتون والحبوب والخمر والسلاح والدروع. إن المسلحين الأحباش ذوي العضلات المفتولة والعبيد السود والمرتزقة والتجار المغامرون. وصفهم كاتب إغريقي يصف عرساً: بدو سمر لونتهم أشعة الشمس كانوا جاهزين جميعاً للإنطلاق برحلة داخل أرض المعاناة والمشقة والوحدة والشاعرية، وفي أول يوم من أيام السفر كان لمدة ساعة أو ساعتين فقط وذلك حتى يتمكن المتأخرون من اللحاق بنا وحتى تعاد الأشياء المفقودة لأصحابها. ولنفس الأسباب فإنهم اعتادوا السفر أثناء الليل المقمر حتى يتمكن المسافرون والجنود من التعرف على مجموعاتهم ويعيدون ربط وترتيب رزمهم وصررهم فيربطون الحبال أو يبدلونها لتحزيم البضاعة، وهكذا فإنهم أثناء ضوء القمر يتعرفون على أصحابهم وكل ما يعنيهم من أعمال يقومون بها بعيداً عن أعين الفضوليين من المسافرين وخصوصاً في أول مراحل السفر. وهذا ما كان يحدث في ذلك الزمان السحيق وهو نفس النظام الذي سيتبعه أحفادهم بعد ذلك أثناء السفر بقصد الحج أو مع تجار أقل شاعرية وفي صحراء أخرى وذلك بعد ألف سنة من ذلك التاريخ.

وعند مكة كان الممولين الأذكياء والمستغلين للفرص ينتظرون فرصهم. ومن حولهم نمت مستعمرات غريبة يهودية ومسيحية ووثنية أيضاً، وكانوا جميعاً أحراراً في القدوم والذهاب من وإلى مكة بحيث أن مكة تحولت من

مزار صغير إلى حاضرة، وبالإضافة إلى سيادة منذ الولادة ونبالة في حكم العشيرة فقد تولد من أهل مكة نبلاء في التجارة يزيدهم نبالة السيادة الموروثة على المكان المقدس.

إن مجلساً من كبار السن مختار من بين نبلاء مكة الأساسيين وهم الذين وضعوا قانون العادات والتقاليد ولكن هذه الإمتيازات جعلت هناك نظرة حسد من الآخرين تجاه هذه الطبقة النبيلة. ولأن الطبيعة ذاتها قد فرضت عليهم نوعاً من الديمقراطية والمساواة وعلى معيشة أجدادهم الصحراوية القاسية مقابل بقائهم على قيد الحياة.

إن كرم الضيافة يعادل نصف كلفة حياتهم ومعيشتهم، إن فهمهم لكل حق من حقوق الآخرين في الماء للخدمات الخاصة بهم عند الحاجة بصرف النظر عن حاجة الماشية والخيول أيضاً.

وبالإضافة إلى كل ما سلف، فإن الحرم المقدس يبدو وكأنه يقودهم إلى فضائل في التصرفات وحرص في الكلام لا مثيل له وهو يقودهم من عمق المعيشة الصحراوية في العيش على الهامش الضيق بينهم وبين الموت ومنحهم القيمة من قبل ظهور الإسلام.

ولهذا فإن تحطيم تلك العادات القديمة كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لهم وإن ذلك كان يعني بالنسبة لهم تحطيم قوانين الحياة والطبيعة نفسها.

ومرة أخرى أيضاً وأيضاً حالات من الذل المبرمج بدقة من الغيرة والحماسة المكية العربية والتي لو حكموا ربع العالم المتحضر لركبوا وسادة مع مرافقهم أو برجال مسلحين ليأخذوا لهم ولاء الطاعة من جيش أو في مدينة بكامل سكانها، والذين بدورهم يتفرغون لاستقبال السفراء بلباسهم الصحراوي الخفيف وفي غالب الأحيان وهم جلوس على الأرض. وينادون على رجالهم بالإسم كي يؤدوا فريضة الصلاة، ويقومون بعمل أسوار غير مزخرفة من الخارج وممرات تؤدي إلى بيوتهم. وبهذا الشكل من التواضع سوف يمتصون حقد الغاضبين ويظهرون بزي عادي كل يوم. وهكذا كانت العادة الديمقراطية

لدى الحاكم الوثني والوصي على حكم قبيلة قريش وحلفائها بعد ذلك، الخلفاء المسلمون في المدينة الذين مارسوا سلطاتهم بكل تواضع وكانت تجدد لهم البيعة كل موسم حج من كل عام بشكل خجول ومتواضع.

إن انطلاقهم من تلك البساطة ومن الاختلاف في الرأي إلى إخوانهم في الجزيرة العربية هو ما أدى بعد ذلك إلى الإختلاف بين المسلمين وأعطى مجالاً للتناحر استمر قروناً عديدة وقد كان أحفاد الممولين المكيين القدامى هم من حكموا الشام في القيادة العسكرية الإسلامية وهو الذي دق أول اسفين. ولكن في الجانب الآخر كان هناك أحفاد الأسياد الروحيين للأوصياء على الصرح المقدس والذين استمروا في الحياة.

لا أحد يعلم اليوم أين أصبح أحفاد أبي سفيان الممول الكبير والذي من ذريته خلفاء الأمر الواقع في الشام وقرطبة. ولكن أحفاد الأوصياء في مكة أولاد محمد من نسل الحسن حفيده الأكبر والذي ما يزال الحكم مستمراً بهم.

أمراء بني جرهم

جرهم بن جلا	٧٤ ق.م ـ ٤٤ ق.م
عبد الجليل بن جرهم	٤٤ ق.م ـ ١٤ ق.م
جرهم بن عبد الجليل	١٤ ق.م ـ ١٦ ميلادي
عبد المضاض بن جرهم	١٦م ـ ٤٦م
عبد المسيح بن بقيلة أو (عمرو بن بقيلة)	تاريخ غير مؤكد
مضاض أكبر بن عامر	١٠٦ ـ ١٣٦م
عامر بن مضاض + الحارث بن مضاض	١٣٦ ـ ١٧٠م
عامر بن الحارث[1] + بشر بن الحارث +	١٧٠ ـ ٢٠٦م

مضاض بن أصغر بن عمرو بن مضاض (ابن عم الحاكمين السابقين)

انكسار بني جرهم وطردهم سنة ٢٠٧ :

عبد الجليل ومضاض كانا وثنيين، عبد تعنى المخلص ـ مسيح تعني مسيا.

المصدر: كوسان دي بيرسيغال: مقالة حول تاريخ العرب.

ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر.

---

(١) يؤكد ابن خلدون أن عامر بن الحارث كان رئيس القبيلة ليس من بني جرهم بل من خزاعة الذين خلفوهم. وقد قيل إن عامر بن لحي كان أول رئيس قبيلة من خزاعة بعد أن خلفهم بني جرهم. وإذا كان هو نفسه عامر بن الحارث أم لا فإنه أمر غير مؤكد وقيل بأنه أول من جلب الوثن هُبل من الشام أو من العراق إلى مكة أما الفترة التي تلت حكمه فهي غامضة ولا يعلم عنها الكثير.

الفصل الثاني

الحكام الأوائل
والنبي محمد (ص)

الحكام الأوائل والنبي محمد (ص)

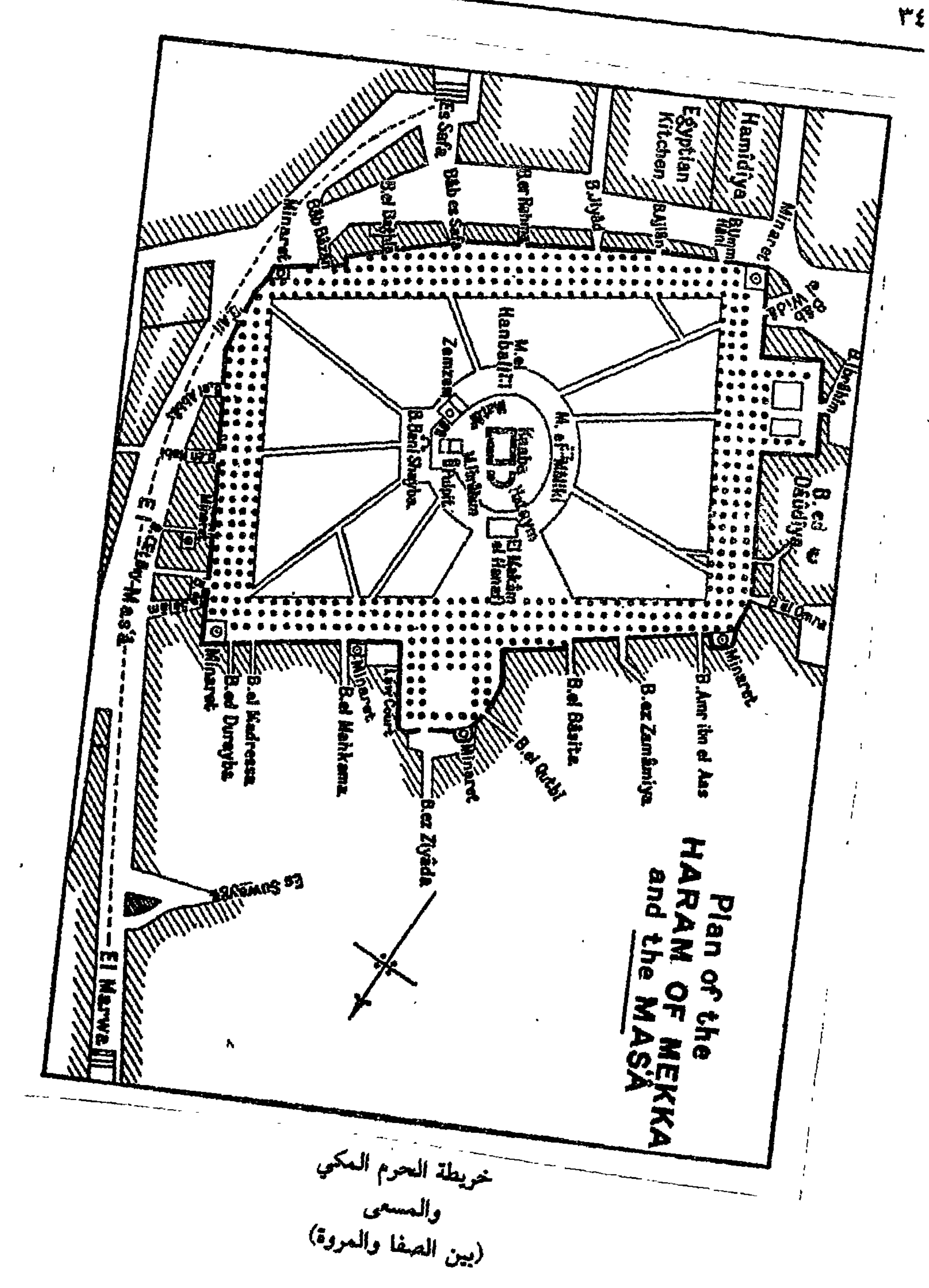
حسب التقليد العشائري المروي شفهياً فإن العرب ينقسمون إلى ثلاثة: العرب العاربة والعرب المتعربة وهم الذين أصبحوا عرباً والثالثة هم العرب المستعربة وهم العرب الذين أحبوا أن يصبحوا عرباً.

أما النوع الأول فهو نوع منقرض، وأما الثاني فهو من عرب اليمن وهم من سلالة قحطان وهو الجد الأكبر للعرب، أما الأخير فهم العرب المستعربة وهم أحفاد إسماعيل ابن إبراهيم والذين عاشوا في الحجاز وبنوا الكعبة في مكة المكرمة.

إن أسياد مكة من قبيلة قريش هم الأحفاد التقليديين للعرب المستعربة أو التي أحبت أن تكون عربية ومن سلالة إسماعيل.

أما بني جرهم فهم أجداد قريش الأصليين والذين تزوج إسماعيل امرأة منهم، كانوا من جنوب الجزيرة العربية، من سلالة قحطان والذين أصبحوا عرباً، وقد سكنوا في مكة بصفتهم أصحاب البئر إلى أن طُردوا عنها بواسطة رئيس قبيلة خزاعة: عمرو بن لحي الحارث سنة ٢٠٧ ميلادية. وهو نتيجة خروجهم من اليمن.

وفي الجزيرة العربية هناك فرق في المظهر والعادات وغالباً كثيرة الوضوح بين الأيام الحاضرة للإسماعيليين والقحطانيين.



خريطة الحرم المكي
والمسعى
(بين الصفا والمروة)

في الجهة الشمالية للجزيرة العربية، الهلال الخصيب وهو الجامع للأردن وسوريا والعراق والذين يعتبرون أنفسهم أحفاد المجموعتين ولكن كما هو متوقع فإن الفوارق لم تعد تظهر جلياً.

إن الإنطباع المأخوذ من القصص العربية أنهم يزخرفون ويحتفظون بالنموذج المتغير جزئياً من التاريخ الخاص بالتقاء نوعين مميزين من الناس ولفترة طويلة من الزمن ومنذ عهد إبراهيم ودعوته التوحيدية حيث وصلت جنوباً حتى الحجاز والتي أحضرت إلى هناك بواسطة القوافل العائدة بعد أن تراجعت قليلاً في بداياتها ولقد اتخذت في البداية جذوراً فقط كي تصبح مرفوضة أو لإضعاف تأثيرها بواسطة الأشخاص الوثنيين الغير إسماعيليين القادمين والعائدين من وإلى الجنوب حيث يقيمون. فيبدو أن بني جرهم كانوا أول الغير إسماعيليين الذين تحولوا فكان نتيجتها أن قُذفوا خارج خيامهم حيث يعيشون.

وخارج مكة نفسها فقد كانت هناك في الحجاز معركة وثنية وإراقة دماء للمرة الثانية ولقد استمرت اليهودية والمسيحية في الشمال والجنوب من الجزيرة العربية حتى عادت الإسماعيلية من جديد وبحلة جديدة إلى الجزيرة العربية وخصوصاً بعد حدوث ضغوط إقتصادية فسيطروا بسرعة وبنجاح مستمر ودائم.

في أيام بني جرهم كان بيت الله أو الكعبة قد بني كما يذكر «الأزرقي» في منطقة مرتفعة حتى يجنبوه الإنجراف بواسطة الفيضان. وبما أن الكعبة الآن في موقع منخفض وأن الحرم قد تعرض لفيضان السيول مرات عديدة وقد يكون الأزرقي صادق أو أن الموقع الأساسي ربما لم يكن هو الموجود حالياً ولقد عاش بني جرهم أنفسهم فوق جبل مرتفع «قيقعان» أي الجانب الغربي للوادي، مع التركيز على نقطة التقاء فوق التلة أو ربما حصن صغير على حافة التلة ربما كان الموضع الأساسي للكعبة ربما يكون نفس موقع الحصن أو القلعة فوق «جبل هندي». وأسفل هذا الموقع طريق يؤدي إلى وادي فاطمة ثم يمتد فيسمى وادي «المر» وبعدها يصل إلى جدة. وفي مقابل موقع الحصن يوجد

جبل قبيس حيث تأسست أو نقلت الكعبة. أما الحجر الأسود الذي أضيف إلى بناء الكعبة وجعلها قديمة العهد مركز في الناحية الشرقية جنوب مدخل أجياد وهو حيث كان يسكن العماليق وبعدها الطريق إلى اليمن. أما المدخل الثالث من صوب الوادي فكان يتجه شمالاً باتجاه جبل عرفات ومكان التضحية. الوادي الضيق الذي يضم بعض الطرقات القليلة كاد يكون ملجأً طبعياً.

والكعبة نفسها عبارة عن مكعب بسيط وكان لها في وقت من الأوقات مكعب منافس في صنعاء باليمن، والحجر الأسود يوجد له ما يشبهه من البتراء بينما كانت الطائف وبعض الأماكن الأخرى لها حجارة معينة ألا وهي التماثيل.

وقد كان هذا المكعب يعاد بناءه من وقت لآخر ويعتنى به أكثر عندما عمل له سقف وباب وغطيت جدرانه بجلود الحيوانات من الخارج. والتي كان يقدمها الحجاج.

وكان بني جرهم هم الموكلون بحراسة الكعبة والذين استبدلوا بالعماليق في سنة ٢٠٧ ميلادية لأسباب غير معروفة بواسطة قبيلة خزاعة والذين في المقابل قد استعيض عنهم هم أنفسهم في سنة ٤٠٠ ميلادية بواسطة كنانة المتحدرة منها قريش وهم الأصول المباشرة لأشراف مكة الحاليين والذين كانوا حراس الكعبة طيلة ألف وخمسمائة سنة. والذين من نسلهم النبي محمد (ص) وأيضاً خلفاء الشام وقرطبة وبغداد والقاهرة وحكام افريقيا واليمن والعراق والأردن وولايات صغيرة أخرى لا تحصى. وهذه القبيلة لا تزال تمتد بفروعها البدوية خارج مكة بالإضافة إلى ما استقر منهم في المدينة والذين يعود إليهم الفضل في العناية بالكعبة وتزيينها وهم أول من توطن في وادي مكة واستقروا به. والقصة المبسطة عن قريش موجودة في كتب الدين.

حكمت خزاعة مكة وحرست الكعبة جيداً وبحنكة وذكاء وبتواضع حافظ على توازن العلاقات بين الناس وهذا يعود إلى عصر قصي بن كلاب بن مرة والذي كان أول فرد من كنانة وصل إلى القيادة وهو الذي وجد قبيلة قريش وقد أعطى اسم «المجمع» أو الموحد مع أنه كان يسمى أيضاً زيد وقد منح اسم قصي لأنه أتى من مكان بعيد. وقد رجعت به أمه الأرملة إلى بيتها في الشام

حيث تزوجت مرة أخرى وعندما شب قصي وتشاجر مع عشيرة زوج أمه. ولما علم بأن عائلة أبيه قد عاشت واستقرت بالقرب من مكان العبادة في مكة شد الرحال إلى هناك حيث وجد استقبالاً حميماً وذلك لأنه قريبهم ولأنه كان ذو أخلاق عالية.

«الرجل النحيل خليل أو حليل بن جيش كان الحاكم الخزاعي الذي تزوج قصي ابنته حُبه أو هيا وقد ولدت له أولاداً عدة وبعدها أصبح غنياً وقوي مركزه وعندما توفي خليل أعطى مفاتيح الكعبة لـ«هيا» والتي وهبتهم بدورها إلى أقاربها من خزاعة بن غبشان وهو كان مدمناً على الخمرة وقد باع المفاتيح إلى قصي لحاجته إلى ثمن قارورة خمر. ولم تكن خزاعة لتجعل مفاتيح الكعبة تذهب من تحت سيطرتها بهذه السهولة التي ضيعها رئيسهم الثمل، وقد حذر قصي قبيلة قريش وعبر عن استيائه من خزاعة وعن عزمه على طردهم من مكة».

إن هذه الرواية تبدو وكأنها تجسد بالإضافة إلى الزيادات الخيالية قصة المستوطنين الجدد الأشداء والذين ينتصرون خلال جيل واحد ويحلون محل قبيلة مهمة وقوية وتمتلك مكاناً مقدساً. وقد توفي قصي نحو سنة ٤٩٠ قبل الميلاد وحتى ذلك الزمان فإن شهرة الكعبة ومنطقتها كانت عظيمة وقد كان متعارفاً عليه بالنسبة للحجاج والحراس أن يخلو منطقة الكعبة عند غروب الشمس وذلك أن أحداً لم يكن ليجرؤ على دفن ميت له في تلك البقعة ولا لأي قبر أن يحفر أو جنازة تمر حول الكعبة. واستطاع قصي من قريش أن يوحد قبيلته وأقنعهم بأنهم يمكنهم البناء قرب الكعبة وقد برر لهم ذلك أنهم بهذا العمل إنما سيكونون محترمين أكثر من بقية الناس ولن يجرؤ أحد من العرب على مهاجمتهم أو نبذهم عن المكان. ويُروى بأنه أول من قطع شجرة. وهو أول من وضع حجراً في ذلك الحرم بقصد بناء مسكن دائم. إذ لولا قيادته هو لما استطاع أحد من قبيلته أن يكون شجاعاً بالقدر المطلوب وكان ذلك حوالى ٤٨٠ ميلادية وقبل ولادة النبي محمد (ص) سنة ٥٧١ وكان مولده في الجيل الخامس بعد قصي.

لقد قام قصي بتحسين الكعبة وغير أماكن التماثيل وأمر بأن توضع داخل الكعبة بعد أن كانت بعيدة عنها. وكان يجمع البضاعة كما كان يجمع شعبه. وقد أسس مجلساً ومكاناً خاصاً للإجتماع وقد سمي فيما بعد بدار الندوة وقد كان أعضاء المجلس جميعاً في الأربعين من العمر كحد أدنى ما عدا أولاد قصي الذين من المحتمل أنهم كانوا ينضمون في الرابعة عشرة من العمر وكانت بيوتهم تحيط بالكعبة من كل الجوانب وأن الأبواب العديدة لمداخل الكعبة من كل جانب في الحرم، هي من بقايا المنافذ التي كان يتركها أبناء قصي بين بيوتهم لدخول الحجاج إلى الحرم لأداء المناسك وكانت الأبواب حوالي (٢٤ باباً).

وقد جمع قصي بين يديه وظائف عديدة متعلقة بقداسة الكعبة بما فيها الحقوق المهمة المتعلقة بالحجابة أو الضيافة السقاية وهي حق تقديم الماء للحجاج ونقيع التمر، والرفادة وهي حق تقديم الطعام للحجاج. الندوة: أو رئاسة المجلس، اللواء: وهو حق إعلان الحرب وجمع أفراد القبيلة وإرسالهم، القيادة: وهو الحق بالإمرة أثناء الحرب.

وقرب مولد قصي كان هناك نزوح للقبائل من جنوب الجزيرة العربية وقد كانت متصلة شعبياً بأحداث خراب سد مأرب في اليمن وكان على أثرها أن نزح بعضهم إلى العراق والبعض الآخر إلى الشام وقد حدث نتيجة ذلك أن زاد النزوح العربي من الجنوب أدى إلى الإستقرار للبعض الآخر في الحبشة. وهكذا فقد كان هناك انتشار للعرق العربي في كل مكان حتى من قبل التمدد الإسلامي. وعند بداية اكسوم والتي ما زالت آثارها الوثنية ظاهرة للعيان حتى اليوم، النواة الأساسية لآخر أثر حبشي يعود إنشاءه إلى القرن الأول الميلادي.

ومن نافل القول أنه سيكون بعد ذلك تأثيرات إقتصادية مباشرة على التجارة العربية في القرن الميلادي الأول يعود إلى اكتشاف الطرق البحرية إلى الهند بواسطة الرومان.

أضف إلى كل ذلك، التراجع المستمر في التجارة العربية والتي وصلت إلى أوج ازدهارها في القرن الرابع الميلادي أي حتى تحطم سد مأرب ووصلت الكارثة أوجها عندما فُقد الأمل في إمكانية إصلاح السد وكان ذلك بين سنة

٥٤٢ و٥٧٠ ميلادية. وقد ألمح القرآن الكريم إلى ذلك. وبعد ذلك فقد ركز الخيال الفكري العربي على حكاية انفجار سد مأرب ليشرح السنوات الطويلة من التراجع والإضمحلال المستمرين في جنوب الجزيرة العربية في الزراعة والمعيشة اليومية أيضاً. والتراجع في حقيقة أمره كان بسبب دخول المراكب الرومانية إلى البحر الأحمر، ثم تأثير الأديان الجديدة في الحياة. أما رواية انهيار سد مأرب المأساة، فهي تاريخ طويل تخللته أسباباً اجتماعية واقتصادية أدت إلى انهيار البنية الإجتماعية لجنوب الجزيرة العربية.

«لهذا فإن ما يبدو تقديراً دقيقاً لخصائص جانبية للأسباب الحقيقية المؤدية إلى الكارثة الإجتماعية حيث أن بعض المؤرخين للحدث أفادوا بأن فأراً أزاح حجراً لم يستطع خمسون رجلاً إزاحته ومع هذا فقد كان هذا هو سبب انهيار السد»[1].

إذن كان هناك ثلاث أزمات مزعجة ودفعت إلى الهجرة وكانت في الأساس خلال القرن الأول الميلادي عندما حدثت فبدت وكأنها هجرة عبر البحار إلى الحبشة بالدرجة الأولى ثم إلى الخليج العربي بالدرجة الثانية. وسوف يقومون بعدها باستعمال السفن والتي لم تعد موضوعة لخدمة التجارة وهذا ما أدى إلى نهاية النظام الإقتصادي القوي في جنوب الجزيرة العربية والذي لا نعلم عنه الكثير.

أما الهجرة الثانية فقد حدثت في منتصف القرن الخامس الميلادي أي نفس الفترة حيث كان قصي وقبيلته قريش قد بدأوا بالظهور واستلام زمام السلطة والسيادة وكان تقدير وإحساس الإنسان بأن الحل الوحيد لأن يستمر في الحياة هو أن يغادر مكانه وينقل مركز تجارته نحو الشمال وذلك من أجل استثمار مصادر عربية أخرى أكثر من الإعتماد على تصدير البخور والبضائع الهندية. أما آخر هجرة حدثت فقد تزامنت مع الإنهيار الأخير للأسواق الأجنبية ومع انتشار الإسلام في القرن السابع الميلادي.

---

(١) تاريخ العرب، فيليب حتي، ص: ٦٤ ـ ٦٥.

إن الغزو والتفوق على الرومان الغربيين بواسطة المسلمين يبدو وكأنه الخلاصة لعدة مراحل ونتيجة لتدخل روما في اقتصاد الحياة العربية قبل ستة قرون من ظهور الإسلام.

إن كلا الأمرين تصحيح الأمور من قبل قصي ثم انتشار الإسلام من زاوية معينة قد يبدو أنه خلاصة الحل في البحث الجدي عن حلول للضغوطات الإقتصادية وكذلك ملاحظة ذوي الخبرة للنجاح المادي لبعض الشعوب الأجنبية الذين كانوا يتاجرون معهم بمشقة. إن الجزيرة العربية بحكامها الوهابيين النهضويين الحديثين وعلى أطراف الجزيرة بما يسمى الحزام الأخضر وسكانها من محبي الحرب المتسامحين وقبل منحة امتياز النفط لم تكن هذه المنطقة سوى عجلة قديمة الصنع تدور ببطء.

إن قصي كان حكيماً في شيخوخته كما كان حكيماً في شبابه وقوته وقد أورث ابنه الأكبر عبد الدار جميع صلاحياته على أمل أن يكون خليفته من بعده ولكن وفاة قصي لم تكن مبكرة بحيث أن أولاده بدأوا يطالبون بميراثهم من حقوق الحجاج، وغالباً ما كان يحدث في تاريخ مكة أن الحاكم كان يتنازل عن الحكم لأحد أبنائه على أمل أن يستمر من بعده وفي غالب الأحيان لم تكن تتحقق هذه الوصية ولكن عبد الدار أفلح في الإحتفاظ ببعض الحقوق ولكن وبعد وفاته فإن أولاده انحرفوا بواسطة أولاد عمومتهم. وكان عبد المناف أكثرهم رجولة وبمساعدة بعض النافذين من قريش انتقلت مفاتيح الكعبة إلى آل شيبة والذين ذكروا في القرآن الكريم على أنهم سدنة الكعبة، والذين ما زالوا يحملون المفاتيح حتى يومنا هذا. وبالمثل فإن عمرو الهاشم ابن عبد المناف حصل على حق السقاية وإطعام الحجاج وكان هو الذي نظم رحلات القوافل في الشتاء إلى الجنوب وفي الصيف إلى الشمال. وهو الذي عمل على تسريع العودة فردياً وبنجاح وعلى عكس كل المكيين السابقين. عمرو الهاشم كان غالباً ما يرافق القوافل شخصياً وقد توفي في إحدى الرحلات عند غزة على البحر المتوسط وفي عمر مبكر.

أما جد النبي عبد المطلب بن هاشم فقد وُلد ونشأ في المدينة وقد ولدته

أمه بعد زواجها من أبيه في رحلته الأخيرة. ولم يسمع أحد بذكاء الصبي عبد المطلب إلا بعد عدة سنين وقد أعلن ولادته عمه مطلب وأحضره إلى مكة وهذا التبني يفسر سبب تسميته بعبد المطلب الذي عرف به بعد ذلك نسبة إلى عمه المطلب.

والعم نفسه قد توفي في اليمن ولم يكن لديه طفل سوى عبد المطلب اليتيم أصلاً وابن أخيه. وقد نجح عبد المطلب في إدارة أملاكه وكثر نسله وأعبائه وكان عبد الله أحد أولاده والذي توفي مبكراً وبعد ولادة ابنه النبي محمد مباشرة أي حوالى سنة ٥٧١ ميلادية وقد نشأ محمد قبل نشأة جده بانتقال تربيته إلى عمه المسمى أبو طالب، جفيد قصي الذي قسم تركته بحيث أن بعض أبنائه اهتم برعاية الحرم المقدس وآخرين مثل فرع عمرو هاشم. كان لهم الأفضلية برفادة الحجاج وتاجروا في نفس الوقت. وبعضهم اهتم بالتجارة فقط مثل نسل أخي عمرو الهاشم عبد شمس والذي أصبح ممولاً كبيراً وفيما بعد كان من نسله حكام عرب المغرب.

إن مجلس المختارين من كبار السن قد نظر بعين الحسد إلى هذه الإمتيازات الممنوحة لهم وعندما حاول واحد منهم وهو عثمان بن الحويرث أن يأخذ على عاتقه مسؤولية زيارة القيصر ويقترح إتفاقية معه من أجل سلامة القوافل المكية الذاهبة إلى الشام مقابل مبلغ من المال واعترافه بسلطته على مكة وقد جاء الرد سريعاً حيث شجب عمله هذا بقية زملائه من الأشراف في مكة وعلى حمله للقب «ملك مكة».

كان الزمان حوالى سنة ٦٠٠ ميلادية وقبل ظهور الدعوة الإسلامية عندما قامت قريش مرة أخرى ببناء الكعبة وتوسيع فنائها وتوسيع ورفع أركان الكعبة نفسها. وقد جاء القرار نتيجة فيضان السيل الذي أدى إلى تدمير جزء من الكعبة ودخول الماء إلى أقدس المقدسات ولذا فإنهم قرروا رفع مستوى الباب ليمنعوا الماء في المستقبل من الدخول، أضف إلى ذلك أن الفرصة أصبحت مؤاتية عندما تحطمت سفينة يونانية قرب ميناء جدة عندما كانت تبحر من مصر إلى الحبشة. فأسرع أحد الأشراف إلى جده ليقابل قائد السفينة واسمه باكوم واشترى

منه ألواح السفينة. وكان هناك نجار مصري في مكة وساعده باكوم باستعمال حبال السفينة وصواريها وقام بالعمل لتوسيع الكعبة وبمساحة أكبر من السابق وقد رفع مستوى باب الكعبة فوق مستوى الحرم ليمنع دخول ماء الفيضان.

وقد أعيد بناء الكعبة أو رمم بناءها عدة مرات منذ ذلك الوقت ولكن حجمها ظل كما هو منذ ذلك الوقت. والكعبة ومساحتها كما ترى اليوم في الشكل المكعب منذ ألف وثلاثمائة وأربعين سنة.

في ذلك لاوقت تقريباً تقدم رجل في الخامسة والعشرين أو نحوها للزواج بامرأة غنية وذكية وذات أخلاق فاضلة، أرملة من مكة تسمى خديجة، وقد تعهد لها إدارة قوافلها إلى الشمال مستعيناً بمالها. ولكن زواجه بها هيأ له الوقت ومكنه من متابعة تأملاته الخاصة. وقد اهتم وساهم بموضوع القسم والوفاء بالحلف المقدس المسمى (حلف الفضول) وهو لتصحيح الحياة الإجتماعية وتذليل العقبات الإجتماعية كلما حدثت، وقد كان أثناء ذلك يتردد إلى مغارة في الجبل تسمى غار حراء، وكان يعزل نفسه هناك ليتفرغ للتأمل والتفكر. ذلك هو النبي محمد (ص).

ربما كان هناك انشغال فكر بالنسبة لبضاعة هو مؤتمن عليها قبل الزواج وأصبحت بضاعته هو بعد الزواج. ومما لفت نظر النبي أن طبيعة عدم الإستقرار لازدهار مكة باعتمادها على التجارة فقط وكان أهل مكة من أجل تمويل الطعام والشراب للحجاج يعتمدون في كثير أو قليل على رحمة القبائل الأخرى خارج مكة. وكانت إحدى هذه القبائل قبيلة هوازن وهم أجداد قبيلة حرب الحدثية وكانوا في عداء شديد مع أهل مكة وأغاروا عليهم مرات عديدة إبان طفولة محمد. ولا يعمل بالضبط قبل النبوة ما هي المؤثرات الروحية التي وجعت أفكاره تجاه إحياء الدين والعودة إلى الوحدانية الصحيحة. ولكن وبالتأكيد فإنه قبل بلوغه سن التاسعة والثلاثين كان قد تهيأ للحدث الجديد في حياته.

وقبل سنة من مولد الرسول محمد (ص) قام الأحباش بقيادة أبرهة المدعوم بفيلق من الفيلة بغزو مكة وقد هزم مع كامل جيشه ثم انتشر وباء الجدري بين من تبقى من جنوده.

وكان في الجزيرة العربية العرب غير المقتنعين بالأديان وهم الحنيفيين والذين طوروا بشكل عام فكرة الوحدانية بحيث أصبحوا كثرة ضمن وسط الجزيرة العربية. والفوضى التي شاعت في حقل السياسة أوجدت جواً من عدم الثقة والإحترام للآلهة الوثنية والتي لم تكن في النهاية أكثر من حجارة والتي لم تجلب أية فائدة ترجّى منها سوى ما يلقى عليها من شكوى ودون جواب. والآن أصبحت موضع لوم وإهمال ومنذ حركة قصي الذي وحد أهل مكة، أصبحوا يتزايدون وأصبح الكثيرون يأتون إليه من خارج مكة للإجتماع به وليشعروا بأنهم أقوياء حيث كثر المتناحرون.

فإذا كان وعد الله بأن تكون مملكته للشعب المؤمن به بدت وكأنها بطيئة التنفيذ بالنسبة لليهود فإن النبي محمد قد تحقق من أن الله لن يخذل شعبه وأن الطريق لإنهاء التعصب العشائري هو في أن يدمج أهل مكة وبقية القبائل في بوتقة إيمانية واحدة.

إن لله إخلاص في نفس النبي محمد لذا فإن المداومة في الغار على الإتصال الروحي كانت هي الأساس. وككل الرسل من قبله فقد وجه نفسه تلقاء الآخرين بحيث أن الأمر الحالي لحياتهم لا يعطي الأمل الكافي بالرضا والإطمئنان فإن الوعد الحقيقي يكون في عالم آخر أفضل من العالم الحالي الذي لا يتقبلهم كثيراً وبهذه القناعة اعتمد على مسألة المساواة بين الناس وعلى فكرة البعث بعد الموت أيضاً.

وكان التقدم بطيئاً وصعباً للغاية في بداية الأمر إذ مرت سنة ولم يسلم سوى ثلاثة فقط، وقد كان يلتقي بهم في أماكن عديدة ونادراً ما التقى بأحد منهم في بيته، حتى كان ذات يوم حيث أصبح يلتقيهم في كوخ عند تلال الصفا وعند نهاية سنة ٦١٣ ميلادية أصبح عدد المسلمين يناهز الستماية وعندما بدأ السر ينكشف بدأ محمد يواجه صعوبات شتى وبقوة. لقد كانت هناك محاولات لحث عشيرة آل هاشم القرشية على طرد محمد من العشيرة وقد كادت المعارضة تتخطى حدود عمه أبو طالب ذو النفوذ الكبير والمال أيضاً. أما أصحابه ذوي الحماية الأقل فقد هاجر بعض منهم إلى الحبشة بلد النجاشي

المسيحي الذي استقبلهم بترحاب وقد طرد المبعوث الخاص من مكة ورفض هداياه التي حملها معه ويطلبون في مقابلها إعادة المهاجرين إلى الحجاز وهكذا فإن سوء التصرف أثمر نتائج عكسية وكأن الناس الغاضبين الذين كان لهم أذن توحيدية قوية جعلت من محمد رجلاً مفضلاً عند النجاشي وعندما كثر اضطهاد أهل مكة له اضطر النبي محمد لأن يذهب إلى الطائف ليدعو إلى الإسلام ولكن لم يجد من يصغي إليه هناك. أما مدينة يثرب والتي سميت فيما بعد بمدينة الرسول كانت أكثر تشجيعاً للدخول في الدعوة وقد بدأت الإشاعات تسري في مكة بأن الرسول مدعو للذهاب إلى يثرب وقد قرر أشراف مكة أن أفضل حل لهم هو قتل محمد. وعندما وصل منفذي الجريمة إلى بيته كان قد غادره لتوه مع صديق له وكان أول رجل أسلم معه وهو أبو بكر. وقد وصلا المدينة في ٢٤ أيلول ٦٢٢ ميلادية، ومنذ ذلك التاريخ ابتدأ تدوين التاريخ الإسلامي.

وفي المدينة أصبح الإسلام نظام حكم منافساً يطبق وبمهارة حكم الله بدلاً من حكم آلهة قريش السابقة. ولأن سفك الدماء محرم في مكة فقد كان يأمل بأن تستلم له المدينة سلمياً. وقد كان مضطراً لحشد جنود للقتال بعد وصوله إلى المدينة وذلك ليقاوم ويصد الهجمات من أهل مكة يقودها رجل العشيرة القوي وابن عمه الغني أبو سفيان واستمرت تلك الغارات عدة سنوات وكان هناك أكثر من معركة مشهورة قوت من عزيمة جيش النبي وقد دعمه اليهود في البداية وكذلك جيرانه من قبائل الواحات. وبعد اتفاق لحل وسط يرضي الجميع استطاع بعدها العودة إلى مكة بعد معاناة ثلاثة أيام ثم عاد بعد ذلك وحج بشروطه هو وفي النهاية عندما اقترب من مكة لمسافة عقدة واحدة وبالقرب من قمة تلة عندما اقترب أبو سفيان لتسليم مكة أبقى النبي مفاتيح الكعبة مع أصحابها آل شيبة. وعاد محمد إلى بيته.

لقد جعل النبي مكة كلها حرماً آمناً وقد ألغى ثأر الدم وحرم التنكيل والتعذيب والتشويه ـ ومع ذلك فإنه أمر يقطع يد بعض المجرمين ولا يزال هذا التقليد متبعاً في بعض الدول العربية ـ ومنع وأد البنات وحطم الأوثان وفي

نفس الوقت فقد أكد شعائر الحج والمعمول بها ووجود مخلوقات أخرى خلقها الله غير الإنسان وكلهم يسبحون بحمده وحتى سنة ٦٣١ حيث لم يستطع هو نفسه أداء الحج حيث كان مشغولاً بتدعيم انتصارات الإسلام في الجزيرة العربية ـ الطائف، وهوازن ولكن سنة ٦٣٢ كان الحج يجمع فقط من هم تحت راية الإسلام حيث حج بالنساس ذلك العام وفي نفس العام مرض مرضاً شديداً لم يعرف نوعه كان من أعراضه الحرارة المرتفعة والحمى الشديدة وتوفي في الرابع من حزيران.

وقد أعطى البعض من الكتاب ميزة الوحدانية لمحمد في نشر الإسلام ولكن الرسول كان متعوداً دائماً على أن يضيف إلى اسمه اسم أبو بكر وعمر وكلما أراد تأكيد صلاحياته كان يستعمل صيغة أنا وأبو بكر وعمر ولهذا فإنه منذ البداية كان هناك النصر في التجمع العائلي لطريقة الحكم والتي أصبحت ولفترة طويلة طريقة الحكم في مكة.

وكان محمد كما لو أنه ملك ولكنه ملك الجماهير وكان فريد عصره وفي غياب الذكور من ذريته فقد خلفه أبو بكر في الحكم باستعماله طريقة الخليفة في الحكم في ذلك الوقت ولكن ليس بدون معارضة في أغلب الأوقات ثم بعد ذلك سيادة أقارب النبي.

وكان على أبو بكر أن يتحرك سريعاً لسحق المرتدين من القبائل البحرانية وقبائل من اليمن بدأت بالعودة إلى الوثنية.

وفي وسط الجزيرة العربية موقع واحد ارتد عن الإسلام. كان هناك مسيلمة «النبي الصغير» مدعوماً من قبيلة بني حنيفة وقرويي اليمامة ولن يستطيعوا كسر خليفة محمد. وكان هناك حرب حقيقية وحقق مسيلمة خطوة إلى الأمام في محاربة أول مجموعة أتت لمحاربته ولكنه خسر معركة أخرى مع جيش أكبر فكثرت فوضى القتل والنهب في اليمامة والتي تعتبر أهراءات الجزيرة العربية والتي تغنى بها شعراء الجاهلية قد هلكت. وخلال سنة وبضعة أشهر عادت الجزيرة العربية إلى دائرة التربية الدينية.

إن الجيش المسلم الذي يضم بعض البدو والمغامرين، والذين وجدوا في الحرب فرصة للنهب والسلب. وكان الإلتزام كوظيفة أمراً مطلوباً. والآن وبعد أن عادت كل الجزيرة إلى الإسلام وبقي فقط العالم الخارجي، لقد تعجل أبو بكر في إدارة الجيش باتجاه الشمال والشمال الشرقي. وذلك قبل نهاية ٦٣٣ وربما لم يكن لديه فكرة أبعد من الإغارة والعودة، ولكن كانت كلا الدولتين الفارسية والبيزنطية في حالة ضعف وكان جيشه على أبواب اكتشاف ماذا فعل البرابرة على الجانب الغربي للأمبراطورية الرومانية وقد تم اكتشاف ذلك حول روما قبل ثلاثة قرون.

ولم يعرف إذا ما كان أبو بكر قد تلقى أخبار الوعد العظيم بالنصر لأنه توفي قرب نهاية شهر آب في كوخ متواضع والذي أمضى فيه بقية حياته منذ أن قدم إلى المدينة.

لقد دخلت الدولة الإسلامية في فترة تغييرات سريعة وغير منضبطة لدرجة كبيرة ولأسباب طبيعية واجتماعية خارج الجزيرة العربية. لهذا فإن السفر من مكة أو المدينة إلى أي مكان آخر خارج الجزيرة العربية أصبح يحصى بعدد الأيام.

إن تاريخ حكام الإسلام لم يعد قصة مدينة في الجزيرة العربية، ولكنه تاريخ شعب يسير على أنقاض أمبراطورية الفرس والروم وينشىء معسكرات وعواصم خارج حدود الجزيرة العربية. أما عمر خليفة أبو بكر فقد حاول أن يمسك زمام الأمور في الجزيرة العربية. حيث أصدر مرسوماً بأن المؤمنين لا يملكون الحق باستملاك بيوت في المناطق الجديدة التي احتلت ولكن وبعد سنوات قليلة تبين أنه من الصعب تطبيق هذا المرسوم، لأن التمدد العظيم المستمر أصبح أبعد من سيطرة مكة والمدينة ولم يستطع الخليفة عمر أن يفرض نظاماً مطبقاً في مدينة صغيرة على دولة مترامية الأطراف وعسكر يعيش تحت ظروف متعددة الأحوال والأشكال. وقد كان هدفه الأول أن يبدأ بكتابة البنود الواضحة التي فرضها الله على نبيه محمد، والثاني هو أن تكون القوانين الناتجة جديرة بالتطبيق في الحالات التي لم يراعَ تطبيقها أثناء نزولها على نبيه.

ولذا فقد تحتم عليه فرض كتابة القرآن وهو كتاب دستور الله من خلال

رسوله جبريل إلى محمد (ص) قد تمسك به المسلمون حرفاً حرفاً وكلمة كلمة على أنه كلام الله وهو دينهم ودستورهم في آن واحد.

وبينما كان الجنود يتزايدون عدداً وعدة وتتوسع الدولة باتجاه الشمال والغرب والخلفاء كان مقرهم في المدينة كان موقع الحكم في مكة غير مهم ويأتي بالدرجة الثانية وكان النبي قد عين عتبة بن أبي العاص والياً عليها وكان حفيداً لأمية.

وقد نجح عتبة في حكم مكة بالإضافة إلى آخرين ساعدوه في ذلك وكانوا من نفس الفرع العائلي. وكانوا يُختارون من قبل الخلفاء من وقت لآخر، وقد كانت جدة الميناء الذي استبدل بالشعيبة وهي أقرب نقطة على البحر الأحمر إلى مكة. وقد أنشىء لأول مرة سور منخفض حول الكعبة سنة ٦٣٨ وبعد فترة قصيرة وكمقياس لتنظيم الحجاج الذين تزايدوا أكثر من قبل بكثير فقد كان من الواجب أن يهتموا بالمدينة التي يحتاجها هذا الكم الهائل من الناس بينما هم مشغولون بجيشهم المتزايد بعيداً عنها بفتح بلاد أخرى.

وعند وفاة الخليفة عمر حيث طعنه عبد مسيحي من أصل فارسي اختار ستة أشخاص وهو على فراش الموت حيث اختار هؤلاء الستة عثمان بن عفان من بينهم. وكان عثمان حفيداً لأمية أيضاً وابن أخ لأبي سفيان وهو أحد الممولين الفروع ولكن ليس من الفرع الحارس للحرم المكي.

أما علي ابن عم النبي والذي قيل بأنه أعلن منذ وفاة الرسول بأنه قد سُمي خليفة من بعده والآن أصبح يتشكل له مناصرون وكثير منهم من خارج الجزيرة العربية ممن دخلوا في الإسلام حديثاً وقد استعملوا في نظرية التعيين وكانوا تواقين لأن يكون إعلان التوصية واضحاً وجلياً من الله للشخص نفسه الذي يؤيدون.

إن افنصالهم بالرأي هذا قد انتشر في الجزيرة العربية وامتد أثره إلى المنطقة البيزنطية والفارسية وخصوصاً منطقة إيران حالياً والتي كان فتحها كاملاً في عصر الخليفة الثالث.

إن الثقافة التي واجهت العرب في المناطق الجديدة قد زادت تأثيراتها عليهم وإن المذاهب المتعلقة بالولاية والحكم وعدالة الحاكم بدأت تنتشر في البلاد الإسلامية كما انتشرت في الماضي الطويل إلى اليونان وأوروبا.

ولكن قبل أن يظهر ذلك فإن عثمان كان واعياً لسخط الهاشميين في مكة. وكان هو نفسه عضو في عشيرة أمية وقد ورث في بداية حياته ثروة معقولة وقد اتجه الآن صوب أقاربه ويدأ يوظفهم في الأماكن المهمة في طول الدولة وعرضها.

والفرقة بين نبلاء (أشراف) مكة قد بدأت على مصراعيها بين علي ابن عم وصهر النبي محمد ومحازبوه من جهة، وبين بني أمية التجار المغامرون والممولون في العائلة والذين في البداية كانوا تحت إمرة أبي سفيان الذي نازع النبي محمد في مسألة دخول مكة.

عاد العداء الشديد للظهور وقد ثبت الأمويون أقدامهم في الشام بينما ركز علي نفسه في القسم الشرقي للأمبراطورية في بغداد.

وفي حزيران ٦٥٦ زاد السخط ووصل إلى حده الأقصى عندما قتل عثمان في المدينة. وقيل إن قاتله يسمى محمد وهو ابن أبي بكر مرافق الرسول وخليفته الأول. وكان معاوية وهو ابن أبي سفيان والذي بدأ يظهر لبني أمية على أنه البطل وأنه الخليفة الأموي في الشام وقد عرض القميص الملطخ بالدم العائد لعثمان في جامع دمشق وببلاغة قوية استطاع أن يلعب بعواطف المسلمين وبعدها ترك الحجاز ولم يعد إليها مطلقاً واتجه إلى الكوفة في العراق وبعدها بخمس سنوات لقي مصرعه.

وكان الإمام علي بالنسبة لمؤيديه وأحفاده قديس الإسلام منذ اللحظة التي استشهد فيها. وقد كان عادلاً في حكمه وشجاعاً في معاركه صادقاً مع أصدقائه وفياً لمبادئه. وكان من المفروض أن يبقى المثل الأعلى لنبالة وشهامة الفارس المسلم.

أما سيفه والذي حمله النبي نفسه، قد خُلد ببيت من الشعر على سيوف

عربية عديدة في العصور الوسطى «لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار» وكل الفرسان العرب من بعده اتخذوه قدوة لهم في الفروسية. والجموع الغفيرة التي ما زالت حتى اليوم تأتي لزيارة قبره في النجف ولزيارة قبر ابنه الحسين والذي قتل لاحقاً بواسطة جيش بني أمية في كربلاء بالعراق أصبح علماً من بين المسلمين وخصوصاً من بين الشيعة الذي يعتبرون المريدين الخاصين لدعوته وهم يتمسكون بأحقيته في الخلافة، وأحقية أحفاد الإمام علي أيضاً وهم متعصبون ضد كل مؤيد لما هو أموي.

ومنذ اللحظة التي استلم فيها معاوية زمام الأمور في الشام سنة ٦٦٠م بدأ التاريخ الإسلامي بالتراجع إلى الجزيرة العربية. لقد أرسل أرواحاً ودماء إلى بلاد أخرى ومع هذا فإن تاريخ معاوية غير ذي بال بالنسبة لبقية أفراد العائلة الأموية التي انبثقت منهم وكونت دولة ذات شأن.

إن مكة قد اجتهدت بدورها وأسست دولتها فقد جعلت لها خليفة مستقل هو عبد الله بن الزبير الذي استقل عن الدولة الأموية في الشام وبقي هناك فترة جيل كامل وفي فترة من الفترات قد كسبت تأييد بغداد إلى جانبها. ولكن في النهاية وضع حد لحكم مكة المستقل سنة ٦٩٢ وذلك بعد ستة أشهر من الحصار الأموي العسكري تحت إمرة الحجاج بن يوسف الثقفي، فمات الخليفة عبد الله والسيف في يده أمام أسوار مكة. وقد واجه الحصار في بدايته ثم ابتداء رمي الكعبة بالمنجنيق ودمر جزء من الكعبة أثناءها حتى أتى الجيش الأموي نبأ موت خليفتهم يزيد فانسحبوا هلعين من الخوف تاركين أسلحتهم وراءهم تاركين أمر ترميم الكعبة للمدافعين عنها. وبعد أن سقطت مكة أمر الخليفة الأموي في الشام بإعادة بنائها بدون التحسينات التي قام بها عبد الله بن الزبير وهذه إشارة بالهيمنة على صلاحيات مكة وكعبتها وحراسها.

يقول الحنفي بأن تمرد ابن الزبير قد قمع في السابع والعشرين من رجب أي نيسان سنة ٦٨٣م، وقد قام أهل مكة جميعاً بالحج الصغير أو حج التنعيم أو العمرة. ومنذ ذلك الوقت بقيت تقليداً ولم تعد مهمة الآن ولكنها كانت كذلك حتى سنة ١٢٠١ وذلك لأن حاكم مكة في ذلك الوقت قتادة بن إدريس

قد انتهز فرصة وجود أهل مكة جميعاً في الحرم فأتى واحتل مكة بسلام. وقد يكون الحنفي غير محق في أن هذا الحج المصغر فرض أيام ابن الزبير والذي من الممكن أن يكون قد أعاد إحياءه فقط لأن البعض يقول بأن بعض القبائل كانت تقوم به حتى أيام الوثنية عندما يكون هناك هدنة مؤقتة. هذا إذا ما كان يحدث هدنة في رجب فعلاً، ولكن كل ذلك انتهى بقدوم الإسلام وما عمله ابن الزبير كان احتفالاً عادياً بإصلاح الكعبة وترميمها. ولو كان ما عمله ابن الزبير منع بعد ذلك بقرار من السلطة الأموية نكاية بعبد الله بن الزبير لكان استمر ذلك مئات السنين وهكذا فإنه بنهاية القرن السابع أصبح تعيين أفراد من أسرة الحاكم الأموي في دمشق في مركز الوالي أو الحاكم لمكة وبدا كما لو أن الهاشميين الذين توارثوا إدارة الحرم المكي المقدس قد فقدوا السيطرة على إدارة الحرم إلى الأبد.

الفصل الثالث

الحكام منذ القرن الثامن
وحتى القرن الثاني عشر

الحكام منذ القرن الثامن وحتى القرن الثاني عشر

خلال المئتي سنة التالية لظهور الإسلام كانت قوافل مكة التجارية قد تراجعت. وعند القرن العاشر بدت شبه معدومة. وكانت مناجم الذهب بين نجد والحجاز قد توقفت عن العمل. وبدأت العصور المظلمة تسدل أستارها عل أوروبا.

وبدأ الجيش المسلم نفسه يقلص التجارة العريقة منذ الأزل. وذلك عندما كان يتقدم في البلاد لاحتلال مراكز جديدة كان قد تاجر معها حتماً في السابق.

والذين كانوا بالأمس تجار قوافل أصبحوا اليوم الفاتحين المظفرين.

وقال النبي محمد (ص) أن مكة يجب أن تزار من قبل كل المسلمين القادرين على ذلك (الحج). وهكذا فإن القوة التي ملكها التجار سابقاً أصبحت الآن متضخمة وفائضة، إذ انتشر الإسلام في مناطق عديدة وشاسعة وضم أجناساً مختلفة من البشر والذين أصبحوا هم أنفسهم فيما بعد رسلاً للإسلام وحماته. وهكذا فقد انتقلت السلطة من المزار القبلي الوثني البسيط في جزيرة العرب ليصبح مركز استقطاب ديني وعالمي للناس من الشام حتى إيران وبعيداً حتى اسبانيا ثم خرسان والهند وأفريقيا. والمسلمون المؤمنون أينما وجدوا فإنهم يتجهون في صلاتهم إلى ذلك الوادي الذي لم يكن فيه ماء أبداً ومنه خرج رسول الله القرشي (ص)، وبعد أن كان ذلك الوادي رمزاً للوثنية أصبح مركزاً دولياً يتهافت إليه ملايين البشر.

وبعد فترة من الزمن تحول التجار إلى محاربين منتصرين فأحفاد أبي سفيان كانوا يحكمون في الشام ويعينون والياً على مكة بينما الإمام علي وأحفاد النبي لم يكن لديهم سوى القليل من المناصرين.

لقد كان هناك خطين مهمين: خط التجارة، وخط رجال الدين القريشيين وقد التقى هذان الخطان في عبد مناف بن قصي والذي من سلالته ولده عبد شمس سوف يكون حكام اسبانيا لمدة ثمانمائة عام وكذلك كان من نسله من حكم مصر والشام والعراق وسيطروا على إيران وخراسان.

ولكن بني عمرو هاشم سوف يحلون محلهم في العراق واليمن والمغرب ويحتفظون بخدمة ورعاية الحرم المقدس أيضاً حتى القرن العشرين. ولكن الفرقة استمرت قروناً عديدة وقويت وترسخت لدرجة كانت تؤجج الحرب والتباعد بين الناس. والتي خلقت مذاهب جديدة وأحياناً فقر متفشي بين الناس. وبعد أن استعاد الأمويون مكة. فإن المذهب الشيعي كان ممنوعاً من دخول مكة أو المدينة.

إن عدم التوازن في المبادىء الروحية في الجزيرة العربية بين ما هو معترف به وبين ما أقر بأوامر عليا سواء كانت هذه الأوامر من الشام أو بغداد سوف يتزايد تدريجياً إلى أن تنتهي بانقطاع فعلي عن الدولة الإسلامية. وحتى يومنا هذا فإن شيعة علي والموالين لخطه هم الأكثر نسبة في الجزيرة العربية بعد إيران. إن معظم سكان المناطق الجبلية في اليمن والمناطق النائية من نجران وحتى جنوب الجوف ورجال القبائل في عُمان مع جزء من مناطق الإحساء وبعض البدو قرب المدينة المنورة هم من بين هؤلاء الموالين، ومن وراء هذه الموالاة أو الإلتزام كان الإستياء عميقاً وواضحاً بسبب عدم قدرة الخلافة على السيطرة على مصير الدولة (الأمبراطورية) وعلى مصير الإيمان الصحيح في الجزيرة العربية. وحتى الخلفاء العباسيون في بغداد والذين أزاحوا الأمويين عن حكم الدولة الإسلامية في الشام قد استندوا في بدء ثورتهم على قوة الفرس الخرسانيين وفيما بعد عليهم كحراس خاصين بالخلافة. وكان الخليفة العباسي الثاني المنصور قد أكره أهل الحجاز على الإعتراف بسلطته

بفضل هؤلاء الجنود الخرسانيين. والخليفة المشهور هارون الرشيد قد اضطر إلى اتباع طريقة سنوية ذكية في السياسة في موسم الحج وذلك ببذل عطاءات كبيرة. والفضل يعود إلى زوجته زبيدة أيضاً بإشرافها شخصياً على ذلك الأمر في الأماكن المقدسة، وذلك قبل سنة من تسلمه زمام السلطة حيث لاحظ بنفسه مجموعات كبيرة من الشيعة وأنهم يتكاثرون حتى في مكة نفسها. وكان المهدي الخليفة السابق قد زار مكة سنة ٧٧٦م ورأى جدران الكعبة وقد بدأت بالتفتت من وزن الطبقات المتراكمة فوق بعضها البعض، الجديد فوق القديم. لهذا فقد أمر بإعادة ترميمها واتبع طرقاً أخرى في ترميمها سنوياً وكان الخليفة يشرف بنفسه على سير العمل وأعمال البناء أيضاً حتى تنتهي. وعند نهاية الأعمال يكون هناك احتفال جماعي بتنظيف وتنظيم الكعبة، فتحف الجدران بالزباد والمسك والعنبر، وأما الأجزاء العلوية من الجدران فإنها تخضب بالزباد ثم بعد ذلك تغطى الكعبة بطبقة من ثلاثة أغطية من القماش القبطي، والسيلوفل، والقماش المطرز أو المقصب الممتاز.

واهتم الهادي خليفة المهدي خلال فترة حكمه القصيرة بجلب حجارة من مقالع أخميم في مصر. بينما تخطى هارون الرشيد الخلفاء السابقين بجودة فاهتم بالحرم كله بالإضافة إلى الإهتمام بأعمال جر المياه. وقد أكملت أرملته زبيدة باقي العمل بعده. وكان الإهتمام منصباً على الموقع الأساسي للعمل وهو نبع حنين والذي يبعد اثنا عشر ميلاً عن مكة شرقاً، ومن ذلك النبع أنشأ قناة لجر المياه تحت الأرض إلى مكة. وقد عُملت عدة ينابيع صغيرة لتوزيع المياه وكذلك عملت عدة خزانات وفي نقاط محددة، والأشهر بين هذه الينابيع نبع زبيدة نسبة إلى زوجة هارون الرشيد وهو عند السهل المنبسط تحت جبل عرفات وفي نهاية امتداد المشروع، عند مكة سمي نبع المشاش، وهو يعطي سكان مكة المياه طول السنة، وتظهر عظمة هذا المشروع الهائل عندما ترى الطبيعة الصخرية الصلدة للمنطقة الجبلية والتي من المفروض أن تقطع وتعمل فيها أنفاق. ولكن زبيدة عندما تعهدت هذا المشروع رفضت أن تقبل وتستسلم لأي عائق. واكتمل هذا العمل المجيد بتكلفة قدرها مليون وربع المليون من

الدنانير. وفي النهاية تقدم المهندسون ورؤساء العمل أنفسهم إلى القصر ببغداد وهم يحملون كتبهم وحساباتهم مدعمة بالأرقام التي صرفتها زبيدة. ولكن زبيدة عند تسلم الأوراق والحسابات سارعت بإلقائها في دجلة وأعلنت بكل تواضع وتقوى. لقد تركنا الحساب ليوم الحساب فالذي لنا بذمته فهو له والذي له بذمتنا سوف ندفعه له وبعدها وهبت لهم رداء التشريف وصرفتهم فذهبوا شاكرين ممتنين.

وبالرغم من اهتمام العباسيين بتحسين مكة فقد اكتشف خليفة هارون الرشيد المأمون أن كل الجزيرة العربية تقف منه موقف العداء وذلك أن المأمون وهو الخليفة كيف به وهو يحاول أن يسترضي مشاعر الشيعة باستعمال غطاء أخضر للكعبة إذ أن اللون الأخضر كان شعار العلويين بينما كان شعار العباسيين اللون الأسود. وهي تغطى حتى يومنا هذا برداء أخضر ويصنع في مصر. وقد يعطى بعض الألوان الأخرى من وقت لآخر كاللون الأبيض أيام الفاطميين في مصر وحكم السلاجقة في اليمن. وقد استعمل اللون الأحمر في القرن الحادي عشر حيث كان يُرسل الغطاء من خرسان. والغطاء ذو اللون الأصفر من السلطان محمود سبكتكين من غزة في القرن العاشر.

إن أول وال عين على مكة أيام الحكم العباسي كان فرداً من العائلة العباسية من قريش تماماً كما كان أيام الحكم الأموي فقد اختير أول وال لمكة من العائلة الأموية. ولقد استمر هذا التقليد حتى فترة حكم هارون الرشيد حيث عين أحد أحفاد العباس وكان اسمه أحمد بن إسماعيل بن علي ولكن خلال فترة حكم المأمون والذي كان يستميل العلويين. فقد عين أحد أحفاد العلويين واسمه الديباجي ويعني (الحريري ـ أو الجميل) وهو محمد بن جعفر الصادق (وجعفر الصادق هو الإمام السابع عند الشيعة). حيث عينه في هذا النصب. ولقد قاوم الأمويون حركة تمرد شبيهة قام بها الخوارج والآن يواجه العباسيون في بغداد مداً من الشيعة والذين كانوا يعتمدون عليهم وعلى تأييدهم لحركتهم في بداية حكمهم وقد أصبحوا في تكاثر يصعب السيطرة عليه. ولقد كان العالم الإسلامي حينها أي نهاية القرن التاسع في حالة عدم استقرار فكان

هناك ثورة حقيقية للشيعة سميت بحركة القرامطة نسبة إلى داعيتهم القزم حمدان أو قرمط. لقد انطلقت هذه الدعوة من الكوفة بالعراق وبعدها انتشرت حتى سوريا والبحرين على الخليج العربي والأحساء. وهي الجزء الغربي للجزيرة العربية وواحة الهجر أصبحت عاصمة القرامطة وما تبقى فقط كان يتبع الدولة العباسية وكان ذلك في حدود القرن العاشر الميلادي أي الثالث الهجري وكانت الدولة العباسية تعاني من الدويلات التي تنشأ حولها مثل دولة الفاطميين التي نشأت في شمال أفريقيا في القيروان حيث انفصلت عن الدولة العباسية ثم امتدت فأصبحت في القاهرة بعد ذلك. وعقيدة الفاطميين تمتد لتلتقي مع عقيدة القرامطة والإسماعيليين. أما في اليمن فإن الحاكم العباسي اتبع ما اتبعه الآخرون في المناطق الأخرى ليعلن استقلاله عن الدولة العباسية.

استمر القرامطة في غرب الجزيرة العربية في سلطتهم أقوياء إلى حين أصبح باستطاعتهم لعب دور الفاطميين في أفريقيا ضد العباسيين في آسيا. وكان الناس في كل مكان يتوقعون ويحدوهم الأمل في أعماقهم أن يكون ظهور المهدي في هذه الظاهرة أو تلك وخصوصاً من هم على خط الولاية لعلي وأبنائه. وفي سنة ٩٠٦ كانت دولة القرامطة في انهيار سريع وخصوصاً في الشام أما في العراق فإنهم استولوا على البصرة وكانوا يودون القيام بإنشاء الفاطمية الجديدة في أفريقيا. وقد كانت بغداد نفسها مهددة وكان القادة العسكريين العباسيين يبدون وكأنهم عاجزين عن سحق هذا التمرد المخيف ولكنهم بعد ذلك انكمشوا إلى داخل الجزيرة العربية. وحاولوا دخول مكة.

نهب القرامطة مكة سنة ٩٢٩ ميلادية وعاثوا في الأرض خراباً وقتلاً وكانت جثث القتلى تُرمى في بئر زمزم وكان الدم يسيل حتى عند الحرم نفسه. ولكي يتوجوا تدنيسهم المقدسات فقد حملوا معهم الحجر الأسود (كانون الثاني ٩٣٠) إلى عاصمتهم الهجر في غرب الجزيرة العربية واحتفظوا به هناك لمدة عشرين سنة إلى أن أقنعهم منصور العلوي حاكم أفريقيا بإعادته. وبعدها تحركت الدولة الفاطمية شرقاً باتجاه مصر حيث أسسوا دولتهم التي دامت حتى قيام صلاح الدين. ومن خلال الخليفة المعتوه الحاكم أرسلت حملة تبشيرية

أدت نتيجتها إلى ظهور مذهب جديد انتشر بعد ذلك في لبنان وسوريا وفارس وجزء من زنجبار. وهكذا فإنه يشبه النبات البري الغريب والذي لا يفنى. فهذا الحب للعلويين استمر معطياً أشكالاً جديدة ومتشعبة من الفروع. وخلال هذا التشعب لا بد وأن يحدث كثير من البدع والإنحرافات، مما أدى إلى ضعف الدولة العباسية، وحيث أن الدولة أصبحت في انحدار لذا فإن مكة قد تركت لنفسها وأُهملت.

إن قلة الأمان طغى على تلك الفترة فتوقفت قوافل الحجاج القادمة من العراق عن الحج وعندما عاد الحج إلى الحالة الطبيعية فإن قوافل أمراء بغداد والحجاج القادمين من مصر تقاتلوا خارج مكة بسبب أفضلية وأحقية الدخول أولاً، وهكذا فقد قبل دخول المصريين أولاً على أساس أنهم المسيطرون، ولقد بذل الفاطميون الجهد قبل العودة إلى مصر لأن يثبتوا وجودهم في الموقع الأكثر قوة وتمثيلاً وأصبح لهم تدريجياً اليد الطولى هناك.

وخارج نطاق الفوضى وفي القرن العاشر الميلادي بدأ أحفاد الإمام علي في الظهور في مكة والعراق وزادت قوتهم فأصبحوا يرافقون الحجاج ويحرسون القوافل في ذلك الزمن المضطرب. وكانوا يستعملون نفوذهم لعمل معاهدات مؤقتة ليمكنوا القوافل من المرور بأمان وانطلاقاً من مكة أو المدينة كان هناك أعضاء من سلالة النبي ويؤازرهم البدو والذين في وقت من الأوقات كانوا يهددون الخليفة العباسي في بغداد، والآن أصبح أحدهم في موقع يؤهله لأن يكون خليفة.

إن احتلال مكة من قبل جعفر حفيد النبي محمد، الحسني الذي استطاع أن يهدد الخليفة العباسي المقتدر (٩٠٨-٩٣٢) إذ جهز جيشاً من البدو للدفاع عنه ويبدو وكأنه غير مهم وذلك أن التاريخ المؤكد عنه غير ثابت أو مسجل. إن رجال جعفر قد حافظوا على قوة كاملة حيثما كانت تضعف قوة الخليفة وقد كان يلقى تشجيعاً ودعماً من الدولة الفاطمية كلما أراد التحرك ضد الخليفة العباسي. وعلى أية حال فإن بداية حكمه كان على ما يبدو في حدود سنة ٩٦٥م وذكر لأنه صادف وفاة أبو المسك كافور في مصر وكانت نهايته سنة

٩٨٠ أما أهمية حكمه أنه بداية لحكم عائلي جديد ويكمن في درجة الإستقلال المهمة التي وصل إليها أثناء حكمه لمكة عانى بما سيلقاه كل من سيليه في الحكم أولاً: إن المصريين قد وضعوا يداً لهم على مكة لأن بإمكانهم تجويع الحجاز بمنع التموين عنهم وخصوصاً عندما تكون أودية الحجاز واليمن فقيرة أو لأنه ليست تحت سلطة أهل مكة وثانياً في حقيقة الأمر أن قيادة الحجاز قد رقدت منذ أيام أول خليفة بعد النبي محمد في المدينة والآن تعود إلى النهوض بعد ثلاثمائة وخمسين سنة إلى مكة.

إن جعفر هو أول مؤسس لحكم العائلة العلوية في مكة قد نجح بفضل ابنه عيسى والذي حكم لمدة أربعة عشر عاماً أي حتى ٩٩٤م والتي منع خلالها الجيش الفاطمي من دخول التموين إلى مكة أو المدينة حتى وافق عيسى على الدعاء للخليفة الفاطمي وقد نجح عيسى بفضل أخيه الأصغر أبو الفتوح والذي حكم لمدة خمس وأربعين سنة وقد ترافق حكمه مع حكم ذلك الخليفة المعتوه في مصر الحاكم. ولقد وصل إلى درجة من القوة بحيث كان يهدف إلى قيادة الإسلام ويبحث عن طريقة للإيقاع بالخليفة الفاطمي في مصر وقد حثه على ذلك ابن وزير الخليفة الحاكم المقتول والذي فر إلى الشام وكان يبحث عن دعم من أجل الإنتقام من قاتل أبيه وكذلك بواسطة مؤيديه. وكان مطلوباً من المصريين لأنه أساء لبعض الصحابة والنساء الذين كان يُدعى لهم في خطبة الجمعة.

وكان أبو الفتوح يحاول مكرهاً إتباع التعليمات الغريبة وغير المنطقية للحاكم بأمر الله والتي أدت إلى الفوضى في مكة. وقد أخرجت قوات الحاكم من بادية الشام حيث كان ابن الوزير أبو القاسم المغربي ملتجأً وقد وجد الفرصة مواتية ليقوم بالثورة. لقد أعلن أبو القاسم ورؤساء العشائر ولاءهم لأبو الفتوح حاكم مكة والذي سافر سريعاً إلى الشام مصطحباً معه سيف علي وعصا محمد من المدينة. وبعد ذلك أرسل الخليفة الحاكم خفية مبالغ من المال لكل واحد من رؤساء العشائر والذين كانوا قد أعلنوا ولاءهم سابقاً لأبو الفتوح. وسريعاً اكتشف الحاكم المكي بأن أموال الحاكم لها تأثيرها الأكبر وأكثر من

تأثير القطع الأثرية المقدسة التي حملها معه من مكة والمدينة، وفي نفس الوقت وصلت أخبار من الحجاز أن أحد أقاربه قد نهض مكانه في الحكم بدعم من أموال الحاكم التي أرسلها فاستعجل السفر إلى مكة ووصل في الوقت المناسب.

وقد نجح أبو الفتوح بواسطة ابنه محمد شُكر وكان رجلاً كريماً وشاعراً يكنى بأبي عبد الله ولقبه تاج المعالي وتوفي دون أن يكون له عقب وقد نجح لفترة بمساعدة عبيده. ثم استبدل بأعضاء من بني الطيب محمد بن أبي فاتك والذي خلع بواسطة الحاكم اليمني علي بن محمد الصليحي مؤسس أول وأصغر ولاية شيعية في اليمن والذي حج إلى مكة وبقي فيها كحاكم. وقد دخل مكة سنة ١٠٦٣ ولكنه وجد معارضة مستمرة من الحاكم السابق لمكة بن أبي الطيب وقد عانى أعوانه من رطوبة الجو التي لم يألفوها في بلادهم الجبلية وكذلك تعرضوا لوباء قلل من تعدادهم لهذا فإن العائلة لحسنية عندما أتته تقترح عليه إعلان وصي منهم وجدوا لديه القبول. وكان جاهزاً لتسمية محمد بن جعفر من سلالة الحسن بن علي وكان في طريقته وأسلوبه يعرف بأبي هاشم.

وفي السنة التالية كان رئيس الأشراف أو رئيس السادة (الأشراف) المرموقين في بغداد أبو غانم والذي سافر لأداء مناسك الحج فوجد في مكة أن الأمير الجديد كان يميل إلى العباسيين في بغداد وكان خلال زيارته قد سمع الدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة بدلاً من الخليفة الفاطمي. فقطع المصريون التموين عن الحجاز حالاً مما اضطر الأمير لشراء التموين بأسعار أعلى وقد اضطر لبيع المصابيح الذهبية الموضوعة في الحرم من أجل ذلك. وقد عوضه الخليفة العباسي عن ذلك بمنحه ثلاثين ألف دينار.

وفي المقابل فقد لقي بعدها بن أبي الطيب التشجيع والأموال في الخفاء من الخليفة الفاطمي في مصر فهاجم محمد وأجبره على اللجوء إلى ينبع ومن هناك بدأ محمد الإغارة على مكة واعترض التموين الواصل إلى مكة من مصر. وفي نفس الوقت أوقفت اليمن قوافلها من ناحيتها. وبهذا فقد حوصرت مكة حتى يسلم المكيين مدينتهم وأبي الطيب وأيدهم حمزة بن أبي وهاس

استسلموا جميعاً لمحمد الذي دخل المدينة المقدسة راكباً فرسه دنانير، هذه هي القصة ولكن ربما يتساءل أحدنا عن أصل هذه الحكاية إذا كانت من مختلقات الفطنة المكية فحمزة، كان فارساً ولكن أموال محمد ـ هذه الأموال من بغداد واليمن ـ كانت الرابحة في هذه المعركة.

ولم يخرج من مكة إلا عندما أتى الأتراك السلاجقة وبكميات هائلة وبحماس فظ مع الحجاج وكان السلاجقة يسألون عنه فأخذوا علماً عن العادات المحلية وعن معارضته السلمية وتأكدوا من خروجه وأتباعه من مكة فربح السلطان السلجوقي في النهاية وأصبح يدعى له في الخطبة مباشرة بعد الخليفة العباسي، ثم أصبح بعدها الخليفة العباسي أكثر من لعبة في يد السلطان السلجوقي. وهذا ما يبرر المعاملة الفظة للجيش السلجوقي. وذلك لأن التموين القادم من مصر كان يضعف الأمير وعلاقته مع بغداد وذلك على عكس من وضع مكانه. وهكذا فبعد أن كان يميل إلى بغداد سنة ١٠٧٠ عاد وغير ميوله وصوبها تجاه الفاطميين سنة ١٠٧٥ وعندما توفي كلاً من السلطان الب أرسلان والخليفة المقتدر عندها عاد مرة أخرى ومال إلى بغداد بعدما حج السلاجقة إلى مكة على شكل غزو.

وعندما تكررت هذه الزيارات فقد اتخذ محمد موقفاً ثابتاً وميز نفسه في الحرب ضد الغزاة الشماليين وكانت تلك الأيام هي الأيام العصيبة التي تعود فيها الطالبيون على إرسال أفراد منهم مع قوافل الحجاج كأمير للقافلة وذلك حفظاً لمكانتهم ولكنها لم تكن ذات أهمية بالنسبة للأتراك، الجنود من الأتراك والمصريين والحرس الخاص قد بدأوا باستلام مراكزهم. وقد نجح محمد بفضل ابنه القاسم والذي استمر بسياسة والده ضد الأتراك في بغداد وفي استعمال أسلوب أكثر حنكة مع المصريين.

وكلما كانت تقترب القافلة السنوية من بغداد كان جو الحرب يخيم على مكة وكذلك كان شريف الزنوج وأتباعه من البدو سيقومون بالإنتقام ومعاقبة الأتراك وعند توليه السلطة في الشام حاول محاربة أصباهيد بن سبكتكين السلجوقي قرب عسفان على بعد ٥٠ ميلاً من مكة وعلى طريق الحجاج وهزمه

فعاد أدراجه إلى دمشق لاغياً فكرة احتلال مكة. وهكذا فقد حكم القاسم حتى وفاته سنة ١١٢٤ وقد نجح بفضل ابنه فليته الذي حكم حتى وفاته في سنة ١١٣٢.

وقد حكم بعده ابنه هاشم حتى توفي سنة ١١٥٤ وتلاه ابنه القاسم وبقي حتى سنة ١١٦١ ثم هرب من مكة بعد أن هدده أمير الحج العراقي وخلفه عمه عيسى من فليته وعاد متخفياً إلى مكة بعدها بعام حيث اغتيل بعد عودته. لذا فقد بدأت العائلة الحاكمة ببناء قلعة على جبل أبي قبيس في مكان مرتفع يطل على المدينة بحيث يكون بإمكانهم الدفاع والإنسحاب بأنفسهم ساعة يشاؤون وفي نفس الوقت زادوا العطاءات الثابتة للبدو وبذلك جعلوهم جنوداً لحين الطلب. ولم يكن قرارهم سريعاً وذلك أنه في منطقة خليفة عيسى ابنه داود ومنطقة ابنه المختار بعد ذلك. كان العراقيون يهددونهم بعد حربهم بواسطة أمير المدينة قاسم بن مهنا الحسيني. وقد كانت خطبتهم مع ذلك غير ناجحة فقد جعلها أهل مكة مستحيلة عليه للعيش أكثر من بضعة أيام بحيث كان مضطراً للتراجع. وعاد داود بن عيسى وبعدها عاد المختار إلى الحكم بموافقة داوود وكان كلا الأخوين تحت ضغوط من خارج مكة. طغتكين أخو صلاح الدين كان قد توقف لفترة في مكة بعد أداء فريضة الحج سنة ١١٨٥ وتولى زمام الحكم. فصعد الأمير وأتباعه إلى جبل أبي قبيس وهم يراقبون بفارغ الصبر المحتل الغريب وفقدان مكانتهم يومياً عند أهل مكة، طغتكين رفع الضريبة عن الحجاج والمفروضة عليهم من الأمير وبدلهم بإعانة مالية سنوية ومعونة من القمح من مصر وأبقى على القمح اليمنى لمؤنة عسكره في تلك المنطقة وذلك حيث أنه كان ينوب عن صلاح الدين. وهكذا فقد فرح الحجاج وخنق استقلال الأمراء. وكان الأسوأ بالنسبة لهم ولمكانتهم عندما صك طغتكين العملة ووزعها في مكة باسم صلاح الدين. بالإضافة إلى حكم الإعدام الذي نفذه ببعض ممن كانوا يحملون السلاح من أعوانهم الأساسيين ـ هذا الحكم العادل أو غير العادل حسب الكتاب المتحيزين أو غير المتحيزين ـ والذين كانوا يشاهدون من فوق القلعة من فوق جبل أبي قبيس.

وعندما غادر طغتكين عادوا إلى مكانتهم الأولى وسار وراءهم أهل مكة فرحين بتحريرها. وقد بدأوا بأخذ الضرائب من الحجاج زيادة عما قبل لشعورهم بأن الوقت يداهمهم وأن سوء الحظ قد يتدخل ليقف عائقاً أمامهم وأن المشكلة الإقتصادية أمام الحجاز تتمثل باليمن. وحكام مكة كانوا في حلف مع حكام اليمن بواسطة السلالة الواحدة والروابط الفكرية والدينية ذات الميول المذهبية المتشابهة. ولكن مكة مكان للحجاج ومعرضة للتأثيرات الخارجية باستمرار في كلّ ما يبرز على الساحة الإسلامية يكون تأثيره الأقوى في مكة عنه من أي دولة إسلامية أخرى. ولهذا فإن الأشراف كانوا دائماً ملزمين بتجهيز أشرعتهم للإبحار في اتجاه سياسي وديني جديدين.

أما كلمة الشريف كعنوان والتي هي الآن تستعمل كجزء من وظيفة شرفية فإنه لقب غامض فالكلمة لم تنزل في القرآن وكلقب يبدو أنها لم تستعمل إلا لاحقاً أي في عصر الخلفاء الفاطميين والذين بواسطتهم كما ذكر السيوطي حدث تقنين لاستعمالاتها وكان يسمح بإطلاقها على من كانوا من سلالة الحسن والحسين أبناء علي بن أبي طالب.

ناقش كثير من الكتاب العرب هذه التسمية ومعناها الحقيقي و«الحُصري» يقول في زهر الأدب بأنها تطلق على من هم من سلالة النبي - وتعني - شجاع، سلالة نقية، أخلاق عالية، ذو عقل مستنير قادر على التعلم.

يقول «القيتبي» في كتابه «كتاب العرب» أنها تعني أربعة معان: سلالة ترجع إلى النبي، شخصية إنسانية، عراقة الأجداد، كرم. وحتماً فإن المشاعر الإنسانية تجاه الآخرين مع مشاعر كريمة وإحساس بالواجب أو المعاكس لما هو فظ، الغلظة المادية التي قد تطغى عليها أحياناً. إن اسم شريف وما يرافقه من أسماء متشابهة مثل شرف، قد شُرحت مفصلاً في كتاب مباحث العرب «لبشر فارس» في الفصل المتعلق ببند: طرق لفظ الشرف. والذي طبع في القاهرة ١٩٣٩. ولكن بحلول القرن الثالث عشر أصبحت شائعة ومقبولة كصفة لحكام مكة وسلالاتهم من عشيرتهم وقد انتشرت لتعم كل المتحدرين من تلك العشيرة. وقد شاع استعمالها في طرق عدة وليس فقط كلقب فردي لكل

العشائر القريشية في الحجاز فمثلاً كلمة الأشراف تعني قريش لأنهم إن كانوا أهل حضر أو نصف حضر فهم الشرفاء. وهي تعني أشخاص محددين في هذه التسمية: النبلاء الذين يسكنون مكة أو أولئك المتواجدون في مدن أخرى ويتحدرون من العائلة الحاكمة الشريف هو (الاسم المفرد) إلا أن يكون اسم شخص عادي فهي صفة تعني الحاكم القرشي لمكة أو الجد شخصياً.

إن النظرة الفاحصة لهذه المسائل تولد كلمات محددة بحيث تجعل حاملها ملتزماً بها بمظهر خارجي يلائم هذه الكلمات.

إن العرب ليس لها ألقاب، وحسب المفهوم الواضح لكلمة شريف وشيخ وأكبر منذ أيام النبي محمد (ص) وحتى أيامنا هذه عدا كلمة أمير فهو صفة لنمط معين وليس لقباً والتي من الممكن أن تكون قد استعملت لقيادة أي فئة أو مجموعة مهما كانت صغيرة. وليست كلمة أمير العربية إلا كلمة حديثة لا تعني أكثر من معنى القائد وإن الديمقراطية الطبقية تظهر في استعمال هذه الصفات والألقاب وخصوصاً أنه لا توجد ألقاب كثيرة.

كل المتحدرين من القبائل يعتبرون أنفسهم نبلاء حتى لو كانوا حالياً بدواً شعثاً وأسلوبهم يخون كبرياءهم (لقبهم) وحيث أنهم كلهم إلى حد ما نبلاء بالفطرة، فإن اللقب لم يكن أبداً كما الحال في أوروبا يستعمل كشيء أساسي لا غنى عنه لذا فإن العائلة الوحيدة التي تحمل صفة النبالة في الجزيرة العربية هم ذوي الأصول القريشية أو أبناء عمومتهم هنا وهناك في العالم العربي.

إن الرئاسة في مكة كانت في القرن الثالث غير مستقرة بين أيادي فرع واحد من عائلة الأشراف ولكي تبقى في يد عشيرة واحدة هي سلالة عمرو هاشم جد النبي (ص) من خلال الحسن الابن الحفيد للنبي (ص) ومن تبقى منهم.

الحكام من القرن العاشر
وحتى الثاني عشر

	ميلادية
أبو طاهر بن أبو السعيد الجنابي الكرماتي (حاكم مؤقت)	٩٢٨

حكم بني الحسن بن علي بن أبي طالب

جعفر بن محمد الحسني (قدم إلى مكة مع قافلة حجاج فاطمية من مصر)	٩٨٠ ـ ٩٦٥
عيسى بن جعفر	٩٩٤ ـ ٩٧٥
أبو الفتوح بن جعفر (عين مؤقتاً خليفة في الشام والحجاز)	٩٧٥ ـ ٩٩٤
محمد شُكر بن أبو الفتوح	١٠٣٩ ـ ١٠٦١

حكم بني أبي الطيب ـ الفاتك

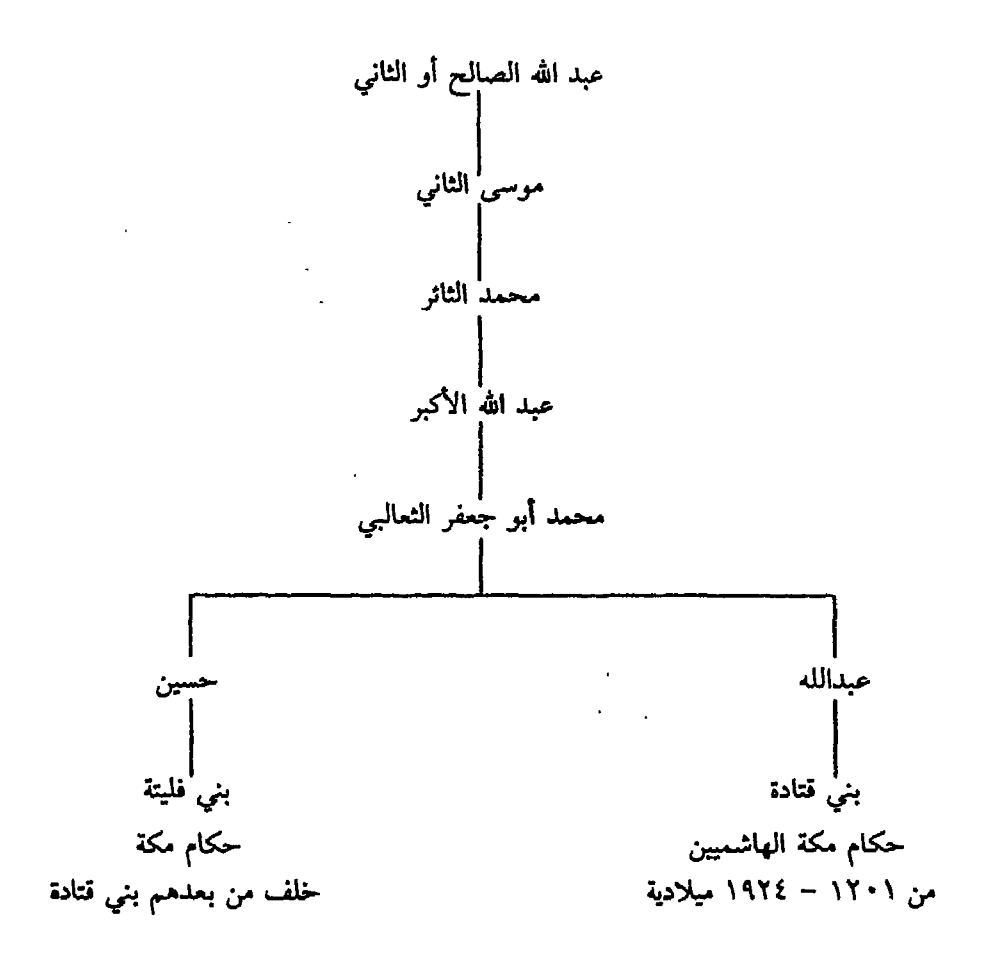
محمد بن أبي فاتك (أخذ الحكم بواسطة علي بن محمد الصيلحي اليمني)	١٠٦١ ـ ١٠٦٣

حكم بني أبي هاشم

محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم (من سلالة موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب)	١٠٦٣ ـ ١٠٩١
قاسم بن محمد	١٠٩١ ـ ١١٢٤
فليته بن قاسم	١١٢٤ ـ ١١٣٢
هاشم بن فليته	١١٣٢ ـ ١١٥٤
قاسم بن هاشم	١١٥٤ ـ ١١٦١
عيسى بن فليته	١١٦١ ـ ١١٧٤
داوود بن عيسى	١١٧٤ ـ ١١٧٥
مكثر بن عيسى (عزل من قبل تشتكين أمير الحج في العراق والذي عين مكانه قاسم بن مهنا الحسيني والذي استطاع أن يحكم بضعة أيام فقط)	١١٧٥
داوود الذي استعاد حكمه والذي أعطى الحكم مجدداً لمكثر والذي حكم حتى سنة ١٢٠٠	١١٧٥ ـ ١٢٠٠

* المصدر: تاريخ الطبري (ليدن ١٨٧٩ ـ ١٩٠١) نسخة فرنسية مترجمة عن الفارسية.

علاقة بني فليته ببني قتادة



الفصل الرابع

آخر أيام الأمير مكثر وحكم قتادة وأبنائه وأحفاده (١١٨٥-١٢٥٤)

آخر أيام الأمير مكثر وحكم قتادة وأبناءه وأحفاده (١١٨٥ـ١٢٥٤)

بغض النظر عن عدم قدرتهم على صد التدخل الخارجي في الأمور المكية الداخلية. فإن بني فليته كانوا يهملون واجباتهم المهمة. وبدأوا يبحثون عن اللهو والمتعة، وأصبحوا تدريجياً غير قادرين على عمل أي شي مهم. إلى أن كان العام ١١٨٥ ميلادية حيث مات أكثر من حاج في الحرم المكي نتيجة للتدافع الكثيف. وفي سنة ١١٨٩ هرب شقيق مكثر داوود إلى وادي نخلة حاملاً معه الإطار الفضي للحجر الأسود.

وكان الحاكم نفسه قد هرب من مكة في إحدى المرات نتيجة خلاف حصل بينه وبين أمير الحج العراقي طشتكين والذي حكم مكة قبل أن يسلم حكمها إلى قاسم بن مهنا الحسيني من المدينة. وقد اكتشف قاسم أنه من الصعب السيطرة على أهل مكة ولقد استقام بني فليته قليلاً بعد ذلك ولكن مكانتهم كانت أدنى بكثير عما كانت سالفاً.

وبسبب الفوضى التي عمت المدينة المقدسة سنة ١١٨٥ كان طغتكين أخو صلاح الدين قد أتى واستقر في مكة وأدار شؤونها خلال موسم الحج. وكان الناس بين موافق ومعترض ولكنهم كانوا جميعاً غير قادرين على تحمل مضايقات العسكر وخدم فليته. وكان الأشراف يسعون باهتمام بالغ وسرية تامة

لتعيين حاكم جديد وقوي للمدينة. وقد وقع اختيارهم على قريب لهم بالمصاهرة والعصب الرجل الجليل قتادة وكان حاكماً لميناء ينبع ويقع غرب المدينة المنورة وكان في السبعين من العمر. وهو الحفيد السادس عشر (في سلسلة متصلة) لعلي وفاطمة ابنة النبي محمد (ص) وكان عين شيخاً لقبيلة جهينة منذ أن كان في الواحد والعشرين من العمر وكان شاعراً هاوياً وفارساً مقداماً.

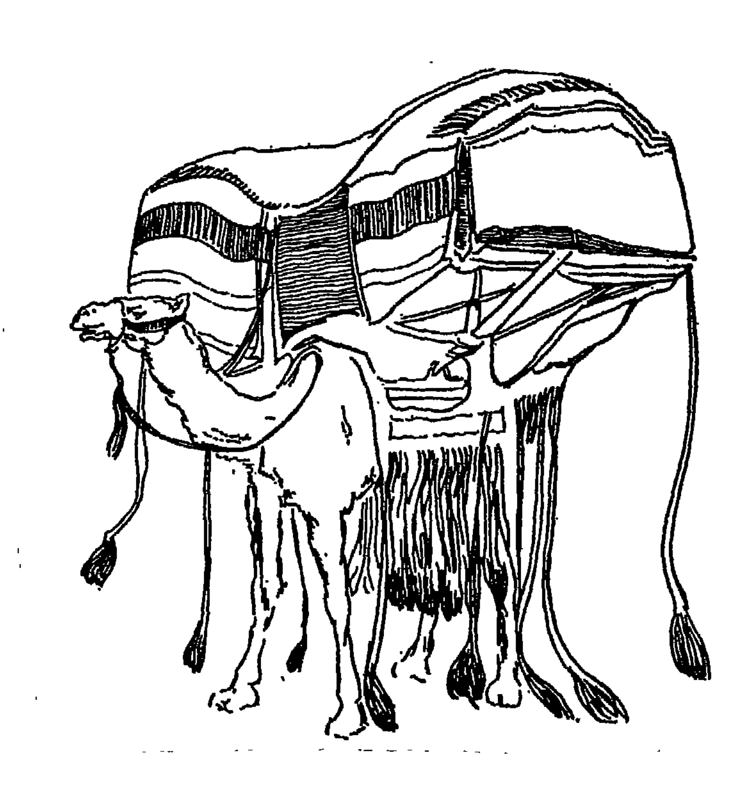
أرسل قتادة ابنه حنظلة على رأس مجموعة من الفرسان لاستلام مكة. وقد اختار فليته يوم ٢٧ رجب بفطنة وذكاء يوم الهجوم على مكة، حيث أنه يوم الحج الأصغر عندما يكون مكثر ووجهاء البلد وغالبية الناس خارج الأسوار. وبهذا فقد تسلم المدينة بدون إراقة دماء. وكان هذا التاريخ يوم ٣ أيار ١٢٠١ ميلادية وهو اليوم نفسه الذي هرب فيه مكثر إلى وادي نخلة ولم يرجع إلى مكة أبداً حيث مات بعدها بسنتين في اليمن منفياً.

والرحالة ابن جبير الذي زار مكة حاجاً في عهد حكم مكثر وقد دون نبذة مثيرة عن يومياته كتب:

«لقد أعفى صلاح الدين الحجاج من الضرائب وبدلاً منها أمر بإعطاء أموال ومؤنة ترسل إلى مكثر أمير مكة بدل الضرائب التي يفرضها مكثر على الحجاج وخصوصاً الحجاج القادمين عن طريق البحر. (أرسل صلاح الدين ٨٠٠٠ ثمانية آلاف أردب من القمح عن طريق البحر وألفي دينار وهذا حسب ابن زيني دحلان) وعندما تأخرت هذه المساعدات عن الوصول فقد هدد الأمير مكثر الحجاج بإعادة فرض الضريبة عليهم. وصودف وصولنا إلى جده عندما كان هناك إمساك بالحجاج ومنعهم من الدخول. وقد خوطب مكثر الأمير المذكور بالأمر فورد الأمر بأن يضمن الحجاج بعضهم بعضاً وبعدها يمكنهم دخول حرم الله. فإن ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين وإلا فإنه لا يستطيع ترك ماله عند الحجاج.

وقد تركنا جده بعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضاً وثبت أسماؤهم في

سجل عند قائد جده علي بن موفق. وهذا الرجل مكثر هو من ذرية الحسين بن علي رضوان الله عليه ولكنه ممن لا يعمل صالحاً».



هودج الحج

وقد وصف ابن جبير مشهد الحرم المكي أثناء مراسم الحج كما يلي:

«فإذا كان يوم الجمعة وقرب وقت الصلاة يدخل الخطيب من باب النبي (ص) وكان يلبس رداءً أسوداً، وكان هذا الرداء محاكاً بالذهب وكذلك متعمماً بعمامة سوداء محاكة بالذهب أيضاً وثوب أخضر رقيق.

وهو هبة من الخليفة يرسلها للخطباء في هذا البلد. فيأتي ماشياً وعليه السكينة والوقار يتهادى رويداً بين رايتين سوداوين يحملهما رجلان من المؤذنين

وثالث يسعى بين يديه. وكان يضرب الهواء بسوطه فيعطي صوتاً مفرقعاً يسمع من خارج الحرم وداخله. وعندما يصل إلى المنبر يقف قرب الحجر الأسود فيقبله ثم يمشي إلى المنبر مع المؤذن رئيس المؤذنين والذي يمشي أمامه ويمسك بيده سيفاً.

وعندما يصعد الخطيب فيناوله المؤذن السيف فيضرب بدوره درجات المنبر واحدة فالثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم يقف مواجهاً الكعبة يدعو بصمت ويحيي الناس، السلام عليكم، ويجيبه الناس وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وعندما ينتهي المؤذن من الآذان للصلاة يجلس فيضرب بسيفه ضربة خامسة ثم يقوم بعدها للخطبة فيذكر الرسول (ص) والخلفاء الأربعة ثم دعا لعمي النبي (ص) حمزة والعباس ثم الحسن والحسين. ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي (ص) ثم دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسيني ثم لصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب (صلاح الدين) ولولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تحقق الألسنة بكلمة آمين من كل مكان.

وإذا أحب الله يوماً عبده، ألقى عليه محبة للناس وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الإعتناء بهم ولما رفعه عنهم من ضريبة.

وفي هذا الوقت أعلمنا بأن كتابه وصل إلى الأمير مكثر وأهم فصوله التوصية بالحجاج والتأكيد على برهم ورفع أيدي الإعتداء عنهم والإيعاز في ذلك إلى الخدام والأتباع وكل من يهمه الأمر.

وفي أثناء الخطبة تركز الرايتان السوداوان في أول درجة من المنبر ويمسكهما رجلان من المؤذنين فإذا فرغ من الصلاة، خرج والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه على الصفة التي دخل بها.

يبكر أمير مكة مكثر في صبيحة اليوم التالي إلى الحرم الكريم وقواده يحفون به والقراء يقرأون أمامه ورجاله السود من أمامه يطوفون وبأيديهم

الحراب لابساً ثوب بياض ومتعمماً بعمامة صوف بيضاء وهو يأتي إلى الكعبة في أول كل شهر.

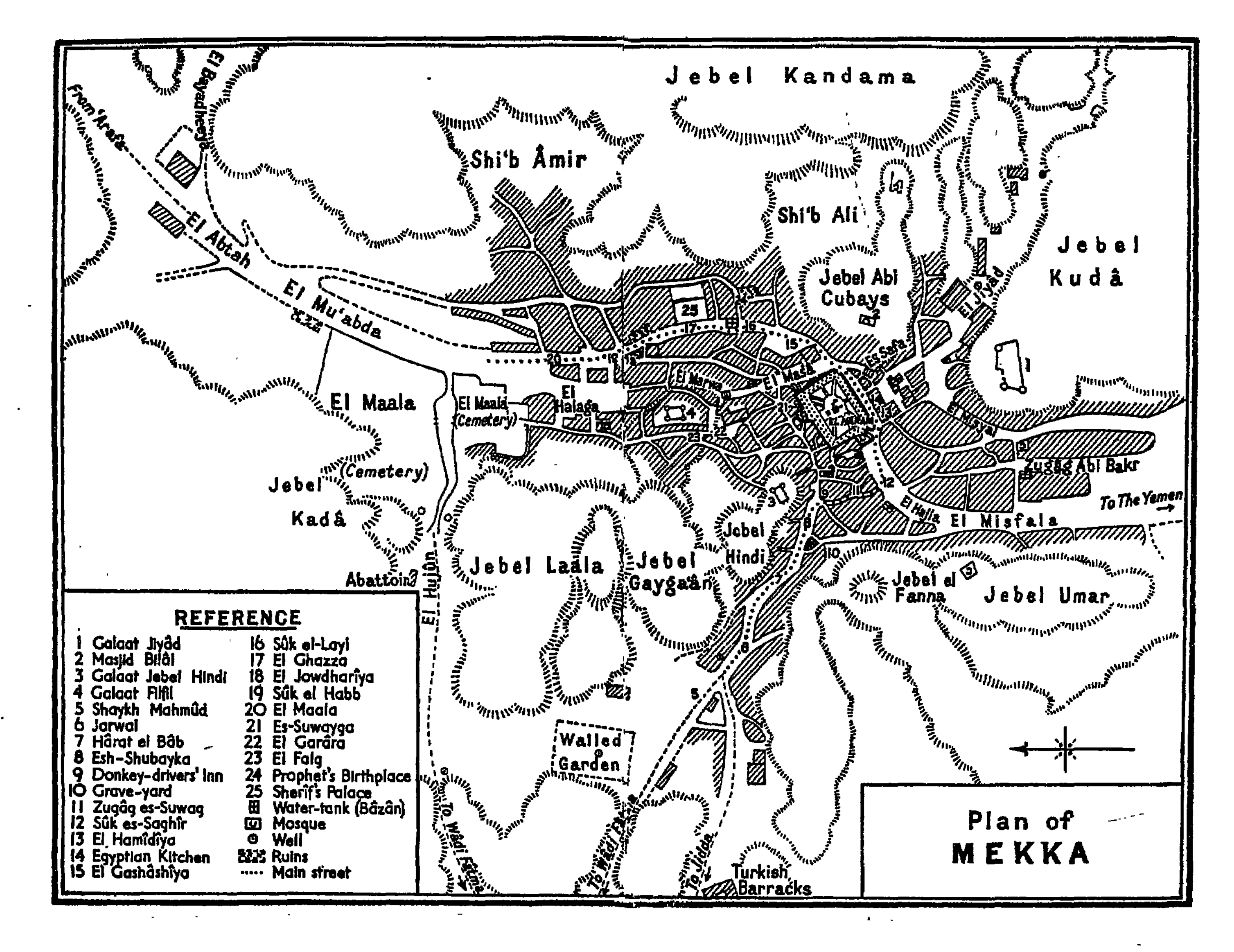
ومن أغرب ما شاهدناه من ذلك هودج الشريفة جُمانة بنت فليته عمة الأمير مكثر. فإن أذيال سترة كانت تنسحب على الأرض انسحاباً وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تسجيل عدتها عجزاً عن إحصائها فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة والنيران قد اشتعلت على جانبي الطريق والشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هوادج والتي تؤدي أكثر نساء مكة المرموقات.

كل نساء مكة كن يأتين إلى المسجد يوم التاسع والعشرين من رجب، حيث يخلي الرجال المكان وقد طفن صائحات معولات مهللات ومكبرات فكان ذلك اليوم عندهن اليوم الأكبر والأشهر فقبلن الحجر الأسود وتلمسن الأركان لأنهن عندما يكن مع الرجال فلا يحظين بهذه الحرية.

واستعمال السوط في رمضان بين الصلوات وبين صلاة التراويح وهي تستعمل ثلاث مرات بعد صلاة المغرب وثلاث مرات بعد صلاة العشاء وهي عادة غريبة وخاصة بهذا الجامع المقدس.

خرج الأمير مكثر للقاء الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين القادم من مصر وقد تقدم الخبر بوصوله من مصر منذ مدة ثم تواتر إلى أن أصبح وصوله إلى ينبع متيقناً وأنه عرج على المدينة لزيارة قبر الرسول (ص) وقد قيل بأنه يقصد السير إلى اليمن وذلك لاختلاف وقع فيها وفتنة حدثت من أمرائها ولكن وقع في نفوس المكيين خيفة وخشية فخرج هذا الأمير المذكور مسلماً وفي الحقيقة بل مستسلماً...

سمعنا أبواق الأمير مكثر وأصوات نساء مكة يولولن عليه ودخل الأمير مكثر منصرفاً من لقاء الأمير سيف الإسلام وطائفاً بالبيت المكرم طواف التسليم. والناس قد أظهروا الإستبشار لقدومه والسرور بسلامة وصوله. ووصل إلى الحرم المتقدمين من عسكره وزاحمت الأمير مكثر في الطواف حول البيت المقدس.



Plan of MEKKA
REFERENCE
1 Galaat Jiyâd
2 Masjid Bilâl
3 Galaat Jebel Hindi
4 Galaat Filfil
5 Shaykh Mahmûd
6 Jarwal
7 Hârat el Bâb
8 Esh-Shubayka
9 Donkey-drivers' Inn
10 Grave-yard
11 Zugâg es-Suwag
12 Sûk es-Saghîr
13 El Hamîdiya
14 Egyptian Kitchen
15 El Gashâshîya
16 Sûk el-Layl
17 El Ghazza
18 El Jowdharîya
19 Sûk el Habb
20 El Maala
21 Es-Suwayga
22 El Garâra
23 El Falg
24 Prophet's Birthplace
25 Sherîf's Palace
Water-tank (Bâzân)
Mosque
Well
Ruins
Main street
Jebel Kandama
From Arafa
El Bayadheeya
El Abtah
El Mu'abda
Shi'b Âmir
Shi'b Ali
Jebel Abi Cubays
Jebel Kudâ
El Jiyâd
Es Safa
El Masâ
El Marwa
El Maala
El Maala (Cemetery)
El Halaga
Jebel Kadâ
(Cemetery)
Abattoir
El Hujûn
Zugâg Abi Bakr
To The Yemen
El Halla
El Misfala
Jebel Hindi
Jebel Laala
Jebel Gaygaân
Jebel el Fanna
Jebel Umar
Walled Garden
To Wadi Fâtima
To Jidda
Turkish Barracks

خريطة مكة

فبينما الناس ينظرون إليهم إذ سمعوا ضوضاء عظيمة وزعقات هائلة فما راعهم إلا الأمير سيف الإسلام داخلاً من باب بني شيبة والسيوف أمامه تكاد تحول بين الأبصار وبينه والقاضي عن يمينه وزعيم الشيبين عن يساره والمسجد قد ارتج وغص بالنظارة والوافدين والأصوات بالدعاء له ولأخيه صلاح الدين قد علت في الناس والمؤذن الزمزمي كان يدعو لسيف الإسلام ويثني عليه. وعندما دنا الأمير سيف الإسلام من البيت الحرام أغمدت السيوف وهدأت النفوس وخلعت ملابس العزة وذلت الأعناق وخضعت النفوس وطاف القاضي وزعيم الشيبين بسيف الإسلام والأمير مكثر قد غمره ذلك الزحام فأسرع في الإنتهاء من الطواف وعاد إلى منزله.

وعندما أكمل سيف الإسلام طوافه وصلاته عاد إلى معسكره وفي اليوم التالي سمعنا أصوات الطبول والأبواق ثم ظهر الأمير مكثر مرتدياً حلة ذهبية يسحب أذيالها وراءه وعلى رأسه عمامة مرصعة بالذهب وكانت قد أهديت إليه من سيف الإسلام وأتى ليبرزها للناس فرحاً مزهواً. وطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير بعد أن كان أوجس خيفة منه في بداية الأمر.

وفي يوم الجمعة وصل الأمير سيف الإسلام للصلاة مع الأمير مكثر في القبة العباسية فلما انقضت الصلاة عاد إلى عسكره. وفي يوم الأربعاء العاشر من رمضان خرج الأمير بجنوده متجهاً إلى اليمن.

كان الشيبيون (سدنة الكعبة) أول من بكر ففتحوا باب الكعبة المقدسة في أول يوم من أيام عيد الفطر، وأقام زعيمهم وكان جالساً في القبة المقدسة وسائر بني الشيبة داخل الكعبة إلى أن أحسوا بوصول الأمير مكثر فنزلوا إليه وتلقوه على مقربة من باب النبي (ص). وكان قد طاف حول الكعبة يومياً ولمدة أسبوع كامل والناس يحتفلون بعيدهم والحرم غص بهم.

فلما أكمل الأمير الأسبوع عمد إلى مصطبة قبة زمزم مما يقابل الركن الأسود فقعد بها وأبناءه عن يمينه ويساره بينما وزيره وحاشيته وقوفاً عند رأسه

وكان الناس يلحظوهم بأبصار حاسدة لمكانتهم من سدانة البيت وحضر من خاصة الأمير شعراء أربعة فأنشدوه واحداً إثر واحد إلى أن فرغوا من إنشادهم ثم أقبل القاضي الخطيب يتهادى بين رايتيه السوداوين والفرقعة المتقدم ذكرها أمامه، وعندما انتهى من خطبته أقبل الناس على بعضهم البعض بالمصافحة والتسليم والتغافر ثم أقبلوا على البيت الكريم.

وفي اليوم الثامن والعشرين من الشهر جاء زعيم الشيبيين المعزول يتهادى بين بنيه مزهواً مختالاً ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد إليه ففتح الباب الكريم، وسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبي المعزول وإعادته إلى عمله على الرغم مما نسب إليه من أخطاء فأعلمنا أنه دفع مقابل ذلك خمسمائة دينار استقرضها لهذا الأمر. ولم نفاجأ بعد أن علمنا أن عملية إلقاء القبض عليه لم تكن لا غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه مع كونها في عظمتها تفوق الخلافة رفعة وأن الفساد ظهر حتى في أشرف بقعة من بقاع العالم...

وفي يوم الإثنين الخامس أو الرابع من هذا الشهر وصل الأمير عثمان بن علي صاحب عدن. وكان قد خرج فاراً من أمام سيف الإسلام الذي توجه إلى اليمن وركب البحر في مراكب كثيرة مشحونة بأشياء قيمة وأموال لا تحصى لأنه طال مقامه في تلك الولاية واتسع كسبه. وعندما خرج من البحر لمسافة معينة لحقت به مراكب الأمير سيف الإسلام قاذفة الحرائق فأخذت جميع ما في مراكبه من أموال وأحمال وكان قد استصحب الخفيف النفيس معه إلى البر مع جملة من رجاله وعبيده فسلم به. ووصل إلى مكة على إبل مثقلة متاعاً ومالاً ودخل إلى بيته الذي كان قد ابتناه سابقاً.

وقد فهمنا أنه كان في ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار وكانت المنفعة التجارية كلها عائدة إليه شخصياً فجمع كنوزاً قارونية لكن حوادث الأيام وتعاقبها عليه أدت إلى زوال نعمته.

وقد تواردت الأخبار عن رؤية الهلال ولكن القاضي بقي على ثباته بعدم القبول وأرجأ الأمر إلى حين وصول العلم من الأمير العراقي وقافلة الحجاج.

فلما كان يوم الأربعاء السابع من الشهر وصل المبشر وأعلم برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور. فثبت الأمر عند القاضي مما أوجب خطبته بذلك الأمر. حيث أعلمهم أن الغد هو يوم الصعود إلى منى وقد استعد الحجاج للإنطلاق باكراً إلى منى ومنها إلى عرفات.

وكانت العادة أن يبيتوا هناك ولكنهم تركوا هذا العرف اضطراراً بسبب خوفهم من بني شعبة المغيرين على الحجاج في طريقهم إلى عرفات وقد صدر عن الأمير عثمان المتقدم ذكره أوامر إلى جنده كي يرابطوا في المضيق الذي بين مزدلفة وعرفات لحماية الحجاج.

وقد نصب الأمير قبة بين جبلين بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد إلى رأس الجبل بفرسه فعجبنا من أمره وأمر فرسه كيف أمكنه الصعود إلى ذلك المرتقى الصعب. فأمن جميع الحجاج بفضل مشاركة هذا الأمير ودعوا له بالمغفرة إذ أصاب أجرين أجر جهاد وأجر حج في نفس الوقت، وكذلك وصل الأمير العراقي في جمع لم يصل قط مثله ووصل معه من أمراء الأعاجم والخرسانيين ومن النساء العقائل (النبيلات) والمعروفات بالخواتين ومفردها خاتون وكثير من السيدات من بنات الأمراء وكانت محلة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر راقية المضارب والأبنية، عجيبة القباب والأروقة على هيئات لم ير أبدع منها منظراً وكان أعظمها مرأى مضرب الأمير وذلك أنه أحاط بهم سرادق كالسور من كتان كأنه حديقة بستان أو زخرفة بنان وفي داخله القباب المضروبة وهي ذات ألوان متداخلة أسود في بياض مرقشة وملونة كأنها أزاهير الرياض. وقد زينت واجهة السرادق من جوانبه الأربعة كلها بأشكال بيضاوية بلون من السواد المتداخل مع البياض فيشعر الناظر إليها مهاباً وعظمة فكأنها مجموعة من الدروع.

وأبواب هذا السور مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة حقيقة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم يفضي منها إلى الفضاء الذي فيه القباب. فكأن هذا الأمير ساكن في مدينة قد أحاط بها سورها تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله، وهي من الأبهات الملوكية المعهودة التي لم يعهد مثلها عند ملوك المغرب.

وداخل تلك الأبواب حجاب الأمير وخدمه وحاشيته وهي أبواب مرتفعة يجيء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطؤ قد أحكمت وثبتت ذلك كله حبال وثيقة من الكتان تتصل بأوتاد مغروسة في الأرض. ولسائر الأمراء الواصلين بصحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك لكنها على تلك الصيغة. ولهم أيضاً في مراكبهم على الإبل قباب تظلهم بديعة المنظر عجيبة الشكل. قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها القشاوات وهي كالتوابيت المجوفة. وهي لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال تملأ بالفرش الوثيرة ويقعد الراكب فيها مستريحاً كأنه في مهد لين فسيح وحتى يحدث التوازن فوق ظهور الإبل تعمل هذه الأمهدة مزدوجة فتصبح المساحة فسيحة ومريحة. والقبة مضروبة عليها من فوق فيسار بها وهما نائمان لا يشعران أو كيفما أحبا. فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ضرب سرادقها للتو إن كانا من أهل الترفة والنعم فيدخل فيها راكبين وينصب لهما كرسي ينزلان عليه وينتقلان من ظل فيه المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء تلحقهما ولا خطفة شمس تصيبهما.

وفي اليوم الثاني من النحر خطب الخطيب بمسجد النحيف وهذا الخطيب وصل مع الأمير العراقي مقدماً من عند الخليفة للخطبة والقضاء بمكة على ما يذكر ويعرف بتاج الدين وظاهر أمره البلادة والبله لأن خطبته أعربت عن ذلك ولسانه لا يقيم الإعراب.

وكان بين السود من أهل مكة وبين العراقيين جولة مشاجرات وقعت فيها جراحات وسلت السيوف وشدت الأقواس ورميت السهام وانتهبت بعض أمتعة التجار لأن منى في تلك الأيام الثلاثة تصبح سوقاً من أعظم الأسواق يباع فيها من الجوهر النفيس إلى أدنى الحرير إلى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الدنيا فوقى الله شر تلك الفتنة بتسكينها سريعاً والحمد لله رب العالمين.

وفي السبت يوم النحر المذكور سيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال يتقدمها القاضي الجديد بكسوة الخليفة السوداء والرايات فوق رأسه والطبول تضرب من ورائه...

ثم انطلقنا إلى وادي قر وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة الماء تسقى منها أرض المنطقة الواسعة وفي هذا الوادي المتسع قرى كثيرة وعيون ومنه تجلب الفواكه إلى مكة حرسها الله.

فأقمنا به يوم الجمعة لسبب عجيب وذلك أن الملكة خاتون بنت الأمير مسعود ملك الدروب والأرمن وما يلي بلاد الروم وهي إحدى الخواتين الثلاثة اللاتي وصلن للحج مع أمير الحج أبي المكارم طاشتكين مولى أمير المؤمنين والمرسل كل عام من قبل الخليفة منذ ثمانية أعوام أو أكثر. وخاتون هذه أعظم الخواتين قدراً بسبب سعة مملكة أبيها وله على ما تأكد وتحت إمرته أكثر من مئة ألف فارس وصهره عليها نور الدين صاحب آمد وما سواها. وتحت إمرته أيضاً، حوالي اثني عشر ألف فارس، وخاتون الثانية هي أم عز الدين صاحب الموصل وزوج قطب الدين بن أتابك أخي نور الدين الذي كان صاحب الشام رحمه الله. أما خاتون الثالثة فهي ابنة الدقوس صاحب أصبهان من بلاد خرسان.

وصلت خاتون بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها يوم السادس من محرم ورابع يوم وصولنا إلى المدينة إلى مسجد الرسول راكبة في قبتها وحولها قباب كريماتها وخدمها والفتيان من الصقالب بأيديهم مقامع من حديد يطوفون حولها. ويدفعون الناس أمامها إلى أن وصلت إلى باب المسجد الحرام المكرم. فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ومشت إلى أن سلمت على النبي (ص) والعبيد من أمامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها إشادة بذكرها ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت الملحفة والناس يتزاحمون عليها ومقامع الحديد تفرقهم عنها ثم صلت في الحوض بإزاء المنبر ثم مشت إلى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال إنه كان مهبط جبريل عليه السلام وأُرخي الستر وأقام فتيانها وعبيدها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها. وأحضرت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقات فما زالت في موضعها إلى الليل أي حتى وصول صدر الدين رئيس الشافعية في أصبهان

الذي ورث النباهة والوجاهة في العلم كابراً عن كابر وقد تأخر عن موعده وكانت جموع الناس في انتظاره وكان سبب تأخره هو تأخر أمير الحج الذي كان برفقته.

وخطب صدر الدين وتمادى في وعظه إلى أن أطار النفوس خشية ورقة وتهافتت عليه الأعاجم معلنين التوبة وهم ذاهلون فيلقون نواصيهم بين يديه فيستدعي مقصاً ويجزها ناصية ناصية ويكسو عمامته المقصوص من النواصي فيوضع عليه حالاً عمامة أخرى من أحد قرنائه أو جلسائه فيبادرون بعماماتهم لاستجلاب الغرض النفيس فلا زال يخلع واحدة واحدة إلى أن خلع فيها عدة وجز نواصي كثيرة. ثم ختم مجلسه بأن قال: معشر الحاضرين لأن للواعظ من أجر وأنا أسألكم حاجة أن ضمنتوها لي أرقت لكم ماء وجهي في ذكرها فأعلن الناس كلهم الموافقة على المساعدة. قال حاجتي أن تكشفوا رؤوسكم وتبسطوا أيديكم ضارعين لهذا النبي الكريم في أن يرضى عني ويسترضي الله عز وجل لي ثم أخذ يعدد ذنوبه ويعترف بها فأطار الناس عمائمهم وبسطوا أيديهم للنبي (ص) داعين له باكين متضرعين. فما رأيت ليلة أكثر دموعاً ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة ثم انقض المجلس وانقض الأمير وانقضت الخاتون من موضعها».

هكذا كان مشهد الحج في مكة حتى نهاية حكم الأمير مكثر في النصف الثاني للقرن الثاني عشر.

إن الحاكم الجديد والشجاع الرجل العجوز قتادة حاكم مكة والذي خلف المختار بقوة السلاح وحيث كان ما زال تحت الأربعين من العمر لا بد وأن يكون قد لاحظ تألق نجم القائد العسكري الكردي المشهور صلاح الدين يوسف. إن صلاح الدين هو تلميذ القائد العسكري نور الدين محمود بن زنكي وكان قائد جيش في الخلافة العباسية وقد استقل عن الخلافة العباسية وعمل ملكاً للشام. وقد كان مثلاً أعلى لصلاح الدين الذي أرسل من قبله إلى مصر وبدأ يخطط للإستقلال بها لنفسه أيضاً وقد أصبح سلطاناً سنة ١١٦٩ ميلادية، مع أن آخر خليفة فاطمي لم يمت إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أي سنة

١١٧١ ميلادية حيث بدأ بالدعاء في مساجد القاهرة للخليفة العباسي المقتدر بدلاً من الخليفة الفاطمي أديب أبو محمد عبد الله والذي كان على فراش الموت وهو آخر حلقة من سلسلة امتدت لقرنين من الزمان.

إن المدن المقدسة في الحجاز كانت بشكل عام تحت نظر المصريين وكانت تحت الرعاية المصرية وفي سنة ١١٧٣ أرسل صلاح الدين أخاه معظم طوران شاه لحكم الجزيرة العربية من اليمن والذي بعدها بسنتين أمر حاكم مكة داوود بن عيسى بن فليته باسم الخليفة العباسي بتسليم مقاليد الإمارة إلى أخيه مكثر.

أما من الشمال فكانت الأخبار ترد عن انتصارات وعن تغييرات في القيادات بدأت تصل بمدها إلى البحر الأحمر. وإلى طرابلس بالشام إذ استردت بعض المواقع من قبل صلاح الدين من أيدي الصليبيين في الشام والتي بقيت تحت سلطته منذ استردادها قبل وفاة قائده العسكري نور الدين بسنة. واقتطع الموصل وأتبعها حلب ووضع أمراء في المقاطعات التابعة لدولته وفي سنة ١١٨٠ كانت مملكة القدس المسيحية في نزاعها الأخير مع صلاح الدين.

إن الفارس الفرنسي الصليبي رينو دي شاتيون والذي استولى على الأرض خلف نهر الأردن وقلعة مواب ومرتفع شويك شرق البحر الميت والذي يسيطر على طريق الحجاج إلى مكة وكانت خطة جريئة من قبل رينو حيث يصبح في موقع يتيح له مهاجمة عاصمة الإسلام.

وفي السنة التالية بعد أن اخترق الهدنة مع المسلمين وصل إلى تيماء في عمق الجزيرة العربية قاطعاً بذلك طريق القوافل حيث سرق ونهب القوافل الغنية وبعد أن صرف النظر عن محاولة الإستمرار في الهجوم البري للوصول إلى الكنز حيث قبر النبي (ص) حسبما كان يعتقد اتبع رينو خطة ينوي من خلالها مهاجمة الأماكن الإسلامية المقدسة من البحر لجأ صلاح الدين إلى بناء حصن عالي البناء في شمال سيناء كنقطة متقدمة للدفاع ولكن رينو استولى على ايليه على خليج العقبة في هجوم مفاجىء وسرق عدة سفن من موانىء جنوبي

فلسطين عسقلان وغيرها وقام بتفكيكها وحملها قطعاً على ظهور الجمال عبر الصحراء وبالإضافة إلى ما أضافه من أخشاب اقتطعها من غابة قرب شوبك استطاع إعادة بناء تلك السفن في خليج العقبة وعمل منها خمس سفن شراعية ضخمة. كل واحدة منها قادرة على حمل ألف رجل ومجموعة من السفن الأصغر. وبينما كانت مجموعة من تلك السفن تحت إمرة رينو مباشرة ترسو مقابل جزيرة غراي كانت المجموعة الأخرى تحت سيطرة أحد قادته العسكريين كانت تجوب الساحل من الجنوب إلى الشمال وذلك قبل أن يعود صلاح الدين من رحلته إلى معسكر له على الفرات. والذي علم بالأخبار من قبل أن يعود. وكانت سفن المسيحيين تبحر بواسطة المجاذيف أسرع من سفن العرب الشراعية. وقد قطع الصليبيون طرق الإمداد بين الموانىء الصغيرة بتصديها للسفن التجارية التي تصادفهم وتدمر حمولتها وقد أغرقوا كل السفن التي صادف وجودها بطريقهم وأخذوا حمولتها طوال عام كامل (١١٨٢ - ١١٨٣) وبعيداً حتى جنوب الساحل الغربي حيث رأس بناس وكانوا بصدد الوصول إلى عيذاب وكان ميناءً افريقياً مهماً بالنسبة لسفر الحجاج من النيل إلى مكة. وهناك أحرقوا سفناً تجارية عديدة وأغرقوا سفينة ضخمة محملة بالحجاج المسافرين إلى جدة. وكانت الجيوش الصليبية يرشدها السجناء المسلمون وامتدت يد التخريب الصليبية صوب الشمال أي صوب الساحل المصري، وصادروا قوافل كانت قادمة من القصير وقد برز رجال رينو في كل البحر الأحمر والموانىء العربية بما فيها رابغ والهوارة الأولى إلى الجنوب من ينبع والأخرى إلى شمال منه حيث حصن قتادة. وحتى أنهم ظهروا في باب المندب ووصلوا حتى عدن حيث يقال إنهم قبضوا على شيوخ ورجال دين وأثناء محاولاتهم لإغلاق البحر الأحمر.

وبعد ذلك وفي الوقت المناسب نظم عرب القاهرة الهجوم المعاكس فالملك العادل أخو صلاح الدين وخليفته وأثناء الحملات الصليبية، لم يكن لديه أسطول في البحر الأحمر وتقليداً لرينو فقد أخذ سفناً من نهر النيل والإسكندرية وعمل على تفكيكها ونقلها إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) في

كانون الثاني سنة ١١٨٣ وضع الأسطول في العمل تحت قيادة هشام الدين لولو ولقبه الحاجب وهو معروف بولائه وطاعته للملك وكذلك لبسالته في البحرية. وبعد أقل من ثلاثة أشهر على استلامه أحرق للصليبيين ثلاث سفن كانت تحرس جزيرة غراي وأسر طاقم هذه السفن. وقبل الوصول إلى الهوارة وفي منتصف فصل الصيف هاجم الأسطول الصليبي ودمر السفن الصليبية التي كانت متجهة جنوباً لتدعم الأسطول الذي بدأ حملته باتجاه المدينة المنورة. ومن خلال الممرات الصحراوية على مسافة مسير خمسة أيام من البحر ويوم واحد من المدينة هوجم ثلاثمائة محارب صليبي على تلة كانوا ينوون إقامة قاعدة ثابتة لهم فوقها وكان يرشدهم في الصحراء بعض المرشدين الصحراويين المسلمين.

وهذه القاعدة التي لم يكتمل بناءها وذلك أنهم لم يصمدوا في المعركة طويلاً. ومن بين المئة والسبعين رجلاً من الذين نجوا من المعركة حيث أخذوا جميعاً أسرى أخذت مجموعة منهم إلى منى حيث التضحية وكذلك حدث في المدينة المنورة حيث قتلوا. وما عدا حفنة من الذين هربوا وركبوا سراً حتى وصلوا إلى الشرق أخذ باقي الأسرى إلى مصر حيث السبي المذكور فقد عرضوا أمام الناس ثم أعدموا على يدي بعض الدراويش والمتطرفين وهي لاعتبارات مقنعة لديهم وعادلة.

وقد وصف ابن جبير الناجين من هذه العركة كما رآهم عندما وصل إلى مصر في طريقه إلى الحج جنوباً.

«وعندما دخلت الإسكندرية لأول مرة وجدنا تجمعاً كبيراً من الناس الذين أتوا لمشاهدة أسرى من الروم، أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق فسألنا ممن قصتهم فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد إشفاقاً وجزعاً وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بأجر اتفقوا معهم عليه. فلما وصلوا ساحل البحر جمعوا مراكبهم وأكملوا إنشائها وتركيبها ودفعوها في البحر وركبوها

قاطعين بالحجاج وانتهوا إلى بحر القلزم فأحرقوا فيه ستة عشر مركباً وانتهوا إلى عيذاب فأخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جدة وأخذوا أيضاً في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب وقتلوا الجميع ولم يبقوا أحداً وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة أعزهما الله وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ولا انتهى رومي إلى ذلك المستوى قط. ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول (ص) وإخراجه من الضريح المقدس أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم. فأخذهم الله بتجرؤهم عليه وتعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم وبينه ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم فدفع الله عاديتهم بمراكب عُمرت في مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم.

وكانت آية من آيات العناية الإلهية الجبارة وقد أدركوهم بعد أن كانت بينهم من الزمان زيادة عن شهر وبضعة أيام. وقتلوا وأسروا وفُرق من الأسرى على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم إلى مكة والمدينة وكفى الله بجميل صنع الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً والحمد لله رب العالمين».

ولقد أوقف صلاح الدين هذا التهديد على مكة إلى الأبد، فأعطى أمراً بالإستيلاء على قلعة رينو وقد بدأ الحصار تحت أوامر مباشرة من صلاح الدين من خريف نفس السنة، وقد حدث هذا الحصار أثناء حفلة زفاف ابن زوجة رينو وكانت ثمان قذائف منجنيق قد سقطت على القلعة وعلى أماكن سكن الملتجئين إلى القلعة من المسيحيين من قرى مجاورة وكذلك وقعت بين الراقصين وضاربي الطنبور. وعند ورود أخبار عن الحصار كان آخر بريق من الأمل في النجاة لمن في القلعة قد تلاشى.

أما رينو الذي لم يعد قادراً على صد الهزائم الناتجة عن حملات البحر الأحمر وما تلاها، حيث كانت معركة حطين قرب الجليل والتي استطاع

صلاح الدين أن يقضي فيها على الصليبيين سنة ١١٨٧ بانتصار ساحق وانهارت دويلة القدس المسيحية وأخذ الأمراء المسيحيين والفرسان أسرى. أما رينو الملقب بعفريت الغرب الغريم الشخصي لصلاح الدين والغازي للحجاز قد قتل في حقل على مرأى من صلاح الدين والبعض يقول بيد صلاح الدين نفسه.

كان قتادة في الثانية والثلاثين من عمره عندما ظهرت قوات رينو في البحر الأحمر وموانئه والتي هُزمت في مسالك صحراوية قبل يوم واحد من وصوله إلى المدينة المنورة. وقد اشتهر قتادة في سن مبكرة بأنه الفارس الذي انتصر على الأشراف من بني حيراب وانتزع منهم ينبع والصفرا وهي نقطة إتصال بين الشمال والجنوب وبني علي وبني أحمد وبني إبراهيم وقد يكون السبب المباشر لشهرته أنه هزم الصليبيين الذين رسوا بالقرب من منزله في ينبع وكانوا في طريقهم إلى المدينة.

وعندما استولى قتادة على مكة بواسطة ابنه حنظلة، عمد محمد بن مكثر في محاولة يائسة للقيام بهجوم معاكس مدعوماً من سالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة المنورة وحيث قاومت هذه المدينة قوات قتادة إلى أن أذعنت بعد سنتين من سيطرة قتادة على مكة بواسطة حملة قادها قتادة بنفسه وعاد إلى مكة حيث أكمل انتصاراته في الحجاز بإرساله حملة معاقبة إلى رجال القبائل في ثقيف ومكة ومدينة الطائف. ويقول ابن الأثير بأن معركة حصلت بين قتادة وبين سالم أمير المدينة عند «ذو الحليفة» قرب المدينة حيث حشد الطرفان عدد كبير من المحاربين وعجز قتادة عن قهر سالم ولكن قتادة لاقى مشقة في صد قوات سالم عنه ولكنه جعل خطرهم تدريجياً غير ذات أهمية.

وفي سنة ١٢١٠ و١٢١٢ حدثت مواجهات وحوادث بين أهل مكة والحجاج العراقيين وقد شرح الفاسي هذه الحوادث كما يلي: إن أمير قوافل الحج العراقي كان علاء الدين محمد بن الأمير ياقوت وكان ينوب عن والده مولى الخليفة والذي كان حاكماً لخوزستان كما كان أميراً للحج في نفس الوقت وكان مساعده ودليله بن أبي فارس وكان رأس القوافل الشامية الصمصام اسماعيل أخو شروخ النجمي وكان على رأس قوافل فلسطين «الحاجي علي بن

سالم الأهوائي» وكان من ضمن حجاجه ربيعة خاتون أخت العادل (العادل سيف الدين أبو بكر) أخو صلاح الدين الأيوبي والمعروف عند الصليبيين باسم صفادين وعند منى وبعد إلقاء الجمرات قفز الإسماعيليون على الشريف ابن عم قتادة وكان يشبهه فقتله والبعض قال قد قتله لاعتقاده أنه قتادة نفسه. والرجل الذي قتل الشريف كان إسماعيلي المذهب ويسمى أبو عزيز هارون وكان يُعتقد بأنه من أتباع أم جلال الدين وعلى الفور فقد موالي وخدم الشريف المقتول السيطرة على أنفسهم فتسلقوا التلال عند منى من كل صوب وبدأوا برمي السهام. وفي اليوم التالي كانوا ينهبون الحجاج متاعهم وظلوا كذلك طوال النهار وكان هناك قتلى من الفريقين. وكان كبير بني فارس والذي قدم النصح لمحمد بن ياقوت بأن يزيل قافلة الحج العراقية من منطقة منى إلى منطقة الزاهر حيث موقع خيام أهل الشام. وعندما بدأوا بالإزالة اعتقد قتادة ورجاله من السود بأنهم يريدون القتال فهاجموهم ونهبوهم كل ما يملكون.

وكان قتادة يقول: بما أنني نويت أن أُقتل فقد عزمت على أن لا أترك أحداً منهم حياً، وكانت ربيعة خاتون أثناء ذلك في منطقة الزاهر وكان فيها ابن الستار وأخو الشروخ وحجاج الشام. فلجأ أمير الحج العراقي إلى خيمتها وكان فيها الخاتون أم صلاح الدين فأرسلت ربيعة ابن الستار ليسأل قتادة: ما هي جريمة هؤلاء الناس وقد عُرف مرتكب الجريمة الآن؟ أم هل أنك تبحث عن أي سبب لتنهب الحجاج والواجب أن تعرف من نكون؟

ولقد أقسم أنه إذا لم يكف قتادة عن عمله الإنتقامي هذا فإنه سوف يلقى عقاباً عند زحف الخليفة من بغداد ومن الشام إليه. لهذا فإن قتادة وافق على التوقف ولكن بشرط أن يدفع له الحجاج تعويضاً يقدر بمائة ألف دينار وفي نهاية الأمر جمع له مبلغ ثلاثين ألف دينار من الحجاج ومن أم صلاح الدين. وبقي مئات من الحجاج في حماها لمدة ثلاثة أيام. حيث كان من بينهم الجياع والجرحى والعراة والبعض الآخر قتل أو بعضهم في نزاع مع الموت.

ولكن قتادة كان مقتنعاً بأن جريمة القتل قد خطط لها من قبل الخليفة العباسي ولذا فقد أقسم ليقتلن أي حاج من بغداد العام المقبل».

وهكذا فقد رجع الحجاج العراقيون إلى بغداد في حالة مزرية وبعدها بفترة قصيرة أرسل قتادة ابنه راجح إلى بغداد. حيث دخل بغداد مع جنوده والسيوف من غير غمد والقبضة مرفوعة للأعلى جاهزين للإستسلام وأكفانهم على أكتافهم يرجون رحمة الخليفة وقد سومحوا. وفي العام التالي أرسل الخليفة هدايا وأموالاً بكميات كبيرة إلى قتادة. ولم يكن مطلوباً منه شرح ما حصل وقد طلب منه الخليفة في بغداد القدوم إليه وعندما وصل قتادة إلى الحدود العراقية قرب الكوفة. واستقبله مندوبين عن الخليفة وكان أحدهم يقود أسداً مقيداً بسلسلة فتطير به قتادة وعاد إلى مكة مرسلاً كتاب اعتذار وتبدأ الرسالة العاطفية:

ولي كف ضرغام أدل ببطشها ... وأشري بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها ... وفي بسطها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم أبتغي ... خلاصاً لها إني إذاً لرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بلدةٍ ... يضوع وأما عندكم فيضيع

ولم يبد أن الخليفة قد أخذ اعتذاره على محمل الجد رغم أنه اعتذار خطي وقد قال قتادة أكثر من مرة وعلى رؤوس الأشهاد أنه أقوى للخلافة من الخليفة العباسي نفسه في بغداد وجعل علاقته أكثر متانة مع مندوبي مصر وهم الذين ظاهروا عليه أمير المدينة (يقول سنوك هورغونيج) في كتابه «مكة» أنه كان من الممكن أن يستمر قتادة في إظهار طبعه المتعجرف لإحساسه العميق بأنه يساعد خصومه في اليمن والذين أرسلوا الرسل إلى جهات عديدة من أجل طلب المساعدة ضده عندما وصل بنفوذه حتى حائل على البحر الأحمر.

وهم بدورهم لم يحصلوا من قدرة جيرانهم سوى حسن الدعاء والمال وبعدها انشغلوا في حربهم مع الصليبيين والذين غزوا مصر نفسها عام ١٢٢٠ والذين تفاجأوا بجلافة وصعوبة الصحاري في الجزيرة العربية ولهذا فقد كان طلبه للسلاح في الوقت الغير ملائم والمستحيل حيث كان مريضاً وآخر أيامه كان يقول لقومه: «إن الله يحبكم أنتم وبلدكم بفضل جفافها واتساعها» وكانت

علاقات قتادة الخارجية متلونة تجاه أحلامه المختلفة ليحكم باستقلال وتفرد كل وسط وجنوب الجزيرة العربية.

وكانت أي مساعدة أو أي علاقة صداقة مع أي خصم له في الجزيرة العربية تعتبر عملاً عدائياً ضده. وكان يطلق عليه بعض الأوصاف مثل «الرجل المسن الوقور الذكي والشهم والشجاع. وهو البسيط والتقي وكان يدعو رجاله دائماً للصلاة في الحرم ولم يكن يخاف أحداً من مخلوقات الله» لقد تعامل قتادة مع اضطرابات وشغب العبيد والجنود في مكة بحزم شديد وكان مهاباً لديهم لحزمه وعدله.

وقرب نهاية حكمه وعندما بدأت صحته تتراجع عين الخليفة العباسي مندوباً عنه أو والياً في مكة: كان اسمه أقباش الناصري (نسبة إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسي) وكان عضواً في الفتوة أو الفرسان الشباب وبينما هم مخيمين على جبل عرفات كان يزوره راجح بن قتادة وكان سأله أن يؤيد ترشيحه خليفة لوالده قتادة بعد وفاته، ولكن أقباش تجنب الإجابة المباشرة على هذا الطلب. وذلك أنه كان يحمل هدايا من الخليفة إلى حسن الأخ الأكبر لراجح. ولكن حسن علم بخبر المقابلة وأن أقباش استقبل أخاه الأصغر اعتقد بأن هناك تدبيراً بتعيين راجح في الحكم. عاد إلى مكة سريعاً فأقفل الأبواب واستنفر مؤيديه وكذلك فعل راجح وعندما علم أقباش بأن اضطراباً على وشك الوقوع بين الأخوين فركب إليهم مغادراً معسكره في الشبيكة ليوقف الإضطراب. ولكن حسن وأتباعه اعتقدوا بأنه قادم لقتالهم وليس للتهدئة. ومع أنه كان يصرخ بأعلى صوته أنه لم يأت لقتال بل لمنع التقاتل ولكن رجال حسن لم يعبأوا به فهرب رجاله من حوله وبقي وحيداً فأصابوا فرسه فوقعا سوياً فهجموا عليه وقتلوه ثم قطعوا رأسه ورفعوه على رمح وأخذوه إلى حسن. فأمر حسن بأن يعلق في المسعى قرب بيت العباس.

وقد رغب أهل مكة الموالين لحسن أن ينهبوا الحجاج العراقيين الذين أصبحوا دون قيادة بعد وفاة أقباش. ولكن أمير الحج الشامي حذرهم من مغبة ذلك وأن أخواه ملك الشام المعظم شرف الدين عيسى والكامل ملك مصر سوف يزحفان صوبهم.

وكان أقباش عبداً مملوكاً اشتراه الخليفة الناصر لدين الله العباسي وكان في الرابعة عشر من العمر بخمسة آلاف دينار وكان هذا أكبر مبلغ يُدفع في شراء عبد. وكان يعتقد بأنه أكثر الشباب وسامة في بغداد وبما أنه كان حكيماً بدرجة كبيرة فإنه كان المرافق الدائم للخليفة وأعطاه الشرف ا لذي يغبطه عليه الكثير من الناس وهو قيادة قوافل الحجاج العراقية. وقد قادها ثلاث سنوات متتالية بنجاح قبل تلك التي قتل فيها أخيراً:

وكان حزن الخليفة شديداً عليه عند سماعه النبأ. فلم تكن هناك تحية استقبال كالعادة للقوافل العائدة من الحج ولا طبول ضربت ولا رايات رفعت عند دخولها بغداد.

كان قتادة أثناءها طريح الفرش في نزاعه الأخير أقل ميلاً ليشرح لعشيرته بأن ابنه حسن سيخلفه في الحكم وقد منعه حسن من ذلك عندما أطاح بعمه عن طريق الإغتيال حيث كان في الموضع الذي يوحي بأنه هو الخليفة بعد قتادة. وهكذا من جديد يسمع عويل النساء ونحيبهن ولكن هذا شيء مخيف على أسماع قتادة الذي سوف يقوم بإلقاء القبض عليه بتهمة القتل. أسرع حسن إلى مكة وبعد مشهد الوفاة الفاجعة والتي خفف من وقعها أن المتوفي كان في ثياب النوم وكان الرجل المتوفي في التسعين من العمر عند وفاته سنة ١٢٢٠. ثم قتل في ينبع أخ آخر لحسن وكان من المرجح أن يعين في الحكم منافساً لحسن. قتله حسن أيضاً. وخاف أغلب ذكور العائلة حيث هرب معظمهم من البلاد وهكذا فإن عائلة استمرت في العيش سبعة قرون ونصف الآن تعيش في بداية مأساة.

وحسب رأي سعيد السمرقندي كما رواه مؤلف كتاب تنضيد العقود أن حسن قتل أمير قوافل الحج العراقي وعلق رأسه عند نافورة في الحرم وكان ذنبه الوحيد أن حسن شك بأنه أتى لمساعدة أخيه راجح ضده.

وفي السنة التالية ١٢٢٢ ميلادية حضر الملك اليمني اتسز بن الملك الكامل بالإشتراك مع المسعود يوسف ابن ملك مصر وآخر حلقة من سلسلة

عائلته دخل مكة وهاجم حسن في بطن المسعى داخل المدينة حيث هرب حسن فاحتل رجال مسعود مكة ونهبوها وقال الفاسي:

«لقد أحدث المسعود اضطرابات ضد اثنين من حجاج العراق بتحدي حقهم في وضع راياتهم فوق جبل عرفات بدل رايات حجاج اليمن. وأكثر من ذلك أيضاً فإنه قتل أبرياءً عند بئر زمزم وكان يضربهم بسيفه على أعقابهم وهو يقول لهم سيروا على مهل إن السلطان ينام ثملاً في قصره وترى الناس يركضون منه فزعاً من هنا وهناك. ولكنه استطاع وقف السرقات والنشل والفوضى ونجح في ذلك لخوف الناس من بطشه» (من كتاب صحيفة الزمان في أخبار البلد الحرام).

ومجنون اليمن نائب حاكم اليمن بقي في مكة لمدة سبع سنين متتالية واسمه سالم الياقوت وهو العبد الطليق للمسعود حكم هناك لفترة من الزمان سنة ١٢٢٨ وذلك بعد أن توفي المسعود نتيجة إصابته بالشلل في نفس ا لسنة حيث استلم نائبه نور الدين عمر بن علي بن رسول حيث أنشأ حكومته الخاصة به في اليمن وتوابعها من المناطق المجاورة في الجزيرة العربية وقد نجح في بسط سلطته في مركز الحاكم.

أما حسن فقد جمع فرقة معارضة جلبها من ينبع وهاجم بها القوة اليمنية في مكة ولكنه هُزم فذهب للبحث عن دعم من الخليفة العباسي. وبعد أن جال هناك لبعض الوقت توفي في بغداد ودفن فيها ولم يعد إلى مكة.

أما أخوه راجح الذي عمل محاولة جديدة تجاه المدينة المقدسة حيث هزم في محاولته تلك أيضاً سنة.١٢٢٩. ولكنه عاد مع قوات رسول من اليمن وبقي على رأس ا لحكم حتى دخول الجيش المصري في موسم الحج التالي حيث يبدلون موقع الحاكم مرة أخرى.

وفي سنة ١٢٣٢ جهز الملك منصور عمر الدين على صاحب اليمن راجح بقوة كبيرة فعالة وذلك بهدف طرد المصريين من مكة ولكنه اضطر للهرب من أمام القوة المصرية التي دفعت بستمائة فارس في المعركة بإمرة

الأمير جفريل وبقي الأمر حتى موسم الحج التالي. ولكن الموازين لم تكن سنة ١٢٣٧ كما كانت سابقاً عندما هاجم نور الدين علي بن رسول صاحب اليمن بنفسه حيث وصل مع ألف من الفرسان الذين اشتركوا في الهجوم الذي كان ناجحاً.

وخلال السنة التي مات فيها الملك الكامل حاكم مصر وسوريا ومنذ ذلك الحين والخطبة تدعو للمنصور في اليمن. وبقي راجح في مكة يحكم كوالي للمنصور وبقي حتى وصول صلاح نجم الدين الأيوبي الخليفة الجديد على مصر وسوريا شخصياً على رأس قوات عظيمة سنة ١٢٤٠ جالباً معه من المدينة المنورة شيحا بن قاسم الحسيني لكي يكون دميته في مكة بدلاً من راجح الذي هرب بدوره مرة أخرى خارج مكة. أما القوات اليمنية عادت كالعادة بدورها مرة أخرى إلى مكة ولكن بعد خروج المصريين منها بعد انتهاء موسم الحج. أما نور الدين فقد أمضى شهر رمضان مع رجاله في مكة.

وفي نهاية شهر رمضان أرسل بطلب الفارس الشجاع أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة والذي حكم كوال له على مكة منذ سنة ١٢٤١ ولمدة أربع سنوات والذي قتل بعدها على يدي جماز بن حسن بن قتادة حال وصوله من الشام على رأس قوة كبيرة وقد أعطيت له هذه القوات فقط ليفرض بقاء الخطبة تدعو باسم السلطان نصر صلاح الدين يوسف.

ويبدو أن التغييرات بدأت تحدث بسرعة كبيرة فلم يحكم جماز أكثر من شهرين إذ عندما حضر عمه راجح وقد أصبح رجلاً مسناً ليحكم مكة مرة أخرى. فهرب جماز سنة ١٢٥٤ وقد خلف غانم بن راجح أباه راجحاً والذي أصبح حاكماً لمكة للمرة الثامنة على الأقل وعاد وطُرد هو نفسه من مكة بعد ذلك بعدة أشهر بواسطة إدريس بن قتادة والذي كان مدعوماً من ابن أخيه محمد أبو نمي بن أبي السعد. وهذا الأخير قد حكم لمدة خمسين سنة تقريباً مع بعض فترات من الإنقطاع.

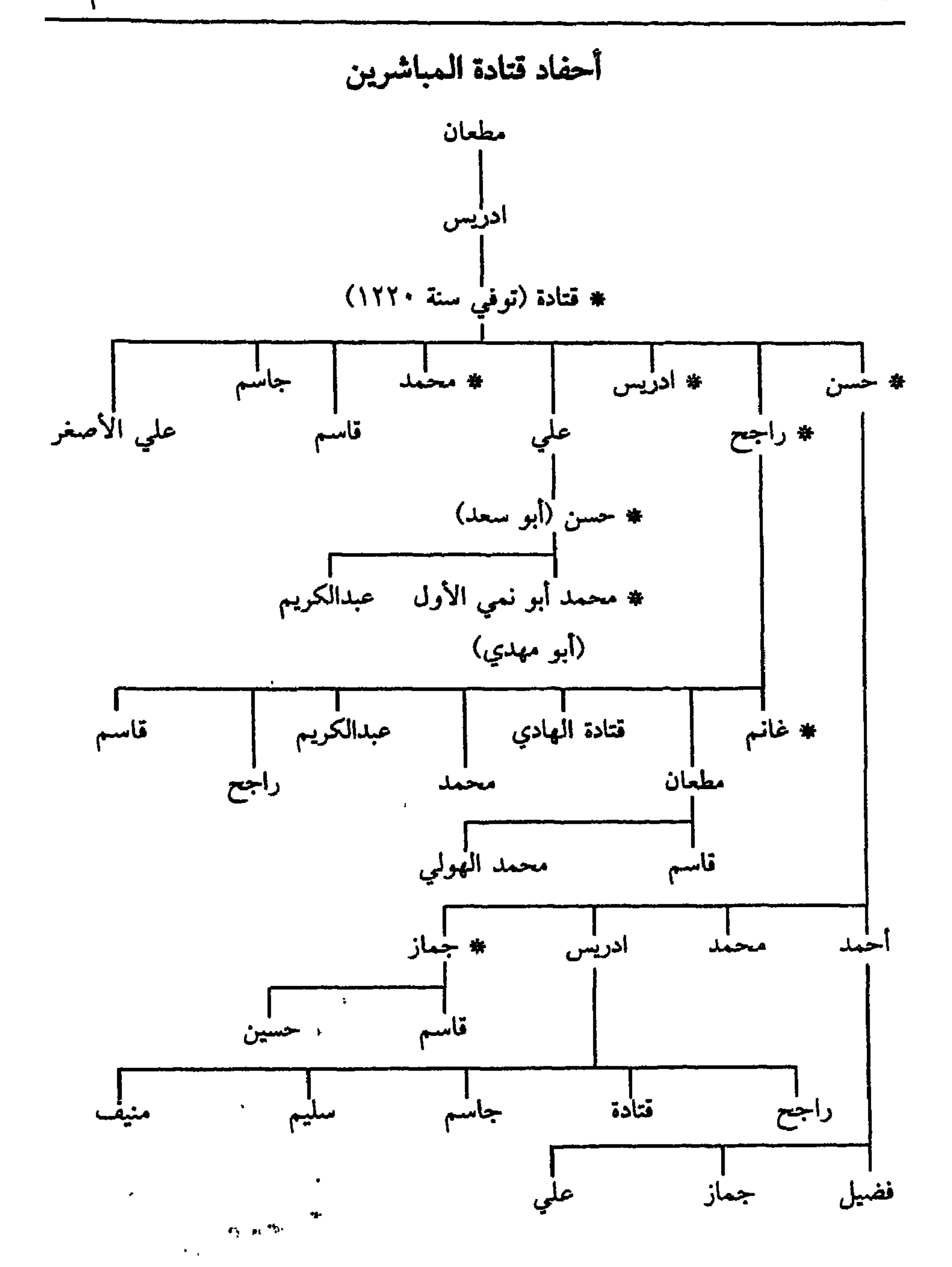
وينظر المكيون نصف قرن إلى الوراء منذ وفاة قتادة حتى تلك اللحظة

فيكتشفون أنهم أصبحوا يتحسرون على أيام قتادة وعلى جدية حكمه وهدوئه نسبياً ومقارنة مع ما حدث بعد وفاته من تغييرات واضطرابات.

إن عودة أولاد قتادة إلى الحكم كان لدعم حكام مصر أو اليمن أو سوريا. وكان ذلك عكس ما تمناه هو. فكان يحب أن يستقل بحكم مكة وكان خطأً منه أنه لم يفكر بعمل عملة وطنية خاصة به. وأصبحت عملية موائمة وممالأة الآخرين أمراً عادياً.

لقد شارك الصليبيون المنغوليين أو المسلمين ضد المسلمين أو حاربوا ضمنهم. أما الأيوبيون أحفاد صلاح الدين والرسوليون حكام اليمن والذين استغاثوا بهم تماماً مثل العباسيين حكام بغداد كانوا كلهم مسلمين على الأقل.

أحفاد قتادة المباشرين



* الذين حكموا مكة.

الفصل الخامس

محمد أبو نُمي وأبناءه وأحفاده

(١٢٥٥ - ١٤٥٥)

محمد أبو نُمي وأبناءه وأحفاده (١٢٥٥ـ١٤٥٥)

إن قلعة قتادة في ينبع والتي حافظت عليها طويلاً سلالة قتادة على الرغم من أنهم كانوا يحكمون مكة، فإنهم كانوا في تلك القلعة يرتاحون كلما ضاقت أمور الحكم عليهم أو تراجعت سلطاتهم وخصوصاً عندما يقوم أخ لهم أو قريب من العائلة ذاتها بانتزاع أو محاولة انتزاع مركز السلطة والحكم في مكة المكرمة.

وفي حدود سنة ١٢٤٥ اشتريت هذه القلعة منهم بواسطة ممثل عن اليمن حتى لا يكون هناك بعدها أي تواجد مصري في تلك البقعة في ذلك الوقت. وفي نفس الوقت تقريباً، عُين أبو سعد نائباً للحاكم والآمر العسكري المساعد لقوات اليمن في مكة.

وعندما كان يتجهز للقدوم من ينبع لاستلام هذا المنصب وكانت أمه جارية عباسية ذات ذكاء وفطنة ويؤثر عنها أنها قالت له قبل أن ينطلق: «انتبه لنفسك يا بُني وكن شجاعاً سيقول الناس انظروا هذا سليل النبي أما إذا لم تكن شجاعاً سيقولون انظروا إلى ابن الجارية».

وقد نشأ ابنه محمد أبو نمي في مثل هذه الروحية فعندما بلغ السادسة عشر من العمر كان في ينبع حين تلقى خبراً عن راجح الذي كان يحشد قوةً من بني حسين في المدينة ينوي محاربة أبيه أبو سعد في مكة.

لقد حشد راجح سبعمائة فارس من المدينة المنورة بقيادة عيسى الهارون وكان يُطلق عليه اسم «فارس الفرسان». فقام محمد أبو نمي على الفور بتجهيز جيش لم يزد عن أربعين فارس وهذا كل ما قدر عليه ثم انطلق إلى مكة طالباً أن يثلج قلب والده بهذا العمل. وفي الطريق تفاجأ براجح وعيسى وقواتهما فما كان منه إلا أن باغتهم وكان هجوماً كاسحاً ونجح نجاحاً باهراً. أما «فارس الفرسان» فقد انهزم في المعركة ولم تتزحزح عمامته من مكانها، وقد أُجبر على الرجوع إلى الخلف وكان على وشك أن يُقبض عليه.

إن مؤلف كتاب «تنضيد العقود» ينقل لنا الرواية على أساس أن راويها سعيد جعفر الحسيني قد أضاف إليها مقاطع من عنده. وهكذا فإن أبو السعد كافأ ولده المقدام في الحال وجعله شريكاً له في الحكم.

وبعد سنوات قليلة عزم ابن عم أبو سعد جماز بن حسن بن قتادة كما ذكرنا في فصل سابق على التحرك باتجاه مكة قادماً من الشام مجهزاً بقوة تابعة لسلطان دمشق وحلب نصر صلاح الدين يوسف حفيد صلاح الدين الأيوبي والذي وعد بالمساعدة في الدعاء له في الخطب في المساجد وبعد أن زحف بقوة على مكة حيث قتل أبو سعد فالتجأ ابنه أبو نمي إلى ينبع ولم يعد إلى مكة أبداً إلى أن دخلها ثانية بصحبة عمه إدريس بن قتادة حيث أعيد تعينه في حكم مكة، وبحلول سنة ١٢٢٥ أصبح إدريس وأبو نمي أقوياء لدرجة تمكنهم من الإنفصال عن سلطة الوالي اليمني ابن برتس الذي حوصر من قبلهما فاشترى نفسه بمبلغ من المال وأخلي سبيله فعاد إلى اليمن.

وفي سنة ١٢٥٨ وصلت أنباء عن سقوط بغداد بيد هولاكو المغولي فقتل الخليفة وأبناءه واحتلت بغداد العاصمة وتوقفت القوافل الخرسانية عن الوصول إلى مكة ودام توقفها أحد عشر موسماً متتالياً وتوقفت قوافل الحج عن الوصول من العراق مدة تسع سنين أي تسعة مواسم متتالية.

وفي سنة ١٢٦٩ عزم الملك المملوكي في مصر الظاهر ركن الدين بيبرس بندقداري على الحج ومعه أتباع كثر وبشكل غير منقطع الإمداد وهو وضع جدير بدولة عظيمة.

وقد ذُكر أن الخضار كانت ترد إلى معسكره طازجة وعلى مدار الساعة عبر القوافل المتواترة وكذلك البريد وحتى الزهور كانت تأتي طازجة من مصر وطوال فترة الحج. وقد جعل خلفهُ في مكة والياً يقدم الكسوة للكعبة منقوش عليها اسم سيده ملك مصر الظاهر بيبرس.

وقد أصبح مُلك الملك الظاهر عظيماً بعد أن كان عبداً مملوكاً، أُحضر من القوزاق وهو صبي وبيع في البداية في الشام بمبلغ ثمانمائة قطعة فضية وقد رده الذي اشتراه في البداية لعيب في إحدى عينيه الزرقاوين. وكانت بشرته داكنة طويل القامة وصوته جهوري شجاع نشيط ولا يكل عن الحركة مغرم بالترحال. وقد قيل عنه «إنه يوم في مصر ويوم في الحجاز وهنا في الشام والآن في حلب».

وفي هذا الوقت كان يتقدم من قمة مجده وكان مثلاً يحتذا في أسلافه وهو الذي أعاد الحياة إلى الخلافة الإسلامية عوضاً عن تلك التي تلاشت في بغداد وقد وجد رغم كثرة مشاغله الوقت الكافي ليكرسه لأداء فريضة الحج. لقد حكم المماليك مصر طوال مائتي سنة وكان هو أول المماليك الذين يزورون الحجاز وأول تلك السلالة الحاكمة التي سيكون لها تأثير في الأرض الإسلامية المقدسة. ويقول سير وليام موير في كتابه «حكم سلالة العبيد أو سلالة المماليك في مصر» أنه لمن الصعب أن تجد حكماً مشابهاً في التاريخ العالمي لحكم العبيد الذين رفعوا أسيادهم وبعد فترة من الزمن أصبحوا هم الأسياد الحاكمين. ولكن ضمن مجموعة من العبيد المشترين من الخارج واحتفظ بهم فأصبحوا يتزايدون أما بالتناسل أو بشراء مزيد منهم من تجار آسيويين فأصبحوا يحكمون مجتمعاً بأكمله طواعية في دولة غنية تضم أراضٍ شاسعة. وهكذا فالذي كان مملوكاً اليوم هو في الغد ملك وكان كامل الجهاز الحاكم خلال حكمهم من العنصر المملوكي. ودولة بنظام قوي لا بد وأن تستمر لقرنين ونصف من الزمان ربما بدت في بداياتها شيء لا يمكن تصديقه ولكنه الحقيقة الواضحة والبسيطة للأسرة المملوكية خلال القرنين الرابع والخامس عشر الميلادي.

لقد قام بيبرس بكل طاقته أثناء وجوده في مكة لرأب الصدع وإزالة سوء التفاهم بين إدريس وابن أخيه والذين كانا يتقاتلان مؤخراً وقد نجح وأعطى تعليماته للوالي المعين من قبله بالإهتمام بالأمر.

وبعد سنة تقريباً وبعد أن غادر بيبرس مكة وغاد إلى مصر عاد إدريس وأبو نمي إلى التقاتل بشكل علني وأصبح كل منهما يحشد مناصريه والتقوا عند الخلايص حيث جرح أبو نمي عمه إدريس وعزله عن الحكم بعد أن قطع رأسه بيده ودخل مكة منتصراً.

وبالإستناد إلى رواية الفوطي في كتابه «تلخيص مجمع الأداب في الألقاب» وهو واحد من أشراف مكة. وقد أعطى أسماء مختلفة في الرواية زيد وعبد الله بن أبي نمي سافر إلى العراق حيث استقبل بحرارة من قبل الحاكم غازان محمد (١٢٩٥ـ١٣٠٤) وقد أعطى قرية المهاجرية عند الحلة السيفية. وهي مما تبقى من مكتبة ومدرسة المستنصرية المشهورة والتي أنشأها العباسيون وهدايا أخرى. وقد بقي هناك إلى أن حدثت بعض الإشكالات بينه وبين بعض العشائر المحلية. مما اضطره إلى العودة إلى مكة حاملاً معه بعض كتب المستنصرية في جعبة له على ظهر جمله.

وفي سنة ١٢٩١ عندما وصلت أخبار مفرحة عن سقوط قلعة عكا والتي استعصت على المسلمين لفترة طويلة من حكم الصليبيين.

وكما قال جيبون «الهدوء والسكينة يلف الشاطىء الذي كان سابقاً محل قلق من قبل العالم أجمع. وكان مكان تهديد للمسلمين استمر قرنين من الزمان قد انتهى اليوم ولن يتمكن أي جندي غربي من العودة إلى تلك المنطقة قبل مرور خمسمائة سنة أخرى.

لقد حكم أبو نُمي مع بعض الفترات المتقطعة. ففي سنة ١٢٧١ عندما استولى جماز بن شيحا من المدينة المنورة المدينة وغانم بن إدريس على مكة وفي سنة ١٢٨٨ عندما عادا من جديد إلى مكة ولفترة قصيرة ثم بقي بعدها في الحكم إلى حين وفاته سنة ١٣٠١. وقد اعتاد ابنه حميضة على القول بأن والده

كان يملك خمس خصال: الشرف، الكرم، الصبر، الشجاعة والشعر. ولكن هناك خصلة أخرى لم يذكرها ظهرت في شخصيته عندما أعاد المؤرخون العرب قراءة دراسته ألا وهي الورع. وبالرغم من التسمية المشرفة التي حملها ألا وهي «نجم الدين» ربما حمل هذا اللقب لكونه قوياً أكثر منه متديناً وتقياً!!. كان رجلاً قيماً، جليلاً وحصيفاً، بشرته سمراء كان يتواجد في بيت ضمن معسكر له في الصحراء أكثر من تواجده في المسجد وقد حكم آخر ثلاثين سنة من حياته وحيداً ومستقلاً وقد بدأ حكمه مضطرباً وانتهى بسلام وحسب المستوى اللائق به لحاكم. وقد كان عنده ثلاثين ولداً حسب بعض الروايات وأربعة عشر حسب روايات أخرى أو اثنا عشر حسب آخرين.

وقبل وفاته بقليل أي بعمر سبعين تنازل عن الحكم لمصلحة اثنين من أبنائه حميضة ورميثة. وهذا التقليد في التنازل عن الحكم للأبناء أصبح بعد ذلك عرفاً متبعاً في ذريته من بعده وخصوصاً عندما يصيبهم مرض أو يتقدم بهم العمر ولكي يتأكدوا من استمرار الحكم حسب الطريقة التي يرغبون. وبعد موته دفن في المعلا وقد أصبح هذا الدفن أسلوباً متبعاً من بعده وأصبح تقليداً متوارثاً للشريف الأكبر فقد طيف به حول الكعبة سبعة أشواط كما يطوف الحاج تماماً وبنيت فوق قبره قبة في المقبرة التي أصبحت مقبرة الأشراف في المعلا في مكة المكرمة.

في سنة ١٣٠١ ميلادية حضر حاكم الكرك بيبروس جاشنكار إلى مكة لأداء مناسك الحج فقابله أبو غيث أحد أبناء أبو نمي فاشتكى إليه حكم أخويه حميضة ورميثة فأيد موقفه وموقف أخيه الآخر عطيفة وقد حاول بيبروس إقناع الحاكمين حميضة ورميثة مع التلويح باستعمال القوة بأن يتركا مكة عندما يتركها هو. ولكنهما هربا من مكة وعادا إليها سنة ١٣٠٣ وقد اقتتلا مع أخويهما عطيفة وأبو الغيث. إن أوضح الحوادث وأكثر تقلباً وإرباكاً يكمن في التغييرات للقيادة الحاكمة خصوصاً في الحقبة المقبلة والتي شرحت بواسطة الفاسي وابن خلدون أيضاً.

إن حميضة قد اختلف مع أخيه رميثة الأكثر صلابة وشراسة والأكثر

عزيمة بين الأخوين الحاكمين. فالتجأ إلى الحاكم المغولي ليبحث بطلب مساعده منه في مقابل وعد بالدعاء له في الخطبة.

وفي سنة ١٣١٤ وفي إحدى المشاجرات بين الإخوة قتل حميضة أبو الغيث. ويقول ابن زيني دحلان. أن أبو الغيث قد قتله حميضة والذي أخفى جثته وأخذها إلى بيته وعزم أخوته إلى وليمة وعندما وصلوا حضر عبدٌ وبيده سيف مسلط أتى فوقف خلف كل واحد منهم بينما هم كذلك أُحضر أخاهم أبو الغيث محمولاً مطبوخاً بالكامل. وقد قصد حميضة بهذا العمل إخافة إخوته وقد نجح في ذلك حيث أنهم بدأوا يخططون لقتله منذ ذلك الحين. إن رد الفعل من بعد تلك الوليمة إذا ما كانت قصة حقيقية فعلاً فهي تبرز سبب هروبه إلى المغول في بغداد والتي توضح أنه طبق كل ما ذكر حرفياً.

وحوالي سنة ١٣١٨ رجع حميضة من العراق يرافقه دعم مغولي فعزل رميتة من الحكم ويدأ يدعو للحاكم المغولي ببغداد في الحال أبو سعيد خوربندر بدلاً من الناصر الذي استشاط غضباً وجهز قوة أرسلها إلى مكة للقبض على حميضة والذي أخذ علماً بالأمر واستطاع أن ينجو بالإبتعاد عن مكة قبل أن يصلوا إليه ولكنه قتل بعد ثلاث سنوات من ذلك أي سنة ١٣٢٠ في وادي نخلة وبواسطة عبد تركي وبإيعاز من الحاكم المصري الذي أراد أن يكسب ود هذا الحاكم. وبعده تسلم عطيفة أخوه الحكم وكان في مصر حيث حضر وأصبح رميتة مساعد الحاكم في مكة.

وفي هذه الأثناء تقريباً أراد أبو سعيد المغولي أن يقدم شيئاً تجاه مكة ليظهر للناس بأنه يعظم هذا المكان المقدس فأرسل محملاً ذهبياً يقدر بمبلغ لا يقل عن مئتين وخمسين ألف دينار. ولكن الناصر صاحب مصر ظل محتفظاً بسيطرته وشعبيته في المكان المقدس وذلك أنه كان يزود الناس في مكة والمدينة بالقمح عند الحاجة.

وفي منطقة حكم رميتة وصل الأمبراطور الزنجي منسى موسى من ماندينغو إلى مكة للحج مصحوباً بقافلة عظيمة قيل بأنها تعد ١٥٠٠٠ بخمسة

عشر ألف رجل وكثير من أكياس الذهب وكان حجه شيئاً لا ينسى لمن شاهده في سنة ١٣٢٥ وصل الأمبراطور الزنجي إلى مكة للحج.

إن المشهد المثير والباهر الذي ظهر به الأمبراطور سبب إحساساً مثيراً لدى الناس بحيث أن اسم الأمبراطور انتشر سريعاً بين الناس واشتهر وأصبح معروفاً للقاصي والداني آنذاك. وقد ظهر عبر الصحراء «الأفريقية» سنة ١٣٢٤ ومن خلال إقامة حكمه لمدة سبعة عشر عاماً وقد صاحب ركبه ألوف المؤيدين والمناصرين إذ ركب الحصان وكان سبقه في المسيرة خمسمائة من العبيد يحمل كل واحد منهم عصا ذهبية لا يقل وزنها عن خمسمائة مثقال (أي حوالى ٣٠٠ رطل إنجليزي) هذه القافلة المذهلة مرت خلال «والاتا» و«توات» ومنها إلى القاهرة باتجاه مكة. إن ورع منسى موسى وكرمه الشديد والملابس الفخمة والتصرفات المهذبة لأتباعه السود قد أدهشت الجميع بالإنطباع المحبب الأليف وبشرته الغامقة كانت توصف عادة بالحمراء أو الصفراء. وقد أعطت هذا الزنجي الملك مظهراً مميزاً ساهم في الإحساس الذي سببه... وكان الهدف الوحيد لرحلته هو لأداء مناسك الحج بالرغم من الموكب العظيم والطريقة التي تم إخراجه بها فإنها بعيدة جداً عن أي دافع سياسي. وقد واجهوا صعوبة كبيرة في إقناعه بأنه يجب أن يقطع مسيرته الروحية من أجل أن يقوم بزيارة شكلية لسلطان مصر.

وعندما أزف الوقت لاستئناف رحلته إلى مكة عمل السلطان ترتيبات محكمة ومدروسة لضمان الراحة القصوى للملك الزنجي.

إن «العمري» الذي كان موجوداً في القاهرة بعد اثنتي عشرة سنة من زيارة منسى موسى وهو في طريقه إلى بلده وجد أن المواطنين في القاهرة ما زالوا يتذكرون هذا الملك ويمدحونه لدرجة أن شعبيته كانت كبيرة وتدين لكرمه السخي بولاء المديح والإطراء وذلك أنه وزع الذهب على الناس وقد استفادت الجماهير من التجارة المربحة التي أقاموها مع أتباعه فكانوا يدفعون على سبيل المثال خمسة دنانير لشراء رداء لا يكلّف أكثر من دينار واحد.

إن البضاعة التي تمثل لهم أساس مشترواتهم هي الملابس الجديدة

والعبيد وفي الحقيقة إن زيارة منسى موسى قد جعلت الذهب يتداول بكثرة فانخفضت أسعاره بشكل ملحوظ وحتى أيام العمر فإن القيمة كانت لم تزل منخفضة.

منسى موسى لم يجعل سخاءه الباعث على تنمية الثروات حكراً على القاهرة فقط ففي المدن المقدسة للحجاز كان أكثر سخاءً ولم يكن مفاجئاً أن يعرف بأنه في الوقت الذي عاد فيه إلى القاهرة كان قد أتي على نهاية موارده الخاصة.

وفي الرحلة التي أعادته إلى وطنه كان يصحبه شاعر من غرناطة وكان يعرف بالسهالي والذي أصبح ملازماً له في مكة وبينما كان لا يزال في الصحراء فإن منسى موسى سمع عن الإمساك بزمام الحكم في «كاو» عاصمة «سونغلي» في وسط النايجر بواسطة «سيغمنديا» أحد ضباطه، والمعلومات التي وصلت من الأراضي الشاسعة التي استولى عليها جعلت منسى موسى يزور كاو وهو في طريقه إلى بلده جاعلاً منها زيارة مؤثرة لتلك المدينة متلقياً شخصياً خضوع وولاء الملك سونغاي»[1].

وبعد انتهاء مراسم الحج في مكة الوجوه الصفراء التقية والأمبراطور الغني لأفريقيا الوسطى.

وهناك شخصية أخرى ورحالة زار في نفس الوقت تقريباً مكة المكرمة كان مراقباً ورحالة وشاهداً اسمه ابن بطوطة فقد وصف مكة كما يلي:

وكانت إمارة مكة في عهد دخولي إليها للشريفين الأجلين الأخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الأمير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسني. ورميثة أكبرهما سناً. ولكنه كان يقدم اسم عطيفة، في الدعاء له بمكة لعدله. وكان لرميثة من الأولاد أحمد وعجلان ـ وهو أمير مكة في هذا العهد ـ وثقبة وسند وأم قاسم، ولعطيفة من الأولاد محمد ومبارك

(١) قوافل الصحراء القديمة، مقدمة تاريخ غرب السودان، بوفيل.

ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرابي عند باب شيبة وتضرب الطبول على باب كل منهما عند صلاة المغرب في كل يوم ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يخبز الناس خبزهم فإذا خبز أحدهم خبزه وحمله إلى منزله يتبعه فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين. ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها عن طيب نفس ومن غير ضجر.

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الجمال بارعات ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى أن إحداهن بقيت جائعة وتشتري بقوتها طيب وهن يقصدون الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً...

وكان بمكة أيام مجاورتي لها حسن المغربي المجنون وأمره غريب وشأنه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خادماً لولي الله تعالى نجم الدين الأصبهاني أيام حياته...

وعادتهم في يوم الجمعة أن يكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد معمماً بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود (خمار من الموسلين معلق في العمامة أو الأكتاف حتى يتدلى من الخلف) كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه وقار وسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد أعوانه وفي يده القرقعة وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون إعلاماً بخروج الخطيب. ولا يزال

كذلك إلى أن يقترب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمي وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابساً السواد وعلى عاتقه سيف ممسكاً له بيده وتُركز الرايتان عن جانبي المنبر فإذا صعد أول درجة من درجات المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة ثم في الثالث أخرى فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعياً بدعاء خفي مستقبل الكعبة يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في آن واحد.

فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبته يكثر بها من الصلاة على النبي (ص) وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول ثم للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الأخوين وتقدم اسمه لعدله وأسد الدين رميثة ابني نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فلما فرغ من خطبته انصرف. والرايتان عن يمينه وشماله والقرقعة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة ثم بعد إلى المنبر إلى مكانه الكريم.

وفي أول يوم من الشهر يأتي أمير مكة وقواده يحفون به وهو لابس البياض معمم ومتقلد سيفاً وعليه السكينة والوقار فيصلي عند المقام الكبير ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع في طواف السبعة أشواط ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم فعندما يكمل الأمير شوطاً واحداً ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعاً بذلك صوته ثم يذكر شعراً في مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة أشواط فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام إقصاراً ركعتين ثم انصرف.

ومثل هذا يحصل إذا أراد سفراً وإذا قدم من سفر أيضاً.

فإذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والأبواق إشعاراً بدخول الشهر ثم يخرج في أول يوم منه راكباً ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً

على ترقيب عجيب وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجال يتواثبون ويرمون بحرابهم في الهواء ويلقفونها والأمير رميثة والأمير عطيفة ومعهما أولادهما وقوادهما مثل محمد بن إبراهيم وعلي وأحمد ابني صبيح وعلي بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق. وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد ويصيرون حتى ينتهوا إلى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على سابق ترتيبهم إلى المسجد الحرام.

وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك وهم يحتفلون لعمرة رجب الإحتفالات التي لا يعهد مثلها وهي متصلة ليلاً نهاراً وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصاً أول يوم منه والخامس عشر والسابع والعشرين.

وأهل البلاد الموالين لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عُمرة رجب ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز.

وبهذا فإن وصف ابن بطوطة يتطابق مع وصف ابن جبير في ثاني رحلة له وكتب في زيارة أخرى يقول ابن بطوطة:

«وفي تلك السنة (١٣٢٨ ـ ١٣٢٩ ميلادية) وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جند الملك الناصر وسبب ذلك أن تجاراً من أهل اليمن سُرقوا فتشكوا إلى أيدمور بذلك فقال أيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة: ائت بهؤلاء السارقين فقال: لا أعرفهم. فكيف نأتي بهم؟ وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكما عليهم لك. إن سرق لأهل مصر أو الشام شيء فاطلبني به. فشتمه أيدمور وقال: تقول لي هكذا فضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد بن عم الملك الناصر.

وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشق عليه الأمر وبعث العساكر إلى مكة

ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولولده فأمنوا وأتى رميثة وكفنه في يده إلى الأمير فخلع عليه وسلمت إليه مكة وعاد العسكر إلى مصر وذلك لأن الملك الناصر كان حليماً فاضلاً».

هذا وقد تذكر ابن بطوطة وبطريقة عرضية أن الحرارة الشديدة في مكة لدرجة أن الحجارة في باحة الحرم قد حرقت قدميه.

وفي الموسم المقبل أحضر الحجاج العراقيون معهم من بغداد فيلاً أرسل من قبل أبو سعيد خربندار «ملك التتار» فأخذوه معهم حيثما كانوا يذهبون وحتى أثناء تأدية مناسك الحج كاملة بما فيها الركوع على الركبتين وقد أخذوه إلى الكعبة وكذلك إلى المدينة ولم يدر أحد ما هي العبرة من إرسال ملك التتار لهذا الفيل مع الحجاج وكانت كلفته من العراق وحتى وفاته على باب المدينة ٣٠,٠٠٠ درهم.

ولقد زاد التأثير المصري على الحجاز وكان هناك مشاجرات بين الإخوة الباقين الذين حكما مكة. وكان هناك عدة توقيفات وإخلاءات من قبل المصريين مع تدخلات صعبة وفي لحظة من اللحظات طلب من عطيفة ورميثة زيارة الملك الناصر في مصر حيث اختفى عطيفة. والذي توفي في السجن سنة ١٣٤٣ وبعد السماح لرميثة بالعودة إلى حكم مكة يساعده في ذلك ابنه أحمد وقد تعب حاكم مصر من كثرة الفتن والتناحر في مكة ومن محاولات لزيادة التأثير اليمني هناك من أجل تثبيت قوته فيما بعد.

في تلك الأثناء عزم حاكم مصر على محو الأشراف من البلاد ولكن العلماء في مصر أقنعوه بالعدول عن هذه الخطوة المتطرفة وكان هذا تقريباً سببه المكانة الخاصة للأشراف كسلالة تعود إلى النبي (ص) والذي قد يؤدي لحدوث مثل ذلك إلى الإمتعاض الشديد بين المسلمين الملتزمين.

وكان أحمد قد أرسل من قبل والده رميثة في رحلة عبر نجد لاحتلال الحلة في العراق حيث ابتدأت سلطة المغول تضعف وعند الإنطلاق حذره

والده من الغيلان في تلك البلاد وعندما قتل هناك قال بأنه كان يعلم أنه سيصاب بالأذى في العراق ولخوف الحجاج العراقيين من انتقام رميثة وللفوضى التي عمت، مسبباً بنقص الأمن في الصحراء العراقية وإلى انهيار الدولة المغولية فتوقفوا عن المجيء إلى الحج أحد عشر عاماً.

وبقي الحال هكذا إلى أن أتى حكم عجلان والذي تسلم السلطة من والده رميثة من قبل سنتين من وفاته وهذا الحاكم الجديد والذي سمي «نصر الدين» وعرف باسم أبو السريع والذي كان في السابعة والثلاثين عندما تسلم سلطاته وحكم حتى بلوغه سن السبعين أي لمدة ٢٥ عاماً تخللها فترات انقطاع قليلة وخلال فترة حكمه تعطل تأثير الحكم العباسي والتأثير اليمني قد انتهى. وهكذا فإن الحكم المملوكي في مصر كان وحيداً وسيطر باطراد على الحكم في مكة.

وكان رميثة والده قد وجدها من الفطنة أن يجعل ولده ثقاباً مساعداً لعجلان في الحكم ولكن سلطان مصر قد فرض عليهم «سناد» أحد أبناء رميثة سنة ١٣٤٦ كشريك ثالث في الحكم.

أما في سنة ١٣٥٠ فإن المصريين وأتباع حاكم مكة والذين ساهموا في الهجوم على ملك اليمن «مجاهد علي» بينما كان في منى يؤدي فريضة الحج وتعرض معسكره بالكامل للنهب وقد قبض عليه شخصياً وسيق إلى مصر وقد أُعيد بعدها إلى اليمن تحت الحراسة ولكن عند الوصول إلى ينبع قبض عليه ثانية لأنه صرح عن المعاملة التي لقيها من المصريين وسيق إلى الكرك لمزيد من الإعتقال وبعدها أطلق بعد زيارة إلى القدس عن طريق عيذاب (الميناء المواجه لجدة) في طريقه إلى اليمن.

وفي سنة ١٣٥٨ أرسل حاكم مصر قوة بقيادة الأمير جركاتمور من «ماردين» برفقة حملة الحج المصرية حيث رافقه من مصر محمد بن عطيفة بصفته الحاكم الجديد وعند وصوله إلى مكة أرسل بطلب سناد والذي كان برفقة إخوته في اليمن ليكون مساعداً للحاكم محمد وسناد كان يرافقه أخوه مغيمس وكان عجلان أعطى تعليماته بوجوب زيارة مصر حيث احتجز هناك

وبعد عدة أشهر استنفر أهل مكة ضد سناد والعسكر المصري. وبقي محمد محايداً ولكن بعد مغادرة القوة المصرية مع نهاية موسم الحج وجد أنه من المناسب أن يلحق بركبهم.

وعاد عجلان إلى استلام السلطة مرة أخرى ولحق سناد باليمن وقد قتل مغيمس في حرب وقعت بين الأشراف حيث أن المصريين كانوا متورطين سنة ١٣٥٩ وقد عاش ثقاباً حياة تقاعدية انعزالية خارج مكة لبعض السنوات. والآن قد عاد وأخذ زمام المبادرة بعد أن أخذ عهداً من العسكر المصريين بأن يتركوا مكة جميعاً ويتبعوا قافلة الحجاج إلى ينبع.

وفي سنة ١٣٦٠ شارك أحمد أباه عجلان في الحكم وقد منح ربع العائدات وحكم لمدة خمسة وعشرين عاماً وفي آخر السنوات الخمسة عشر من حكمه استولى عجلان على البناء المكون من عدة قلاع وصهاريج ماء وملاجىء ومدارس. وقد رفع الضريبة عن الحجاج بواسطة عبيد مكة معوضاً هؤلاء الآخرين من ماليته الخاصة. وقد تبين بعد ذلك أنه كان يملك عدداً كبيراً من الزنوج والخيول والأسلحة. ومنذ ١٣٥٩ وحتى سنة ١٣٦٩ كان هو الذي سمح بالدعاء للسلطان المنولي في الخطبة وقد كان السلطان يرسل إليه المالية السنوية حتى ذلك العام ١٣٦٩. ومن ناحية أخر ربما وبتحريض من قبل المصريين قام باضطهاد الزيديين اليمنيين في مكة والمؤذن الذي كان يفضلهم أُخذ وجلد وضرب حتى مات وكان زعمائهم الذين ربطوا بأعمدة ثم جلدوا بالسياط. وقد كان الأشراف ذاتهم قد بدأوا بالتحول تدريجياً إلى المذهب الشافعي سرياً من الناحية السياسية ثم وفيما بعد بسبب السيطرة المذهبية في البلاد الإسلامية.

لقد توفي عجلان في «جديدة» في «وادي مر» سنة ١٣٧٥ ودفن في المعلا وذلك بعد تأسيس نموذج جنائزي للدفن.

أحمد الملقب «بشهاب الدين» قد مشى على خطى والده معطياً مكة حكماً هادئاً مسالماً وأصبح خلال فترة قصيرة قوياً لدرجة أن مصر أصبحت تحسب له حساباً وقد استدعي إلى مصر عدة مرات وفي كل مرة كان يجد

أعذاراً لعدم الزيارة وعند اقتراب نهاية حكمه وربما لخشيته من أقاربه أو لخشيته من المصريين فقد كان يرتدي غالباً دراعة من السلاسل وبسبب اضطراره للباس الأحرام الخفيف في الحج فإنه لم يحج حتى لا ينزع الدراعة. ومخاوفه كانت في محلها الصحيح فقد سمم سنة ١٣٨٦ ومات وابنه محمد طُعن بعد ذلك بمئة يوم فقط من شخص مجهول وكان الولد في العشرين من العمر وقد قيل بأن وفاته كانت بسبب مكيدة دُبرت من قبل أمير الحج المصري وبتحريض من ابن عمه أيضاً.

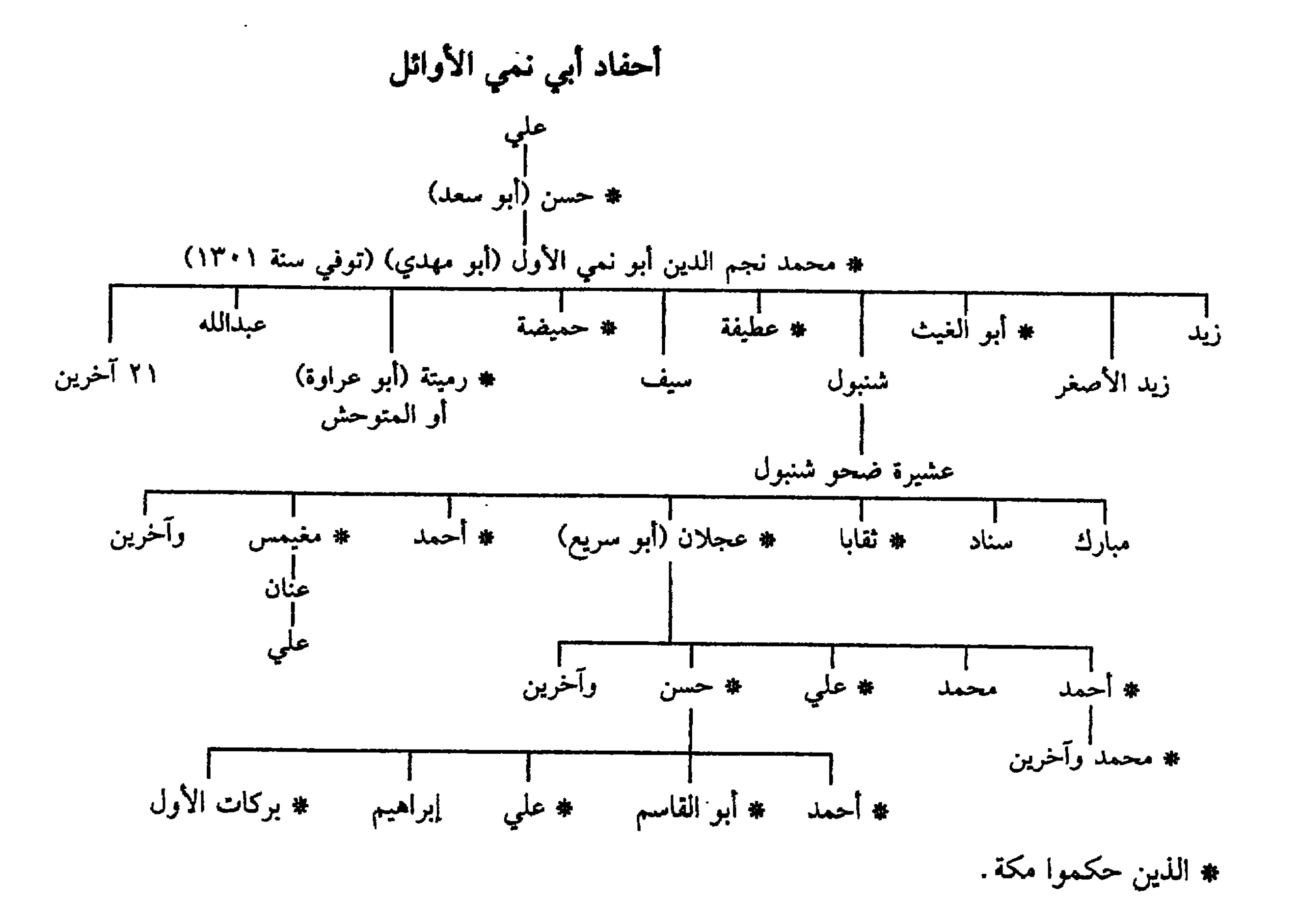
وكان عنان ابن مغيمس (ابن عم أحمد) قد خلفه سريعاً في الحكم حيث أنه قدم مع قوافل الحج المصرية وكانت الموافقة عليه قد تمت من قبل عندما كان لا يزال في مصر بواسطة الحاكم باركوك وهو أول حاكم من عائلة المماليك البرجيين.

وقد جهر ليكون مساعد الحاكم أحمد بن ثقاباً وعقيل بن مبارك بن رميتة وبعدها جمع كبيش مؤيدين من القبائل وهاجمه ولكنه (أي كبيش) قتل في معركة قادها ضد أتباع عنان. وفي السنة التالية ١٣٨٧ وافق باركوك على عزل عنان من الحكم وجعل مكانه علي وهد أحد أبناء عجلان. وكان لا يزال صغير السن. وهكذا فقد فشل عنان وعاد إلى مصر حيث توفي سنة ١٤٠١ وقد حكم علي مدة سبع سنوات إلى أن قتل على يد أحد قادته العسكريين حيث خلفه لمدة سنة محمد بن عجلان بدلاً من حسن بن عجلان والذي كان أثناءها في مصر. وفي تلك السنة بدأ تيمورلنك غزوه باتجاه الغرب ودخل بغداد سنة ١٣٩٤ وهكذا فقد توقفت قوافل الحج العراقية عن المجيء إلى مكة ودام ذلك عدة سنوات متتالية.

وحالما وصل حسن بن عجلان إلى مكة قادماً من مصر عين ابنه بركات مساعداً له في الحكم وبعدها بسنتين اقترح على السلطان المصري والذي وافق على تعيين ابنه أحمد مساعداً له أيضاً في الحكم وطلب السلطان من حسن أن يكون هو نفسه نائباً للسلطان عن كل الحجاز وبهذا فقد ضمن أن يكون ولديه الإثنين حاكمين لمكة. وقد ابتنى ملاجيء للنساء وللرجال وكان مشهوراً ومحموداً على حكمه العادل.

وفي سنة ١٤١٥ ولسبب ليس له تفسير ولكن له علاقة بمكيدة دبرها أقاربه أو حسينيي المدينة ضمن النفوذ المصري. وهكذا فقد ناب رميثة ابن محمد بدلاً من حسن وأبناءه لمدة سنة وبعدها أعيد تعيينهم في مناصبهم. وكان حسن قد أرسل ابنه بركات إلى مصر ليدافع عن أبيه ويقنع السلطان بالتجديد له. وتكرر نفس الحادث سنة ١٤٢٣ حيث استبدلوا بعلي بن عنان بن مغيمس لمدة سنة ثم أعيدوا بعدها إلى مراكزهم. وقد توفي حسن في مصر أثناء زيارة قام بها للسلطان أشرف سيف الدين برسباي في سنة ١٤٢٥ في الرابعة والخمسين من العمر وقد خلفه ابنه بركات. وقد شاهد حسن والده يحكم باستقلالية كاملة في أيام حكم أسرة المماليك البحريين. ولكنه اكتشف تعاظم التأثير المصري على الحكم في مكة أثناء حكم أسرة المماليك البرجيين وقد وجد نفسه مجبراً على الإستسلام لحكمهم. وقد حكم لمدة ستة عشر عاماً. جمع خلالها ثروة عظيمة ووصل إلى سمعة وصيت مرموق في التقوى وفي حبه للأدب.

أحفاد أبي نمي الأوائل



* الذين حكموا مكة.

الفصل السادس

بركات الأول: إخوته وأبناءه
(١٤٢٥ـ١٤٩٨)

بركات الأول: إخوته وأبناءه (١٤٢٥-١٤٩٨)

مع بعض فترات الإنقطاع عن السلطة عندما كان إخوته يقومون مقامه فإن بركات بن حسن قد حكم منذ وفاة والده سنة ١٤٢٥ وحتى وفاته هو سنة ١٤٥٥.

ومثل والده فإنه كان مشهوراً بحبه للأدب وقرضه للشعر وعندما كان في مصر سنة ١٤٤٧ فإن السلطان زاهر سيف الدين جكمك شخصياً دعا نبلاء المجتمع وغالبية الشخصيات المرموقة في الأدب والشعر لمقابلة بركات والتحدث إليه. وأصبحت شهرته لا تضاهى وحضر مجلسه كثير من طالبي العلم ليتعلموا منه. وخلال فترة حكمه أصلح مياه عين الحسين والمسجد القريب من العين ثم بنى كثيراً من الملاجىء في مكة أو أعاد إصلاح القديم منها وبعضها بني بطريقة جيدة فبالنسبة للحسيني فإن بعضها قد بني بطريقة أكثر من جيدة لدرجة أنها كانت لا تزال قيد الإستعمال حتى القرن الثامن عشر.

وهكذا فإن بركات كان مهاباً ومقدراً عند الناس ليس فقط لاستقامته وثقافته وقدراته العقلية. ولكن أيضاً لورعه وتقاه وإخلاصه في عمله وكان أول شخص إذا لم يكن الوحيد في عصره الذي تسلم «خلعه» من مصر وهو لباس لمرتبة شرف ظهر لأول مرة أثناء حكمه. وهذا التقليد أصبح يعني ومنذ ذلك الوقت كشهادة تفويض عليا بالنيابة الرسمية عن السلطان والتي أصبح بدونها الحاكم غير مؤهل للحكم عن جدارة ولباقة. وهذه «الخلعة» أو «الكسوة» أو

مرتبة الشرف في حد ذاتها هي هبة لا تعني أكثر من تعبير عن الرضا والرغبة بإرضاء الطرف الممنوح لهذه الهبة مثل التعبير الذي يعنيه إرسال كسوة إلى الكعبة. فهي تعبير عن التقدير والتبجيل والتشريف للمكان نفسه من قبل الشخص المانح. والشريف الحاكم هو الذي يؤكد حصوله على هذا الشرف بدون أن يضع نفسه في موضع المتذلل، ولكن ولأنها كانت ترسل فيما بعد وأصبحت شيئاً عادياً ولفترة طويلة من الزمن من قبل حكام مصر أو بغداد أو العثمانيين بعد ذلك فإنها لم تكن لترفض من قبل الشخص الآخر. وقد أصبحت تعني مع الوقت أنه بدونها فإن حاكم مكة ينقصه درجة من الحاكمية حتى يصبح حاكماً بالمعنى الحقيقي للكلمة.

أما سلوك بركات تجاه الحاكم في مصر فقد وصف على أنه خطوة فنية تكتيكية. ومهما يكن الأمر فإنه خلال فترة حكمه قد بدا وكأنه الوصي على مجموعة المهندسين الذين أرسلوا من مصر لصيانة المكان المقدس وكان هناك حامية عسكرية مكونة من خمسين فارساً أرسلت من مصر إلى مكة. ورغم أن الحامية العسكرية تتلقى الأوامر من حاكم مكة فإن هؤلاء العسكر قد وصلوا في الحقيقة إلى استقلالية خاصة بهم وهذا عائد إلى أنهم سرب من النخبة وقدرتهم على الرجوع بالمعلومات إلى مصر مباشرة عن كل ما يحدث في مكة جيدة

وكان قائد الحامية يسمى أحياناً «أمير الترك» في مكة أو حتى سلطان الأماكن المقدسة. وعندما دخل العثمانيون في هذه الأنظمة أطلقوا على هذا المنصب اسم سنجق مكة وكان يحظى بمرتبة عليا عند السلطان.

وفي سنة ١٤٥٥ استعمل بركات المندوب السياسي المصري في جدة كحلقة اتصال لإيصال اقتراحاته لتعيين خليفة له. وهكذا فإن الوكيل المصري حصل على موقع مشابه تقريباً للذاك الخاص بالوكيل البريطاني في الهند في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع أن مهمة المندوب المصري أقل تعقيداً وأقل تنويعاً من تلك المهمة المناطة بالمندوب البريطاني.

إذن فإن تواجد الوالي أو الوكيل أو المندوب قد أصبح شرعياً في عصر

بركات ثم أنه أصبح مقبولاً شيئاً فشيئاً بالرغم من أنه لم يكن مقبولاً إلى حد ما لدى الأشراف أثناء حكم والده حسن. ولقد أصبح الدخل الوطني مستقراً تقريباً وقد ورث بركات عادات استمرت معه ومن بعده لقرون عديدة.

لقد تأسست تحت حكمه مثلاً تلك الضريبة. وهي ربع قيمة حمولة السفن. وهي قيمة تعود إلى الشريف الحاكم وكذلك ربع قيمة العطاءات والهدايا التي ترسل أو تستقدم من الخارج من أجل مواطني مكة. وكذلك عُشر البضائع المستقدمة بما فيها عشر قيمة الحمولة القادمة على السفن الهندية والواصلة إلى ميناء جدة.

ومنذ منتصف القرن الخامس عشر فإن نسبة من عائدات ميناء جدة من القيمة الجمركية كانت ترسل إلى مصر ثم فيما بعد إلى عثمان باشا حامي المكان. وكانت النسبة المقتطعة تختلف من وقت لآخر من ربع إلى نصف من المجموع الكلي. وإذا مات غريب في مكة بدون أن يكون له وريث فإن ثروته تعود إلى الشريف وقد كان نصيبه من الإيرادات الشعبية هذه يعادل النصف ويقوم بدوره بتوزيعها على المسؤولين من أسرة الأشراف.

وقد وضعت مع الوقت ضرائب أخرى على الحجاج إما عند الوصول إلى ميناء جدة أو في الطريق البري إلى مكة. وأكثر من ذلك فإن أي شخص يريد أن يزين الكعبة يجب أن يحصل على ترخيص من الخليفة أولاً ثم بعد ذلك من الشريف الحاكم. وقد أصبح ذلك تقليداً وكان العرف أن يقبض الشريف عند الموافقة على مبلغ من المال والكمية على حسب نوع العمل ودائماً يكون المبلغ لا يستهان به.

وبما أن وزيره أو رئيس شؤونه في الحكم هو المسؤول عن الأمور [illegible] وكذلك المسؤول عن الضريبة الجمركية فيكون إما شريفاً من الأسرة أو غريباً. أما حكام المدن الصغيرة والمناطق فكانوا غالباً من البدو أو من الأشراف. أما الحرس من حاملي الرماح أو الحرس الشخصي للحاكم فكانوا من العبيد المحررين والذين هم أنفسهم

لديهم عبيد مدربين أصبحوا حرساً لهم. وكان لدى الشريف مجموعات من الزنوج وكذلك مجموعة من المرتزقة أو الجنود الدائمين المدربين. ومعظمهم من جنوب الجزيرة العربية، ولكن بعضاً منهم كان من غير العرب أيضاً. ثم أنه لو شاء لاستطاع أن يطلب المساعدة من القبائل البدوية والذين يمدهم سنوياً بالإعانات المالية لهذا الهدف. وقد روي أنه في تلك الأيام إذا ما أتت أخبار عن طريق المبشر أو النذير بالأخبار السارة وهو يذهب من بيت شريف إلى بيت شريف آخر فيستلم رداء شرف. ويقوم كل شريف برفع راية فوق بيته وفي العموم كان أسلوب حياة الأشراف الحكام بسيط للغاية ومتواضع. والعمامة الكبيرة كانت هي الفرق الوحيد بين الشريف الحاكم وعامة الناس مع وجود استثناءات أثناء المراسم الإحتفالية حيث يرتدي جبة منقوشة بالذهب وذات أكمام فضفاضة (لباس الشرف).

وبالرغم من مركزه فإن الحاكم عادة ما يخاطب من قبل الشعب وهم يرتدون لباسهم العادي. وعلى الأخص من قبل البدو حيث أنهم لا يزالون على نفس النسق حتى اليوم.

وعندما مات الشريف بركات في «وادي البر» وقد دفن في «المعلا» في مكة. وكان ابنه في تلك الأثناء في اليمن ليستطلع أملاك والده هناك لكنه عاد في الحال واستلم حكم مكة بعد والده. وتم ذلك بمساعدة من «جانى لك» مندوب السلطان المصري في الحجاز. وفي سنة ١٤٤٧ أي قبل سنوات قليلة من وفاة بركات أتى وزير كبير من السلطنة العثمانية اسمه مراد الثاني لأداء فريضة الحج في مكة. وكان في موكب عظيم ولم يبدُ عليه ما يدل على أنه يستعرض المكان بقصد التظاهر أو الإنذار بشيء ما. وحيث كان بركات يموت فإن الأخبار المدهشة عن سقوط القسطنطينية بيد الأتراك وصلت. فالعاصمة المسيحية التي قاومت الهجمات العنيفة للمسلمين الأوائل والغزوات المتتالية للعباسيين قد سقطت أخيراً تحت الضربات الفعالة والضارية للعثمانيين.

كان محمد بن بركات مثل أبيه فقد أكمل إصلاح الأبنية داخل الحرم. وكذلك فيما حول الحرم قرب مكة. وقد أعاد بناء مسجد ميمونة، قرب مكة

حيث أن إحدى زوجات الرسول طلبت أن تدفن في نفس المكان الذي تزوجت فيه وجعل فوقها قبة مدعمة بأربعة أعمدة فوق القبر وظلت صامدة حتى هدمت بواسطة الوهابيين المتزمتين في القرن التاسع عشر.

وفي سنة ١٤٦٧ ورغم أن المستفيد الدائم هو السلطان قايت باي المصري فإنه ألغى الضريبة المفروضة معوضاً على المدينة بالمساعدات المالية وآمراً أن يكون هذا القانون نافذاً ومحفوراً على أعمدة الحرم. وقد أعاد تأهيل وترميم المنطقة الخاصة بسكن الحجاج المصريين ومسجدهم وكذلك المنارة والبيت الجديد الذي أعد لأمير الحج المصري وجامع المزدلفة أعيد غسله بالجير والبئر في عرفات نظف وقنوات المياه المجرورة من جبل الرحمة إلى وادي النعمان والتي نضبت من ١٦٠ سنة قد أعيد فتحها. وفي كل عام مشروع جديد مشابه والأوامر تأتي من مصر، وقد سقفت الكعبة من الداخل بالرخام بأمر من قايت باي سنة ١٤٧٦ وفي السنة التالية نفذ مشروع الأربعة مدارس. مدرسة لكل مذهب من المذاهب الأربعة وكذلك عملت ملاجىء أخرى أمر السلطان ببنائها.

وبعد ذلك وفي سنة ١٤٧٢ قد رفض الحجاج العراقيون رخصة بالسماح بأن يجعلوا حجاجهم تحت إمرة أمير الحج المصري. فأوقف أميرهم ومنعوا بالقوة من دخول مكة. وبينما المحمل الآتي من العراق بدلاً من العطاءات المالية الضخمة المعتادة لمكة وحرمها. فقد رفض هذا المحمل سنة ١٤٧٦.

وفي السنة التالية ولسبب غير مفهوم فإن شريف مكة هاجم جيزان وهي ميناء على ساحل البحر الأحمر وعلى الحدود مع اليمن فأحرقها ودمر قلعتها وكانت جيزان تناضل كمدينة حدودية وعادة تحت سلطة الشريف وكانت إيرادات جيزان حوالى ١٥,٠٠٠ فضية ترد عن طريق الجمرك وعشرة آلاف فضية من منجم الملح. والآن هي جزء من الحجاز التابع للمملكة العربية السعودية.

وقد حضر قايت باي إلى مكة لأداء مناسك الحج، وقايت باي الرجل الشركسي العبد المحرر. وكان قد اشتراه السلطان جقمق صغيراً بخمسين دينار

ثم حرره وكان رماحاً (حامل رمح) بارعاً وذكي بطريقة غير عادية. وكان الشخص المفضل عند جقمق، وفي ذلك الموقع رافقه إلى مكة مجموعة ضخمة من العبيد وكانت حملته تكاد تكون بكاملها من العبيد.

وروي أنه قال بأنه كان يحلم بغسل الكعبة من الداخل بنفسه وقد عمل ذلك باحتفال حاشد شاركه فيه العلماء وسدنة الكعبة (حملة المفاتيح) الشيخ عمر بن رجب الشيبة.

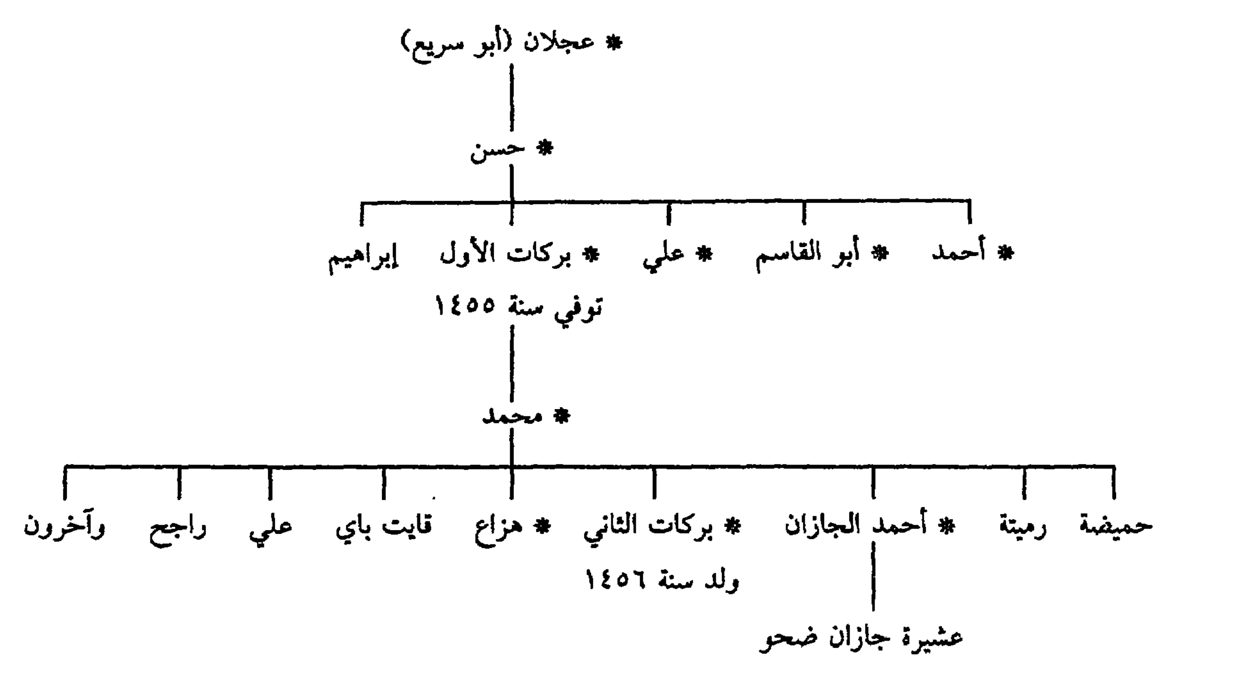
وعند ترك الحجاز قام قايت باي بإعطاء الشريف عُشر إيرادات الحجاج اليمنيين وبهذا فقد سلمه نصف حصته من العشر.

وهكذا فإن العلاقة بين الرجلين كانت قوية لدرجة أن السلطان سمى أحد أبناءه على اسم الشريف. وقد استمر السلطان بتقديماته الخيرية تجاه المدن المقدسة في الحجاز وفي السنة التالية بعد سماعه بأن مسجد الرسول في المدينة قد أصيب بالبرق واحترق عن آخره فبكى وأمر بإعادة بنائه على نفقته الخاصة.

وفي تلك الأثناء وخلال حكم محمد وردت الأخبار عن تحرك قوات الشاه محمد إسماعيل الصفوي الفارسي الذي حارب الأمبراطورية العثمانية فزادت من مشاكل الشريف السياسية.

الشريف محمد الذي توفي سنة ١٤٩٥ كان له ستة عشر ولداً من الأحياء وقد خلفه واحداً منهم. بركات الذي درس في مصر وكانت سمعته مزيداً من العلم والتقوى مثل والده وجده من قبل أن ينجح ويصبح حاكماً فإذا كانت فترة حكم بركات بن حسن وابنه قد تأثرت بالحكم المصري تأثراً كبيراً وأكثر من أي وقت مضى. وقد عزز مكانة الشريف الحاكم الروحية وجلب السلام إلى مكة من خلالهم ومن خلال خليفتهم بركات بن محمد أو بركات الثاني فإن الوظيفة المقدمة للشريف كأمير لمكة قد جهزت تماماً أما لأسباب سياسية لحالة مؤقتة لأحد الأشراف الذين عوملوا بطريقة خاطئة من قبل الأمبراطور الجار في ذلك الوقت أو عن طريق الأقارب من نفس العائلة التي ظلت تحكم باحترام وتبجيل من قبل العالم الإسلامي.

الأحفاد الأوائل لبركات الأول



* الذين حكموا مكة.

الفصل السابع

بركات الثاني
(١٤٩٥ـ١٥٢٤)

بركات الثاني (١٤٩٥-١٥٢٤)

عندما كان بركات بن محمد بن بركات طفلاً كان يسمى بركات الثاني أُرسل إلى المدرسة في مصر ورافقه القاضي إبراهيم الضحويري وهو من ضمن أربعين عالماً دينياً تتلمذ بركات عليهم أو تعامل معهم وقد ذكر ذلك الحسيني وذكر من بينهم أسماء بعض المعلمات النساء، وذلك حيث كان ذلك شائعاً في مصر. وقد تقدم في علوم الدين تقدماً ملحوظاً وقد قُبل وهو صغير السن برتبة عالم.

وعندما توفي والده وافق سلطان مصر محمد بن قايت باي على تعيينه خليفة مكان والده. ولكنه اكتشف أنه يواجه صعوبات مع إخوته هزاع وأحمد الجازان. وقد ابتدأ حكمه بشكل غير مأمون الجوانب، ولكنه انتهى بعد ذلك بسلام.

وكانت شخصيته قد تأثرت كثيراً بزواجه المتأخر ولكنه كان زواجاً محظوظاً.

وبالرغم من أنه حاول أن يعمل صلحاً مع إخوته خارج الحكم والذين نجحوا أخيراً بعزله عن الحكم وسرقوا خيوله حتى لا يقدر على رد الهجوم فإن بركات الرجل التقي المعتدل انتظر بهدوء وسلام في جدة حتى موسم الحج التالي وعندها دخل بحماية حملة الحج المصرية إلى مكة. وبعدها أرسل هزاع

ليعيش في ينبع منفياً. وبدلاً من وعده لأخيه بالإستقامة فإن هزاع جهز جيشاً قوياً واتجه صوب مكة والتقى الجمعان وهزم بركات عند «المعشر» وعندها هرب الحاكم بركات إلى «الليث» وعاش هناك إلى أن سمع بوفاة هزاع. فقام إخوة أحمد الجازان يريد أن يبقيه بعيداً ليستأثر هو بالسلطة ولكن بركات دخل مكة في الوقت المناسب وعند وصوله استلم «خلعة» ورسالة تعاطف وتآزر من سلطان مصر.

وقد صحب بركات قافلة الحجاج العائدة إلى ينبع لأن أحمد الجازان قد سرق قافلة حجاج الشام. ولذا فإنه خطط لحملة معاقبة لأحمد ولكن القوتين هزمتا «قوته وقوة أمير الحج» هزيمة نكراء، وقد قبض على إبراهيم ابن الشريف بركات حاكم مكة وبهذا فقد تشجع أحمد الجازان بعد هذه الوقعة فقام بتجهيز جيش أكبر لأخذ مكة نفسها. وبركات المريض وقد تضاءلت قوته وعددها قد التجأ منسحباً إلى اليمن. وهناك بدأ يحشد بدورة الحشود لاسترداد مكة بالقوة ولكنه فشل في ذلك وتبعه الجازان ونجح بركات في تضليله وتحرك بسرعة ولآخر فرصة تركه يبحث عنه متملص منه ودخل مكة حيث رجعت له كامل المدينة وهكذا فعندما وصل الجازان إلى أطراف مكة وجد أهل مكة يقفون وقفة رجل واحد ليدافعوا عن المدينة وهكذا فقد انسحب وذهب ليعسكر عند «بئر شما». وأرسل إلى «ينبع» وأماكن أخرى يطلب المساعدة والدعم وتقدم إلى مكة للمرة السادسة. ومع أن رجال بركات كانوا في الخنادق متحصنين. وهكذا فقد نجح الجازان في الهجوم على مكة. وهرب بركات إلى اليمن إلى أن وصل الجيش المصري إلى جدة فأسرع الجازان بإخلاء المدينة المقدسة.

ويبدو الآن حكم بركات أكثر استقراراً واستمراراً ولكن بعد أن رجع تعجل بالذهاب للترحيب بالقوات المصرية الواصلة وقائدها «المكار الأشرف طيطوب» الذي قبض على الشريف بركات وأخذه إلى مصر عن طريق ينبع وهو مقيد بالسلاسل. وكان طيطوب قد توصل إلى اتفاق مع أحمد الجازان أثناء قدومه عن طريق ينبع مقابل مبلغ ضخم من المال من أجل تثبيته في حكم مكة.

أما بركات الإنسان التقي المعتدل الذي وصل إلى القاهرة وهو مقيد بالسلاسل وكان السلطان الغوري وشعبه في ذهول ودهشة لرؤية هذا المنظر وكانوا في غاية الإنزعاج. وقام السلطان الغوري بإطلاق سراحه في الحال وتعويضه عما أصابه من سوء حال. أما طيطوب القائد المصري الفاسد والذي وجد نفسه في موقف صعب وخطير العواقب وغير مرضي عنه من قبل السلطة والشعب، وبينما كان بركات مستقبلاً بالترحاب أينما ذهب في بيوت العلماء ونخبة المجتمع في القاهرة، وبقي هناك حتى سنة ١٥٠٣. حتى سمع باغتيال الجازان وفي الطريق التقى برسول هو سيد «تبغا الحسيني» آت من طرف أخيه حميضة وذاهب إلى السلطان وفي الحال قتله وصادر الهدايا الذاهبة إلى السلطان المصري. وعندما حاصر العسكر الكعبة ولم تكن الحكومة المصرية على علم بالذي قام بعملية القتل وقد أعلن حميضة والذي تبين أنه بدأ يتقرب من بركات الذي كان يستعد للهرب.

وبعد ذلك كان بركات يرغب بزيارة المدينة من أجل استنهاض قبيلة «زبيد» في الطريق إلى مكة. هاجم من صوب الشرق من صوب ينبع وفي طريقه أمضى ليله مع واحد يسمى «حميدان بن شمان» الحسيني. وهكذا فقد حدث في نفس الوقت أن شخصاً من آل الحسيني قد قام بطلب يد ابنة حميدان «غوبيه» وأن التحضيرات للزواج كانت على قدم وساق، وقد سأل بركات مع ذلك بطلب البنت من والدها وقد وافق الوالد وكذلك العروس على الزواج وقد أنجب منها ولده أبو نمي والذي ولد في ٣/ ٥/ ١٥٠٥ وقد اعتاد بركات على التربيت على رأس ولده ويقول له «أنت نجمي المحظوظ لم أكن محظوظاً إلى أن ولدت» وكان في الثالثة والخمسين عندما ولد ابنه وحظه وشخصيته بدأت على ما يبدو بالتغيير.

وعند وصوله إلى مكة استلم بركات الحكومة عن كامل الحجاز فأخوه قايت باي وأصبح والياً على مكة نفسها.

كان ذلك نفس الوقت الذي زار فيه لودوفيكو فارتيميا من بولونيا بإيطاليا، مكة وقد كتب:

«وبعد لأي وصلنا إلى مكة وكانت هناك حرب. أخ مقابل أخيه وكان هناك أربعة إخوة وكانوا يتقاتلون من أجل الحكم في مكة».

وتحت الفصل الذي يظهر كيف بنيت مكة ولماذا المسلمون يذهبون إلى مكة، كتب:

«سوف نتكلم عن النبالة المقدسة لمدينة مكة. كيف هي حالة البلد ومن يحكمها، إن المدينة جميلة جداً ومسكونة جيداً. ويقطنها حوالى ٦٠٠ عائلة والبيوت جيدة جداً مثل البيوت التي نقطنها نحن وهناك بيوت قيمتها ثلاثة إلى أربعة آلاف قطعة ذهبية لكل منها، وهذه المدينة ليست محاطة بأسوار لأن أسوار هذه المدينة هي الجبال ولها أربعة مداخل وعلى مسافة ربع ميل من المدينة وجدنا طريقاً جبلية محفورة بأعمال آدمية. وقد نزلنا إلى الوادي وكان حاكم هذه المدينة سلطاناً وهو أحد الإخوة الأربعة وهم من سلالة النبي محمد (ص) وهم يتبعون سلطان مصر. وإخوته الثلاثة في حرب دائمة معه. في الثامن عشر من أيار دخلنا المدينة المذكورة من ناحية الشمال ومن الجانب المواجه للجنوب يوجد جبلان فهما يكادان يتصلان ببعضهما البعض ويمر بينهما ممر يصل إلى بوابة مكة وفي الناحية التي تشرق منها الشمس هناك ممر جبلي آخر مثل الوادي والذي من خلاله يمر الطريق إلى الجبل حيث يحتفلون بالتضحية التي عملها إبراهيم وإسحق وذلك حيث الجبل يبدو بعيداً عن المدينة حوالي عشرة أميال. وارتفاع هذا الجبل يبلغ اثنين إلى ثلاثة طبقات من الحجارة معمرة باليد وهي من نوع معين من الحجارة ليس رخاماً ولكنه بلون آخر وفوق قمة هذا الجبل فهناك جامع حسب اعتقادهم وله ثلاثة أبواب وعند قاعدة هذا الجبل هناك صهريجين جميلين، الماء الأول للقوافل القادمة من الشام وماءه مجموع من مياه المطر ويأتي من مسافة بعيدة والآن دعنا نعود إلى المدينة وسنتكلم في الوقت المناسب عن التضحية التي يقومون بها عند قاعدة ذلك الجبل وعندما دخلنا إلى البلد وجدنا القافلة القادمة من القاهرة والتي وصلت قبل وصولنا بثمانية أيام. وذلك لأنهم لم يسيروا على نفس الطريق التي سرنا عليها، وكان في هذه القافلة ٦٤٠٠٠ أربعة وستون ألف جمل ومائة

مملوك. يجب العلم بأن من رأى هذه الأرض يعلم بأنها لا تنبت زرعاً وليس بها ماء أنها قاحلة. وأن أهلها يعانون بشدة من نقص الماء ويعيش الناس هنا في جزء كبير من مؤونتهم يأتيهم من القاهرة وكمية أخرى تأتي من البادية العربية وكذلك من أثيوبيا وبعضها من الهند الصغرى والبعض من فارس والبعض الآخر من الشام.

في الحقيقة لم أجد في حياتي نقطة يحتشد فيها كل هذا الخلق مثل هذه النقطة وخلال العشرين يوماً التي أقمت فيها بها، وبعض هؤلاء الناس أتوا للتجارة والبعض الآخر للحج وللتكفير عن ذنوبهم.

سنتكلم أولاً عن التجارة، التجارة تأتي من أماكن كثيرة من الهند الكبرى كثير من المجوهرات والأحجار الكريمة ثم كثيراً من التوابل والبهارات وجزء كبير من أثيوبيا وكذلك من الهند الكبرى من مدينة تسمى «بانغاتشيلا» كميات كبيرة من المواد الغذائية والقطن والحرير. وهكذا فإن في هذه المدينة يحدث تبادل تجاري سريع للبضائع والمجوهرات والتوابل. إذن هناك من كل شيء وبكثافة: القطن بكميات كبيرة، الشمع، مواد عطرية بكميات أكبر وأعظم.

أما فيما يختص بطلب المغفرة:

أما بالنسبة لطريقة طلب المغفرة في فترة الحج في قلب البلد حيث يوجد مكان عبارة عن معبد يشبه الكوليزيوم في روما. ولكنه ليس مصنوعاً من حجارة ضخمة ولكن من أحجار محروقة ومستديرة وبطريقة متشابهة ولها تسعين باباً أو ربما منه باب وهي مسقوفة بأروقة وعند دخول الحرم فينزل بعشرة أو اثنتي عشرة درجة إلى الأسفل وعند المدخل أناس يبيعون الجواهر ولا شيء آخر وعندما تنزل الدرجات تجد المعبد المذكور في كل ما حولك من أشياء: الجدران مغطاة بالذهب وتحت تلك الأروقة يقف حوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ إنسان رجال ونساء ومنهم الأشخاص الذين يبيعون كل أنواع العطورات وأنواع من البودرة لحفظ الجسم البشري لأن الحجاج يأتون من جميع أنحاء العالم. ولا يمكن تصور الروائح والعطور التي تملك هذا المكان. ويبدو كأنه مكان مليء

بالمسك والعنبر والتوابل والروائح العبقة بكثافة. في ٢٣ أيار هذا الغفران يبدأ في هذا المعبد المكشوف وفي وسطه تقريباً يوجد برج يبلغ طول كل جانب من جوانبه خمسة أو ستة خطوات وهذا البرج مغطى برواء أسود حريري. وهناك باب من الفضة بارتفاع قامة الرجل وعلى جانبي الباب هناك جره من الفخار. ويقولون بأنها مليئة بالبلسم وهي توزع يوم العيد. وإلى جانب هذا البرج هناك حلقة كبيرة في الزاوية وفي يوم ٢٤ أيار يبدأ الناس قبل شروق الشمس فيطوفون سبعة أشواط حول الكعبة ودائماً يلمسون ويقبلون داخل الحلقة عند الزاوية. وعلى بعد عشرة إلى اثنتي عشرة خطوة من البرج يوجد برج صغير. وفي منتصف الباحة توجد بئر جميلة ويبلغ عمقها سبعة قامات و هي قليلة الملح و على هذه البئر يوجد ستة أو سبعة موظفين معينين من أجل جلب الماء للناس، وعندما ينتهي الناس من الطواف سبعة أشواط حول الكعبة يذهبون إلى البئر ويجلسون وظهورهم تجاه حرف البئر قائلين بسم الله الرحمن الرحيم أستغفر الله العظيم. وهؤلاء الذين يخرجون الماء من البئر ينضحون ثلاثة أوعية من الماء على كل حاج من قمة رأسه إلى أسفل قدميه ويقولون أثناءها بأن كل ذنوبهم تزول بعد الغسيل وأن البيت المربع الذي طافوا حوله هو بيت إبراهيم. ولهذا فهم يستحمون جميعاً ثم يذهبون في طريق الوادي إلى تلك الجبال، والتي تكلمنا عنها قبل ذلك. ويمضون هناك يومين وليلة وعندما يكونون أسفل الوادي يعملون التضحية هناك.

الفصل الذي يهتم بطريقة التضحية في مكة

كل العقول النيرة هي الأكثر استعداد للتحريض على مآثر عظيمة جداً لأحداث غريبة وكيفما كان ومن أجل إرضاء هذا التنظيم سوف أضيف أن بعض العادات التي رافقت هذه التضحية. كل رجل أو امرأة يذبح على الأقل اثنين أو ثلاثة رؤوس من الخرفان وربما أكثر أي ما يقدر بثلاثين ألف رأس وذلك بقطع الحلقوم للحيوان. وكل واحد منهم يعطيه للفقراء في سبيل الله والسبب هو وجود فقراء ربما حوالى ثلاثين ألف فقير والذين يجعلون حفرة كبيرة في الأرض يضعون فيها روث الإبل ويشغلون بها الناس وتشوى اللحوم قليلاً على

النار ثم يأكلونه. وأعتقد أن هؤلاء القوم يأتون بأعداد ضخمة لإحساسهم بالجوع.

وفي اليوم التالي جاء قاض من المؤمنين وهو يقابل الواعظ عندنا في الكنيسة. يصعد إلى قمة الجبل ويبدأ بإلقاء خطبته والتي استمرت حوالى الساعة وكانت بلغتهم. وهي نوع من الوعظ الرثائي، ثم بعد انتهاء الخطبة عادوا جميعاً إلى مكة باستعجال لأنه على بعد ستة أميال كان هناك حائط صغير بارتفاع أربع قامات وعند أسفل هذا الجدار هناك كميات ضخمة من الحصى المكومة والتي يلقيها الناس للأسباب التالية: يقولون بأن الله أمر إبراهيم أن يذهب ويضحي بابنه فذهب أمامه وطلب منه أن يتبعه لتنفيذ أمر الله فأجاب الصبي: إنني مذعن لأمر الله تماماً. وعندما وصل إلى ذلك الجدار يقال بأن الشيطان ظهر له بصورة أحد أصدقائه وقال له: يا صديقي إلى أين أنت ذاهب. فأجابه الصبي: أنا ذاهب مع والدي الذي ينتظرني في ذلك المكان فأجابه الشيطان: لا تذهب يا بني لأن والدك سيضحي بك قربة إلى الله وستموت فأجاب الصبي فليكن إذا كانت هذه مشيئة الله ثم اختفى الشيطان وعاد ليظهر له مرة أخرى بصورة صديق آخر وكرر نفس الحدث السابق فأجابه الصبي ولكن هذه المرة بغضب ثم تناول حجراً من الأرض ورماه في وجه الشيطان ولهذا فإن رمي الحصى عائد إلى تلك الرواية وبعدها يعودون إلى المدينة ثم وجدنا عند وصولنا إلى شوارع المدينة حوالى ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ من طائر الحمام ويقال بأنها مما تبقى من الحمام الذي كلم النبي (ص) على شكل الروح القدس وهو يطير في كل مكان من الحرم دون أن يعترضه أحد وهم يدخلون حوانيت الحبوب يأكلون بحرية ولا يقدر أحد على طردهم أو قتلهم وإلا يحدث مكروه للمدينة».

أما زوجة السلطان قانصوه الغوري وابنه نصر محمد زارا مكة سنة ١٥١٤ وعاد الشريف بركات معهم إلى مصر وكانت هذه زيارته الثالثة وقد كوفىء بإفراط من قبل السلطان وبعد ذلك الوقت حكم بركات بود وحب مع أخيه قايت باي وابنه علي وأبي نمي حتى وفاته سنة ١٥٢٤ ميلادية.

وقد نسب إلى الحسيني قوله إن ابن بركات أبو نمي عندما كان في الثامنة من عمره أرسل ليتعلم في مصر يرافقه سعيد بن عجيل والقاضي الشافعي والقاضي المالكي. وكان السلطان قانصوه الغوري على وشك إرسال حملة عسكرية رحب به وأخذه بين ركبتيه وسأله عما يريد قوله. فأجابه الصبي بآية من القرآن ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ فسر به السلطان أشد السرور وأمر بأن يعين عند عودته إلى الحجاز مساعداً للحاك في مكة بدلاً من عمه قايت باي.

وبنجاح الإسبان ضد العرب في اسبانيا صحبه تهديد للهند وجنوب الجزيرة العربية من قبل البرتغاليين وبعدها أصبحت جدة قاعدة للحرب، جهز السلطان الغوري أسطولاً من خمسين سفينة بإمرة المير حسين المشرف الكردي وهو عضو مهم في حاشيته. ومعروف بنشاطه وحماسه وقد وضعها في البحر الأحمر حتى يقابل السفن البرتغالية القادمة من المحيط الهندي.

وكان يدير هذه السفن بحارة عرب وكان العاملون على هذه السفن يقدرون بخمسة عشر ألف بحري من المسيحيين والعبيد، وعند العودة إلى جدة أبدى رغبته ببناء سور حول المدينة وذلك حتى يحمي أهل جدة من هجمات القبائل كما صرح بذلك ولكنه في الواقع متعجلاً بالعمل على إنشاء هذا السور وطالباً المساعدة من كل من يقدر من الرجال على العمل وقد هدمت كثيراً من البيوت لكي يأخذوا حجارتها لإكمال بناء السور وكانت هذه البيوت على خط التحصين وهذا العمل الضخم قد تم إنجازه خلال سنة فقط. وبعدها بفترة استلم السلطان في مصر، طلباً بالمساعدة على صد هجمات اليمنيين أيضاً (هدم هذا السور سنة ١٩٤٩).

وقد أعطى الحنفي تفصيلاً عن تلك الأيام في كتابه برج اليماني أو انهيار اليمن كما يلي:

«وكان لسوء حظ المسلمين أن يدخل البرتغاليون لأول مرة المحيط الهندي أوائل القرن. . .

وبعد نجاحهم الذي حققوه في البداية تشجعوا ولم يتركوا صغيرة ولا

كبيرة إلا وأرادوا معرفتها عن البحر وقد ساعدهم على اكتشاف الطرق الصحيحة البحرية بحار عربي ماهر هو أحمد بن ماجد، لقد دعاه القائد البرتغالي ليأكل معه فشرب وجعله ثملاً بسبب شرب الخمرة التي تناولها وأخبر البرتغاليين بأنهم يجب أن يبقوا بعيداً عن الساحل في بعض الأماكن ويدخلوا في العمق ثم يعودوا من جديد فيقتربوا منه. وهكذا فقد وصلوا إلى الهند بسهولة وأمان وبعد ذلك اعتبروا أنفسهم أسياد «مضيق هرمز» وخصوصاً بعد أن وصلهم إمداد ضخم ولم يتجرأ المسلمون على المخاطرة بالإبحار لأنهم كانوا يرون سفنهم يصادرها البرتغاليون الذين كانوا في كل مكان على الساحل. وهذه الهجمات جعلت ملك الغوجورات يسعى لتلبية النداء والمساعدة للسلطان قانصوه الغوري المصري. فأرسل إليه سفراء سائلاً بالدرجة الأولى عن الآلات الحربية والمدافع حتى يصد هجوم الفرنجة، وعمرو سلطان اليمن كذلك كرس مساعدته. بسبب الأمراض التي حاقت بالمسلمين في البحار وصولاً حتى موانىء اليمن.

وقد وافق قانصوه وأعطى أوامره بانطلاق الحملة لحسين الكردي مع قوة بحرية كبيرة بقيادة سلمان الريس. وهو على شاكلة حسين الكردي حاكمَ جدة منذ وصوله إليها في سنة ١٥١١.

ومن أجل بناء السور استعمل حسين العنف والشدة وعندما تباطأ العمل أمر بوضع أحد العاملين قليل الحظ ضمن الجدار وبنى فوقه ولكن وبعد أن تدخل أصحاب الأموال وأصحاب المكانة اقتنع بتخفيف أوامره البربرية.

يقول ديوارت باربوزا:

«القبطان (ميروسين) الميرحسين القبطان العربي قائد سفن السلطان والذي هزم بواسطة البرتغاليين في الهند. أمر ببناء حصن عند جدة وذلك أنه بعد هزيمته في الهند رفض العودة إلى مصر قبل أن يحقق خدمة لملكه وقرر أن يطلب من ملك «كمبايا» والذي يسمى «سلدو محمد» (١٤٥٨-١٥١١) أن يمده بالمال ليقوم ببناء ذلك الحصن... مع الإشارة إلى أنه لم يكن شيئاً غير مألوف أن يدخل الفرنج ذلك الميناء في تلك الفترة الزمنية».

بريادوزا ينسب إلى تاجر عربي من اليمن غامر ووصل إلى جدة قادماً من «الغوجورات» بشحنة من التوابل قد طلب منه المير حسين معلومات من عن البرتغاليين فأجابه التاجر وكان اسمه خليفة بأنهم مجهزين تجهيزاً جيداً. وأنهم يبنون حصناً، فسأله المير حسين وكيف كان لك الجرأة بالمجيء إلى جدة إذا لم تكن صديقاً للبرتغاليين فأجابه بخوف أنا تاجر وليس لي قوة ولكنك أنت القائد الكبير للسلطان الغوري ولا تملك القوة لطردهم من الهند فلماذا تبقيهم هناك ولماذا لا تبني حصناً هنا. وهكذا أمر مير حسين خليفه الواقف بثيابه الأنيقة وكل العاملين لديه بأن يبدأوا بالعمل حالاً ببناء السور بحمل الطين والحجارة. وعند عودة خليفه أبلغ ما حصل معه في كالبكوت. وفي الحقيقة أن تدعيم وتحصين جدة قد ثبط من عزيمة البرتغاليين والذين لم يهاجموا وعادوا وانسحبوا من المنطقة دون الدخول إلى المرفأ.

وحالما انتهى بناء السور أبحر مير حسين إلى الأنديز ولكن الفرنج قد أصبحوا أقوياء أيضاً ومتحصنين وبعد أن رأى السلطان مظفر «شاه غوجورات» أو سلطان غوجورات (١٥١١ـ١٥٢٥) كان مضطراً لترك المكان من غير أن يأتي بأي فعل حاسم. وارتد إلى جزيرة قمران في البحر الأحمر. ومن هناك أرسل الرسل إلى السلطان عمرو سلطان اليمن وقد أرسل معهم الهدايا إلى السلطان سائلاً التموين لرجاله. وكان عمرو يصغي لوزيره ولنصائحه حيث رفض أن يزودهم بالمؤونة وكان تبريره أنه لو فعلها مرة فسوف يكون مضطراً لفعلها سنوياً فتكون بمثابة ضريبة سنوية في كل عام وكان هذا الرد قد أثار حفيظة المير حسين الذي قرر مهاجمة السلطان اليمني ونزع الحكم من يده. وقد سر رجاله لذلك الأمر. وكان يضع باعتباره أنه سوف يكون مؤيداً من قبل الزيديين المتخصصين بالأماكن الجبلية، والذين سيقزون على السلطان في أول فرصة تسنح لهم وخصوصاً أنه يعاملهم معاملة سيئة للغاية.

وقد عرضوا دفع تكاليف جنود مير حسين وكذلك تموين الجنود وإمدادهم بالخيول اللازمة.

أما موقف شريف حيزان واسمه الشريف عز الدين بن أحمد وبالرغم من

قريبه الشديد من عمرو سلطان اليمن ولكنه قدم خدماته لسيد «لويايا» الفقيه أبو بكر الذي وعد بفتح طريق للهجوم المتوقع ويرشد المهاجمين ويمونهم أيضاً.

والمواطنون في اليمن لم يكونوا قد تعودوا على رؤية البنادق والمدافع وهكذا فإن رجال مير حسين قتلوهم بالمئات. وكان موتهم في الأغلب عائد إلى خوفهم من أصوات المدافع ودخانها وكانت الخسارة بسبب حروبهم وانزوائهم في بيوتهم في العاصمة «زبيب» وإغلاق بيوتهم عليهم من الخوف آخذين معهم بعض الأكر الحديدية التي سببت لهم الخوف. وبعد بضعة معارك حاسمة أصبح مير حسين سيد «زبيب» ودخلها في ٢٠ حزيران ١٥١٦ على رأس جنوده التركمان والمصريين والشاميين وبمساعدة الزيديين وبدعم من قوة شريف جيزان. وكان عمرو وأخوه وابنه قد هربوا جميعاً إلى تعز وهكذا بدأ الجيش المنتصر انتقامه وأخذ ينهب العاصمة. وكان في مقصورة المير حسين جامع الضرائب الشهير وكان اسمه «طوغان» والذي أحصى اليمنيين وبيوتهم في المدينة وهكذا فقد ابتزهم بمبالغ ضخمة، وظل مير حسين مشغولاً مع طوغان بجمع الضرائب مدة سبعة عشر يوماً.

وبعدها انطلق مير حسين مبحراً باتجاه عدن وأصبح أكثر غناً وثروة وسعادة عما قبل آخذاً معه سلمان الريس. ولكنه ترك برسباي ضابطاً آخر وشريف جيزان. وبينما هو مبحر باتجاه الجنوب استعجل أسياد المدن الساحلية للقائه والترحيب به الواحد بعد الآخر عارضين تقديم المساعدات عليه بمبالغ طائلة ومستسلمين له. وقصص نجاحه وشراسته تجاه الناس في جدة والذين كانوا يتوقعون مجيئه في رحلة العودة كثير.

وفي عدن أقام حصن عدن ولكن حصاره الذي أثبت أنه قد انتهى قبل أن يقطف ثماره إذ أبحر عائداً إلى جدة مع كل ما أتلف خلال فصل الخريف سنة ١٥١٦ وليترك كل ذلك يضيع على مدخل ذلك الميناء. وكل إبداعاته العقلية الفظة والشيطانية.

لقد نجح بتشييد وسائل التعذيب مثل معصرة الآدميين والأفران. وغرف التعذيب بالآلات اللازمة لذلك ومقصلة الشيطان حيث الإعترافات بطريقة لم يُر مثلها في مكان آخر.

وبعد فترة بدأت قوة المماليك في التراجع وأصبح السلطان سليم العثماني المنتصر على السلطان الغوري وخليفته تومان باي آخر حكام الأسرة المملوكية واعتبر السلطان سليم الحجاز جزءاً من أمبراطوريته.

أما بركات العجوز الورع فقد سارع بإرسال ابنه الشريف أبي نمي إلى بلاط السلطان سليم والذي كان مسروراً بلقائه ومغتبطاً لاستضافة سليل النبي محمد (ص) وحارس الحرم المقدس. وقد اعترف السلطان بسلطته وأكد على استقلاليته في الحكم على مكة وما حولها وبفضل هذا الحدث يقول الحنفي: وبعد سماع السلطان لسرد أبي نمي البالغ من العمر ٣٠ سنة لمشاكله وأمور الحكم في الحجاز أعطاه تفويضاً بقتل حسين الكردي ولهذا فإن يوم عودته إلى مكة كان يوماً حافلاً وبمثابة عطلة رسمية واستلم بركات أيضاً باليد اعترافاً خطياً ورسمياً بالسيادة على مكة والمدينة وجدة في الحجاز.

وكان شرط السلطان مقابل كل ذلك هو الإعتراف بالسمو المعظم للباب العالي ثم أمر بركات بقراءة «الفرمان» على الناس وفي العلن ووضع عباءة الشرف والمرسلة من قبل سليم وقد هنأه شعبه على ذلك. وفي اليوم التالي أمر بأن تقرأ الخطبة في المساجد باسم السلطان سليم العثماني وأرسل إلى القائد المملوكي مير حسين الكردي بأن السلطان يأمر بعودته إلى القاهرة.

وهكذا فقد دُفع هذا الفاسق إلى أيدي بعض الزنوج العبيد الذين أخذوه بحركة متشفية إلى جده حيث وضع على إحدى سفنه والتي أبحرت صوب جدة وعندما أصبحت السفينة في عمق البحر ربط مير حسين بالسلاسل وربطت حوله أكياس محملة بالحجارة ورموه من فوق ظهر السفينة على تلك الحال وترك حتى يرسو في الماء. أما أعوانه فقد تفرقوا وكل من قبض عليه انتهى إلى المصير الذي استحقه من حسنة أو سيئة.

وبعض الذين وصلوا إلى زبيب ونجحوا في الوصول إلى عاصمة اليمن آنذاك اتصلوا ببرسباي الذي عينه مير حسين الكردي والذي استلم زمام الأمور هناك بعد ذهابه إلى جدة. وقد تشجع برسباي بهذا الدعم وخطط لإنشاء معسكر جديد في اليمن وعندما سمع السلطان عمرو عن الإستعدادات هذه،

أعد العدة للمقاومة. ولكن قوات برسباي وصلت على مشارف تعز سنة ١٥١٧ حيث استولى عليها بسهولة فتركها عمرو نهباً للعدو وهرب. فتابع برسباي انتصاراته وكان عرضة لهجوم من قبل عمرو الذي انقلب عليه جيشه حيث انهزم فقتل هو وأخوه في المعركة وهكذا انتهى حكم أسرته سنة ١٥١٧ ميلادية.

وقد مكث برسباي شهرين في صنعاء ثم بعد ذلك جمع غنائمه الضخمة وتعد بثمانية آلاف جمل عدا ما نهبه رجاله. ثم توجه إلى «نجارا» باتجاه زبيب ولكن قبل الوصول هاجمه جماعة من العرب من بني هوابيش وقبائل أخرى هو وضباطه الأساسيين حيث قتلوا في المعركة وتشتت رجاله ووقعت المسروقات كلها بأيدي رجال القبائل ومعظم الأحياء الذين وصلوا إلى زبيب وافقوا على قيادة اسكندر لهم والذي وصله التعيين من السلطان بالقيادة بينما كان الباقون الذين دانوا بالولاء لرمضان البيزنطي الذي ارتدى اللباس التركي وصرح بأنه يعترف بسلطة السلطان العثماني.

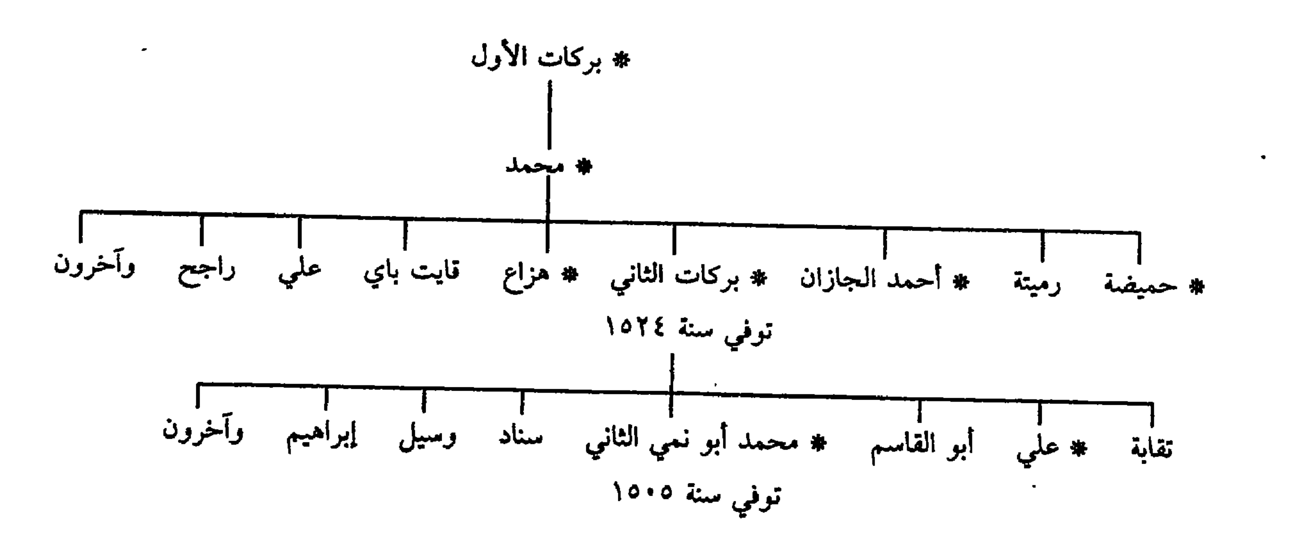
وهكذا فإن المندوب الجديد للسلطان أو السنجق في جدة حسين الرومي وصل هناك حيث وجد أن هناك مجموعات كبيرة من السفن المحاربة المجهزة تركها خلفه حسين الكردي. وكذلك مستودع للأسلحة والذخائر. وقد أعطى وعوداً من شريف مكة بالدعم وكذلك من باشا القاهرة بالزحف على اليمن ولكن عند وصوله إلى الحدود سمع عن وفاة السلطان سليم وفي نفس الوقت كان اسكندر يستعد لمقاومته فعاد إلى مكة دون أن يحقق أي شيء.

وبعد الأحداث التي حصلت في القاهرة عندما كان أحمد باشا يقاوم سلمان الريس والذي كان أمير البحرية التابعة لمير حسين الكردي. ترك القاهرة بسرعة وذهب إلى مأوى في مكة. وعند وصوله شجع السنجق حسين بإعادة محاولة الهجوم على اليمن وهو بنفسه بدأ بمهاجمة البرتغاليين الذين تمركزوا في جزر قمران في البحر الأحمر والتي كانوا يستعملونها كقاعدة للإغارة على موانىء البحر الأحمر.

وقد قتل الكثير منهم. أخذ أو باع كميات كبيرة من المساجين وبعد ذلك استدعى اسكندر بك الكرماني صاحب اليمن للإستسلام.

تطورع الشريف عز الدين حاكم جيزان بالزحف إلى زبيب لمهاجمة اسكندر حيث أصر أهل زبيب على استسلام الحامية وهكذا وقع اسكندر بين يدي شريف جيزان والذي أمنه على حياته ولكن أصبح فيما بعد عدواً لسلمان وهكذا نشب القتال بينهما وقُتل شريف جيزان وفقد سلمان حوالى متني حارس من أتباعه وعلم بعد ذلك عن إعادة إنشاء النظام في مصر تحت لواء الوزير الكبير حسين المقيم في اليمن لإعادة تنظيم الأمور وفي سنة ١٥٢٤ توفي الشريف بركات شريف مكة.

الأحفاد المباشرين لبركات الثاني



* الذين حكموا مكة.

الفصل الثامن

محمد أبو نمي الثاني: أبناؤه - أحفاده - أحفاد أبنائه (١٥٢٤-١٦٣٢)

محمد أبو نمي الثاني: أبناؤه - أحفاده - أحفاد أبنائه (١٥٢٤-١٦٣٢)

محمد أبو نمي والمعروف بأبي نمي الثاني، خلف والده بركات وهو في التاسعة عشر من العمر، وكان قد زار مصر مرتين، مرة وهو طفل في السابعة من العمر، وأثناء حكم السلطان الغوري وبعدها بأربع سنوات للتهنئة بالحاكم المصري الجديد نيابة عن والده ألا وهو المنتصر الجديد السلطان سليم المتجهم دائماً والحاكم الأول، ومع كلا الحاكمين حقق نجاحاً مرموقاً.

وكان من النادر وجوده فوق صهوة حصان الحاكمية إلا عندما تمر قوافل القوات العثمانية بجدة في طريقها إلى اليمن أو إلى الأنديز لدفع المحاولات البرتغالية من التهديد. وقد دخلت السفن إلى ميناء جدة في حزيران ١٥٢٦، وحالما توقفت نزلت القوات إلى البر وابتدأوا في الحال بسرقة الناس والأسواق وتصرفوا بشكل شائن حقير، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار في البلد بشكل لافت. وذلك لازدياد الطلب على التموين الخاص بالعسكر الوافد، وهكذا فإن ذلك الوقت لم يكن الفأل بقدومهم فألاً سعيداً وعندما يسترجع الناس تلك الحقبة من الزمن يقولون عنها أنها «كانت تلك أيام سلمان». وسلمان هذا هو القائد التركي آنذاك. وكانت عملية حفظ الأمن والنظام في المدينة من الأمور الصعبة على شريف صغير السن مثل محمد أبو نمي واستمر الحال على ما هو عليه إلى ما بعد موسم الحج عندما غادر كابوران سلمان والحاكم المعين (لليمن) المشهور خير الدين وعساكرهما المرافقة لهما.

وبعد بضع سنين أرسلت إرسالية أخرى بقيادة عبد السلطان سليم وكان اسمه سليمان الخادم وكان حتى تلك اللحظة حاكماً للقاهرة وقد أبحر من السويس إلى جدة وحتى تلك اللحظة لم يكن السلطان سليم ولا أحد من شعبه قد وطأ بر الجزيرة العربية. ولكن عندما دعاهم الشريف للزيارة متحملاً كل المصاريف والأعباء عندها بدأوا يبحرون إلى الجزيرة العربية والهند.

وفي سنة ١٥٣٩ وبعد مغامراته في الهند والتي أورد ذكرها الحنفي بالتفصيل. وفي اليمن وهو في طريق عودته من الهند قتل سليمان الخادم الحاكم أحمد «الربان» وقد برهن سليمان الخادم على أنه يحاول المساس بصلاحيات حاكم مكة.

وفي جيزان حيث سيطر الشريف أبو نمي العام المنصرم وضع سليمان حاكماً من قبله ومحمية عسكرية بعد أن طرد مندوب الشريف من هناك. وفي نيسان سنة ١٥٣٩ وصل إلى جدة من أجل أداء مناسك الحج. ساهم مع رجاله في خروقات واستفزازات عنيفة تجاه الناس مظهرين عدم اكتراث لقدسية المكان والزمان. وبعد انتهاء مناسك الحج قرر العودة إلى اسطنبول.

انتهز الشريف الفرصة وأرسلَ ولده أحمد معه إلى السلطان سليمان الأول وهناك استقبلا كلاهما بالحفاوة والترحيب وكانت تلك أعظم سنة من سني حكم السلطان العثماني حيث امتدت سلطته من حدود الهند تقريباً حتى جبل طارق ومن بودابست إلى نهر الفرات. وكان السلطان عندها في طبع كريم، ولكن ولسوء الحظ فإن وباءً قد عم اسطنبول فتوفي كثير من مرافقي أحمد بما فيهم القاضي عرار وهو أحد ثلاثة قضاة رافقوه وأحمد نفسه كان مريضاً أيضاً وبعد أن عاد إلى الحجاز وصل بأمان ومحملاً بالمكافآت والعطاءات وكان أبوه وأقاربه وكل رجالات الحاكم باستقباله باحتفال مهيب عند وادي المر. وكانت حفلة تكريمية ألقيت فيها قصائد المديح من الشعر ولكنه لم يشف تماماً من مرضه عندما كان في اسطنبول فتوفي بعد ست سنوات من ذلك الوقت مما سبب لوالده حزناً شديداً.

وبعد ذلك الوقت وجه أبو نمي نفسه وجه أخرى ناحية الأعمال الخيرية

الجيدة وساعده السلطان بعطاءاته السخية. وهذه المساعدات تمثلت بزيادة حصته من عائدات ميناء جدة من الضرائب إلى النصف وهو حق فرضه له السلطان بعد أن طرد بعض السفن البرتغالية التي ظهرت قرب ميناء جدة سنة ١٥٤١.

وقد أعيد بناء سقف الكعبة سنة ١٥٥١ بأمر من السلطان وكان هناك مبالغ إضافية أرسلها السلطان إلى الشريف من أجل الأعمال الخيرية وقد عادت قوافل الحج إلى السير من جديد من اليمن إلى مكة بشكل مستمر سنوياً.

وفي سنة ١٥٥٥ أرسل «محمل» من قبل مصطفى باشا نائب السلطان في اليمن بالإضافة إلى محمل آخر من الشام وكذلك من مصر إلى مكة.

وفي سنة ١٥٥٧ توقف جريان الماء القادم إلى عرفات ومنه إلى مكة ومصدره جبل القرة. ولهذا فإن طلب المناشدة لإصلاح هذا العطل الذي أصاب قنوات المياه قد وصلت أصداؤه إلى السلطان. فبادرت أخت السلطان بطلب الإذن لها بتمويل هذا المشروع من مالها الخاص. وكانت تكلفته المبدئية حوالى ٣٥٠,٠٠٠ دينار، عين السلطان رجل الحسابات المالية المصري إبراهيم بك سكرتيراً ومنظماً لشؤون المخطط الخاص بتنفيذ المشروع وقد أرسل إليه مبلغ ٥٠,٠٠٠ دينار. وصل إبراهيم بك إلى مكة مصطحباً معه ٤٠٠ من المماليك والمهندسين من دمشق وحلب وأماكن أخرى، وقد أعطى كبير المهندسين الأمر ببدء تنفيذ المشروع في الحال. وبدأوا بحفر قناة تصل من عرفات حتى بئر زبيدة ولكن العمل صادف وجوده ضمن منطقة صخرية صماء وقد حاول التغلب على تلك العقبة بإحراق كميات كبيرة من الزيت والحطب إلى أن انتهى حطب الوقود من كل المنطقة المجاورة وتعب الناس جميعاً ووهنت عزيمتهم.

وقد توفي عدد من العبيد والخدم وتأذى من ذلك هو شخصياً - إبراهيم بك - وقد حفر قبره بيده حيث مات بعد عشر سنوات من بداية المشروع ولم ينته المشروع وبالرغم من طلب الشريف أن تكون خطة العمل التالية بإدارة حاكم جدة وقاضي القضاة في مكة ولكن السلطان تجاهل هذا الأمر وأمر

شخصياً بأن يكون رئيس الحسابات في مصر محمد بك أكمل زادي أن يتولى الأمر والذي استلم الإدارة وفشل ثم مات أيضاً.

وأخيراً أتى قاسم بك حاكم جدة وحسين القاضي المالكي مُعيَناً ليستكملا المشروع. وفي سنة ١٥٧١ توفي قاسم بك ولم يكن الماء قد وصل بعد إلى مكة. ولكن وبعد وفاته بشهر أوصل القاضي حسين الماء إلى مكة وعقدت له حفلة ابتهاج وفرح بهذه المناسبة في حديقة منزله في «البثا» وكان المبلغ الذي دفع بالكامل في هذا المشروع قد وصل إلى خمسة «لاخ» وسبعمائة دينار. وفوق المبلغ المدفوع كافأت أخت السلطان القاضي بمكافأة مالية كبيرة مع التقدير. وبعد هذا النجاح أمر السلطان بأن يعاد ترميم الحرم والذي استمر لمدة أربع سنوات وبعد الإنتهاء أمر السلطان بأن تكتب هذه الكلمات على باب علي وباب العباس وهما بابين من أبواب الحرم: الله - محمد - أبو بكر - عمر - عثمان - علي.

وفي سنة ١٥٦٥ زار نائب السلطان على اليمن محمود باشا مكة وهو في طريقه إلى مصر قام بتسليم رضوان بن مصطفى التعليمات الحكومية.

وقد أذهل كل من رآه بما فيهم الحنفي وخصوصاً عند رؤية مقصورته الأنيقة وكل ما حولها.

وفي تموز من نفس السنة وصل العبد البرتغالي للحج وكان كل ما يعرفه عن مكة دقيق ومختصر. وقد اكتشفه مؤخراً سينيور جي. اي. ديلافيدا وكتب على هامش كتاب عربي (تحت رقم ٢١٧) في مكتبة الفاتيكان (العالم الإسلامي الجزء ٣٢ـ طباعة سنة ١٩٤٢ مؤسسة هارتفورد اللاهوتية) ترك رابغ آخر يوم من أيام حزيران متوجهاً إلى مكة ومذكور فيه «من هنا يتوجه الناس عراة إلى مكة» ويبدأ حكايته عن الحج الحقيقي وبدون أن يأتي على ذكر الأشراف. إن اسمه وتاريخه غير معروفين. وهناك جندي ألماني أخذ أسيراً من قبل الأتراك في هنغارية إلى مكة في نفس الوقت تقريباً وعاد إلى المانيا سنة ١٦١١ وبعد عدة سنوات أسر ولدٌ إيطالي من البندقية بينما كان يعبر البحر المتوسط مع عمه واسمه ماركو دي لومباردو وأخذ إلى مصر. وكان ربان

إحدى السفن قد أخذه معه إلى مكة كمرافق لابن مالكيه وقد رويت حكايته بالتفصيل ونشرت بعد ذلك بواسطة روجر المبشر المسيحي.

وفي سنة ١٥٦٩ سنان باشا وصل إلى مكة وهو في طريقه إلى اليمن لاستلام سهماته ولم يأت جنوده بأي تصرف غير لائق ولم تحدث مشاكل لا في الذهاب ولا في الإياب عند العودة إلى مصر.

وكانت سمعة الشريف بأنه فعال للخير ومخلص تجاه المقدسات وأصبح يعرف بنجم الدين وهو الذي استنبط «قانون» الولاية المتعاقبة للحكام الهاشميين لاغياً باقي السلالة من غير الهاشميين ضمن هذا القانون وكان من ذريته عشائر ضحو زيد والعبادلة بما فيهم ضحو عون، وآل بركات وهي العشيرة التي حكمت.

وبسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت سنة ١٥٧٥ ولعدم العناية بالخندق المحيط بالحرم من الخارج فأصبح يمتلىء بسرعة ويفيض وقد علا الفيضان إلى ما فوق مستوى أرض الحرم حيث أغرق الحرم حتى وصل إلى مستوى الحجر الأسود في الكعبة وكذلك دخل إلى داخل البيوت في مكة وقد بقي الحرم غير صالح للعبادة لمدة ستة وثلاثين ساعة وقد تقاطر كل من في مكة للعمل على إنقاذ الحرم من تنظيف لمجرى السيل حول الحرم وتعميقه بانخفاض عشرة أقدام حتى لا يدخل في المستقبل إلى الداخل وهذا الخندق موصول بمجرى آخر يبعد الماء بعيداً عن منطقة الحرم.

وخلال فترة حكم السلطان سليم الثاني بدأت أعمال إعادة بناء الحرم بمبلغ يقدر بـ١١٠,٠٠٠ قطعة ذهبية من مالية السلطان الخاصة بالإضافة إلى ذلك قيمة الأخشاب التي حملت من مصر إلى مكة والحديد المستعمل في أدوات العمل ولعمل القضبان والأهلة النحاسية المطلية ذهباً والمصنوعة في مصر والمرسلة من مصر إلى مكة لهذه الغاية. وهذه الأعمال مسجلة بالتفصيل في كتاب الحنفي وهذه الأعمال لم تنجز إلا في عصر حكم السلطان التالي مراد الثالث وعند قرب نهاية حكم أبو نمي في مكة.

ويعود الفضل لثراء وغنى الدولة العثمانية هو لأن مكة قد استعادت رونقها وكذلك رخاءها أيضاً بفضل حكم أبو نمي الذي وجه عنايته واهتمامه لمنفعة مكة ولدينه مما جعل سمعة الأشراف في مكة جليلة.

وتاريخ هذه الحقبة قصة طويلة من العمل الدؤوب والمتجدد لبناء مكة أو ترميمها وللأعمال العظيمة التي كانت تجري داخل الحرم نفسه أو في خارجه لإصلاح تصريف مياه الفيضان ولم تكن مكة أكثر رخاءً وسعادة كما كانت في فترة حكم أبي نمي الثاني والذي حكم حتى بلغ الثمانين من عمره وكان قد شارك والده في الحكم عندما كان في العاشرة من عمره وبعدها حكم منفرداً ما عدا الفترة التي تلقى فيها العون من والده حسن في الحكم بعد وفاة ابنه الآخر أحمد منذ كان في التاسعة عشر من العمر.

وقد توفي أبو نمي في نجد على مسافة عشرة أيام من مكة في سنة ١٥٨٤ وكان دخول جثمانه مكة مشهداً أحزن كل الناس وكان عويل النساء يزيد من الحزن في أرجاء مكة. وكان خليفته حسن في اليمن وقد حضر على الفور ودخل مكة من الجانب الآخر.

وكان حسن عند وفاة والده في التاسعة والخمسين من العمر وأمل أن يكون ابنه مسعود مساعداً له في الحكم ولكنه سرعان ما عزل عن الحكم بواسطة أخيه ثقابا. ولكن كلا الأخوين ثقابا ومسعود توفيا بعد ذلك بقليل وقد كان منذ القدم تواجد بعض أحفاد بني ثقابا من قريش في الصحراء يعيشون عيشة البدو حتى اليوم.

وكان تعامل حسن مع البدو تعامل الطاغية المستبد ويقال بأن البدو خلال فترة حكمه مثلاً كانوا يقسمون بأي شيء وأي كان زوراً إلا أن يقسموا باسم الشريف حسن زوراً فلم يكونوا يجرأون. وقد ازدهرت حركة الشعر في عصره بتشجيع منه وقد بنى قصراً سماه «دار السعادة» وينظر إلى عصر الشريف حسن على أنه العصر الذهبي تماماً كما ينظر الأتراك إلى عصر السلطان مراد الثالث في نفس العصر ونفس الفترة الزمنية لعصر حسن وكذلك كما ينظر المغاربة إلى حكم مولاي أحمد كآخر الأقوياء والمخلصين. وكانوا كلهم من الحكام

المتشابهون في الزمان ونسبة الإزدهار. وقد نجح باستمرار الحكم في عقبه بفضل الإجماع غير المحدود للأشراف على تثبيت ابنه ادريس في الحكم والملقب بأبي عون وقد اتخذ ادريس أخاه فهيد شريكاً له في الحكم. وهو بدوره اختار محسن بن حسين بن حسن وهو ابن أخيه كشريك له وهذا الأخير عزله ونفاه إلى تركيا حيث توفي هناك. وفي سنة ١٦٢٤ مات ادريس تاركاً الحكم لمحسن وبعد أربعة أعوام أخرى عمت الكوارث الشريف وأهل مكة.

وبوصول أحمد باشا الحاكم المعين لليمن انطلقت البشارة بوصوله عند جده ولسوء حظ الشريف ولسوء حظ مكة وأهلها أن إحدى سفن الباشا غرقت عند سواحل جدة بعد أن اصطدمت بالصخور وكانت تحمل أمتعة الباشا الشخصية وغرقت في مياه عميقة. فأرسل الباشا الرسائل إلى مكة سائلاً الشريف أن يرسل إليه اثنين من الغطاسين لينتشلوا أمتعته وقد رويت ملابسات الحادث بواسطة الحسيني في كتابه «تنضيد العقود» وبعد عشرة أيام من الغطس لم يجدوا شيئاً. فاعتقد الأتراك أن الأمير محسن طالما أنه لم يأت بنفسه إلى جدة فربما يكون قد أوعز إلى غاطسيه أن لا يجدوا الأمتعة. ومما أكد له هذه الشكوك أن أحد الأشراف الفقراء والمحتالين واسمه أحمد بن طالب الحسن وهو ابن عم الحاكم وقد وصل إلى جدة في الوقت الذي اعتقد بأنه كان يسمم أفكار الباشا باقتراحاته ضده. وعلى أية حال فقد أمر الباشا بالقبض على كليهما حاكم جدة والرسول بينه وبين الحاكم وأعدمهما وقد أعطى الأموال إلى أحمد بن طالب الحسن الفقير المعدم وجهزه بالجنود الأتراك وطلب منه أن يحل محل حاكم مكة.

وفي أثناء ذلك مات الباشا التركي فجأة ربما قد سممه أقارب الأشخاص الذين أعدمهم وكانت جدة في حالة غليان عندما تركها الشريف أحمد آخذاً كل ما توفر من العساكر الأتراك محاصراً مكة وجنود الشريف وأغلبهم من الأشراف وعند «التنعيم» وقد كان الأشراف الأتقياء بمعظمهم لا يريدون خوض هذه الحرب ويودون تجنب سفك الدماء. وكان الحاكم الشريف محسن قد أجبر على ترك ساحة القتال ولكن القوات التركية لحقت به إلى داخل مكة وهناك قبض الشريف أحمد على مفتي مكة عبد الرحمن المرشدي وأعدمه محاولاً تبرير عمله هذا على

أسس واهية وغير منطقية. قال بأن هذا المفتي قد منع وبدون أي مبرر زواج أحمد بسلطانة بنت علي شهاب وأكثر من ذلك فإنه خلال حفلة زواجها برجل آخر أشار



نموذج من لباس العسكر الإنكشاري التركي

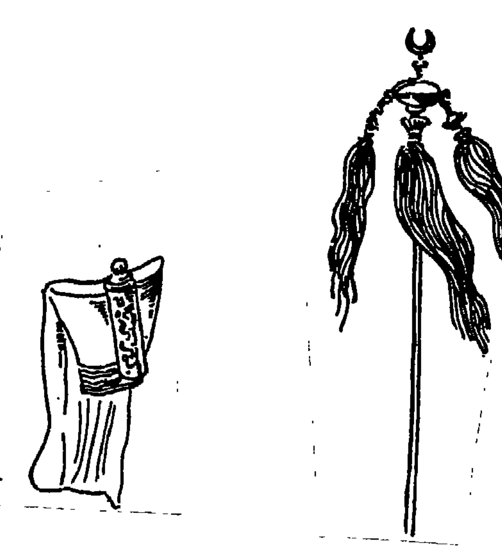
إلى أحمد على أنه الشيطان أضف إلى ذلك أنه عند وفاة أخو أحمد حضر المفتي لتقديم التعازي لابساً لبس البياض، وأخيراً وجد أحمد تحت وسادة أسلافه فتوى ضده من المفتي. وعلى أية حال فإن الشريف محسن كان مضطراً للهرب إلى اليمن حيث مات يائساً هناك سنة ١٦٢٩.

في سنة ١٦٣٠ كان هناك حاكم جديد لليمن اسمه قانصو باشا وكان في طريقه إلى اليمن يرافقه عند مروره بجدة جيش جرار أمر أن ينتهز فرصة وجوده هناك لمعاقبة الشريف أحمد شريف مكة. وذلك بسبب اغتياله المفتي ومنذ سماعه عن قرب وصول الباشا فإن واحداً من الأشراف الذين خشوا أن ينقلب عليهم الشريف أحمد كما انقلب على الأشراف الآخرين ترك مكة سراً إلى ينبع واسمه مسعود بن ادريس بن الحسن.

وقد خرج الشريف الحاكم بنفسه لملاقاة قانصو باشا عند وصوله قرب مكة. وقد لاقاه بالترحاب وبكل لطف وكياسة ودعاه بكل ثقة ليتفقد الجنود

البحارة (لاوند) والذين اصطفوا في ساحة أمام خيامهم وحالما وصل الشريف ضربت الطبول وصدحت الأبواق وقد استمرت هذه الموسيقى النشاز لمدة ساعة تقريباً وطيلة فترة الإستعراض للطابور العسكري ويصحبه الباشا والسناجق. وتألق السلاح والزي الموحد بلون الزنبق الأحمر. ومنظر الضباط المرعب بخوذهم الرومانية العريضة ذات الريش الطويل فوق الرؤوس تلقي الخوف في النفوس لإحساسها بقدرتهم على افتعال الحرب.

هذه المجموعات المنسقة والمتكبرة والذين قوي الإسلام بهم في فترة من الفترات. وكان عليهم بعد حجهم إلى بيت الله الحرام أن يغادروا في الأسبوع التالي إلى الصحراء المضجرة حيث المسيرة الكبرى وحيث سيموت منهم الكثير لا محالة.





خوذة الضابط التركي رمز راية الإنكشارية لباس الرأس للمحاربين الأتراك

وبعد ثلاثة أيام كان الشريف أحمد برفقة ثلاثة أشراف آخرين: وزيره، ورئيس ماليته ورئيس الحرس الخاص به. خرجوا جميعاً لتوديع الباشا وعند وصولهم إلى معسكر القيادة لقانصو وكانوا حتى تلك اللحظة يقابلون

بالترحاب، دخلوا ثم دعوا إلى لعب الشطرنج، وعند الغروب انتهت اللعبة دخل مجموعة من الجنود (رجال اللاوند) إلى الخيمة، خنقوا الشريف أحمد والثلاثة الآخرين ينظرون. وبعد ذلك طلب من الأشراف الثلاثة الآخرين العودة إلى مكة والإبلاغ عما رأوا وعندما وصلوا وجدوا أن مسعود بن ادريس بن حسن قد استلم زمام الحكم.

وخلال فترة حكم حسن القصيرة انهارت الكعبة، وذلك بسبب الفيضان الذي عاد ودخل إلى الحرم وقد راح ضحية ذلك حوالى خمسمائة شخص داخل الحرم وخارجه في مكة نفسها التي غرقت بفعل الفيضان الناتج عن وابل كثيف من الأمطار والعواصف التي كنست التلال شمال مكة وعلى أثر ذلك أرسل السلطان مراد الرابع مهندساً اسمه رضوان آغا وهو مخصي ليرمم الحرم وأثناء وجوده في مكة مات مسعود حاكم مكة فقام رضوان باستلام زمام الحكم بدلاً منه على مكة وحكمها باسم السلطان العثماني إلى أن أتاه الأمر من اسطنبول عندها سأل الأشراف أن يختاروا رجلاً منهم ليحكم فاختاروا أكبرهم سناً الشريف عبد الله بن حسن بن محمد بن أبي نمي وعند توليه السلطة أرسل بطلب زيد بن محسن من اليمن ليكون شريكاً لابنه في الحكم، وقد توفي عبد الله سنة ١٦٣١.

إن المشاحنات والمشاغبات السياسية والإجتماعية والطبيعية والتي عرفها أهل مكة مؤخراً ستكون صغيرة مقارنة مع ما سيقع فيما بعد. لقد فشل قانصوا وجيشه في مهمتهم في اليمن والسبب يعود إلى غلظة قانصو وجيشه وطريقته الفظة وعدم لياقة هؤلاء الجنود الأخلاقية، فنهبوا واغتصبوا وكانت تلك الأوامر لديهم حيثما دخلوا أي مدينة. وحيث أنه جرى الحديث عن إبحاره إلى مصر وأن جيشه الشنيع كان في طريقه إلى تركيا فكان أهل مكة في فزع شديد من هذا الجيش.

وقد وصلت رسالة إلى الشريف من «القنفذة» وهي بلدة على الساحل الغربي جنوبي جدة، رسالة موقعة من اثنين من الأغاوات في الجيش التركي. محمد وعلي بك يقولان بأنهما وجيشهما متوجهون إلى بلدهم عن طريق مصر ولكنهم يودون قضاء بعض الأيام في مكة ومن بعدها يكملون مسيرهم.

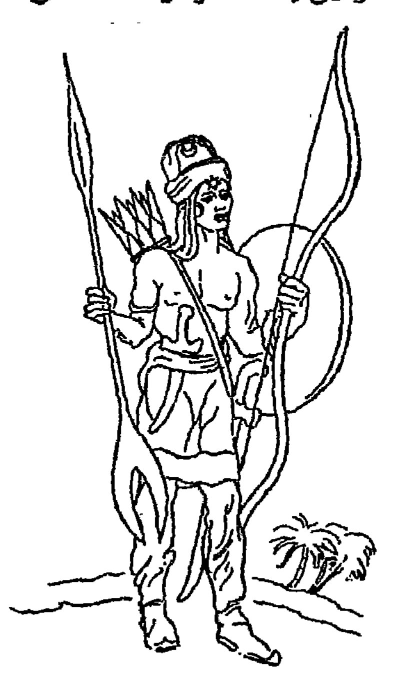
وما كان الأشراف أقل خوفاً من شعبهم فرفضوا استقبالهم آمرين بأن تعبأ الآبار بين مكة والقنفذة وعند وصول الأنباء إلى الأغاوات بعدم الرغبة باستضافتهم لذا قرر الجيش الدخول إلى مكة عنوة فاستعد الشريفين محمد وزيد وأفراد العشيرة والجنود والعبيد واتخذوا موقعاً للدفاع والمواجهة عند «بركة المعاجن» وعندما وصل الجيش التركي إلى سعادية على بعد ٤٠ ميلاً جنوبي مكة. وكان سنجق جدة قد أسرع إلى مكة لدعم الأشراف مصحوباً بكل رجاله وبعد أربعة أيام وفي صبيحة يوم ١٨ آذار لسنة ١٦٣١ التقى الجمعان عند وادي البر. وكان القتال شرساً بطريقة غير عادية فقتل الشريف محمد وثمانية آخرين من الأشراف. وجرح الشريف الصغير هزاع جرحاً بليغاً وبعدها فقد ذراعه بالكامل. وحتى السنجق المقيم والمخلص لعمله قد مات مباشرة بعد انتهاء المعركة من الإعياء وقد نجا زيد وحيداً من بين الأشراف المرموقين ووصل إلى المدينة سالماً وقد بقيت مكة مفتوحة للجيش المنتصر المتمرد.

وقد استولى الجنود على تموين الغذاء فذبحوا الجمال وأكلوها ونهبوا كل ما صادفوا أمامهم ويذكر الحسيني أنهم اغتصبوا كل عذراء وكل صبي في المدينة أما كل الذين ولدوا أشرافاً قبض عليهم أولاً بواسطة الجنود الأكثر شبقاً والأدنى رتبة عسكرية وقد عاثوا في المدينة فساداً وإفساداً فقد جعلوا كل الصغار وبالقوة من كلا الجنسين سكارى من أجل أن يسهلوا عليهم الإنغماس في الرذيلة والفسق.

وبعد فترة انتهز البدو الفرصة للثأر فسرقوا القوافل على طريق مكة ودون أن يتعرض لهم أحد بأذى. ومدينة جدة التي رفضت الإستسلام قد تعرضت للغزو وعانت مثل مكة. وقد عُذب التجار الأغنياء حتى يتخلوا عما يخبئون ويكنزون من أموال.

وكان الشريف زيد يبعث الرسل بعد الرسل إلى مصر طالباً المساعدة فأرسل السلطان في الحال سبعة سناجق يمثلون قوة لا بأس بها وكذلك «خلعة» لزيد والتي ألبست له في مسجد الرسول في المدينة وقبل أن يبدأ مشوار عودته إلى مكة وكان الجيش المتمرد قد عين حاكماً في مكة هو نامي بن

عبد المطلب آل حسن كدمية لهم، فوصلتهم الأخبار عن تقدم الجيش باتجاه مكة عن طريق مصر بقيادة الشريف زيد مدعوماً بقواته الخاصة من جنود المدينة ومكة فما كان من المتمردين إلا أن تركوا مكة على عجل إلى «تربه» آخذين



قوّاس من الجنود العربية

معهم نامي وإخوته والأشراف سعيد بن عبد المطلب وعبد العزيز ادريس. وكان وقت صلاة العصر عندما مروا بباب النبي الذي يسمى الآن باب الحريرين وكان المؤذن ينادي للصلاة وعند ذلك الوقت وقعت الراية من بين يدي حاملها وكان ذلك فألاً سيئاً لمستقبلهم كما اعتقدوا وهكذا كان.

وفي ليلة حالكة الظلمة وحيث أن الشريف عبد العزيز الذي اهتم برفع الراية ببسالة ركب جواده هارباً من المعسكر عند جبل حراء إلى ينبع وفي اليوم التالي فقدوا شريفاً من بينهم لذا فإن القوات المتمردة وضعت نامي وسعيد تحت الحراسة وأكملت هروبها. وبعدها بقليل أعلن في مكة الشريف أحمد بن قتادة بن ثقابة أن مكة عادت مدينة الله. وعادت تقرأ الخطبة باسم السلطان مراد وفي اليوم التالي دخل زيد المدينة.

الفصل التاسع

زيد بن محسن وأحفاده مؤسس عشيرة ضحو زيد وآخرين (١٦٣٢-١٧١٦)

زيد بن محسن وأحفاده مؤسس عشيرة ضحو زيد وآخرين (١٦٣٢-١٧١٦)

ولد زيد في الجنوب في وادي بيشة. وكان والده أثناء ذلك في نفي تطوعي. وكان في الخامسة والعشرين من العمر عندما مُنح «الخلعة» في المدينة المنورة ودخل بعدها مكة حاكماً لها. وكان يوم ولادته قد بقي سراً. وذكر الحسيني في كتابه «تنضيد العقود» أنه قد حضر يوماً إلىٰ مجلس الحاكم زيد أحد العرافين الذين يضربون بالرمل لمعرفة الطالع إذ قال للحاكم أن أمه عندما حملت به كان ذلك في رمضان سنة ١٠١٥ هجرية (كانون الثاني ١٦٠٧) فاندهش الشريف من هذا الأمر وأخرج في نفس الوقت وذلك لأن الإتصال الجنسي أثناء الصيام لا يجوز في الإسلام خلال شهر رمضان ولكن الشريف بعد أن سأل والدته عن صحة هذا الأمر أبلغته أن ذلك حدث فعلاً لأن والده كما شرحت له عندما عاد فرحاً بعد غزوة ناجحة كان أول شيء فعله هو أن يرضي زوجته ويفرحها. وهكذا كان.

وعند دخوله إلى مكة كان الحاكم الشاب زيد دبلوماسياً بدرجة كافية ليؤكد على إتمام شعائر الحج قبل أن يتبع «نامي» والأتراك المتمردين إلى معاقلهم وقد استسلم له بعد ذلك قسم من هؤلاء المتمردين الذين لم يلحقوا بركب زملائهم السابقين وقد تم ذلك بنتيجة وساطة قام بها أمير الحج الشامي واسمه إبراهيم باشا.

وقد أنشأ زيد مجلساً حربياً وجمع فيه جميع الوجهاء والأشراف وضباط وسناجق الأتراك وعلماء مكة. وكانت القوات المكية تحمل بنادق وكانت تلك أسلحة جديدة زود بها المحاربون العرب حديثاً وقد أتتهم عن طريق مجموعة المتمردين المتمركزين في «تربة» على هضبة نجد. وهناك حيث هزمهم زيد تراجعوا إلى داخل قلعة «قابل» ومنها أرسل علي بك رسولاً إلى الشريف عارضاً استسلامه له إذا وافق الشريف على أن يحافظ على حياته وحياة محمود معه. وقد قبل الشريف هذا الشرط في البداية ولكن ونظراً لمشاعر أهل مكة لما حدث لهم فقد صرف النظر عن الإلتزام تجاه مسألة محمود بك والذي عُذب وضُرب عارياً من غير رداء وقد أجلس على ظهر جمل ووجهه صوب الذنب إمعاناً في إذلاله وسيق خلال شوارع مكة. وقد ذكر الحسيني هذه الحادثة بقوله:

لقد صُلب محمود بك بعد أن جرح في يديه وأكتافه ووضعت قطع من القماش ومغمسة بالزيت داخل كل جرح وأشعلوا في هذه القطع النار ثم بعد ذلك أنزل عن عمود الصلب ووضعوا يده اليمنى مربوطة إلى رجله اليسرى في خطاف وعلق على عمود في جبانة «المعلا» وتُرك معلقاً هكذا متدلياً من فوق العمود فوق حفرة في الأرض وبقي كذلك على تلك الحال حتى مات وكان قبل أن يموت يشتم ويلعن ويصرخ ببذاءة حتى فارق الحياة وبعدها دُلي من فوق العمود ووضع في الحفرة ودفن فيها. أما علي بك فلم يصب بأذى ويكفي أنه سلم محمود فكان بمثابة كبش فداء له. وأكثر من هذا فإنه حين كان في مكة أثناء نهبها واغتصابها كان يهتم بزوجات زيد ويرعى شؤونهن وكان يسأل عنهن يومياً وعن حاجاتهن وهذه بادرة طيبة وعظيمة وكانت أكبر مبرر له لأن يُعفى عنه.

أما بالنسبة «النامي» والذي حكم مكة لفترة مائة يوم بمشاركة أخيه سعيد. فقد تباحث العلماء والسناجق في جلسة بهذا الشأن وعندما كان العلماء يطالبون بأن يحكموا بالأمر حسب الشرع كانت الإجابة على ذلك تأتيهم بأن الحكم لله ولهذا فإن العسكر هم الذين انفردوا بحكمهم حيث أخذوهم وقتلوهم بالسيف

ودون محاكمة وقد علقت رؤوسهم في العلن ليراها الناس فوق سقف خلوة أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني.

وقد أعطت الحياة العملية المبكرة لزيد في الجنوب مع البدو ثقة بالنفس أكبر من مستوى سنه وبشكل غير عادي بين أترابه من رجال عشيرته من أهل مكة. وكان رصيده من معارفه السابقين أما أهل القبائل في الجنوب والواحات القريبة من بيشه كانوا عوناً له في دعمه ضد تدخلات الأتراك الكثيرة في حكمه وعندما استولى السلطان مراد على بغداد سنة ١٦٣٨ وطلب من زيد أن يطرد جميع الخرسانيين من مكة، وهو طلب لم يقبله زيد ولم يقبله أهل مكة أيضاً. ولكن ولأنه لم يرد أن يوسم بأنه يميل نحو التمرد لذا فقد وجد نفسه مضطراً لقبول هذه الخسارة المادية بسبب طردهم. وعندما طلب الشريف جيشاً من مصر ليخلص مكة من المتمردين كذلك طلب إعفاء ميناء جدة من جزء من الإدارة على الميناء بواسطة المصريين ولكنه وجد الآن أن الأتراك أرسلوا - على عكس رغبته - مبعوثاً رسمياً إلى جدة والغاية من ذلك الإشراف على الميناء وكان ذلك سنة ١٦٢٤ وهذا المبعوث عين مفتشاً بعد ذلك على الأراضي المقدسة أيضاً. وقد صمم على زيادة الإدارة المصرية والتركية بدلاً من تقليلها على الميناء. وقد تأثر زيد من ذلك وقرر أن يحفظ صلاحياته فعين إبراهيم ابن مساعده السابق محمد وكيلاً عنه في مكة وأعطى أوامر سرية إلى شيخ قبيلة ليدبر اغتيال المفتش التركي وقد ابتدأ بتجهيز بعثة وجاهة إلى القبائل.

وعند وصول بشير آغا الرجل المخصي والمفضل عند السلطان وهو حبشي أعلن عنه تحت عنوان «مندوب خاص مقرب من السلطان» وقد أُعطي صلاحية فوق العادة وقد استقبل استقبالاً باهراً في مصر. وقد وجد زيد أن فكرة الإذعان له غير مستساغة ولكنه أحس بأنه مكره على إرسال من ينوب عنه للترحيب بالآغا عند «ينبع» وفي نفس الوقت ليعود بالمعلومات السريعة عن حكم القوات المرافقة له ولكن نقل خبراً عن معلومات مهمة وهي وصول رسالة إلى الآغا من اسطنبول عن وفاة السلطان مراد الرابع وهذه حقيقة كان

الآغا يحاول إخفاءها. وقد أوقف زيد كل برنامج الإستقبال بسرعة وحتى أنه خبأ جزءاً من مظاهر الزينة والمقاعد المعدة للإستقبال والتي كانت موضوعة لهذه المناسبة بالذات. وعندما بدأ الموكب بالتقدم من مكة خرج الشريف لمقابلة المخصي وبعد المقابلة أكملوا سوياً المسير إلى مكة وظل الشريف يهمز حصانه حتى يبقى دائماً في المقدمة زيادة عن موكب الآغا المخصي، وعند الإقتراب من القصر قال له الشريف رحم الله السلطان ففهم بشير آغا أن الشريف قد علم بالأمر وأن مهمته ما عادت تعني الكثير بعد وفاة السلطان.

وبعد ذلك بعدة أيام انطلق الشريف في مهمته نحو القبائل وفي نفس الوقت تقريباً ابتدأت مهمة الإغتيال نحو الطائف في الجبال، من أجل مقابلة مصطفى بك المفتش التركي بجدة وكان هذا الأخير قلقاً من أجل الحصول على دعم وتحالف من أحد زملائه الأتراك المهمين. وكان مصطفى في طريق عودته من الطائف وبينما كان الحرس خلفه وهو يسير أمامهم وحيداً على ظهر جواده وليس معه إلا خادمه إذ قفز إليه أعرابي وطعنه بخنجر وبعدها بثلاث ساعات فارق الحياة وكان الشريف أثناء ذلك في نجد بعيداً عن مكان الحادث وفي منطقة الخرج وعندما وصلته الأنباء عن تحقيق أمنيته التي سعى لتحقيقها قد تمت. وقد قرر بناءً على زيارة قام بها إلى المدينة مع قواته والتي لم يدخلها أبداً. وحيث أنه ما زال خارج أسوار المدينة معسكراً عند الأسوار.. فقد وصلت إليه معلومات عن اغتيال قاضٍ تركي في المدينة بينما كان هذا القاضي ذاهباً لأداء صلاة العشاء في المسجد وقد كان راكباً جواده عندما مر بالقرب من مكتب (الدفتر دار) أو ضابط الحسابات بعد أن أرخى الظلام أذياله وكان يتبعه ثلاثة أشخاص. عندما اقتحم أحدهم تجاهه حيث طعنه بالسيف ثم فر هارباً. وبعد طعنه لوى رقبته فوق رقبة الحصان فأخذه الحصان إلى المسجد وصعد به إلى حيث المحراب (محراب عثمان) الخليفة الثالث حيث تجمع المصلون والمؤمنون حوله فأنزلوه عن ظهر الحصان وكان يصيح كل الوقت آه يا رسول الله، يا نبي الله حتى مات هناك.

وركض الجنود الأتراك صوب أسلحتهم وأقفلت أبواب المدينة بسرعة

وبينما كانت البنادق تمشي في الليل على ضوء المصابيح في معسكر زيد وكانت بعض الرؤوس تطل من فوق الأسوار صارخة على المعسكر: اذهبوا من هنا وقد عمت الفوضى وطغى الذهول على الكثيرين، وقد أرسل زيد مجموعة من ضباطه المصريين ويحملون عريضة يستنكرون فيها ما حدث. ولكنهم فشلوا بإقناع الحرس بفتح الأبواب وكانوا مضطرين لإلقاء أوراقهم من تحت عقب الباب وبعد أن اقتنع الحرس كلياً بنواياهم الحسنة فقط فتحوا الأبواب وعاد الجنود إلى مراكزهم. وقد كان هناك تحقيق في الأمر وألقي القبض على بعض الأشخاص ولكنهم أطلقوا واحداً بعد الآخر لعدم كفاية الأدلة.

وفي نفس الوقت كان غطاس بك حاكم جدة الجديد قد عين عبد العزيز بن ادريس كحاكم لمكة ومن أجل ذلك كان على زيد العودة ومحاربتهم وعند المواجهة بينهم فهزم زيد غطاس وعبد العزيز الذين طلبا الرحمة من زيد ووسطوا مبارك بن بشير كرسول بينهم. وبحماية خمسين رجلاً عاد غطاس إلى جدة حيث وصل إلى هناك جاء أمر صرفه من وظيفته برسالة من اسطنبول وبعدها بفترة قصيرة غادر عن طريق ينبع ثم مصر حيث رافقه صاحبه عبد العزيز والذي توفي بعد ذلك بالكوليرا وفي سنة ١٦٠٠ عين غطاس أميراً للحج المصري. وقد تفاجأ زيد لهذا الحدث وكان محبطاً عند رؤيته وقد صافحه باليد فقط بعد أن كان العرف أن يقبل حاكم مكة أمير الحج فتوقفت هذه العادة من قبل شريف مكة منذ تلك اللحظة.

وبسبب الموجات الكثيفة من أسراب الجراد التي اجتاحت اليمن والحجاز. كان هناك مجاعة حدثت في مكة سنة ١٦٥٩. وقد كانت الأسعار في الأسواق ثابتة تقريباً ولكنها لم تعد كذلك حين طلب من المنادي بأن يعلن أن الحبوب بدأت بالوصول من المناطق المجاورة وأن النقص في مواد الغذاء لم يعد وارداً. وبعد ذلك تلت سنوات من المطر والإزدهار وخصوصاً سنة ١٦٦٢ وحتى ١٦٦٥ وقد فاضت السيول في مكة وتولى زيد بنفسه محاولة إصلاح الأعطال التي سببتها السيول الجارفة وكذلك تسببت هذه السيول بقتل ستة أشخاص غرقاً. وبسبب هذه الأمطار غير العادية فقد كان موسم الحصاد غنياً

حيث وصل ثمن أردب القمح إلى أدنى مستوى له وكان في تلك السنوات قد انخفض سعره حتى وصل إلى سعر «ثلاث هارونيات» وسعر «من» الجبن يساوي «حلقين».

وفي هذا الوقت أي سنة ١٦٦٦ توفي زيد وهو مؤسس أسرة بني زيد وقد صد محاولات الأتراك للتدخل في شؤون مكة والحجاز وذلك من خلال تأثيره على القبائل حيث أمضى طفولته بينهم فكان ولاءهم له.

ثم خلفه من بعده ابنه سعد ولكن الأمر بالنسبة لسعد لم يكن سهلاً وكان خصمه اللدود خلال فترة حكمه حمود بن عبد الله. وكان ممثل السلطان في جدة هو عماد أفندي وكان في مكة. وقرر من أجل مرضاة سعد للوقوف بوجه المتمردين أن يزيد القوة الإحتياطية وخصوصاً أنه رأى تزايد فرق المعارضة ضد سعد. وأتت مجموعة من الناس للضغط على عماد أفندي لتعيين محمد يحيى خليفة بدلاً من سعد. ومحمد يحيى هو الإبن الآخر لزيد حيث أكدوا لعماد أفندي أن زيد قد استحصل على موافقة السلطان بتعيين محمد يحيى خليفة له وليس بعد.

قام عماد أفندي بإرسال «خلعة» إلى سعد مع رسالة يقول فيها إنه لا يملك الصلاحية الكاملة للإعتراف به أكثر من قائم مقام.

وكان عند عماد أفندي مؤيدين لسعد حيث نقلوا له هذه الأخبار ومن بينهم عبد والده زيد واسمه ذو الفقار وهو العجوز التركي المخلص لزيد وربما كانت له صلات مع عماد أفندي. فقام ذو الفقار على الفور بتجميع مؤيدي سعد وتجهيزهم بينما كان رجال حمود من المعارضة لا يزالون يتكلمون عن إمكانية المواجهة مع سعد وهل ستقع حرب أم لا. وبعدها بثلاثة أيام نشبت المعركة فعلاً فتحصن كلا الفريقين في بيوتهم في مكة وبدأوا بإطلاق النار من أماكن آمنة في غالب الأحيان وظل التراشق من بيت لبيت عبر السوق لمدة ثلاثة أيام إلى أن أعلن في السوق عن انتهاء هذا القتال.

أرسل سعد في الحال عبداً آخر من عبيد والده الأوفياء إلى مصر وكان عبداً حبشياً ويدعى بلال ويحمل نفس اسم مؤذن الرسول (ص) بلال العبد

الحبشي وذلك لكي يشرح ما حدث في مكة وليطالب بتأكيد تنصيبه رسمياً في حكم مكة. وقد تحول طلبه من هناك إلى اسطنبول بانتظار الرد.

وبعد فترة قصيرة أرسل حمود زعيم المعارضة المتمردة ومحمد يحيى خصم سعد وأخوه في نفس الوقت مرسلهما إلى السلطان كل على طريقته. وبعد بضعة أيام وجد رسول حمود مقتولاً في القاهرة بعد يومين من وصوله إليها وكانت الرسالة لا تزال بحوزته. أما محمد يحيى فقد اعتمد على بعض مؤيديه ومريديه في المدينة المنورة ووقع معهم عريضة تعاطف ومؤازرة لمصلحة محمد يحيى وأرسلوها إلى مصر مصحوبة بمبلغ ٤٠ ألف دينار لحاكم مصر التركي.

وعلى أية حال فإن سعد استلم موافقة السلطان على تعيينه هو حاكماً رسمياً لمكة واضطر حمود حينئذ إلى ترك مكة إلى وادي المر وهناك أنشأ معسكراً لإرهاب مكة وأهلها. فكان يرسل الرجال لسرقة الناس ليلاً أو إخافتهم بحيل غير ذكية طامحاً من وراء ذلك أن تعم الفوضى في مكة ويعم الإمتعاض وعدم الرضى من حكمه من قبل الناس.

وفي نفس الوقت كان يشكو بأن سعد قد اتفق معه على مبلغ من المال عندما يصبح حاكماً لمكة. وهو لم يفِ بوعده حتى الآن وهو يعتبر هذا إخلالاً بالإتفاق وهذه الشكوى وضعها بتصرف أمير الحج المصري وهو في طريقه إلى مكة محذراً إياه أنه لن يسمح للقافلة بإكمال سيرها إلى مكة حتى يدفع المبلغ المستحق عليه وهو مئة ألف «أشرفي» فوعد الأمير أوزبك بك بأنه سيحصل من سعد على مبلغ ٥٠,٠٠٠ أشرفي حيث دفع أوزبك ٥٠,٠٠٠ فقط حتى يسمح له بمرور القافلة. وقد أعطى سعد بعد ذلك المبلغ الذي وعد به لأوزبك. وبدوره حاول أمير الحج الشامي جهده الأكبر لرأب الصدع بين الشريف سعد وحمود وقد أعطي هذا الأخير فرصة لإثبات عدالة قضيته في الدفاع عن مكة وحقها. ولكنه تبين أنه على العكس من ذلك فقد اتهمه جميع الوجهاء بالمشاغبة والسرقة بالإكراه وتخويف الناس ولذا فإن أحداً من الناس لم يستطع قول كلمة واحدة لمصلحته ولا لمصلحة سعد أيضاً.

وهكذا فإن حمود قرر بناءً على رغبة لديه برفع شكوى إلى السلطان قرر إرسال مندوبين عنه لأجل هذه الغاية محملين بالهدايا وأرسلهم إلى عمر باشا حاكم مصر، ولكن في منتصف الطريق التقوا مع مندوبي إبراهيم باشا الذي حل محل عمر باشا يحمل رسائل إلى الشريف والذي يطلب منه أن يصل إلى حل للقضية العالقة مع المعارضة. ورغم هذه المعلومات الجديدة فإن مندوبي حمود تابعوا سيرهم إلى مصر حيث استقبلوا هناك بالترحاب في بداية الأمر وقبل أن يعود المبعوثون المصريون مع قافلة الحج ولم يكن مرغوباً بهم شعبياً على أي حال ثم بعد ذلك أصبح مشكوكاً بأمرهم ثم زاد الشك بهم بعد فقد الأمل بعودة مبعوثي الباشا. وهكذا فإن الباشا المصري جهز قوة لمهاجمة حمود والذي اعتقد بأنه قد قتل رسل الباشا ومن جهته حمود استنفر قبيلة جهينة قرب ينبع. وكان عند المصريين تعليمات من القاهرة بالمسير باتجاه مكة مباشرة وهناك يلتقون بشريف مكة قبل بدء المعركة ويكون قائدهم هناك يوسف بك، العسكري العنيد والذي أخذ أقصر الطرق للوصول إلى المكان المطلوب. ورغم التحذيرات الجدية من بعض التجار الذين أملوا بأن يرافقهم العسكر لحماية بضاعتهم فقد أصر يوسف بك على رأيه واتبع طريقاً آخر. وقد أصابتهم كارثة، إذ أبيد جيش يوسف وقبض عليه شخصياً مع زوجته وبعدها مات في السجن وعندما وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة فإن كل مبعوثي الأشراف وأتباعهم قد قتلوا ولكن العلماء رفضوا أن ينفذ حكم الإعدام بالأشراف الأربعة الباقين والذين بقوا في السجن إلى أن استبدل إبراهيم باشا حاكم مصر بحاكم آخر.

وهكذا فإن حمود كان قادراً على الإستمرار في أدائه كنوع من روبن هود عربي وكان يقاتل بنجاح في طول الصحراء وعرضها وكان يجالس القبائل من عنيزة إلى هوازن إلى مطير وضفير من قبائل نجد ووصل حتى شرق الجزيرة العربية ولم يرجع حتى سنة ١٦٧٠ إذ عاد إلى الطائف وذلك بعد معركة النصار حيث عقد صداقة أبدية مع سعد فوق قبر السيد عبد الله بن عباس.

وفي سنة ١٦٦٧ كانت مكة تقع تحت وطأة مجاعة رهيبة لم تحدث لها

في تاريخها كله. وحتى القطط والكلاب والجرذان وكذلك الخفافيش أكلتها الناس لقلة الطعام أو انعدامه أحياناً وكان أكثر الناس يبيعون ما يملكون من أجل الطعام وكان الفقراء يهاجمون الأغنياء وكان الناس يقعون من الجوع ميتين أو إذا قعدوا لا يقومون بعدها من الضعف والجوع. وكانت الأحوال في جدة لا تقل عما هي في مكة وربما أسوأ وقد ذهب الناس في مكة إلى بيت الشريف من أجل معاقبة «الناظر» أو حاكم المدينة و«المنتسب» أو العمدة وقد عوقبا كلاهما بالضرب والطرد من الوظيفة.

وطحن الناس الحمص أو الفول لعمل الخبز ثم لم يعد عندهم ما يطحنون أو يأكلون.

وكان البدو وعلى الأخص قبيلة «عتيبة» على هضبة نجد و«الهذيل» و«لحيان» القريبتان من مكة قد أصبحوا جميعاً متوحشين ينهبون حيثما وجدوا فرصة للنهب وللحصول على طعام أو أي بضاعة ذات شأن، يركبون فوق سروج الجمال بالمئات لينهبوا الأماكن المستقرة والحضر. وكان الشريف يحاول في كل مرة أن يقنعهم ويحاورهم إلى أن أتى موسم الحج فحمل إلى مكة من مصر حمولة عشر سفن تموين إلى جدة فانتهت المجاعة.

وفي شهر حزيران ١٦٦٨ قد شوهد مذنب في السماء في مكة وبوضوح كامل وكان ذلك اليوم عندما أقام الشيخ محمد بن سلمان المغربي «المزولة» أو الساعة الشمسية في باحة الجامع حيث فهم الناس الجهال والرعاع أن هناك علاقة بين ما ظهر في السماء وبين هذه «المزولة» التي أقامها في الجامع. وقد تحولت القضية إلى شريف مكة والذي كان على اتصال بالقاضي الذي أمر بإزالتها. ولكن وبعد فترة وبنداء من شيخ الإسلام رئيس علماء اسطنبول أعيد نصب الحجر وعليه المزولة وذلك لفائدة المسلمين، يصف الحسيني هذا الأمر في كتابه تنضيد العقود كما يلي:

«الظاهرة المميزة والواضحة التي ظهرت في ذلك الوقت ٢٣ رمضان ١٠٧٨ هجرية الموافق ٢٣ شباط ١٦٦٨ ميلادية ظهر بريق متألق في الغرب وأصبح طويلاً جداً في ٨ شوال وبعد خمس عشر يوماً ١١ محرم ١٠٧٩

هجرية الموافق ٢١ حزيران سنة ١٦٦٨ ميلادية، وبعد ساعتين من شروق الشمس انطلق شعاع قادم (نابع) من الشمس أو من نقطة بالقرب منها وانتهى باتجاه الغرب وكان لامعاً بشدة ورؤي بدون أن يحدث إبهار للعين. وكان ألوان هذا الشعاع الأزرق والأصفر والأحمر وكلا الحرفين الخارجيين للشعاع اختفيا وبدا المنتصف يكبر ثم يكبر إلى أن انفجر وسمع صوت كالرعد فحسب الناس أنها قذيفة بندقية انطلقت وبعد الإنفجار تحول الضوء المتبقي إلى دخان وبعدها اختفى.

وفي نفس العام وأثناء موسم الحج وصلت «خلعة» للشريف سعد من السلطان محمد الثاني نفسه و«خلعة» أخرى للشريف من حاكم مصر ولكن عدد الحجاج كان قليلاً في ذلك العام، والسبب يعود إلى خوف الناس من الحرب بين الجنود والشريف حمود.

وبعد موسم الحج قررت القوة المصرية والشريف سعد مهاجمة حمود وقواته المتمردة. فساروا إلى ينبع من أجل هذه الغاية ولكن حمود علم بالأمر فهرب دون أن يعثر له على أثر.

وفي السنة التالية حدث شغب عند وصول شخص اسمه حسن باشا وكان مسافراً مع حملة الحج الشامية وعند وصوله إلى المدينة وكان بحوزته مرسوماً من السلطان بعزل الأشراف عن حكم الحجاز ويحكم هو بدلاً عنهم وقد وصلت الأخبار إلى مكة سريعاً عن طريق أحد الوجهاء في المدينة والذي لم تعجبه هذه القرارات. واجتمع أشراف مكة وأخذوا قراراً بعدم ترك مكة حتى ولو كان الترك إلى جبل عرفات. وقد رفضوا تقديم ولاء الطاعة له وقد أقفل أصحاب المحلات محلاتهم في وجه الجنود ولم يزودوهم بأي تموين أو أي خدمات.

وطلب حسن باشا أن يعقد مجلساً فيزيح كل الشكاوى والشكوك وأزال سوء التفاهم. وبعد أن زال خوف المكيين أصبحت معاملتهم له أفضل من قبل.

وبعد يوم أو يومين وصلت قافلة شاه إيران وكان هناك ثروة أحضرها الشاه للحرم وجعل الناس تنسى حسن باشا. وكان الحجاج يمشون الهوينة

بالقرب منها. وخلال رمي الجمرات حدث هناك نوع من الشغب حيث أتى حسن باشا على صهوة جواده مع مرافقين ليعيد زمام الأمن والسلام. ولكنه أصيب بثلاث رصاصات جرحته. وقد وضع على حمالة ثم حمل إلى مقره في عربة حزينة وكان رجاله يقتلون كل من صادفوا في طريقهم فأخذ الناس والحجاج يهربون إلى منى والوديان بينما الشريف وتحت حراسة جنوده يعود إلى مكة ويصل إلى مكة عند حلول الظلام.

وقد أعطى الشريف الأوامر ليكونوا جاهزين للحرب في أي لحظة، وكان البرق العنيف والقوي إذ تحسه قريباً منك وقد قتل من البرق منذ بضعة أيام رجلاً قرب الحرم وكان البرق وحده يضيء ليل مكة تلك الليلة الكئيبة هذه المدينة شبه الخاوية.

وكان الأشراف وباقي الرجال من الوجهاء والأعيان في المدينة قد عقدوا اجتماعاً في المجلس الحربي أو ربما «المجلس السلمي» هذه المرة والتسمية تعتمد حسب مزاج المجتمعين في كل مرة. وقد صنف الشريف نفسه هذه المرة مع طالبي السلم، فتح ماليته بسخاء وكرم وبدأ بتوزيع مبالغ ضخمة هنا وهناك والتي عاد واستردها بأغلبها من الشاه. وتلك الأموال وزعها على أفراد الأسرة من الأشراف وعبيدهم من الضباط السود ثم قام بالانسحاب من مكة إلى ينبع من أجل أن ينقذ مكة.

أما حسن باشا الجريح في مكة فقد دعم وصاية أحمد الحارثي وهو ابن عم الشريف سعد. وغادر حسن باشا إلى الشام حيث توفي متأثراً بجراحه عند غزة.

عاد سعد إلى مكة قبل موسم الحج التالي وقد أنذر بأنه يجب أن يكون على استعداد لسماع أنباء عن وصول حشود هائلة من الجيوش التركية تحت قيادة القائد الجديد حسين باشا وسيكون مرافقاً لحملة الحج القادمة.

وكان الرحالة التركي المشهور شلبي افيلي قد قام بأداء مناسك الحج سنة ١٦٧١ مسجلاً ما رأى في تلك الأيام أثناء موسم الحج ذاك: كان حسين باشا

على رأس حملة الحج إلى مكة يقود جيشاً جراراً لحماية هذه الحملة، وقد أبدى حسين باشا مرونة وتعاوناً مع الحجاج والقادمين على هذه القافلة من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي. أما السمعة الطيبة والشهيرة لشريف مكة عن كرمه وسخائه والذي أهدى لحسين باشا اثنين من الخيول العربية الأصيلة وستة عبيد صغار السن من الأحباش. ومجموعة من الأحجار الكريمة. وكذلك مجموعة من الثياب وعلبة من الكهرمان وزجاج مرصع بالجواهر وأكواب من الكريستال وحمولة خمسين جملاً من التموين ومواد الغذاء والشربات وقد جلب هذه الهدايا من عند الشريف إلى الباشا وكيله «القيتودا» أو وكيل الشريف والذي قبل يدي الباشا عند الوصول وظل واقفاً مكانه إلى أن أذن له الباشا بالجلوس وكان الباشا معسكراً في «وادي فح» الذي يبعد فرسخين عن مكة وهناك حيث ذبح أربعين خروفاً وجملاً بمناسبة وصوله سالماً وقد حضر إلى مقام الباشا كل العلماء والأشراف ورجال الدين ووجهاء مكة للترحيب بالباشا وتهنئته بسلامة الوصول وقد دخلوا عليه بالتدريج كل حسب وضعه وأهميته في البلد ليقدموا له ولمرافقيه شكرهم وولاءهم أولاً أمير الحج المصري ثم أوزبك بك حاكم جدة بقليجي محمد بك وسبعة أعوان يقودون الفرق المصرية والمعاونين والرقباء ورؤساء الطهاة خدام الغرف والترتيبات كلهم قدموا أنفسهم إلى حسين باشا مع شرح موجز عن كل منهم وعن مراكزهم فقدم لهم الشربات وأشعل لهم البخور. وقد سأل حسين باشا الوكيل عن الشريف ولماذا لم يحضر لاستقباله شخصياً وسأل إن كان بصحة جيدة. فأعطى الوكيل تفسيراً دبلوماسياً لعدم حضور الشريف. عندها قال الباشا المثل التالي «إذا لم يستطع الجبل الحضور لملاقة الإنسان فيجب على الإنسان حينها الذهاب إلى الجبل» وقبل الهدايا المرسلة إليه من قبل الشريف سعد وأمر الوكيل أن يبلغ الشريف سعد شكر الباشا وتحياته وطلب من المحيطين الإنصارف وعند وصوله إلى مكة أدى المبادىء العامة للحج وقام بزيارة الشريف سعد فاندهش الشريف بهذه المفاجأة وأحس بالإحراج تجاهه الباشا الذي كان بهذه البادرة لبقاً ومؤدباً. وقد دعاه لزيارته في المعسكر صباح اليوم التالي لأن سمو السلطان قد أرسل له خلعة وفرمان ملكي وأنه إذا شاء من هناك مرافقة الباشا للدخول إلى

مكة بقصد الحج سوياً مع الحجاج الآخرين والجيش المسلم وبهذه الكلمات المعسولة من الباشا وجد الشريف نفسه مرتاحاً وهدأت نفسه وقد قدم للباشا الشربات وأشعل له البخور وأرسل معه عشر رزم من الكهرمان (العنبر) وثلاثة عقود من اللؤلؤ وصندوق مليء بالأحجار الكريمة وعشرة حقائب من الحبال وثلاثة عبيد من الحبشة وفي المقابل أخرج الباشا خنجراً مرصعاً بالجواهر من حزامه وأهداه إلى الشريف سعد واضعاً إياه بيده داخل حزام الشريف. وكان الشريف سعد متوسط الطول غامق البشرة له شارب رفيع ويشبه حاتم الطائي بكرمه وسخائه. عاد الباشا إلى معسكره وأمر كل الرتباء من الفرق العسكرية ليجهزوا فرقهم ويبقوا حذرين تلك الليلة بانتظار أوامر لاحقة منه.

وقد شرح لنا «شلبي افليا» لماذا حسين باشا أرسل إلى الأراضي المقدسة وتحت إمرته ثلاثة آلاف جندي مصري قدمها إبراهيم باشا حاكم مصر وكذلك ثلاثة آلاف جندي آخرين من حاكم الشام وألفين من اسطنبول كحرس شخصي للباشا اختيروا هناك وهكذا يصبح العدد الكامل لجيش الباشا ثمانية آلاف جندي.

ويقول أنه قبل سنة من وجوده هناك أي موسم الحج حيث كان «شلبي افليا» قد أعطى العنكبوت أحمد باشا تعليماته إلى وكيله حسن باشا حاكم جدة كي يقوم بمهمة ترميم وإصلاح الحرم المكي الشريف وكانت لديه تعليمات بإجبار أي كان من الأشراف أو وجهاء البلد بدفع تكاليف هذه الترميمات. وقد ظهر جلياً حينذاك أن الأشراف لن يستطيعوا تحمل هذا العبء ولا أي تدخل آخر. وبينما كان حسن باشا وجنوده داخل الحرم يقومون بأداء مناسك الحج أقفلت الأبواب الخارجية للحرم فحوصروا من الداخل جميعاً مع حسن باشا وبناءً عليه فإن عشرة فرق كانت تمر من خلال باب عمر لتصعد إلى سطح الحرم أملاً في الدفاع عن العسكر والحجاج في آن معاً.

وكان مرافقي الشريف سعد أثناءها قد تسلقوا جبل قبيس بينما الشريف سعد قد احتل المنارات السبعة لمكة وعبأ هذه المنارات بقناصين من رجاله والذين بدأوا بإطلاق النار على الحجاج المحاصرين والقوات الحامية لهم

والمدرسة الدينية حولهم. فجرحوا سبعمائة وقتلوا مئتين داخل باحة الحرم. ولم يكن أفظع من هكذا مجزرة داخل الحرم المقدس والتي لم يحدث مثلها من قبل أبداً ولا حتى أيام ابن الزبير والطاغية الدموي الحجاج بن يوسف الثقفي واستمرت الحرب ليوم وليلة بالرغم من الآية القرآنية التي تقول: **﴿لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾**.

وكانت باحة الحرم المقدس تغص بالجثث المكدسة وحسن باشا نفسه قد جرح في هذه المعركة وانتهبت كل ممتلكات الحجاج وكذلك ممتلكات الجنود وبينما كان الجنود المصريين ينسحبون إلى مصر هوجموا عند وصولهم إلى وادي النار بواسطة الجنود المرتزقة للشريف حمود وأكثرهم عمل فيهم السيف وبالحراب. وعندما وصلت هذه الأنباء الفظيعة إلى السلطان في اسطنبول أو «الأستانة» عندها أمر السلطان بأن يحل محل القوة السابقة المهزومة ثمانية آلاف جندي من كل من مصر والشام وبإمرة حسين باشا كما ورد سابقاً.

وهكذا فإنه عند وصول هذا الجيش إلى وادي «ابطح» في الطريق المؤدية إلى جبل المعلا وحيث يمكن وصف مكة حينها بأنها أرقام للإحصاء. آلاف الحجاج والمواطنين قد تجمعوا ووقفوا في صفوف يحيون هذا الطابور العظيم البراق من جيش حسين باشا وهم يهتفون «ليحفظك الله أيها الوزير وينصرك الله يا جيش السلطان» وكان هذا فقط سنة ١٦٧١ حيث وصلنا في ١٠ ذو الحجة مع جيش حسين باشا.

ويكمل شبلي ايفيليا قصته فيقول:

«أسس حسين باشا معسكره في وادي المعلا مع كل الفرق والحجاج من حوله وهناك أمر بذبح مائة خروف لتوزيعها على الفقراء. وبعد ذلك التقت الجيوش المصرية والشامية وكذلك الفرقة المكية بالإضافة إلى الحرس الخاص للباشا. فاجتمعوا جميعاً في الديوان الملكي. فقط الشريف سعد لم يحضر ذلك الإجتماع واستلم كل واحد من الحضور «خلعة» ثم شبكوا أيديهم ببعض بهدف حراسة الباشا حتى وصلوا إلى المعلا وحيث كان هناك المندوبون عن

المذاهب الإسلامية الأربعة والذين أقروا فتوى بأن الجيش المسلم يمكنه أن يمارس الشعائر الدينية وهو مرتدياً اللباس العسكري التقليدي سروال داخلي وخارجي ومعطف. وعلى هذه الشاكلة كان باستطاعة جيش حسين باشا إكمال شعائر الحج وهم في لباسهم وهيئتهم العسكرية. ثم بعد ذلك اجتمع القواد للتشاور وذلك بناءً على رغبة الباشا لاعتبار مسألة الشريف والذي كان بالإضافة إلى كونه شريف فهو في مستوى وزير شرف للسلطان وقد وافق الجميع على ذلك. ولهذا فإن المواطنين المساكين والذين هم في حالة تمرد أو يخططون لتمرد على الشريف لا بد وأن يطلبوا في هذه الحالة عزل الشريف سعد من مركزه وأن الشريف أحمد يجب أن يحل محله في الحكم ويستدعى لأداء يمين الولاء للسلطان.

وعندما وصلوا إلى هذا القرار ذهبوا جميعاً إلى جبل عرفات لإتمام المشاركة في شعائر الحج وعندما علم الباشا بالقرار هذا. أرسل بطلبهم وسألهم: هل تملكون أي ورقة أو أي مرسوم من السلطان بهذا الخصوص؟ وحتى لو كنتم تملكون مثل هذه الورقة فهل يجب أن نطبقها الآن في هذه الظروف بالذات حيث موسم الحج؟ وماذا سيحدث لكل هؤلاء الناس من الحجاج والذين لا يقل عددهم عن مئتي ألف حاج والذين لا حول لهم ولا قوة؟ فإذا كانت تلك رغبتكم وتودون تحقيقها الآن فإنكم سوف تقتلون مخلوقات الله هذه والتي لا ذنب لها بأيدي الأعراب المنتقمين. وعند سماع ذلك قال قواد العسكر المصري والسوري فليكن رأي الباشا وما يشاء. وعندها أخذ حسين باشا خلعة ملكية عبارة عن معطف من وبر جلد السنور وفرمان ملكي وذهب على رأس ثمانية من الخيالة الفرسان إلى مقر إقامة الشريف سعد حيث استدعى كل الشخصيات المهمة والنبيلة وحيث قرأ أمامهم القرار الملكي ورسالة الوزير الأعلى والتي أخذها الشريف سعد وقبلها. وقد ساعد الباشا بنفسه الشريف سعد على ارتداء المعطف الجلدي وهي الهدية الملكية وبعدها أخذ منه الباشا يمين الولاء للسلطان. وكذلك فعلت كل الشخصيات المرموقة ووجهاء مكة وأشرافها. وبعدها استدار الباشا تجاه الشريف سعد وقال له: إنه

لمن دواعي سروري واغتباطي من الله أن قبلتم مني الدعوة إلى موقع سوق منى وكانت كلمات الباشا تترجم مباشرة إلى الشريف سعد والذي وافق على الدعوة بقوله: أقبل دعوتكم من كل قلبي. ثم سار حتى آخر المجموعة من مرافقيه إلى المكان حيث قدم القهوة للباشا ثم ماء الورد والشربات ثم أشعل له البخور. وقد أهدى سعد للباشا أحجاراً كريمة مغلفة بأغلفة جلدية وفرسين من سلالة نقية أصيلة وجميلة وكذلك جملين هجينيين مؤصلين للركوب ومع كل هدية عبد حبشي يعتني بها ويقودها. ثم بعد الإنتهاء من ذلك كله انصرفوا جميعاً إلى منى ثم عرفات بفخامة وأبهة مصحوبين بالجمال والهوادج والمحفات إلى كل الرجال والنساء وكانت الطبول تضرب والطنابر والمزامير تصدح وقد استمر الإحتفال مدة أربعة أيام. ومنذ أن كان الشريف سعد قد ثبت في منصبه خرجت مكة بكل ساكنيها إلى عرفات بكل انطلاق وحرية وابتهاج. وكبار السن من البدو حول مكة يقولون بأنهم لم يروا في حياتهم هكذا جمع من الوجهاء وعليه الناس المتنوعين مجتمعين في احتفال واحد.

وفي ثاني يوم العيد ومع كل ما جرى فإن حسين باشا قد أرسل خمسمائة جندي مصري ومجموعة منتقاة من ألف فارس إلى عرفات حيث احتلوا مصدر المياه هناك وكذلك أرسل أربع فيالق للإمساك بزمام المداخل الرئيسية إلى مكة ومنى وقد حدثت دون أي اعتراض من أي كان. وبناءً عليه أمر الحجاج أن يمشوا إلى مكة وأن تبقى فقط الفرق العسكرية وأخيراً اجتمع كل الرسميين من الديوان والوجهاء والمرموقين وقواد الجيش ورؤساء الفيالق والقيادة الهاشمية وآخرين كلهم اجتمعوا عند حسين باشا في مقره العام. وعند تلك اللحظة رجع حسين آغا الذي ذهب كي يدعو الشريف سعد إلى المقر العام للباشا رجع بدون الشريف سعد ولكن بأخبار عن الشريف سعد تفيد بأنه قد هرب تاركاً كل شيء خلفه.

سعى الباشا إلى استصدار أمر بأن تحتل قوة عسكرية كل الدوائر الحكومية الرسمية في مكة ومنى ثم أقفلها وختمها بالشمع. والذي حدث أن الشريف سعد حين رأى بأن القوات العسكرية للباشا احتلت مصادر المياه

الرئيسة في مكة أحس وكأن هناك مشاكل واضطرابات بانتظاره. وبعد أن حدثت بعض الإشكالات والمناوشات حيث جرح أربعون شخص وقتلت معظم خيولهم هرب ومعه مجموعة من مؤيديه ترافقه عائلته أيضاً حيث فر إلى الطائف.

أولاً كافأ حسين باشا الشخص الذي بشره بالخبر بمبلغ عشرين ليرة ذهبية ثم توجه بعدها صوب وجهاء ورؤساء الفرق العسكرية وشرح لهم الأسباب الشخصية التي دعته إلى عدم الأخذ بنصيحتهم السابقة عن التغيير في موقع الشريف سعد. عندما عرضوه عليه في المعلا وأنه لو أطاعهم حينها فإن الحجاج ما كانوا ليكملوا مناسك حجهم بطريقة سليمة وهادئة. ثم سألهم رأيهم عن الشخص الذي يجب أن يخلف الشريف سعد فأشاروا عليه مرة أخرى بتعيين الشريف أحمد. ولكن الشريف رأى أن اختيار الشريف أحمد لن يغير شيئاً وخصوصاً أن الشريف أحمد محسوب على الشريف سعد وإذا ما اختير أحمد وعين في هذا الموقع فإن الإضطرابات والتمرد لن يقفا عن حد أبداً في مكة.

وبما أن هذه العشيرة قد قتلت حسن باشا فإنهم على استعداد لأن يفعلوا مع آخرين مثلما فعلوا مع من سبق من قتل أو اغتيال. وهكذا يتبين لنا أن هذا الباشا ثاقب الذهن. واقترح بناء على ما استخلص من نتائج بأن يكون الشريف بركات هو الشخص الملائم ليكون في منصب حاكم مكة.

وقد وافقت اللجنة المجتمعة على هذا الإقتراح المقدمة من الباشا في الحال وأصبح بركات هو الشخص المعين لمنصب الحاكم رسمياً. وقد كتب مرسوم ملكي قُرأ بهذا المعنى. وقام حسين باشا شخصياً بإلباس الشريف المعين بركات معطف الفرو (فرو جلد السنور) وقدم له أيضاً «خلعة» ملكية خاصة.

وأخذ حسين باشا من الشريف الجديد قسم ولاء الطاعة للسلطان وذلك بحضور حشد كبير وقد تبع ذلك قراءة سورة الفاتحة من القرآن الكريم.

وكذلك قبلت يد الشريف الجديد من كل من شيخ الإسلام بصراوي محمد أفندي ثم مُلا المدينة المنورة وأمير الحج الشامي هرموش باشا وأمير الحج المصري أوزبك بك بن أبي الشوارب ثم مأمور جدة القائد محمد بك ويكلجي محمد بك «وبورونزيز» (تعني لا أنف له بالتركي) أحمد آغا «الكيتورا» (وتعني الوكيل بالتركي) «الوكيل» إبراهيم باشا مسؤول المالية محمود آغا عاصم زادا سيووش آغا وخوجه بيكوش زادا حسن ثم كل المسؤولين عن الجيوش السبعة المستقلة ووجهاء مكة وكلهم بارك تعيين الشريف الجديد وقبلوا يده وقد تبع ذلك إطلاق كثيف من البنادق دفعة واحدة تعبيراً عن الفرح والإبتهاج بالحدث الجديد. وقد ركب الباشا والشريف بركات جنباً إلى جنب يتقدمون كل القواد والوجهاء بينما العسكر المصري والشامي المسلحين يحيونهم حتى وصلوا إلى مسجد عرفات وهناك كانوا يصلون وبعد الصلاة تقبل بركات الشريف الجديد التهاني من الناس وأخذ منهم قسم الولاء له. وكان حسين باشا والشريف بركات والمرافقين قد مروا في طريقهم إلى عرفات بجبل النور ومن هناك كان معاون الباشا هيكل زادا آغا يتقدم من الشريف كمرافق ومرشد ويتبعهم المرافقون لإظهار الفخامة والعظمة للموكب ويوصله إلى مقر إقامته في مكة وعند وصوله إلى منزله يبتدىء إطلاق النار مرة أخرى من البنادق والطبنجات في لحظة واحدة تعبيراً عن الإحترام لشخص الشريف وإجلال له. وبعد ذلك وصل إلى الحرم المقدس وقام بالطواف حول الكعبة. أما فيما يتعلق بحسين باشا فقد عاد على رأس جيشه إلى مقره في المعلا ولم يعد إلا بعد ذلك بفترة لا بأس بها ويرافقه سبعة أو ثمانية حراس شخصيين إلى الكعبة.

وعندما أصبح الشريف بركات هو الشريف الحاكم لمكة دخل مكة وتابعاً مراحل عظيمة إذ جلس عند المنبر على الدرجة الثالثة وحيث كان هنا جلوساً كل وجهاء وأعيان مكة والشيوخ والأئمة والمحدثين وطلاب العلم المبجلين وجمع غفير من الناس والذين أخذوا جميعاً قسم الولاء له.

وقد أُعلن أنه وحيث أن سلام الله قد حل وسلام الدولة العثمانية قد هيمن فإنه يجب الإحتفال لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال متواصلة من الإبتهاج

والفرح بهذه المناسبة السعيدة وعلى كل مواطن أن يزين بيته ويجمل وكأنه حسن طموحه وقدرته. كيفما تكون جميع الطرقات الرئيسية في مكة نظيفة بشكل غير عادي احتفاءً بهذه المناسبة.

وهكذا فإن مكة عادت من جديد مدينة سعيدة. وإذا ما أحس الإنسان فيها بأي حزن يمكنه دخول بيت الله الحرام فسوف تزول أحزانه ويتلاشى قلقه وخصوصاً بعد استلام الشريف بركات حكم مكة وهذا هو السبب المباشر الذي جعل أهل مكة يفرحون ويبتهجون لثلاث ليال وثلاثة أيام.

وبالمناسبة فإن بركات قد نفى كل ما تبقى من عشيرة الشريف سعد من بني زيد والذي نجا من الطائف مروراً بتربة وبيشة ومنها اتجه إلى قبيلة حرب وبعدها إلى تركيا. وفي سنة ١٦٧٦ زار سعد السلطان العثماني محمد الرابع والذي كان في أوريانويل ثم عاد إلى اسطنبول برفقته وقد عرض عليه وظائف شرف في تركيا ومنح كثيراً من الهدايا بما فيها حمولة ثلاثة بغال من التموين الغذائي سنوياً. ومن خلال صداقته مع رئيس الخصيان حيث التقى بأم السلطان والتي منحته عطاءات سخية ووعدته بتحقيق آماله مع أنه مؤقتاً قد أرسل للعيش في منطقة البلقان وبالتحديد في ويزا.

إن تعيين بركات في الحكم يعود في جزء كبير منه إلى دعم الرحالة محمد بن سلمان المراكشي وهو فلكي ذكي والذي بوضعه الساعة الشمسية في مكة سبب مشاكل عديدة واضطرابات. وقد عاد إلى مكة برفقة حسين باشا وبصفته صديق أخو الوزير التركي الأكبر وهو رجل ذو تأثير غير عادي والذي أعطى دروساً في الفلك خلال فترة وجوده في مكة خلال فترة الحج وقد زار بعد ذلك السلطان العثماني.

لقد استقبل من قبل السلطان بحفاوة بالغة واستطاع أن يكتسب ثقته وقد طلب إليه عمل إصلاحات عديدة في مكة والتي وافق عليها السلطان ومن ضمنها إعطاء الأموال بتوصية من السلطان جقمق وبإعطاء مساعدة للفقراء على شكل خبز وشوربا. وكما في السابق. وقد ادعى أن المدخول المالي أصبح

الآن ملائماً لاستعمالهم الشخصي بواسطة الوجهاء وكذلك أوصى بوقف تعليم ضربات الطبول والدفوف في مدارس الدراويش للتعليم الديني. ووقف خروج المرأة في الليل بمناسبة الإحتفال بعيد المولد النبوي الشريف. ووقف عادة الأمسيات الخاصة ببعض الشخصيات الدينية في مناسبات دينية مختلفة والتي أصبحت أمسيات لطقوس عربدة. ثم عمل جهاز حسابات نظيف في إدارة التوجيه الديني.

أما بالنسبة لبركات الشريف الجديد فقد نظم أول حملة على قبيلة حرب والتي هاجمت قوافل الحجاج القادمة من الشمال وظلت تبتز أمراء قوافل الحج فترة طويلة وقد نجح في ذلك وأعيد النظام حتى شمل الحجاز بأكمله.

والحدث الوحيد والصعب في مكة والذي واجه الحاكم الجديد تمثل في معارضة مجموعة من الحجاج الخرسانيين حول الكعبة ومن حسن حظ العثمانيين بدون شك أن المواطنين كانوا متعصبين تجاه الإيرانيين جميعاً وكانت عملية التسوية والتهدئة صعبة وشاقة حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه.

أما في المدينة فكان هناك الحامية التركية التي هاجمت وقتلت وكيل بركات على أساس أنه يشتم السلطان ولكن الشريف بركات رفض أن يخوض في صراع مباشر بل كتب إلى السلطان حتى يكون هناك تقويم أفضل للموقف ويأمل في حدوث السلام العادل بين الجميع.

وفي العام التالي توجه خمسة وثلاثون شريفاً وعلى رأسهم الشريف أحمد بن غالب وكان معروفاً بأنه صاحب مشاكل ومشاكسات لفترة طويلة. توجهوا جميعاً إلى الشام وفي نيتهم زيارة اسطنبول ليشكوا بركات إلى السلطان ولكنهم احتجزوا هناك من قبل حاكم الشام وطلب منهم أن يكتبوا شكواهم خطياً وقد أرسلت هذه الشكاوى بيد اثنين فقط من هؤلاء المتذمرين الأشراف. وكان الطلب الرئيسي هو في إبعاد محمد بن سلمان المغربي الفلكي.

وفي نفس سنة ١٦٨٢ توفي بركات وخلفه ابنه سعيد فأرسل له السلطان «خلعة» وفرمان ملكي في نفس الوقت، يأمر بنفي محمد بن سلمان المغربي

إلى القدس. ويوجه الإنتباه إلى أن إيرادات البلد يجب أن تقسم لأجزاء متساوية جزء يذهب إلى الشريف والأجزاء الأخرى الثلاثة للأعضاء الآخرين في عائلة الحاكم.

وقد أمل سعيد أن يؤخر تنفيذ هذا الأمر بواسطة السلطان وخصوصاً أن هذا الإقتراح قد تقدم به والده منذ سنوات وعندما كان هو نفسه (أي السلطان) خارج اسطنبول وربما أن محمد بن سلمان المغربي هو الذي عجل به بإقناع السلطان بالموافقة على هذا الإقتراح. ولكن وبوصول هذا الفرمان فعلياً إلى مكة فقد أصبح ملزماً بالموافقة على تنفيذه.

لقد مشى الشريف سعيد على نفس خطى والده فعندما كان أحمد بن غالب ومؤيدوه يزيدون من حراسهم الشخصيين زيادة ملحوظة فإنه وكما فعل والده أرسل بشكوى إلى مندوب السلطان وكذلك إلى جامعي الإيرادات طالباً منهم تزويده بالأموال من أجل توظيفات جديدة للحرس والحرس الخاص وعسس الليل له ولشعب مكة.

وقد كان الباشاوات الأتراك ووجهاء الدولة العثمانية يأملون في أن يعقدوا جلسة عامة مع الشريف في منزله وإنهم أرسلوا لأحمد بن غالب حتى يحضر الجلسة ليدافع عن نفسه. ولكن أحمد بن غالب رفض أن يحضر إلى منزل الشريف سعيد ولكنه وافق على لقائهم في الحرم. وقد أجابهم بأنه بتوظيفه لحراس خاصين له فإنها عادة قديمة ومعروفة لدى جميع وجهاء مكة. وبعد فترة بدأ مؤيدوه يلبسون كامل أسلحتهم علناً ويسرجون خيولهم ويأمرون رجالهم بوجوب الإستعداد للقتال. وقد أرسل أمير الحج صلاح باشا رسالة إلى أحمد بأن السلام سوف يفرض بالقوة إذا لم يوافق عليه بطريقة أخرى. وبدأت طبول الحرب تقرع في مراكز القيادة. وعندما سمعها أهل مكة أخذوا يهرعون إلى بيوتهم، وكان جواب أحمد بن غالب على الباشا بكل بساطة: «إن السيف هو سيفنا وليس لعمال الزراعة من الشام». ولكن العثمانيين الذين لم يكونوا بعد جاهزين للحرب فعلاً فقد أرسلوا رسالة أخرى لأحمد. وبعد يومين لم يأت رد منه. كان صلاح باشا قد استعد وبدا على وشك الخروج ولكن أحمد

غير خطته في اللحظة الأخيرة حيث حضر فجأة لزيارته قبل يديه ورجاه أن يعفو عنه.

وفي مقابل رسالة الشكوى التي بعثها الشريف إلى مندوب السلطان العثماني في مصر والتي شكا فيها من بعض أعضاء عائلته استلم الشريف رداً على هذه الرسالة «خلعة» من السلطان وجواب مهذب والذي أجاب عليه الشريف بدوره مصراً على وجوب زيادة الفرق العسكرية وخصوصاً أن الفوضى في تزايد. وكانت الحوانيت تكسر وتنهب ويُقتل الناس بسبب محفظة في الشارع. وانتشرت الرذيلة على أنواعها قادها بعض عبيد ومؤيدي الأشراف حيث أصبحت من المميزات التي يتميز بها هؤلاء وكان من جملة ما يحدث مثلاً أن تغتصب المرأة أمام ناظري زوجها.

وفي نهاية موسم حج ١٦٨٣ سيطرت الفوضى وعمت ولم يستطع الشريف سعيد أن يعالجها فعين أحمد بن غالب مكانه بالإنابة وذهب يريد أن يلحق بقافلة حجاج الشام.

جمع أحمد بن غالب رجاله واقترح أن يتولى مسعود بن سعد الحكم. ولكن وبعد فترة قصيرة وصلت تقارير سعيد عن حالة الفوضى في مكة وعن سوء تصرف الزنوج في الحكم إلى السلطان العثماني والذي تضايق جداً من الحالة فأرسل في الحال إلى أحمد بن زيد والموجود في المنفى في كيرك لينسه في آسيا الصغرى مقترحاً عليه حكم الحجاز.

وافق أحمد وانحدر لمرافقة قافلة الحجاج عند العلا في شمال الحجاز ووضع عليه «الخلعة» في المدينة ودخل مكة سنة ١٦٨٤. وكان وزير سعد رجل يمني ومعروف لدى عامة الناس وقد نصبه أحمد وزيراً له أيضاً.

أما العالم الكبير الشيخ سلامة بن مرشد بن سويت من قبيلة ضفير من العراق وكان قد استقبل سابقاً في مكة وتولى التحكيم بين أفراد أسرة الأشراف... وكان داعية سلام.

وحالما أعيدت الأمور إلى نصابها في مكة تجهز الشريف أحمد لمعاقبة

قبيلة عنيزة في نجد والذين انتهزوا الفرصة حيث حالة الفوضى كانت منتشرة في الحجاز فأصبحوا متمردين فهزموهم هزيمة نكراء.

وفي خريف سنة ١٦٨٦ أرسل السلطان كتاباً إلى الشريف يخبره فيه أنه انتصر انتصاراً كبيراً على الخارجين على الإسلام وقد سجن سبعين ألفاً منهم وأنه استعاد الأراضي التي كانت في أيدي الأوروبيين وهي كانت السنة التي استولى فيها العثمانيون على المجر وكانت فيينا قد سقطت في أيدي العثمانيين قبل ذلك بعد عدة هزائم ابتدأت سنة ١٦٦٤ وانتهت بمعاهدة «باساروفيتز» سنة ١٧١٨. وكانت محاولة الإستيلاء على الحكم مباشرة من قبل أحمد بن غالب والذي كان سبباً للفوضى التي عمت سابقاً في مكة وأدت إلى زيادة سوء تصرف العبيد فإن حاكم مصر العثماني قد وعد سعيد بن سعد بن زيد «بشارة الحكم» فتشجع سعيد عند ذلك وأمر بأن توضع حواجز في شوارع مكة وابتدأ بالإستعداد لمقاومة قوات أحمد بن غالب. ثم بعد ذلك مجتمعاً في وادي المر ومرسلاً في نفس الوقت رسلاً إلى أحمد ليريهم أي مرسوم ملكي يبين صلاحيته وشرعيته في الحكم.

وكان الضباط الأتراك منزعجين من هذا الشغب والتناحر الواضح فتقدموا من مكة والتي أخلاها سعيد وبقي في الطائف لمدة شهرين إلى أن أرسل له الأتراك «خلعة» والده مع رسالة تفويض من والده لينوب عنه طارداً أحمد بن غالب إلى اليمن.

ويذكر أن الإمام الناصر لدين الله محمد حاكم اليمن لاحقاً والذي التقاه عند العريش وأخبره بأن الحجاز وكذلك مصر وسوريا أصبحوا من السهل السيطرة عليهم. وقد تسلم أحمد منه جيشاً من أربعة آلاف محارب ومبلغاً لا بأس به من المال وساعده في أن يكون إحدى الفصائل الثلاثة من العائلة الحاكمة وهم قاسم بن المؤيد وحسن بن المتوكل وعلي بن أحمد. وكانت هذه هي الإشارة ليس في التقدم باتجاه الأمبراطورية العثمانية ولكن باتجاه مجموعة حروب محلية ومحاولة باتجاه صنعاء نفسها ولخلافات بين ابن الإمام وأحمد من جهة وبين الإمام وأبناءه الآخرين من جهة أخرى. وفي النهاية استقر

أحمد في جيزان على البحر الأحمر إلى أن انتقل بعد ذلك إلى الشام وبطريقة ملتوية على طريق رملي خلال الصحراء (صحراء الدهناء) في قلب الجزيرة العربية حيث توفي هناك حوالي العام ١٦٩٣.

أما في مكة فقد خلف محسن بن حسين بن زيد أحمد بن غالب ولو بطريقة مؤقتة في البداية. والمدينة بقيت وفية له حتى توفي في سنة ١٦٩١ وهي نفس السنة التي أتى بها يحيى بن بركات إلى مكة كأمير لقوافل الحج الشامية. ولم يكن هناك أمير للحج منذ فترة طويلة بقيادة الأشراف ولم يعد تقليد أن يكون الأمير من الأشراف مهماً بعد ذلك أبداً.

وكانت شركة شرق الهند في هذا الوقت قد بدأت بجمع المعلومات عن الموانىء التي يتاجر معها تجارها وقد صدر في لندن كتاب لجون أوفينيون سنة ١٦٩٦ المتقن عن موانىء البحر الأحمر تحت عنوان رحلة إلى السرات وفيها يقول عن جدة:

إن الميناء الرئيسي في هذا البحر يعود إلى السيد الكبير. . . إنه الميناء البحري لمكة. . . والأراضي حول ذلك المكان غير ذات أهمية وغير مستغلة وغير مفيدة لأي استغلال وهي أراضي جدباء وفيها نقص من كل شيء ما عدا ما يجلب من بلاد أخرى.

ولهذا فإن سيد البلد وبسبب المصاريف الكبيرة على الصيانة فإن الدعم يأتي إليه من مصر ويصل حوالى عشرون أو خمسة وعشرون سفينة شحن كبيرة سنوياً محملة بالمؤونة الغذائية والأموال الخ. من أجل دعم التجارة ومن أجل البقاء. وقد انتعشت جدة بسبب التجارة المستمرة مع الهند وفارس ومناطق أخرى في الجزيرة العربية والحبشة وحتى الآن فإن العرب يجلبون قهوتهم والتي تشترى هنا من قبل الأتراك وتشحن إلى السويس. وهنا يصل ويخرج حجاج من جميع المناطق في كل عام وعندما يصلون إلى هنا فإنهم ينزعون ثيابهم وذلك طلباً للغفران ولا يبقى عليهم سوى قطعة قماش طويلة من أسفل الجسم.

وفي هذه القافلة الخاصة بالحجاج قدم رجل انكليزي وكان ذلك ربما سنة ١٦٨٥ أو ١٦٨٦ جوزيف بتس من اكسفورد والذي كان قد أسر وهو في الخامسة عشرة من العمر فوصف الحج كما يلي:

إن سلطان مكة الذي هو من سلالة النبي محمد (ص) لم يفكر كثيراً في مركزه ومقامه كحاكم عندما ينظف بيت الله في مكة. لقد قام بتنظيف البيت هو وأتباعه والمؤيدين له أولاً غسلوا البيت بماء مقدس هو ماء زمزم وبعد ذلك بماء حلو والدرجات التي أحضرت كي يصعد عليها للدخول إلى البيت قد أزيحت أثناء الغسل وقد تجمع الناس تحت الباب حتى يصلهم شيء من ماء الغسيل على أجسادهم وكانت المكانس والفراشي التي تستعمل في التنظيف قد تحطم بعضها فترمى بين الحشود المتجمعة فكان كل فرد منهم يأخذ ما يستطيع الحصول عليه من قشة أو نثرة من هذه المكنسة فيحتفظ بها ويحافظ عليها لأنها ذكرى مقدسة وفي كل سنة يتغير غطاء البيت ويرسل من قبل حاكم القاهرة بأمر من السلطان الكبير وتأتي محمولة على ظهر جملين من ضمن قافلة الحجاج القادمة من مصر إلى مكة وهذين الجملين لا يعملان شيئاً غير ذلك طوال العام ويستقبل الغطاء عند وصوله بفرحة شديدة والبعض يقبل الجملين ترحيباً بهما. ويسحب الغطاء القديم إلى أسفل ويباع بعد ذلك قطعاً إلى الحجاج وبأسعار باهظة جداً. [وهذا التقليد لا يزال مستمراً حتى اليوم وقد وصلني شخصياً قطعة من هذا الغطاء ومخطوط عليها بالذهب ﴿**ربنا اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات**﴾ وهي آية قرآنية]. ويوضع الغطاء الجديد بواسطة الحاكم.

وحول الحرم هناك آلاف الحمائم زرقاء اللون والتي لن يخيفها أي شخص مهما كان وهي أليفة بطريقة غير عادية وربما تتناول من يدك قطعة لحم وأنا شخصياً قد أطعمتهم ويسميها الناس حمام النبي وتأتي بأسراب كبيرة إلى الحرم والذين يطعمهم الحجاج عادة. وقبل الحصول على صفة حاج المقدسة فإنهم يضعون شهواتهم جانباً وكذلك الأطماع الدنيوية ويذهبون إلى تلة تسمى جبل عرفات (أو جبل المعرفة) وهناك يلتقي أكثر من سبعمائة ألف حاج سنوياً.

وبعد إتمام الأيام الثلاثة يعود الناس إلى مكة ولا يجب أن يبقوا أكثر من

عشرة أيام أو اثني عشر يوماً حيث يعقد سوق عظيمة وفيها يباع كل أنواع البضائع من الهند الشرقية وكل الناس تقريباً تشتري أكفاناً مصنوعة من الكتان الجيد وهم يدفنون بها عند الموت ويفضلون أن يغمسوه بماء زمزم المقدس حتى يضمنوا بقاءه مقدساً أينما ذهبوا. وفي آخر ليلة قبل مغادرة مكة فإن كل حاج يأخذ وقته في التعبد لتوديع البيت المقدس «بيت الله» ومنه يبدأ الإنسحاب والمغادرة رافعين أيديهم إلى أعلى طالبين المغفرة وعيونهم معلقة على بناء البيت حتى يختفي عن أنظارهم وعندها تفيض عيونهم بالدموع.

بدأ حكم الشريف سعيد سنة ١٦٨٧ وقد انقطع دوام الحكم هذا في مراحل كثيرة ومختلفة.

وكان هناك اثنين من الرحالة الأجانب في مدينة جدة في خريف سنة ١٧٠٠ وليام دافيل رجل انكليزي وتشارلز جاكس بوسيت رجل فرنسي وكل منهما كتب عن زيارته إلى تلك المدينة وعن فترة حكم الشريف سعيد وكان دايتل شاهد عيان: «لننظر كيف عامل الأشراف الكبار الباشا الكبير الذي أتى إلى المدينة شخصياً مصحوباً بألفي فارس وقد طلبوا من الباشا (وكان صديقي الوحيد) مبلغ مائة ألف «تشكين» وبالإضافة إلى أن سيده الكبير كانت أمه مسيحية وأنه لم يقتنيه حتى يدافع عن الدين الإسلامي (وخصوصاً أنه عمل معاهدة سلام مع المسيحيين) ولكن وبما أنه سيزوج ابنته إلى ملك المغرب، أصبح الباشا مضطراً لأن يدفع له المال وذلك من أجل إنقاذ رأسه ولكنني عدت بدوري حزيناً إلى مكان السكن».

وصل الرجل الفرنسي المذكور إلى جدة في الخامس من كانون الأول بعد بضعة أيام من الحادث السابق وهو يصف زيارة الشريف الذي كان لا يزال معسكراً خارج الأسوار:

«كان الشريف رجلاً في حدود الستين من العمر وحضوره ذو رفعة ونظراته تحمل الرعب. وكان هناك شق صغير في شفته السفلى قرب الجهة اليمنى. ولم نجد أحداً من رعيته أو جيرانه يمتدح معاملته أو شفقته أو عدله. وكان قد أجبر الباشا المقيم في جدة والذي يمثل الباشا الأكبر لإعطائه خمسة

عشر ألف قطعة ذهبية وقد هدده بعمل عسكري إذا لم يتمشى مع رغبته بالدفع وإطاعة أمره».

ويروي بوسيت كيف أن الشريف يأخذ مالاً من التجار الأتراك على شكل ضريبة ويقول عنه:

الشريف رجل مخيف ومتعجرف وقد تراجع عن تأييده واحترامه للسلطان الكبير والذي يطلق عليه بتهكم لقب ابن المملوك وهو يعني «ابن العبد».

منذ سنة ١٧٠٥ عبد الكريم بن محمد حكم حتى أقيل في سنة ١٧١١ وعاد بعد ذلك بقليل وبقي حتى سنة ١٧١٥ حيث تقاعد ليعيش عند قبيلة حرب وبعدها ذهب إلى مصر حيث توفي هناك بالوباء.

وفي سنة ١٧٠٦ حدث إشكال في المدينة المنورة وسببه أن الشاه أرسل هدية إلى الحرم المقدس هناك وهي عبارة عن وعاء من الذهب مليء بالعنبر ومزين بالأحجار الكريمة وقد قدمه إلى الوكيل عن الحرم حتى تأتي الرخصة من الشريف ثم من السلطان بالموافقة على تعليقها في الحرم وبعد ذلك عندما بحثوا عنها لم يجدوها. وكان العبد المخصي المولج بحماية الحرم وكذلك الوكيل متهمين ومشكوك بهما وقد اعترف أحدهما بعد التعذيب.

وقد وصل محقق من اسطنبول أرسله السلطان فوجد بعض الذهب والعنبر (الكهرمان) والتي أخذها معه إلى إسطنبول لإعادة صياغتها ولم يعرف إذا كانت قد عادت إلى الحرم أم لا ولم يسجل أحد هذا الأمر.

ومات الشريف سعيد سنة ١٧١٦ وخلفه ابنه لمدة عام وربع فقط واسمه عبد الله بن سعيد وكان أدنى ما فيه من صنع الأعمال الشاذة. وقد أوقف الدفع لأفراد العائلة من الأشراف وكذلك لم يعد يدفع للجنود، وهناك روايات كثيرة عن سخافات وهزالة في المواقف وخصوصاً فيما يتعلق بالمادة. وهذا النقص في شخصيته جعله غير مقبول أبداً لدى الآخرين. وقد حل محله أخوه علي وقد اضطر إلى توقيع تنازل فرض عليه من قبل جميع أفراد الأسرة من الأشراف. وفجأة وبصورة سريعة قتل عبد الله أخوه علي وبالتالي حدث هرج

وفوضى في المدينة حتى بدأت قوافل الحجاج بالوصول وتحميها الفرق العسكرية المرافقة عندها خف الشغب.

وبوصول باشا دمشق قافلة الحجاج الشامية وحيث أنه يمثل أكبر شخصية عثمانية تصل إلى الحج فإنه رضخ لمنصب الحاكم في مكة الشريف يحيى بن بركات بن محمد بن بركات والذي كان لفترة من الزمان حاكماً في إحدى المناطق في سوريا وقريباً من دمشق. وبعد أن أصبح أميراً للحج وكان قد تبين بأنه سيطبق القوانين التركية وهو خطأ وقع به الباشا التركي. لأن القانون المتذبذب استمر فقط لمدة سنة وربع حيث سمي مبارك بن أحمد خليفة له.

بدأ الأمير الجديد بتجميع مؤيدين من قبائل عتيبة من نجد ومن قبيلة ثقيف من حول الطائف وقرر التقدم صوب مكة بثلاثة صفوف تلتقي عند عرفات وهناك خرج يحيى لملاقاته ولكنه تجرد من أعوانه وانهزم بعد حرب ومطاردة استمرت طوال الليل وحتى ظهر اليوم التالي.

وقد فرض الشريف الحاكم الجديد نظاماً جديداً للحكم واستمر حتى سنة ١٧٢٠ وقد تهدمت منطقة في جدة بفعل نيران الحرائق وقد تهدمت مدرسة دينية ومسجد وقد ساهم الشريف كثيراً في التخفيف عن أهل جدة حيث كان مضطراً لبيع جزء كبير من أملاكه ولم يستطع أن يمسك بزمام الأمر في المدينة أو بين القبائل وذلك أن المال قد شح ولم يعد قادراً على دفع حتى مستحقات جنوده لبسط النظام والأمن فاستبدل يحيى بن بركات الذي عاد إلى مكة من تركيا مع قافلة الحج.

وقد وضع الحاكم الجديد خطة قاسية للحكم وخصوصاً تجاه عشيرة ضحو زيد ومن ناحية أخرى كان يأمل بمساعدة قبيلة ثقيف له قرب الطائف ولكن يحيى حرض بعض الأدلاء ومن خلالهم اكتشف مراسلات كانت تتم بين زيد وبعض وجهاء مكة الذين نهبت بيوتهم ودمرت بأوامر مباشرة من علي باشا القائد التركي ووكيل السلطان.

الشريف يحيى وعلي باشا حاربا مبارك في عرفات كانت حرب مطاردة

انتهت عند جبل الخاتون حيث جرح علي باشا بفخذه ثم إن كتيبة الفرسان قد شلت تماماً لأن كثيراً من الجنود قد قتلوا بواسطة البدو وكلا الفريقين عاد وانسحب. انسحب مبارك إلى الطائف حيث خلت قواته وسرحت أما علي باشا فقد تقاعد في جدة وبعدها بقليل توفي متأثراً بجراحه.

وقد بادر مبارك إلى تأليف قوات جديدة وتجميعها وبدأ الباشا الجديد اسماعيل وكذلك وجهاء مكة جميعاً على الإجماع على دعوة يحيى لأن يستقيل لمصلحة أبيه بركات. والذين لم يستطيعوا أن يصبروا ويصمدوا أكثر من ثمانية عشر يوماً حيث دخل مبارك أخيراً إلى مكة وحكم فيها لمدة خمسة أشهر وقد ظل في الأيام الأخيرة من هذه الخمسة أشهر في نزاع دائم مع مؤيديه السابقين وخصوصاً الشريف عبد الله بن سعيد والشريف محسن بن عبد الله.

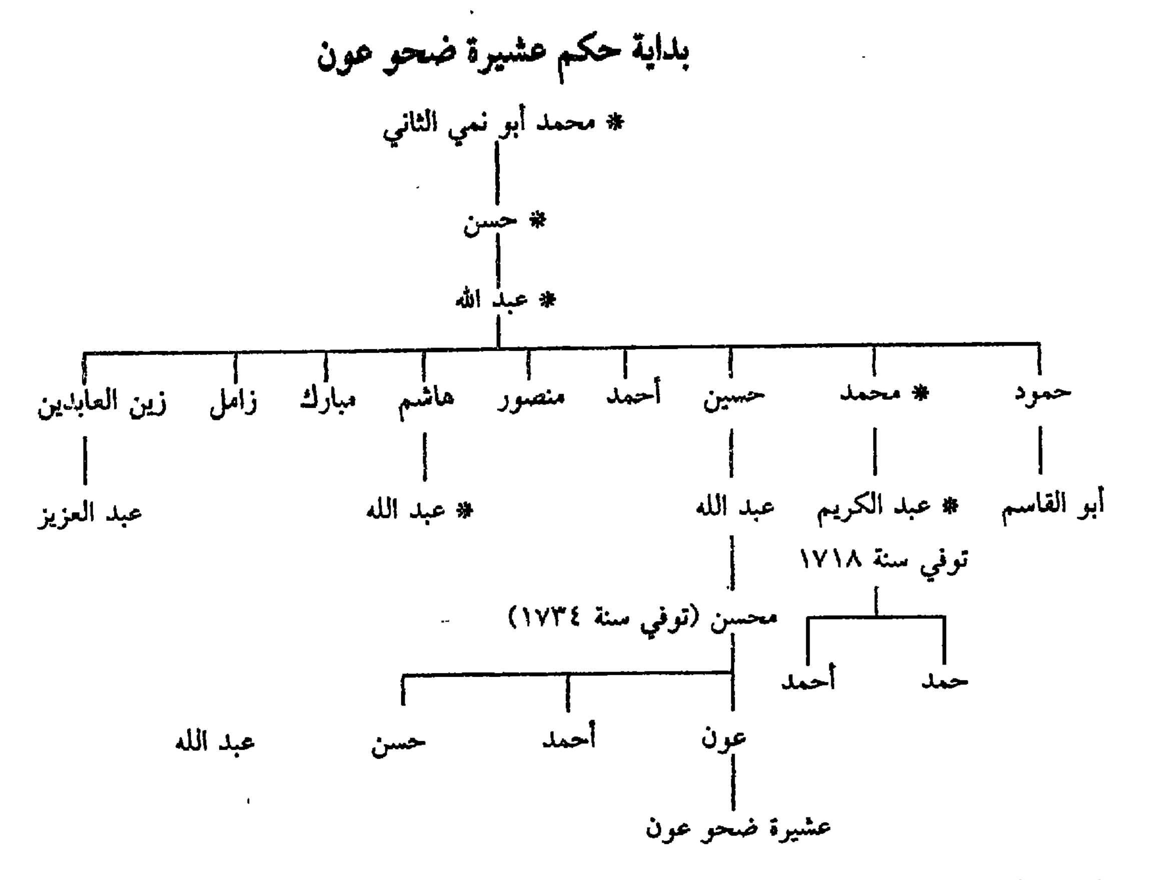
وهذا الأخير كتب إلى السلطان يعلمه بأن قتل الجنود الأتراك يعود إلى مبارك وأنه هو نفسه قد حمى الناجين منهم والذين بقوا على قيد الحياة.

ومحسن الذي وعد في البداية أن يقنع مبارك بالتخلي عن تمرده وأن يترك مكة قد غير رأيه بعد ذلك. ونتيجة لذلك وصلت رسالة باليد من السلطان مع عثمان باشا والذي وصل إلى المدينة المنورة مسمياً فيها عبد الله كشريف حاكم. ويساعده محسن.

لقد رفض القاضي في البداية تسجيلهم لأنهم كانوا غير شرعيين والفرمان الحالي بالنسبة للقاضي كان هو الفرمان الشرعي فقط. وقد ضغط الضباط العثمانيون وكذلك محسن باتجاه القاضي حتى يجعل التعيين نافذاً وشرعياً له وللآخرين وذلك من أجل السلام. وقد كان محسن يبدو وكأنه جاهز للحرب في أي وقت إذا لم يتحقق ما يريد.

وهكذا فقد كان على مبارك أن ينسحب من مكة ولحق باليمن حيث توفي هناك بعد فترة في سنة ١٧٢٧، وعين عبد الله بن سعيد حاكماً لمكة وبقي في السلطة حتى آخر أيام حياته.

بداية حكم عشيرة ضحو عون



* الذين حكموا مكة.

الفصل العاشر

عبد الله بن سعيد حفيد زيد
وأحفاد آخرين ١٧١٦ - ١٧٧١

عبد الله بن سعيد حفيد زيد وأحفاد آخرين ١٧١٦ - ١٧٧١

إن الأشراف المعترضين على حكم عبد الله بن سعيد قد خرجوا لملاقاة الباشا العثماني أمير قافلة الحج الشامية. وذلك أثناء رحلته من المدينة إلى مكة ونتيجة للتذمر الذي حمله هؤلاء الأشراف عن الحاكم الجديد لمكة بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك وشكوا إليه أنه يمنع دفع مستحقاتهم. قال الباشا العثماني للشريف عبد الله إنه «أي الباشا» نفسه سوف يعطيه المال المطلوب له وللأشراف الآخرين من أسرته وأنه قد سجل بنفسه أسماء عشرة من الأشراف الذين اشتكوا وهو قد وعدهم بالدفع.

ورغم الحيلة التي تركزت على محاولة إنشاء ضريبة ثابتة على التجار فقد استمر عبد الله في حكمه بنجاح وكانت سيطرة عبد الله ناتجة عن سيطرته على القبائل وقد قوي هو نفسه بهذه القبائل عندما حقق انتصاراته في اليمامة في وسط الجزيرة العربية حيث معقل قبيلة ضفير التي هزمها ولم ينجوا منها أحد إلا بعض الأطفال والنساء.

وقد عزا الحسيني ذلك إلى التالي: إنه في شهر تموز سنة ١٧٢٧ وصل وزير أجنبي مع حاشيته إلى جده ولم يكونوا محل ترحيب من قبل الأتراك، واكتشف هؤلاء الأجانب في الحال أن الخدم المسلمون غير لائقين لخدمتهم ويرغبون في إيقافهم عن الخدمة لديهم. فحاولوا استمالة أبو بكر باشا حاكم جدة التركي والذي لم يحرك ساكناً وأعيد الخدم إليهم من جديد. ولكن حدث

لغط وثرثرة بين الناس بأن الأجانب قد قتلوا هؤلاء الخدم. فدخلت الغوغاء وعامة القوم إلى داخل بيوت الأجانب هؤلاء وقتلوا ثمانية منهم ونهبوا ممتلكاتهم.

وقد أصيب حاكم جدة بالدهشة والغضب عندما علم بالحادث اكتشف معظم المسروقات وأرجعها إلى أصحابها ثم قام بإعدام القائد عن هؤلاء الغوغاء ثم حضر الشريف من مكة وكذلك حضر القاضي وشيخ الإسلام إلى جدة. وبعدها حلت الأمور العالقة وهدأ الناس.

وعند وفاة عبد الله سنة ١٧٣٠ كان عمر ابنه محمد عشرين عاماً وكان في اليمن حيث كان يقيم هناك، ولكن عمه وأخاه حاولا ونجحا في محاولتهما في إقناع القاضي كي يعلن محمد خليفة بعد أبيه. ثم تقدم عمه متطوعاً أن يكون هو وزيراً للحاكم واسمه مسعود بن سعيد.

وقد بدأ فترة حكمه بالصفح عن الجميع ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد اختلف الشريف حاكم مكة ووزيرة عمه الشريف مسعود بن سعيد، وكان هناك أيضاً مشاكل مع عشيرة ضحو بركات إذ كان أحد أفراد هذه العشيرة قد طلب منه الشريف ترك مكة بسبب هفوة صغيرة ارتكبها وبدلاً من ترك المدينة التجأ إلى بيت شريف من عشيرة العبادلة وهو عبد العزيز بن زين الدين داخل مكة. وكان الشريف محمد مهتاجاً فأحاط بالبيت بجنوده الذين سارعوا بإطلاق النار فرد عليهم الأشراف من الداخل ثم خرجوا إلى محمد طالبين منه إحقاق الحق وتصحيح الأمر وكان ثمن هذا التصحيح هو خمسة وعشرون حصاناً وخمسة وعشرون عبداً وستون جملاً وأن يركب القاضي حتى بيتهم فيقدم الإعتذار.

وبعد بضعة أيام حصل حادث آخر مشابه حين اتهم عبد من عبيد الشريف عبد المعين بقتل طالب علم وكان حنبلي المذهب. وبينما كان عبيد الشريف محمد يمرون بالقرب من بيت الشريف عبد المعين رأوا العبد المطلوب يتكلم مع عبيد الشريف عبد المعين الآخرين، فاتفق العبيد فيما بينهم على القبض على العبد المتهم وتسليمه إلى الشريف محمد ولكنه استطاع الهرب منهم إلى داخل البيت وعند سماع صراخ الناس في الشارع خرج الأشراف الموجودين داخل

البيت ليتحققوا من الأمر وقاموا بطرد عبيد الشريف الحاكم «محمد» ثم حضر الشريف ومسلحيه عند بيت الشريف عبد المعين. وهرع وجهاء البلد إلى المكان ومعهم خدمهم المسلحين ينوون التدخل. وهكذا فإن عائلة الأشراف قد امتعضت وتنغصت بسبب الحاكم وبدأوا يميلون أكثر فأكثر صوب عمه مسعود الوزير. وكذلك ترك كثير من الأشراف مكة إلى الطائف ولحق بهم مسعود الوزير حيث أقاموا معسكراً هناك وأعلنوا مسعود حاكماً لمكة. وكانت حربهم مع محمد حيث استطاعوا أن يحشدوا الرجال من بعض القوى القبلية مع العلم أن الأشراف قد قاتلوا بشراسة وقتل منهم الكثير وقد حكم محمد مدة عام ونصف العام فقط وكانت شعبيته ضمن المحيطين به غالباً.

وخلال فترة حكم محمد الأولى كانت هناك شكوى مثل بعض الشكاوى غير المألوفة مثل تدنيس الحرم المقدس عن طريق إيراني مجهول. وهذا العمل كان بإيعاز من بعض الأشراف وقد صنف العمل على أنه عمل مأجور من قبل الأتراك. وقد رفض المفتي أن يأخذ أي إجراء ضد رجل أو رجال غير معروف أو معروفي الهوية وبقي الشريف في بيته رافضاً التأثر بصخب الرعاع وضجيجهم.

ودون سابق إنذار أو أخذ رأي المفتي فقد أصدر الناس أمراً بأن يخلي جميع الإيرانيين المدينة المقدسة وقد وافق الوزير على الأمر، وقد أعلن هؤلاء الغاضبين الأمر على الملأ وغادر الإيرانيون البلد فعلاً ولكنهم عادوا بعد بضعة أيام مع قافلة الحجاج.

ثم أصبح الوزير مسعود حاكماً لمكة فعلياً. ولكن قبيلة ثقيف تحركت باتجاهه وخلال ثلاثة أشهر هزموه في تلال الطائف وهكذا فقد عاد محمد إلى الحكم.

وخلال سنة ١٧٣٣ حيث كان حسين آغا «السردار» أو رئيس الإنكشارية في مكة ويسمى «الرجل الصعب المراس» وكان برفقة أسرته في نزهة. إذ هاجمه بعضهم لأن جنوده ضربوا أعرابياً ورفض معاقبتهم أو إصلاح ذات البين فاتخذ ملجأ له في بيت قريب من الشارع وعندما استلم الشريف تقريراً عما

يحدث بالتفصيل ذهب في الحال إلى موقع الأزمة حيث وجد أن قائد الإنكشارية مطلاً من نافذة الطابق الأول يتكلم مع الشريف فعاجله أحدهم بإطلاق النار حيث أصابته رصاصة فقتلته في الحال. فتأثر رجال الإنكشارية لقتل قائدهم وبعث ضباط الإنكشارية بالرسائل والتقارير الغاضبة عما حدث إلى مصر. وبقي الشريف في عزلة في قصره. ومن حسن الحظ أن وصل الوزير التركي أبو بكر باشا في تلك الفترة وهدأ من غضبه جنوده.

ولكن المسؤولين الأتراك قد بدأوا بدعم مسعود الذي كان لا يزال معسكراً في وادي مرو وأمدوه بالأموال اللازمة من أجل دعم ومضاعفة أعوانه من ثقيف نفسها مكوناً قبيلة أخرى بينما كان محمد يعتمد على حرسه الخاص وعبيده وكذلك أعوانه اليمنيين.

وهكذا فإن محمد ومسعود قد ناشد كل منهما منفصلاً الباشا التركي والذي رفض أن يأخذ قراره بدون الرجوع إلى اسطنبول ومن جهته كان مسعود قد تجهز للحرب بينما محمد كان يزور الباشا في جدة متقدماً بآخر فرصة تجاه الباشا من أجل التدخل لحل الإشكال بينهما وعندما فشل في إقناع الباشا عاد إلى مكة وكانت قواته تحاصر قوات مسعود خارج المدينة وهزموهم خارج مكة ولكن سرعان ما امتدت الحرب إلى الداخل أي داخل مكة حيث انهزم جيش محمد خلال ساعة واحدة فقط.

وهكذا فإن مسعود قد استعاد سيطرته من جديد وعاد حاكماً لمكة مرة أخرى.

وعند اجتماع الأشراف في مجلسهم قرروا أنه يجب على كل أجنبي يسكن في مدينة مكة أن يغادرها. وسبب ذلك أن هؤلاء الأجانب كانوا يشغلون وظائف كان أهل مكة أحق بها منهم وكانوا معظمهم في وظائف إدارية وهم موظفون من قبل الحكومة. وكان معظمهم من المغاربة والأتراك والمصريين لذا فإنهم انسحبوا من مكة مع قوافل الحج العائدة ومع هذا فإن الهنود والأوزبكيين والكشميريين والإيرانيين قد بقوا في المدينة لفترة من الزمان ولكنهم أمروا بعدها بالمغادرة أيضاً.

ويذكر الحسيني بأن المدينة أصبحت أقل ازدحاماً وانخفضت الأسعار وصار بالإمكان الحصول على أي شيء وبسهولة.

وأمر الشريف أن يمنع التدخين في العلن مثل التبغ الذي أصبح شائعاً في أيدي الرجال والنساء على السواء وفي كل طبقات المجتمع وأصبح الجميع يدخن حتى خارج البيوت. وقد وافقه العلماء على هذا القرار وأقفلت كل الحوانيت التي تبيع الدخان والحوانيت التي تقدم القهوة. وبعد ذلك لم يكن محمد عاطلاً عن العمل وقد أقنع رجال قبيلة عتيبة أن يؤازروه.

ومسعود الذي كان يخشى من تدخل القبائل وكانت خزينته فارغة وكان عشائر آل بركات وآل حسن من الأشراف وبمشاركة مجموعة من الأتراك وكلهم كانوا في مواجهته يودون القيام بعمل ضده وعمل ما فيي وسعه لدعم أسرته من الأشراف واستمالتهم والذين قد بدأ البعض منهم يميل صوب محمد وصاروا يرسلون له سراً رسائل الترحيب والإستعداد لملاقاته عند الوصول خارج مكة ومع صرف آخر مبلغ من المال لديه فإن مسعود قد جهز مزيداً من الرجال وجندهم لقطع الطريق على محمد ووقف الإمداد من جده. وهكذا فقد تدخل الوزير التركي سليمان باشا بعد أن وصل التوتر مداه وقد نجح هذا الباشا في الوساطة بين الإثنين وهدأت الأمور بينهما.

وكان الشريف بعد ذلك مضطراً لإرسال حملة لإخضاع الأشراف من عشيرة آل حسن وهم من سلالة الحسن «الأغان» والذين زعموا أنهم أحق بمنصب حاكم مكة وبدأوا بتهديد الحجاج القادمين من اليمن. فاعترضهم الشريف وحاربهم وحاصرهم لمدة خمسة أيام داخل بيوتهم في مكة وبعدها اضطروا لترك مكة بينما القوة الأكبر منهم تسللت وتسلقت تلال جبل بني سليم حيث حوصروا هناك أيضاً وفي النهاية استسلم زعيمهم الشيخ عساف وأُخذ مكبلاً بالسلاسل إلى مكة. والذي توفي بالجدري هو وعائلته بعد ذلك بعدة سنوات.

عمل مسعود على توسيع وتحسين قصر الشريف أو «دار السعادة» والذي بني أساساً بواسطة حسن بن حسين بن أبي نمي ولم ينس أن يعمل برجين ضخمين عظيمين في هذا القصر حيث يثبت بنادقه فيهما.

أما المدينة المنورة فقد بدأت بجذب انتباه الأشراف إليها وقد وقعت مشاكسات بين الشيخ المصري شيخ الحرم النبوي والحامية العسكرية وقد انقسم السكان في المدينة ورجال القبائل من قبيلة حرب إلى معسكرين متناحرين.

وعندما أرسل شريف مكة عبيدة الفرسان ليعيدوا النظام إلى المدينة فشلوا في ذلك وغضب الشريف من أهل المدينة فأغلق الممرات البحرية للبحر الأحمر (الموانىء) قاطعاً عليهم الطريق والإنسحاب إلى مكة وجعلهم مرة أخرى يعودون إلى الطريق القويم. وكذا حراس قوافل الحج قد استقاموا في عملهم بوصولهم عند المدينة. هذا وقد طرد شيخ الحرم من وظيفته وأعيد إلى مصر. وهكذا فقد أصبحت المدينة تحت سلطة شريف مكة مرة أخرى وكانت قواته هي التي ترابط في المعسكر هناك.

وفي سنة ١٧٤٤ وصل مبعوث خاص اسمه سعيد نصر الله بن الحسين الجعفري إلى مكة لمقابلة شريف مكة الحاكم وهو مبعوث من قبل نادر شاه وقد أبلغ الشريف بأنه استولى على البصرة وأربيل وكركوك والنجف. أما بغداد فلم يدخلها لأنها كانت محصنة بأسوار منيعة ولأن الوالي صديق له. وقد أحاط بالموصل وحاصرها وقد اعترف علماء السنة في بغداد بوجود المذهب الجعفري أو الشيعي كمذهب خامس في الإسلام.

فأرسل الشريف كتاب نادر شاه إلى الباب العالي وكان جواب السلطان الذي وصل مع القافلة التالية للحجاج وقد كان الجواب هو فقط: «أن أرسل الرسول إلى السلطان في اسطنبول». وبعدها أخبر حاكم جدة الشريف أنه قد سمع من ابن أخيه أحمد باشا الذي كان يقود الجيوش في «أرض روم» أن السلام بين نادر شاه والعثمانيين لم يوقع بعد وعلى العكس من ذلك فإن نادر شاه قد هُزم لذا فإن احتفالات النصر العثماني أصبحت عامة ومنتشرة في أرجاء الأمبراطورية والتي سوف تعم الحجاز أيضاً. ولكن الشريف تريث قليلاً ثم قبل بعد ذلك بأيام بإقامة الإحتفالات بالنصر.

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أمر الباشا كخطوة ثانية أن يسلمه الشريف

الرسول الفارسي حتى يقتل وهذا ما رفضه الشريف بشدة بل على العكس من ذلك فقد أمر بلعن الشيعة في الخطبة حتى يعلم الجميع أنه لم يكن مؤيداً للشاه ولكنه عاد ووافق على تسليم الرسول إلى الباشا ولكن بعد أن وعده بأن لا يقتله ولكنه في النهاية عندما وصل إلى اسطنبول أعدم على الفور.

وكانت الأحاديث بين الناس متناقضة عن حقيقة هزيمة العثمانيين أو هزيمة الشاه أم هل هناك حرب فعلاً أم لا وقد استمرت هذه الأحاديث فترة من الزمان ثم انقطعت.

وفي سنة ١٧٤٦ وصلت أخبار عن نشوب حرب بين الإنكليز والفرنسيين في البنغال حيث وقعت حرب مواجهة بين القوتين هناك وكان الإنكليز هم أول من اعتدى وفتح النار على الخصم. ثم أرسل الملك الفرنسي أربعين سفينة فانسحب الإنكليزي إلى «دكا» حيث دمروا ميناء مدارس بعد أن كان الفرنسيون هناك قد وجدوا ثروة تركوها خلفهم في القلعة موضوع التناحر.

وفي السنة التالية أعلن أن نادر شاه عبد «طهماسب» قد قتل بواسطة حراسه وأن رسالة قد وصلت بهذا المعنى من أحمد باشا من بغداد إلى الشريف يبلغه فيها أن السلام قد حل في البلاد بين الأتراك والفرس. وكان نادر شاه قد قتل في الحقيقة سنة ١٧٤٧ التاسع عشر من حزيران ولكن بواسطة الإيرانيين أنفسهم حيث أنهم استطاعوا التغلب على حراسة الأفغانيين قبل أن يصلوا إليه ويقتلوه.

والجنود اليمنيين الموالين للشريف في القنفذة تمردوا على الشريف الحاكم هناك وذلك على أساس أنه لم يعطهم حقوقهم - والشريف الحاكم في القنفذة هو معين من قبل شريف مكة - وبعد أن تمردوا وثاروا مطالبين بحقوقهم بقوة السلاح أخذوا الأموال وفروا إلى اليمن وقد لحق بهم رجال الشريف فلم يستطيعوا الإمساك بهم قبل دخولهم أراضي اليمن. وقد أمر الإمام في اليمن الجنود الذين كانوا حراساً للشريف أن يدفعوا مبلغ ٢٢٠٠ ريال زيادة عن حقهم ووعد بأن يرسلهم إلى الشريف عندما تهدأ الأمور أكثر.

فشكر له الشريف المحنك هذا الإجراء وبعث له بهدايا عبارة عن عدة أفراس وعبد أبيض قيم.

توفي الشريف مسعود في ١٨ شباط ١٧٥٢ وخلفه أخاه مسعد ولكن عشيرة ضحو بركات وحدهم اعترضوا على تعيين الشريف الجديد وأرسلوا الرسائل يتوددون بها إلى ابن أخيه محمد بن عبد الله. وقد ترك كثير منهم مكة للعيش في وادي المر ولكن سعد كان يكتب إليهم رسائل جس نبض كي يختبر فيها ولائهم ويطلب منهم بتودد العودة إلى مكة ولكنهم رفضوا طلبه بتصلب وعناد.

وكان مسعد يجهل رغبة محمد بن عبد الله ونظرته تجاه منصب الحاكم ومدى تعلقه وطموحه للوصول إليه، وعلم بعد ذلك أنه قد أرسل أحد أشقائه إلى قبيلة عتيبة واجتمع بهم وكان معسكراً معهم في منطقة السيل في منتصف المسافة بين مكة ومنحدرات الجبال حيث سافر من هناك إلى الطائف.

وهكذا فإنه علم مسبقاً بمحاولاتهم. قام محمد يتقدم صوب مكة معلناً عن نفسه أنه الحاكم الفعلي لمكة. وقعت المعركة عند «دقم الوبر» حيث هرب محمد ونهبت ممتلكات قافلته وبعد عدة أسابيع تقدم مرة أخرى صوب مكة قادماً من الطائف وكان المعسكران متواجهان يرى كل منهما الآخر، وعسكرا حتى الصباح، حيث تبين أن محمد ترك المخيم والنار تشتعل فيه وكان في الحقيقة يتجه صوب مكة ولكن مسعد أرسل خلفه أسرع الخيالة حيث قبضوا عليه عند وادي «منحنى» وبعد ساعة من القتال هزم محمد مرة أخرى.

ونتيجة لتوسط إحدى الشخصيات واسمه سعد عبد الله الفأر اليمني من أجل المصالحة بين الطرفين ولكن على أساس أن الشريف يمنح تعويضات مالية للأشراف المتضررين.

وبعد ذلك دعم أمير الحج المصري وأمير الحج الشامي «الشريفية» حكومة الشريف في مكة المبارك بن محمد بن عبد الله والذي وافق عليه أيضاً مجموعة من الأشراف والذين لم يكونوا معروفين لدى مسعد. طوقوا بيت مسعد وتم إعلان تعيين مبارك أثناء التطويق. وبدون أي كتاب تعيين أو فرمان ملكي تم تعيين مبارك ومع هذا فإن أحمد أخو مسعد المعزول قاد مؤيديه

وجنوده إلى مكة السفلى حيث هزم الشريف وأخرج من القصر وأعلن عن إخلاء مكة «وتنظيفها من المخلفات والقاذورات».

سارع مبارك لتقديم التماس له من قبل أن يفر إلى وادي المر حيث لحق به جند أحمد ثم أحضر وسجن ثم توفي بعد ذلك ببضع سنين. وبعدها نقل عبد الله الفأر إلى اليمن حيث استقبل أحسن استقبال بواسطة الإمام والذي عاد إلى مكة من جديد بعد أن توسط له الإمام عند الشريف وحالما وصل ولم يطل به الأمر منذ توسطه أول مرة لدى أمير الحج الشامي وبمدة أقل ومنذ رجوعه بدأ يدبر مكائده مرة أخرى حالما وصل نفس أمير الحج إلى مكة في الموسم التالي للحج.

ونظراً لجرأته فإن عبد الله باشا الشرستي دعا إلى اجتماع عام لمناقشة مشاريع تحسين موارد المياه في مكة فهاجم الشريف بعنف متهماً إياه بأنه قد حول الماء الخاص بالحجاج إلى استعماله الشخصي طالباً توقيفه. وقد أعلن عبد الله باشا أن جعفر أخو الشريف يجب أن يكون هو البديل للشريف ولكن جعفر كان رجلاً عادلاً إذ أخلى سبيل أخاه حالما غادرت قوافل الحجاج وتنازل له عن الحكم حيث غادر هو بعدها إلى الطائف واستقر هناك وحال وصوله اشترى أرضاً وكان يزرعها ويعتاش منها حتى توفي سنة ١٧٦٤.

وفي تلك الأثناء بدأ تجار الحجاز يكتشفون أن سفنهم كانت تخضع للضريبة الجمركية وقوانين الموانيء، عند شواطيء الهند. وهذا ما كان يضايقهم وبناءً عليه فقد تقدم شريف مكة بإرسال مناشدة باسمهم.

وقد وصلت رسالة إلى لندن عن طريق مستر جون موراي المندوب الإنكليزي في اسطنبول ومؤرخة في (نوفمبر) تشرين الثاني سنة ١٧٦٦ وموجهة إلى صاحب السعادة الأميرال لشيلبورن: -

اسطنبول

١٦ تشرين أول ١٧٦٦

سيدي.

تجدون طيه نسخة من ورقة أرسلت إلي من قبل ريس أفندي يرغب في

أن أوجه رسالة إلى حكومة ميناء بندر ـ وسورات بندر والمرجو أن لا ينزعج أو يتأذى كل ما له علاقة بالشأن التركي وذلك فيما يتعلق بتجارتهم في المناطق المذكورة وقد وعدتهم بإرسال اهتمامهم الشديد بالموضوع إلى سعادتكم. ولكنني بحثت في كل الكتب والخرائط الجغرافية فلم أعثر على ما يسمى ميناء بندر ولا حتى متى كانت هذه الأماكن تحت السيطرة التركية إذا لم يكن هناك ذاك الإعتقاد بأن هناك بلاد إسلامية لم تسيطروا عليها.

لا أستطيع أن أصف شريف مكة هذا والذي كان وراء تقديم هذا الطلب المتعلق بالميناء بأكثر من بابا القوانين الإسلامية.

لي عظيم الشرف أن أكون مشمولاً بعطفكم ورعايتكم.

خادمكم الأكثر طاعة وتواضعاً

يا سيدي

جون موراي

أما الورقة الموجودة طي الرسالة المرسلة من قبل جون موراي فهي مكتوبة باللغة الإيطالية وموجهة من شريف مكة.

وقد أجاب لورد شيلبورن في كانون الأول (ديسمبر) ١٧٦٦ وقد حولت إلى شركة شرق الهند والتي كانت من المفروض أن تعطي الأمر البات والحازم حتى لا يحدث أي انزعاج للأتراك في استمرارية تجارتهم في تلك المناطق وبنفس الطريقة التي كانت تتم بها حتى تلك اللحظة.

أحمد عبد الكريم بن محمد يعالي المدعوم من عشيرة ضحو بركات والذي كان يأمل بتعيين عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات كشريف حاكم لمكة وقد بدأوا بتجميع قواتهم آملين بالسيطرة على جدة أولاً وبعدها وبفضل توفر المال الذي سيجمعونه سوف يقومون بتجهيز قوات أضخم ويهاجمون مكة.

ولكن أهل جدة واجهوا الموقف بصلابة حيث أقفلوا أبواب الأسوار

وفتحوا النار على المهاجمين وقد تراجعوا من منطقة القيلولة إلى أكواخ من القصب قريبة من المكان. وبعد فترة من المناوشات أشعل المدافعون هذه الأكواخ بواسطة النبال المضيئة التي كانوا يقذفونها فما استطاع المهاجمون التقدم وهزموا. وبعد هذه الهزيمة للمطالب بالسلطة الجديد انكفأ وأعوانه إلى وادي المر. وهذا المدعي بأحقيته بالسلطة غادر إلى مصر ليحصل على الدعم من حاكم مصر العثماني ويحظى بغطاء من الحماية القادمة مع قوافل الحجاج المصرية في موسم الحج المقبل.

أما مسعد الذي أخذ علماً بما يجري كان باستطاعته أن ينظم مع أصدقائه أمير قوافل الحجاج الشامي والذي قد يمكث بعد رحيل القافلة الخاصة بالحجاج المصريين، وهكذا فإن عبد الله بن حسين والذي فشل في خطته الأولى قد أجبر على إنفاق أمواله على تجهيز الرجال للحرب لصالحه بعد رحيل قافلة الحج الشامية وقد دارت المعركة فوق تلال المعلا والمعدبة في ضواحي مكة نفسها. السلحدار أو رئيس مصلحة معدات الجيش للشريف مسعد كان بطل الموسم. وأخيراً بعد هزيمة أحدهم وهو سعيد رضا والذي كان مصفحاً تصفيحاً كاملاً مع حصانه، قد قتل بضربة صولجان ضخم على رأسه. وعند تراجع عبد الله إلى وادي المر أرسل يطلب المغفرة من الحاكم وقد أعطى له بعد ترو ولكنه وبناءً على ذلك فإنه ذهب بدون تردد إلى مصر حيث يشتكي مرة أخرى من حكم الشريف إلى حاكم مصر علي بك وقد قدم له هذا الأخير ثلاثمائة جندي وثلاثين مدفعاً ومؤن بحمولة ثلاث سفن. وكان لدى القائد تعليمات صارمة بدعم عبد الله ليحل محل مسعد. ولكن الذي حدث أنه في نفس اليوم الذي أبحرت فيه السفن وقع مسعد مريضاً وتوفي في ٢٩ نيسان ١٧٧٠ وذلك قبل وصول السفن إلى سواحل الجزيرة العربية.

وفي خلال حكم مسعود وكذلك فترة حكم أخيه مسعد تقدم متعصبون دينيون من وسط الجزيرة العربية ويسمون الوهابيون إلى شريف مكة يطلبون منه إعطائهم رخصة بالحج وهذا الطلب قد رفض من كلا الشريفين كما حدث بعد ذلك مع من خلفهم أحمد وسرور وقد اقترح الوهابيون إرسال بعض رجالهم المتعملين لأجل مناقشة القضية وسبب الرفض.

وفي سنة ١٧٧٠ (التاريخ الحقيقي اليوم والشهر لم يحدد بالضبط) ظهر نجم مذنب طوله بطول الرمح ابتدأ منذ ما بعد الغروب حتى شروق الشمس.

وقد أحبط الناس وأصيبوا بخيبة الأمل بسبب هذا النجم وقد قال بعضهم أنه فأل سيء بشر بقدوم الوهابيين وقد تضمن ذلك في أبيات من قصيدة كتبها الفاسي واسمها «الفلكي» [من كتاب ابن زيني دحلان خلاصة الكلام].

وقبل أن يموت مسعد اهتم بأن يحصل على الموافقة الكاملة بواسطة مؤتمر الأشراف على تعيين أخيه عبد الله بن سعيد والذي تمت الموافقة عليه وسمي حاكماً جديداً لمكة وقد لقي اعتراضاً مباشراً من أخيه أحمد والذي حول اعتراضه على الموضوع إلى قوة استولى بموجبها على الحكم بعد أن أجبر أخاه عبد الله بالتنازل لمصلحته هو.

أما الحملة العسكرية المصرية والتي كانت تنوي إجلاس عبد الله على كرسي الحكم في مكة قد وصلت إلى المدينة وكانت محاولة دفاع مخلصة قادها حاكم المدينة المعين من قبل الشريف في مكة قد أدت إلى تنفيذ حكم الإعدام به مباشرة وقد شجع عبد الله بن الحسين سماع الأنباء عن وصول القوات المصريية فبدأ بتجميع رجال القبائل عند مقر القيادة الأساسية في وادي المر بينما الشريف أحمدَ كان لديه أمل قليل بالربح. فأرسل النساء والأطفال إلى عشيرة زيد في الطائف ليكونوا في مأمن من الحرب وجمع جنوده ورجال القبائل في مكة وعندما وصلت القوات المتحدة العثمانية وقوات عبد الله بن حسين وصلت إلى أطراف مكة موجهة بنادقها باتجاه مكة وفي ١٢ تموز ١٧٧٠ كان أحمد مضطراً لإرسال كتاب خضوع وانسحب إلى الطائف وهكذا فإن عبد الله بن حسين من عشيرة ضحو بركات قد أعلن تنصيبه حاكماً لمكة. وبهذا فإن مرشح عشيرة ضحو زيد قد هزم مرة أخرى.

وحالما تولى عبد الله الحكم هاجمه أحد الدراويش وطعنه بفخذه بينما كان يتجول في مكة على حصانه واكتشف فيما بعد أنه رجل مختل عقلياً فأطلق سراحه.

إتخذ الشريف الجديد التدابير الكافية لإبعاد أحمد من الطائف والذي

التجأ بعد الطائف إلى منطقة ثقيف حيث بدأ يحشد المؤيدين والموالين ويسلحهم بقصد عمل غارات على جبل عرفات حيث هزم هناك عدة مرات واضطر بعدها إلى التوسل طالباً السلام وسبل الرشاد.

وقد تبادل أحمد الهدايا بعد ذلك مع الشريف وقد بدأ أحمد يتجهز للسفر إلى منطقة أخرى وقد شد الرحال إلى الليث بعد أن تجهز بالخيل والعتاد والليث تقع جنوب جدة على البحر الأحمر وبقي في الليث إلى أن رجعت القوات العثمانية إلى مصر فعاد أحمد إلى منطقة قبيلة ثقيف مدعوماً برجالها متخذاً منهم قائداً هو الشيخ ربيعة ثم تحمس رجاله ووضعوا فكرة الثأر في رؤوسهم وعزيمتهم بسبب قتل شيخهم فغدروا بأحمد من الخلف ولحقوا بفلول جيشه حتى دخلوا مكة.

وعلى عكس عادة الأشراف في الشهامة والفروسية فقد أمر أحمد أن تنهب كل البيوت التابعة لعشيرة ضحو بركات ويضرم بها النار. وحيث أن بعض أفراد عشيرة ضحو بركات التجأ إلى جدة فإنهم قرروا مع السنجق العثماني الموجود هناك بالوقوف صفاً واحداً ضد أحمد وقواته وقد حاصر أحمد شخصياً مدينة جدة مع قواته. وأرسل الرسائل إلى «الكليثودا» السنجق العثماني واعداً إياه بمكافأته إذا استطاع أن يفسر من وراء الجيش وقد وافق على هذا الرأي وطلب منه مهاجمة بوابة اليمن والتي سيجعلها غير حصينة عند المهاجمة.

وقد تخلى السنجق عن القلعة فقط وهرب من باب صغير من صوب البحر وأثناء عدوه مع مجموعة صغيرة خلال الماء الضحل على الشاطىء لم يتنبه لفراره أحد ونجا حتى وصل إلى رابع على ساحل البحر الأحمر شمال جدة وعندما سمع عبد الله بن حسن عن هذا الفرار عمل مثله لحق به ورافقه حتى وصل إلى ينبع حيث رحل من هناك إلى مصر وبقي فيها حتى توفي هناك وقد دخل جيش أحمد إلى جدة ونهبوها لسبب وجيه عندهم وهو أن مكة كانت في حالة مجاعة وبقيت على هذه الحال حتى أتت المؤن في الحج المقبل.

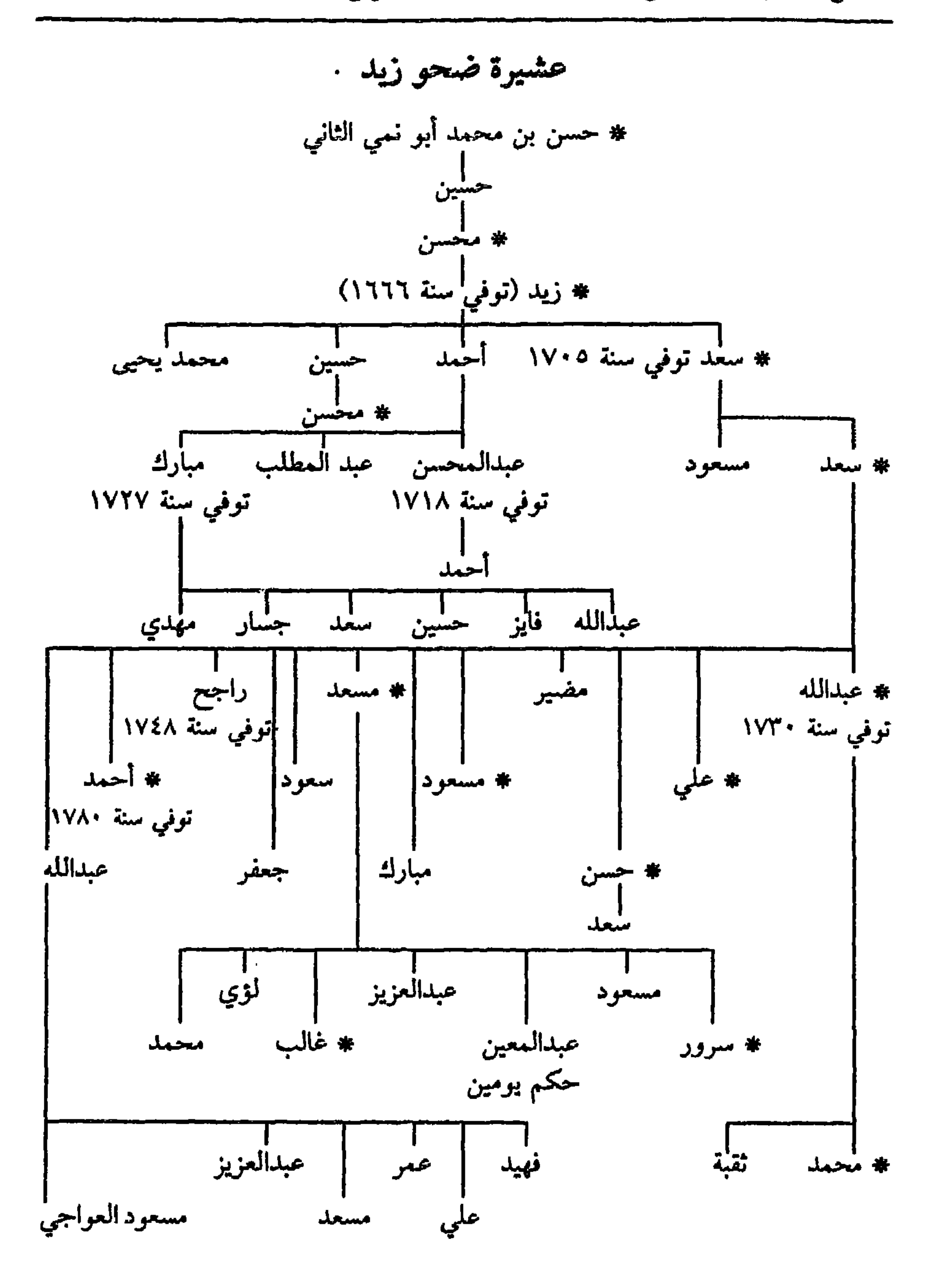
وفي نفس الوقت كان إمام اليمن قد قطع مؤونة القهوة بسبب زيادة نسبة

الضرائب الموضوعة عليها. ولهذا فإن الشريف كان مضطراً لإرسال عبد الله الغفار في مهمة إلى الإمام باليمن. وحيث أن الشريف أحمد لم يستطع السيطرة على ضواحي مكة وحيث أن الفوضى عمت ونقص الأمن والأمان فقد أصبح حكمه غير مرغوب فيه من قبل الناس ولا من قبل الأشراف فإذا كانت أسرته قد أعجبت بقدرته في الميدان فإنها غير راضية عن قدرته في وقت السلام وفرض النظام.

وفي سنة ١٧٧١ حاول ربما بطريقته الفظة إصلاح الأمور بطريقة عشوائية قرر فجأة أن يخلع وزيره في جدة يوسف قابل فأرسل جنوده إلى جدة كي يحضروه بالقوة. ولم يكن هناك سرية وكتمان في هذه الأمور وكان الشريف الصغير سرور ابن أخ الحاكم في السابعة عشر من العمر وكان في مجلس الحاكم عندما سمع بالخطة التي يدبرها عمه فنقم على طريقة عمه وأسلوبه في الحكم وركب حملاً سريعاً وانطلق يقصد جدة ليحذر يوسف قابل.

وعندما وصل رجال الشريف إلى هناك أوقفهم سرور وأخبرهم أن قابل بحمايته ثم وافق مبدئياً على أخذهم له بشرط أن يصحبهم سرور وأن لا يعاقب على أي شيء حتى يصل إلى مكة. وفي الطريق غافلا الجنود وركضا بأقصى سرعة باتجاه وادي المر. حيث كتب سرور من هناك رسالة إلى عمه يخبره فيها أنه يريد أن يقاتله. أرسل له عمه أحمد رسائل ود وتعاطف ولكنها لم تجد معه نفعاً وظل يقود رجال القبائل ويحشد الحشود واتصل برجال من قبيلة عتيبة لملاقاته عند السيل واستطاع أن يحشد ثلاثمائة من رجال القبائل إلى وادي المنحنى وبعد ساعتين من القتال ضد أحمد وقواته انتصر عليهم تماماً ودخل مكة مظفراً في ٥ شباط ١٧٧٣ وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً.

عشيرة ضحو زيد ·



* الذين حكموا مكة.

الفصل الحادي عشر

سرور وأخوه غالب

(١٧٧١-١٨١٠)

سرور وأخوه غالب
(١٧٧١-١٨١٠)

في بداية حكم الشريف الصغير سرور كان الوضع في غاية الإضطراب وكان عمه أحمد، الحاكم السابق في صراع دائم معه وذلك أنه انتزع منه حكم مكة بالقوة. وكان أحمد دائم التجهيز والإستعداد باستنفار محازبيه وأتباعه للهجوم. وأول معركة حدثت بينهما كانت عند بركة سلمان وحدثت بعد استيلاء سرور على السلطة بخمسة عشر يوماً فقط. وقد هُزم أحمد في هذه المعركة وفر من ساحة القتال.

ولم يقبل الجنود بمرافقة سرور حتى يدفع لهم المبالغ التي كانت متوجبة لهم بذمة عمه الحاكم السابق. وكان مضطراً لأن يتجول بدون حرس خاص به ولكنه كان يستعيض عن ذلك برفقة أصدقائه وأتباعه المقربين أثناء الصعود إلى عرفات في موسم الحج.

وكان هناك تنامي تيار قوي مؤيد لأحمد بين الأشراف حيث أن بعض هؤلاء كان يزور المندوب التركي على أمل أن يساعدهم بإزاحة سرور من الحكم.

ومن حسن حظ هذا الشريف الصغير أن الباشا كان منذ حدوث التغيير الأول لأحمد كان يرفض التدخل إلا بإذن من اسطنبول.

وبعد انتهاء موسم الحج بدأ أحمد يحرك الجنود الذين لم يقبضوا

مستحقاتهم ويدفعهم إلى أن يثوروا ضد سرور بعد أن وعدهم بدفع كامل مستحقاتهم السابقة وأكثر منها إذا ما استعاد مركزه في السلطة. وكانوا جاهزين لإطلاق النار على بيت سرور عندما يحين الوقت.

دعا سرور البدو المتواجدين في مكة بعد انتهاء موسم الحج إلى الوقوف بجانبه ثم قام بإرسال عبد والده «مثقال آغا» إلى أمير الحج المصري من أجل طلب المساعدة ولتزويده بالسلاح والذخيرة. وها هو يهزم أحمد مرة أخرى ويقبض عليه وينفيه من مكة مع كل أتباعه. ولم يأت هذا النفي من فراغ، لكنه كان نتيجة خمس عشرة معركة وقعت بين سرور وعمه أحمد خلال الخمس سنوات الأولى بعد استيلاء سرور على السلطة. وحيث كان أحمد يستعمل الطائف كقاعدة انطلاق له إذ كان يرسل حملاته من هناك ضد مكة.

وكان عبد الله الفأر صاحب المكائد مشغولاً بشؤون أحمد إذ كان يخطط له. وهو الآن يحاول إقناع أمراء قوافل الحج الأتراك والذين يأتون إلى مكة في كل موسم حج. والذين ظلوا متمسكين برأيهم بعدم رجوع أحمد إلى السلطة وفي النهاية كان مصير عبد الله الفأر أن يقبض عليه ويرحل إلى القنفذة وهناك قام طاقم سفينة يمنية بإنقاذه بعد أن دفع أمير «الحيا» أجرة نقله إلى اليمن وظل عبد الله الفأر يمثل إزعاجاً للشريف سرور وكان هو السبب بالرسائل الغاضبة التي كان يرسلها سرور إلى إمام اليمن. إلى أن ضاق به ذرعاً هذا الأخير فأرسله مرة أخرى إلى الشريف سرور. وقد سجنه احترازياً في القنفذة حيث توفي هناك والبعض يقول إنه مات خنقاً.

وفي نهاية الأمر سنة ١٧٧٩ سجن سرور عمه أحمد مع ولديه في ينبع حيث مرض هناك ثم نقل إلى جدة حيث توفي فيها سنة ١٧٨٠.

وصار بإمكان سرور أن يفرغ لملاحقة قاطعي الطرق من البدو وكان يركب بنفسه أحياناً ويخرج مع بعض أتباعه الذين يتجمعون بسرعة لمباغتة العصابة بسرعة. ولقد وجد بعض أعداء الشريف سرور في مكة مسألة خروج سرور فرصة ليتربصوا به في الطريق ويقتلوه ولكن واحداً من هؤلاء أبلغ سرور

بالأمر فأرسل ليتحقق من القصة التي رواها الرجل فوجد أن هناك عصابة تنتظر بالفعل في المكان المحدد وبكامل أسلحتها فأمر رجاله بإيقافهم جميعاً وبعضهم هرب. ولكن مسعد العواجي وابنه وعشرون من عبيدهم قد قبض عليهم. أربعة من الزنوج أعدموا وقطعت يد مسعود وأما من تبقى منهم فقد نفي إلى الهند.

وفي سنة ١٧٧٩ أيضاً أرسل سلطان مراكش ابنته وهي بحماية بعض أخوتها ويحملون هدايا الزواج من أجل أن تزف ابنته إلى سرور وقد عظمت مكانة سرور بهذا الحدث من قبل الجميع.

وبعد موسم الحج بدا على سنجق مصر مراد بك أنه يتخذ موقفاً عدائياً لسرور فقد احتجز عند عودته من رحلة له بواسطة قبيلة حرب فأخذ منهم رهائن وفي الحال جعلهم يجلسون على خوازيق من حديد. ورفض دفع المساعدة لهم وهذه المساعدة تعود إلى القبيلة كشرط لمرور قوافل الحجاج بسلام.

كان شيوخ قبيلة حرب يؤمنون بأن هذه المساعدة قد دفعت إلى سرور وعندما زار سرور المدينة المنورة بعد ذلك بعدة أشهر، وبالرغم من الحماية المرافقة له من خمسمائة بدوي وخمسة آلاف من رجاله الخاصين وخمسمائة شريف والمرافقين الشخصيين، فقد أزعجته قبيلة حرب واستمر الجدال بعناد لمدة ثلاثة أيام تحت السلاح دون الوصول إلى اتفاق حتى اضطر في النهاية لحربهم إلى أن توسط بعض الشيوخ المحايدين بينهم فدفع لهم ١٤٠٠٠ قرشاً على أن يقدموا إلى الشريف مجموعة من الرهائن مقابل ذلك يبلغ تعدادهم أربعون رهينة. وحتى بعد أن قبضوا فإن قبيلة حرب حاولت التملص من إرسال الرهائن وكان هناك شيخ منهم من المفروض أنْ يُشمل في المجموعة لم يأت إلى أن أرسل سرور قوة لتجلبه. وبعد أن وصلوا جميعهم وكبلهم جميعاً بالأصفاد وعندما سمعت حرب بالذي حدث بعد أن وصل سرور إلى المدينة بسلام تحركوا مرة ثانية فقطعوا طريق مكة أمام الحجاج وأعادوهم من حيث أتوا.

وأسوأ ما يمكن تخيله أن يكتشف سرور أن بعض وجهاء المدينة كانوا في حلف مع قبيلة حرب ويشدون من إزرهم. بدأت الحرب داخل المدينة وحاول سرور أن يقتحم القلعة فأرسل عبيدة بسلالم ولكن المكان لم يسقط بسهولة واستمر القتال لمدة أسبوع. وأخيراً أطلق سراح الرهائن ولكنه أخذ معه إلى مكة كل السجناء الذين قبض عليهم في قلعة المدينة.

وكان سرور حكيماً أنه لم يعلن في المدينة عن عودته إلى مكة عن طريق بلاد قبيلة حرب. ولكنه اتخذ الطريق الأبعد والأصعب شرقاً. وحيث أن الماء شح لديه فقد أسعفه بعض البدو الأوفياء له. ثم وصل إلى الطائف بصعوبة كبيرة حيث وصلته أخبار عند وصوله أن وزيره في المدينة قد هوجم هناك واضطر للإستسلام وفي نفس الوقت استولت حرب على ينبع وقبضوا على قائد الميناء وقد بدأ سرور بالتخطيط لحملة ضد قبيلة حرب. فاستقدم حوالى ستة آلاف رجل من بدو «عتيبة» وثلاثة آلاف من «هديل وثقيف» وألفين من حرسه الخاص وأصبحت القوة الكاملة مع الأشراف الآخرين وحراسهم الشخصيين والعبيد بما لا يقل عن اثنا عشر ألف صنديد. وما لا يقل عن مائة وخمسين حرفياً ومهندساً وسبعة آلاف جمل كانوا مشاركين في قافلة الجيش.

وكان بعض الجمالين من قبيلة هديل قد رفضوا الإستمرار إلى ما خلف منطقة خليص، وقد وقع شجار معهم حيث أطلقوا النار على سرور من قبل أحد أفراد القبيلة ولكن الرصاصة أخطأته. ولكنها أفزعت ما قد يترتب وما سينتج عن هذا الحادث من مشاكل ولذا فإن قبيلة هديل قد تركت المخيم في الحال. وعندما حاول إرسال رسول من أسرته للحاق بهم كي يقنعهم بالعودة فإنهم أجابوه: «إذا أردت أن تكون أميراً على مكة فتعال معنا فنحن الآن في طريقنا لاحتلال مكة الآن» وكان على سرور عند ذلك أن يعود أدراجه صوبهم فيقاتلهم ويهزمهم. ولكنهم عندما طلبوا الرحمة وأمنهم كان الأوان قد فات وأوان التسامح أيضاً. أما البداية فستكون في إنهاء الحملة التي بدأها وتجهز من أجلها.

وفي سنة ١٧٨٥ كان أمير قافلة الحج الشامي هو أحمد باشا الجزار

والذي حكم عكا وهزم نابوليون ومنذ ذلك الوقت ادعوا له الإنتساب إلى سلالة الأشراف من جهة الأب والأم وقد ذهبوا إلى أكثر من ذلك فادعوا أنه المهدي المنتظر وآخر الأئمة عند الشيعة. وعند رجوعه من أداء مناسك الحج عانى هو نفسه من هجمات قبيلة حرب عليه والذي استطاع أن يقبض على بعض منهم حيث حضر شيوخهم سائلين الصفح عنهم وإطلاق سراحهم فوافق الباشا على إطلاق سراحهم بشرط أن يدفعهم على حدودهم وعند سماع رجال القبيلة هذا الكلام تجمعوا جميعاً وقفزوا على القافلة وقد أبيدت القافلة بأجمعها فيما عدا المجنون أحمد باشا وبعض الفرسان المهرة بركوب الخيل والذين عدوا بسرعة البرق إلى المدينة المنورة.

وقد حشد الشريف قوة أعظم مما حشد في العام السابق بقصد مهاجمة قبيلة حرب وبينما كانت حرب تتقدم بهدوء اعتقدوا بأن الشريف خائف من دخول المعركة فبدأوا هم الحرب عليه هذه المرة محاولين إيقاع الهزيمة بالحراس على أطراف المنطقة فأرسل الشريف يعلن في كل مكان أن رأس كل رجل من قبيلة حرب يساوي عنده خمسة «مشكاش» وفي الحال تكدس عند خيمته كومة من الرؤوس ونفس العرض كان قائماً بالنسبة للسجناء من قبيلة حرب وفي الحال أيضاً كان لديه خمسمائة سجين من حرب فعاد في الحال إلى مكة منتصراً مظفراً، ليجد بانتظاره عطاءات سخية وصلت من الهند ومراكش ومن محمد علي أيضاً.

وبعد حفلة طهور مميزة لأبنائه وأبناء أخيه أقيمت بمناسبة عودته وانتصاره على قبيلة حرب وقع سرور مريضاً وكان قد غاب عن الوعي مرتين وبعدها عاش لمدة أربعة أيام فقط ثم توفي في ٢٠ أيلول ١٧٨٨ وكان في الرابعة والثلاثين من العمر. كان سرور حاكماً حازماً فطناً مقداماً فرض هيبته واحترامه على الناس وقد ذاع صيته وكان في قمة عطائه، وقادراً على إعطاء المزيد حين وفاته.

وحتى بعد وفاته بسبعين سنة ظلت شهرته ترن في الأذان وقال تشارلز ديديه الذي زار الحجاز سنة ١٨٥٤ : «سماه ريتشارد بيرقون لوييس الحادي عشر للحجاز [من كتابه إقامة عند كبير أشراف مكة ص١٧١]».

وأضاف: «كان كريماً بسخاء وشجاعاً متمرساً وحازماً بعدل ومتسامحاً مع أعدائه الشخصيين. وكانت سياسته تهدف إلى إلغاء الضريبة الإستبدادية للقبائل وقد طور وحسن نظام الحكم».

وقد خلف سرور أخاه الأصغر غالب وكان غالب رجلاً ضخم الجثة وأكثر حنكة وتمرساً بالسلاح منذ الصغر مع تعلقه الشديد به. ويقول عنه ديديه «كان جذاباً وكان حذراً واعياً وكان أقدر حاكم على الإطلاق في زمانه إلى أن أتت الوهابية فتغير الموضوع» ومن ناحية أخرى فإن الرحالة اليهودي الذي أطلق على نفسه اسم علي بك العباسي واسمه الحقيقي (دومنغوبا ديا إي. لايبلخ) والذي كان يسافر لحساب الحكومة الفرنسية يقول عنه إنه لم يكن متعلماً أنانياً وأن الإنكليز الذين كانوا يتاجرون مع الهند من خلاله قد اعتبروه أفضل صديق لهم. وقد اعتاد أن يرسل السفن للتجارة مع مخا ومسقط وسورات وكان يدعي السيطرة على جزيرة سواكن ومصوع مع أنهما كانتا تحت سيطرة السلطان العثماني [رحلة إلى أفريقيا وآسيا خلال السنوات من ١٨١١ إلى ١٨٠٧ مجلد رقم٢].

وقد أفسدت أيام حكم غالب الأولى بواسطة الخدع والمكائد التي حيكت ضده بواسطة بعض أخوته وأقاربه والذين طردهم بعد ذلك من المدينة المقدسة وقد فر أكثرهم إلى الطائف وحتى ابن أخيه عبد الله بن سرور البالغ من العمر اثنا عشر عاماً قد ساهم في الإيقاع بالشريف الجديد وقد حمى أحد السجناء الفارين والذي فر من خلال قناة الماء إلى بيته. وقد قُبض عليه وسجن عدة أيام أعيد بعدها لأمه. والسجين الفار هو عضو من عائلة الأشراف. ولعرفانه بالجميل تجاه عبد الله الصغير فقد غادر إلى اسطنبول حيث سأل السلطان الذي أعجب بعزيمته وإصراره على رأيه بتعيين عبد الله بن سرور أميراً على مكة.

وبعيداً عن المناوشات والمشاكسات العائلية كان الخطر الداهم أكبر وأكثر جدية وهو الخطر القادم من وسط الجزيرة العربية أثناء حكم الشريف مسعود كان الناس في مكة يعتبرون الوهابيين الأصوليين متعصبون وخارجين

عن الدين. وقد سألوا أن يسمح لهم بالحج وقد رفض طلبهم هذا وعندما بعثوا بحوالي ثلاثين رجلاً من رجالهم المهمين لمناقشة وشرح مفهومهم للدين أعيدوا مرة أخرى إلى مناطقهم.

وقد أعلن قاضي مكة مراراً وعلى الملأ أن هؤلاء ليسوا مؤمنين وعندما أصبح مسعد في السلطة أعادوا طلبهم بخصوص الرغبة بالحج وقد رفض مسعد أيضاً طلبهم وعندما أصبح أحمد حاكماً عادوا وطلبوا الإذن لهم بالحج ولكن هذا الطلب رفض أيضاً وطلبوا أن يرسلوا مندوبين يعلمون بالدين من طرفهم لشرح ومناقشة الموضوع ولكن الأمر قد رفض وعندماتسلم سرور زمام الحكم في مكة سألوا مرة أخرى أن يؤدوا فريضة الحج ووصلهم الرد أن باستطاعتهم أداء فرييضة الحج بشرط أن يدفعوا ما دفعه الإيرانيون وأن يرسلوا مائة فرس سنوياً ولكن الشروط رفضت أيضاً من الطرف الآخر وعندما استلم غالب تكرر السؤال أيضاً ولكن غالب لم يرفض فقط وبشدة بل هددهم بأن يغزوهم وقد بدأ فعلاً محاولاته سنة ١٧٩٠.

وظل يهاجمهم خلال الخمسة عشر عاماً القادمة من حكمه وكانت هناك معارك لا تحصى بينهم وأول حملة استمرت ستة أشهر كانت بقيادة عبد العزيز بن مسعد أخو غالب الذي وصل إلى عنيزة في نواحي القصيم في وسط الجزيرة العربية والحملة الثانية كانت بإمرة غالب شخصياً وكانت ناجحة كالتي سبقتها وكان من أهم ما يميزه دفاعه عما احتل من مناطق مثل الشعرى في القصيم ولقدرته على استعمال بنادق الميدان. وكان زحف إلى تربة رانية وبيشة بقيادة عبد العزيز ليعيد الأمن إلى المناطق التي فيها تأثير متقدم للوهابية كانت ناجحة أيضاً.

وكان الحجاج العابرين للجزيرة العربية يشكون من ثقل الضرائب التي فرضها الوهابيون عليهم وبعدها توقفت قوافلهم عن الحج نهائياً. وقد بعث الشريف بالرسائل إلى اسطنبول سنة ١٧٩٣ و١٧٩٨ سائلاً عن دعم للعتاد والذخيرة من أجل مواجهة ما أسماه التهديد الوهابي. ولكن الباب العالي بقي صامتاً ولم يحرك ساكناً.

وكان عدد الوهابيين في المعركة كبيراً وعظيماً بشكل مخيف وملفت للأنظار.

وفي سنة ١٧٩٧ بعث الشريف «لويح» من نجد إلى الشريف غالب بأن الوهابيين قد أتوا إلينا بشكل الجراد أو مثل جداول السيول بعد المطر، وقد شك الحاكم في البداية ولكن بعد يومين رأى بنفسه حيث كانت الإصابات هائلة وكثيرة بين الطرفين وقدرت بحوالي الألفين وقتل في هذه المعركة أكثر من أربعين شريفاً وأجبر غالب على التراجع إلى مكة. وقد أرسلت حملة عسكرية من بغداد عن طريق الأحساء ضد الدرعية عاصمة الوهابيين مدعومة من قبل قبائل شمر، وضفير والمنتفق ولكنها عادت بعد حصار قصير.

وكان لدى الباب العالي كثير من المشاكل وأكثر أهمية من المشكلة الوهابية ضد مكة فقد وصل فرمان إلى مكة من الباب العالي في أواخر سنة ١٧٩٨ طالباً دعم الأرض المقدسة في الحجاز لاحتمال وصول غزو متوقع من قبل الفرنسيين.

لذا فقد أعيد ترميم أسوار جدة على عجل وكتبوا للقائد الإنكليزي في عدن يناشدوه إرسال قوة على وجه السرعة. جاء بسرعة الحصان، ليمنع دخول الفرنسيين إلى الحجاز واليمن. القائد الضابط برتبة مقدم «موراي» عندما بعث برسالة إلى قيادة البحرية البريطانية في عدن في البحر الأحمر مضيفاً أن شريف مكة قد منح الفرق إلى الأميرال بلانكست وأن الفرنسيين قد تبين أنهم يقبضون على المدنيين من على ظهر مراكبهم في البحر في منطقة السويس. والآن أصبحت القوات البريطانية معنية بالأمر بجمع المؤونة ونقل المواشي إلى ساحل البحر الأحمر.

أحد الوكلاء المحليين واسمه ميرزا محمدي خان أرسل إلى جدة من الخليج العربي بواسطة حكومة بومباي في أيار ١٨٠١ والجنرال بيرد وسير هوم بوبهان والذي توظف خصيصاً بواسطة مكتب الجمعية السرية للهند لزيارة شريف مكة والأمراء العرب. وقد زاروا الشريف الذي أتى لاستقبالهم في جدة

وكان هوم بوبهان قد أرسل رسالة إلى الشريف وهو ما زال في عرض البحر تقول:

«الموقع أدناه هوم بوبهام» فارس من أعلى السلطات وقائد عملية سان جون بيت المقدس وكابتن سفينة صاحب الجلالة المسماة «رومني». لي الشرف أن أتقدم بإخبار سمو الشريف في مكة عن موعد الوصول إلى جدة اليوم مدعوماً بقوات من المبجلة الشركة الهندية للشرق في انكلترا معطياً إياه بهذا الخصوص وبتوجيه من سيادة المبجل هنري دونداس أحد المساعدين لصاحب السعادة وزير الخارجية لتجديد العلاقات والدخول في علاقات صداقة جديدة وتحالف مع سموكم وهو ما يمثل خطوة قيمة من وجهة نظر العلاقات التجارية والسياسية. وإن سموكم الشريف يجب أن يكون مقتنعاً بأن الهدف البريطاني لسعادته وقوته ولأصدقائه المقربين وكل المؤيدين لهم هدفهم الأساس هو طرد الفرنسيين من مصر ولهذا فإنه سيكون من المرضي لملك بريطانيا العظمى والباب العالي العثماني ولاكتشاف طريقة مشجعة وتعاون حقيقي من جانب سموكم الشريف لدحر عصابة من السارقين والقاتلين والذين حركوا حرباً ضد الدين وتعلموا كيف يسقطون كل القوانين المدنية وكل حكومة ضعيفة لدرجة عدم قدرة هذه الحكومات أن تمالىء طموحات عملائها السريين سوف تكون من واجبات سيادة المبجل ممثلاً لصاحب الجلالة والذي قدم أكبر التعاون المفيد للجيش البريطاني وسيكون بطريقة ما وسيلة للدخول مباشرة في إتفاقات تجارية مربحة جداً في أهدافهاوفي كل عملياتها مع الهند وكذلك من أهدافه أن السير هوم بوبهام له صلاحيات للتعامل حيثما سمح له سموكم الشريف بشرف التدخل.

رسالة مقدمة على ظهر سفينة جلالة الملك السفينة «رومني» عند ميناء جدة بتاريخ اليوم ٢١ أيار ١٨٠١.

هوم بوبهام

وكان الشريف قد اكتسب عندهم قبل وصولهم ورسوهم على بر جدة «أن هناك شيء ما ملتبس في تصرفات الشريف» [حسب سجلات مكتب الهند

متفرقات ص٥٥، نقلاً عن رسالة من أحد العملاء السياسيين وقد تبين أنه كان عميلاً متحاملاً على الشريف والذي اقترح على السلطات البريطانية أن تستبدل غالب بالشريف عبد الله بن سرور ثم أقيل هذا العميل من منصبه وفي الوقت المناسب. وذلك لأن علاقته كانت تزداد سوءاً بالشريف غالب، أقيل عام ١٨٠١ شهر آب].

وقد رحب بهم الشريف غالب وحياهم بإطلاق النار من البنادق واستقبلوا بهدايا من فرو السمور وجلد الفقمة شالات وأسلحة. ولكن الشريف كان يبحث عن ملجأ يبعده عن ولائه للسلطان العثماني والذي اقترح معه بأن تتواصل حكومتيهما باستمرار.

وكان هناك هدنة حقيقية مع الوهابيين تم الإتفاق عليها سنة ١٧٩٩ والتي تم تتويجها بمرور قوافل الحجاج عبر نجد تحت حراسة ابن سعود الشخصية في جزء كبير من نجد وفي سنة ١٨٠٠ حج سعود مع عدد كبير من رجاله [سعود بن عبد العزيز محمد بن سعود ابن القائد الوهابي].

وفي سنة ١٨٠١ اخترقت الهدنة بشكل سافر بواسطة الوهابيين باحتلالهم حائل على ساحل البحر الأحمر نهبوا كربلاء في العراق وغارات على الحجاج الإيرانيين وأكثر من ذلك فإنه بالرغم من اتفاق ابن سعود مع الشريف فكان يرسل وكيله في كل مكان في المناطق التابعة لسلطة الشريف [من كتاب جي.ال بوركارت: انطباعات عن البدو والوهابيين ص٣٢٦].

وبعد أن بدأ الضعف يعصف بالسلطة العثمانية في الحجاز كان البريطانيون يزدادون تمسكاً بقوة مصالحهم في الهند، وكانوا يجتهدون في تقوية علاقاتهم مع الشريف ومع إمام صنعاء في وقت واحد.

وكان ويلينغتون ثم ماركيز ويليسلي ثم الحاكم والقائد العام فوق الأملاك البريطانية في الشرق الخ... كتب تعليماته المتجددة في اكتوبر تشرين الأول ١٨٠١ إلى هوم بوبهام الذي أصبح لديه اثني عشر مرافقاً شخصياً ومجموعة من الهنود المجندين كحماية له.

«من أعلى وأشمل المعلومات لدي فإنني بدأت أميل إلى الإعتقاد بأن هذه القوى وخصوصاً شريف مكة وإمام صنعاء هما مستقلين تقريباً عن الباب العالي».

ولكن حذر بوبهام في رده عليه:

«إن القوة الحالية للشريف تجعلها أكثر خصوصية فمن الضروري جداً إتخاذ جانب الحيطة والحذر نظراً لخصوصيتها بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد».

وعندما وصل بوبهام فإن الشريف مكث حيث كان في الطائف وقد أجاب على الطلب بوجوب رؤيته مرة أخرى بقوله إنه إذا أراد شيئاً يمكنه أن يرسل ما يريد بواسطة رسالة وفي نفس تقريره إلى الهند من جدة بتاريخ ٣٠ حزيران ١٨٠٢ يقول فيها بوبهام باختصار: إن الباشا التركي الموجود في مكة قد مات بالسم ربما بإيعاز من الشريف ولكن بوبهام كان قد أزعج ويلنغتون بنقاشاته غير الرسمية في مصر وذلك فيما يخص مصر أو فيما يخص الحجاز. ونائب السلطان في مكة مثل الشريف تماماً قد أحال الأمر إلى اسطنبول حيث هناك سفير بريطاني مقيم دائماً هناك وكانت مهمته بهذا الخصوص قد انتهت بالفشل.

وقد نجح غالب في إعادة الإستيلاء على حائل من أيدي الوهابيين والحامية العسكرية أعيد بناءها سنة ١٨٠٢ وقد أرسل صهره عثمان المضايفي مع مجموعة من الأشراف إلى الوهابيين لتجديد الهدنة والتي كان الوهابيون قد نقضوها وقد رأى سعود عثمان لوحده ـ أي قابله منفرداً ـ والذي وافق بدهاء على مساعدته بأن وعده أن يجعله أميراً على الطائف ومكة. أما ممثلي الأشراف فلم يروا سعود حتى آخر يوم من إقامتهم لم يعلموا شيئاً عن هذا الإتفاق مع أنهم قد لاحظوا تغير عثمان بشكل غريب وتغير في طبعه أيضاً وقبل يوم من وصول الطائف طلب منهم أن يسبقوه وبقي مع القبائل في تلك المنطقة حيث عاش بينهم يحرضهم على مهاجمة الطائف وقد أحبط هجومه الأول حاكم الطائف أخو الشريف غالب الشريف عبد المعين.

وعاد عثمان إلى حصنه ليحشد رجالاً آخرين وقد أقبل الشريف بنفسه من مكة بقوة دعم كبيرة وسوياً هو وعبد المعين شنا حملة على حصن عثمان المسمى «الأبقلا» ولكن الدعم لعثمان من بيشه والجنوب هدد بهجمات على مكة نفسها مما اضطر الشريف إلى العودة إلى العاصمة (مكة) ويقلل من الجنود المدافعين عن الطائف وعندما سمع الناس بمغادرته فإنهم تخلوا عن الحصون الخارجية فكان من السهل على عثمان أن يستولي على الأماكن التي أخلوها، فقتل الرجال والنساء والأطفال حتى أولئك الذين التجأوا إلى المسجد في يوم جمعة. وكان الإستيلاء على القنفدة على ساحل البحر الأحمر بواسطة عثمان قد حدث بسرعة ولم يبق فيها سوى مئتين من الناس على قيد الحياة وقد نهبت المدينة بأكملها وبعد سماعه لهذه الأنباء بعد الإنتصارات تشجع سعود ونزل إلى الميدان بنفسه متجهاً صوب مكة في حرب مواجهة مع الشريف والأتراك معاً.

أما في مكة فكانت الأصوات تتعالى منادية على الجهاد ضد الوهابية في الميادين وأنه على المتطوعين القادرين أن يحضروا للإشتراك في الحال في جيش الشريف وأنه كان في سنة ١٨٠٢ وكانت أول محاولة جادة للغزو والإحتلال للمنطقة من خارج الحجاز منذ عام الفيل حيث غزا أبرهة الحبشي مكة في السنة التي ولد فيها الرسول (ص).

وفي آخر حج قبل الغزو حاول غالب إقناع أمراء قوافل الحجاج أن يعيروه دعمهم الفعال ولكنهم كانوا قلقين وينتظرون اللحظة التي تنتهي فيها مناسك الحج كي يعودوا بسلام إلى ديارهم.

كان مركز القيادة لسعود وعثمان ثابتاً عند الحسنية حيث معظم سكان مكة الأغنياء يملكون بيوتاً صيفية على مسافة ساعة ونصف عدواً على ظهر حصان إلى الجنوب من المدينة وكانت قواتهم الخفيفة تزعج الضواحي الغربية محتلة منطقة المعابدة دخلت واحتلت قصر الشريف الصيفي هناك ومنها بدأوا بالإغارة على المدينة نفسها. وقد حافظ الشريف على مقاومة شجاعة الشريف حيث حفر الخنادق حتى يبعد الأعداء ويبعد غاراتهم ولكن الوهابيون قطعوا ماء

الشرب القادم من عرفات وبقليل من المواطنين كي يوفروا الحصص من بئر الماء العذب.

وبعد مرور شهرين على الحصار بدأ الباس بالمعاناة من نقص التموين والماء العذب وقد كان بعضهم يغامر أثناء الليل ويحضر ما أمكنهم إحضاره فبعضهم حصل على الحبوب مقابل العشب الذي كانوا قد جلبوه لإطعام خيول الشريف في مركز القيادة، وبعدها بدأوا يقللون من الأكل بأكلهم القطط والكلاب وتموين جنود غالب بدأ يقل فلم يكن لديه من بديل سوى ترك مكة فأشعل كل ما لم يستطع حمله معه من أملاكه في قصوره وهرب مع عائلته وجنوده إلى جدة.

وفي أيار ١٨٠٣ دخل الوهابيون إلى مكة واندهشوا كيف أن المواطنين ما زالوا في حالة جيدة وأمر سعود بأن تفتح المتاجر وتجري الحياة كما يجب وجمع العلماء وأخبرهم أنه قد رأى النبي محمد (ص) في منامه وقد حذره بأنه لن يعيش أبداً إذا أخذ القمح من الناس بالقوة. ومن ناحية أخرى فقد توعد بعقاب شديد للمتراخين. وقد كان أهل مكة مضطرين لاتباع شعائر الإسلام على الطريقة الوهابية، لا تدخين في العلن تخلوا عن لباس الحرير وأصبحوا يؤدون الصلاة في أوقاتها. وقد جمعت كميات كبيرة من الغليون الفارسي وأحرقت أمام مقر سعود ومنع بيع التبغ.

هذا وقد منع ذكر اسم السلطان في الخطبة وقد حاصر سعود مدينة جدة وأحاط بها من جميع الجهات حيث كان غالب محاصراً في الداخل وظلت المدينة لمدة أحد عشر يوماً تحت الحصار وحيث أن جنوده قاتلوا ببسالة. وبما أن المدينة لها سور منيع والإتصال مع الخارج للتموين جائز فقد يئس واضطر لرفع حصاره عن المدينة وعاد منها إلى نجد.

وحالما ترك في تموز سنة ١٨٠٣ دخل الشريف مرة أخرى إلى مكة حيث استسلمت الحامية الوهابية الصغيرة.

وكان أخو الشريف غالب الشريف عبد المعين والذي كان حاكماً لمكة

أيام مسعود خضع لغالب في الحال، «طريقة العيش». كانت إيرادات جمرك جدة لكل وهابي حقيقي والذي كان يلوح بها الشريف الذي عادت إليه سلطة مكة وكل مدن الحجاز وقد هاجم سعود بعض القبائل في الحجاز مثل قبيلة حرب على الأخص والذين قاوموا بشراسة بما خيب أمل الوهابيين وأثبط عزيمتهم والذين عاملوهم بغلظة وشراسة أكثر مما عاملوا أي قبيلة أخرى «وبني صبح» وهم فرع من قبيلة حرب تجنبوا الإستسلام حيث صعدوا إلى قمم الجبال، أما القبائل الأخرى وأهل المدينة فقد استسلموا في ربيع سنة ١٨٠٤.

وقد جرد الوهابيون قبر الرسول كل ما امتلكه من ثروة وكذلك فعلوا في مكة وقد عودوا الناس أن يجيبوا عن اسمهم عندما ينادون به عند حضورهم إلى المسجد للصلاة خمس مرات في اليوم. أما الغائبون عن الحضور فإنهم يضربون ضرباً مبرحاً على الملأ.

أما زعيم الوهابيين فلم يعش حتى يرى سقوط المدينة فقد اغتاله فارسي كان الوهابيون قد قتلوا أقاربه.

وبعد سنة ١٨٠٣ لم تعد القوافل المنتظمة تأتي إلى الحج أما المحمل الذي كان يأتي من مصر فقد وصل تلك السنة بصحبة أربعمائة جندي فقط بقيادة شريف باشا والذي كان قد عين والياً على جدة من قبل الباب العالي.

وخارج مكة فيما عدا قريباً من الجنود فقد كان الأمن معدوماً وعند نهاية سنة ١٨٠٤ ظهر العسيريون من بين الجبال بقيادة رئيسهم أبو نقطة حيث مشطوا الساحل بسهولة من لحيا إلى الحديدة وصعوداً حتى القنفذة نهبوا تلك المدن ولكن قوة شريف مكة كانت ما تزال صامدة من خلال اسمه وإجلالاً لنسبه ولتأثيره الشخصي على القبائل البدوية.

وكانت الحامية في جدة قوية وكبيرة العدد وذات معنويات مرتفعة ولم يقدر الوهابيون على دخولها والأكبر من ذلك أن كرم غالب كان يضرب به المثل وكان سعود دائماً يقول بأن وصول الهدايا إليه من الشريف غالب كان يجعله يحمر خجلاً ولهذا فإن قوة غالب في مكة وازت قوة سعود فيها.

وخلال سنة ١٨٠٥ عمل عثمان المضايفي عدة محاولات للإستيلاء على جدة بالمباغتة وبدون الرجوع إلى سعود في هذا الأمر. ولكن المواطنين بما فيهم الأجانب الذين صادف تواجدهم هناك حملوا أسلحتهم وأحبطوا خططه.

ومع أن الحجاز كان هادئاً إلا من محاولات عثمان المضايفي للإغارة فقد فقدت إيرادها الثابت من العائدات ألا وهو موسم الحج بسبب خوفهم من الوهابيين (كتاب علي بك ـ رحلة إلى أفريقيا وآسيا من سنة ١٨٠٣ إلى ١٨٠٧) والذي رأى الوهابيين يدخلون مكة بقصد الحج تلك السنة ووصفهم كما يلي:

«حشد من الرجال عراة إلا من لباس أسفل الجسم وآخرين يضيفون قطعة إضافية فوق الكتف والباقون كانوا عراة تماماً ولكنهم كانوا مسلحين بالبنادق أو خنجر وعند مرأى هذا السيل من العراة المسلمين يحملون الرماح ينادون على الصلاة كيفما اتفق كل حسب طريقته.

وكان الأطفال هم الأدلاء الوحيدون المعتادون قد أتوا لإرشادهم ولم يكن هناك مكي واحد راشد في المكان وكانوا يمرون في المكان ويقبلون الحجر الأسود وكأنهم خلية نحل».

وقال إنه كان بينهم رجال ذوي وجوه حسنة ويمكن مقارنتها مع أبولو وأنطونيوس والمصارعين الرومان الآخرين.

وكان الشريف يراقب من خلال قلعته فوق التلة محافظاً على وجود الأتراك والسود من جنوده في منطقته بينما المد الكاسح من رجال الصحراء قد اجتاح المدينة من أولها لآخرها وانتهى حجهم بدون أية مشاكل بينهم.

وهذه السنة وصل النداء تلو النداء إلى السلطان العثماني ولكن دون جدوى لأن الحرب في أوروبا قد وصلت إلى حدود تركيا وكان جنود الإنكشارية نصف متمردين و«نظامه» أو جيشه الجديد ليس لديه تجربة وبإحباط فقد رجع بالرأي إلى وزيره باشا مصر الطموح محمد علي وهو مواطن من كفالا في تراسي والذي كان يخافه أكثر مما كان يحبه.

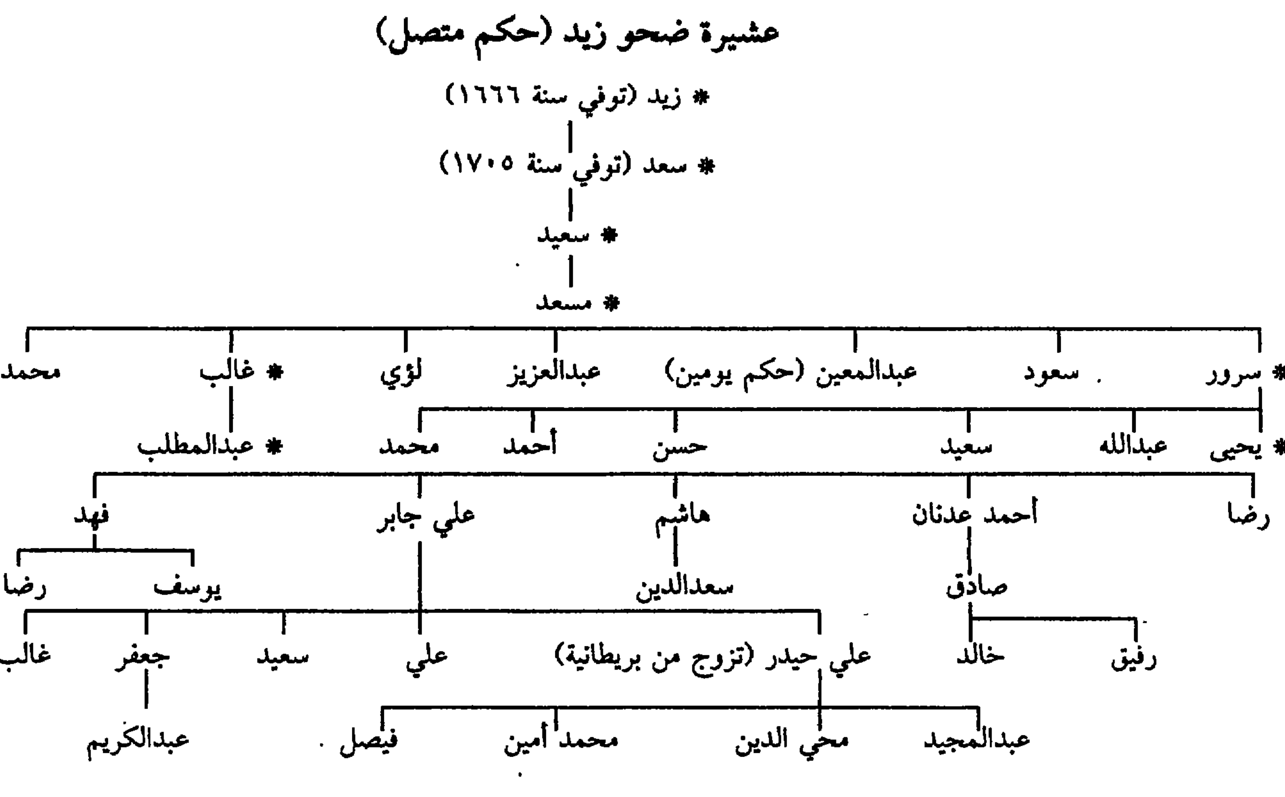
ولكي تكون محرراً للأرض المقدسة يجب اتباع كتاب محمد علي وبحثه

عن الشهرة وأقل خطأ في طموحه نحو العظمة والكبر سوف يعاد إصلاحه لاحقاً.

طلب منه أن يجتاح الحجاز سنة ١٨٠٤ واعداً إياه بإعطائه الباشوية على الشام أيضاً لأحد أبنائه وحالما فعل ذلك ولكن نائب السلطان كان قد خاض حرباً مع المماليك شغلته.

وسنة ١٨١٠ وصلت إليه الأوامر مرة أخرى ولكن هذه المرة وصلت بالتنفيذ فوراً.

عشيرة ضحو زيد (حكم متصل)



* الذين حكموا مكة.

الفصل الثاني عشر

غالب والوهابيون وحكام مصر الأتراك ١٨١٠ - ١٨١٣

غالب والوهابيون وحكام مصر الأتراك ١٨١٠ـ١٨١٣

عندما علم الشريف غالب أن محمد علي باشا كان يستعد لغزو الحجاز وأنه كان يحشد قوة ضخمة أكثر من أي باشا آخر فكر بالقدوم إلى الحجاز، فوجد أنه من الحكمة بمكان أن يبدأ الإتصالات السرية معه ليؤكد له أنه بالرغم من الظروف الصعبة التي تمر بها الحجاز والتي اضطرته لغض النظر عن تسلط الوهابية فإنه بات مستعداً أكثر من ذي قبل للإنقلاب عليها عند بروز أول قوة ضخمة تركية على سواحل الحجاز. وخلال هذه المراسلات أعطى الشريف غالب الباشا معلومات عن الوهابيين ومراكز تجمع البدو في منطقة الحجاز وأفضل طريقة يقترحها للهجوم.

كان محمد علي يعتبر نفسه المؤتمن على السلوك السياسي للحرب وتوقيتها وأن الترتيبات يجب أن تتم مع البدو المقيمين قرب ساحل البحر الأحمر.

وكان محمد علي شخصية حذرة كثيرة الشك وكان من الصعب عليه أن يضع ثقته في الشريف غالب أو أن يأمن جانبه، مع أن مواهب غالب السياسية كانت معروفة من الجميع ولكنه كان من الضروري تهدئة الخواطر والمدارك بأن الشريف غالب سيحتفي بالغزاة الغرباء حقاً.. وكان أكثر ما يقلق الشريف غالب هو صلاحياته في الحجاز وإيرادات جمارك ميناء جدة وهو المصدر الرئيسي لموارده فكانت هذه أمور مصيرية بالنسبة للشريف.

بينما كان الجنود المصريين المنخرطين في هذه الحملة معنوياتهم مرتفعة بسبب المعلومات التي وصلتهم وانتشرت بينهم بسرية وعفوية بأن الشريف غالب مع قواته سوف يشاركهم عند وصولهم إلى الحجاز.

ولم تكن مصر هادئة أثناءها بحيث تسمح بتغيب محمد علي بنفسه لأن المماليك كانوا ما زالوا يغيرون من وقت لآخر في المناطق الجنوبية لمصر العليا. وقد شكلوا عصابة تهاجم قوات الباشا. لهذا فقد عين ابنه طوسون بك وهو الابن الثاني لمحمد علي كقائد لهذه الحملة الأولى ضد الوهابيين والتي كانت جاهزة للإنطلاق في نهاية سنة ١٨١١ وبالرغم من أن طوسون بك كان لا يزال في السابعة عشر من العمر، عندما أثبت شجاعة غير عادية في حربه مع المماليك. وكان أصدقاءه يؤمنون بأنه سيكون قادراً على القيادة.

أما أحمد آغا رئيس المالية أو (الخزندار) الخاص بمحمد علي قد أُرسل مع طوسون فكان لا يقل شجاعة عنه ولكنه مستشار عاقل ورصين. وكان رصيد أحمد آغا من الإنتصارات في الحروب ضد المماليك وعرب السودان قد رفعت قدره في أعين سيده الباشا. ولعدم الإكتراث المطلق للحياة الإنسانية ولتفاخره الذي اكتسبه في مصر حمل لقب «بونابرت». وهو الإسم الذي كان يعتز بحمله.

يقول بوركاردت أنه كان جندياً شجاعاً ولكنه كان يداوم على الشرب «كان سكيراً شقياً وسافلاً» وإلى هذين القائدين انضم المحروقي «التاجر المرموق سيد محمد المحروقي تاجر القاهرة المعروف والذي زار مكة عدة مرات وكان معنياً بالتجارة عبر البحر الأحمر وكان تاجراً غنياً وداهية. وكان دوره كعميل دبلوماسي مع الشريف والبدو. وكان في الحملة أيضاً اثنين من علماء القاهرة الشيخ المهدي والشيخ الطهطاوي ومع هؤلاء جميعاً أبحرت القوات بمبادىء مختلفة وكما كان يقال في القاهرة: «إنهم يجب أن يقنعوا الوهابيين أولاً بالأخطاء الفادحة التي ارتكبوها في حياتهم».

وكانت الحملة مؤلفة من جزئين أولاً: المشاة، وتتكون بشكل أساسي من الجنود الأرناؤوط ويبلغ تعدادهم ألف وخمسمائة أو ألفي رجل فعال.

وكانوا بإمرة صلاح آغا وعمر آغا وأبحروا من السويس باتجاه ينبع على سفن بنيت حديثاً ومكدسة بالمؤونة. وثانياً: الفرسان وهم بقيادة طوسون بك وأحمد آغا الملقب بأحمد بونابرت ثم طاقم من ثمانمائة خيال تركي وجزء من البدو الفرسان بقيادة «شديد» وهو شيخ قبيلة الحوايطة والذين ذهبوا عن طريق البر.

ثم رسى هذا الأسطول الصغير عند ميناء ينبع في تشرين الأول (نوفمبر) ١٨١١ ونزلت القوات إلى البر على مسافة قريبة من مكان رسو السفن حيث تمركزوا في منطقة لقوا فيها مقاومة ضعيفة استمرت أقل من يومين وبعدها بأربع وعشرين ساعة وصلت قوافل الفرسان عن طريق البر والذين لم يلتقوا بأي مقاومة تذكر من القبائل وخصوصاً أنهم كانوا يتراضون معهم بإعطائهم كميات كبيرة من المال.

وبالإستيلاء على ينبع اعتبر ذلك انتصاراً على الوهابية وفأل خير بالإنتصار ونجاح العملية مستقبلاً. هذا وقد بقيت القوات ساكنة وغير فعالة هناك واستمر ذلك عدة شهور، فكان المشاة عند ميناء ينبع والفرسان عند البدو في ينبع النخل معقل قبيلة جهينة وتبعد عن ينبع البحر مسير ست ساعات وكان هذا الوقت قد ضاع في نقاشات طويلة. ولأن طوسون بك اكتشف أن الحجاز لم تكن بأي شكل من الأشكال مثلما كان يتوقع سابقاً كما وصفها له الشريف غالب. والبدو خصوصاً أولئك الذين ينتمون إلى قبيلتي «جهينة وحرب» الكبيرتين ومهما كان شعورهم تجاه الوهابيين ورغبتهم بالإستفادة من المنافع المادية العائدة من الحجاج المارين فإنهم خافوا تماماً بسبب قوة سعود وشراسته وهو القائد الوهابي فلن يكون بإمكانهم التحرك إلا إذا أتى الأتراك ومعهم قدرات كبيرة لأن أخذ ينبع فقط يعتبر غير ذات أهمية في حرب تجري وسط الجزيرة العربية.

وعندما وصلت الحملة التركية إلى ينبع لم تكن هناك حامية وهابية وكان الشريف غالب لديه هناك حاكم ينوب عنه ومعه حوالى مائة جندي والذين أبدوا بعض المقاومة ضد الأتراك إلى أن اضطر المواطنون أنفسهم للإشتراك بالمعركة وأجبروهم على التراجع خوفاً من أن تدمر المدينة إذا ما دخل الجنود إلى داخل المدينة.

وبقي الشريف متفرجاً ومتردداً في بداية المعركة وكتب إلى طوسون بك معتذراً عن عدم المشاركة في استقبالهم ومشاركتهم في الحرب لأن قواته كانت صغيرة الحجم وأنه يخشى من الوهابيين. ولكنه مرة بعد أخرى صرح بوقار أنه سيلقي القناع جانباً وأنه سوف يهاجمهم إذا ما تقدم القائد التركي وحقق أي انتصار.

وبعدها بقليل بدأ بتقوية الحامية العسكرية في جدة ومكة وعندما طلب منه سعود أن يشاركه في دحر الغازي اعتذر لأنه يخاف من هجوم بحري مفاجىء على جدة ثم مكة. وهكذا كان طموح الشريف واضحاً ألا وهو التريث واختيار الهجوم على الفرقة الضعيفة عند أول بادرة أو إذا لم يحدث ذلك أن ينتظر حتى يضعف كلا الفريقين مع الوقت إذا ما طال أمد المعركة ثم يقوم بدوره بالإجهاز عليهما ويبعدهما عن منطقته.

وكان الجزء الحجازي الذي استطاع أن يقتطعه طوسون بك من الوهابيين هو بعض مناطق عشائر جهينة قرب ينبع بينما معظم مناطق قبيلة جهينة وكل مناطق قبيلة حرب والمناطق المجاورة فلم تكن ذات أهمية بالنسبة لدبلوماسيته.

وقد أصبح من المهم أن تبدأ الحملة العسكرية فعلياً مخافة أن يعتقد الناس في الحجاز وكذلك الأعداء. إن عدم القدرة على الحرب نتيجة الخوف وهذه النقاشات هي دليل ضعف هذه القوات.

وكان الأمر جلياً أنه إذا ما بدأ التحرك باتجاه جدة ومكة فسيجد الشريف نفسه مضطراً لأن يصرح في الحال عن وقوفه إلى جانب أحد الأفرقاء وهو القرار الذي أرهب طوسون بك أكثر مما أرهب الوهابيين وقد اعتبر الإستيلاء على المدينة المنورة على بعد ستة أيام من ينبع وحيث كانت المدينة المنورة هي المدينة الأكثر تحصناً ومنعة من أي مدينة أخرى في الحجاز فهي المتراس الحقيقي للمنطقة ضد نجد. والإستيلاء على المدينة المنورة يفتح ويقفل طريق قوافل الحجاج الشامية وعندما علم الشريف غالب بهذا التخطيط وعد بالتصريح «شكلياً» ضد سعود، إذا ما اتضح له أن الحملة ناجحة فعلاً.

وعندما ترك طوسون بك الحامية العسكرية في ينبع باتجاه المدينة في

كانون الثاني ١٨١٢ بعد حدوث مناوشات خفيفة دخل بدر وهي على بعد يومين من ينبع والتي كانت تحتلها قبيلة حرب على مدخل المنطقة الجبلية والذي من المفروض المرور بها قبل الوصول إلى الطريق المؤدية إلى لمدينة لهذا فإن بعض المقاومة كانت متوقعة من قبل قبيلة حرب والتي تسيطر على مداخل تلك الممرات الجبلية ولكن لم يعرف أحد إذا كان هناك قوات وهابية في تلك المنطقة ولذلك فقد ترك طوسون حامية صغيرة في بدر واستمر في الزحف باتجاه الصفرا وهي بمثابة سوق سركزي لقبيلة حرب وعلى بعد ثمان ساعات من بدر وبعد قتال حاد حدث هناك سمحت مجموعة من قبيلة حرب للحملة بالمرور بسلام. وبعد مسيرة أربع ساعات من الصفرا فإن الطريق يؤدي إلى مسيل ضمن منحدر شديد بطول أربعين أو ستين ياردة بين منحدرات قوية وقمم وعرة للجبال والتي توجد عند مدخلها قرية «جُديدة» بين بساتين من أشجار النخيل حيث المقر الأساسي لقبيلة بني حرب وعند هذه النقطة كانت قوافل الحجاج من الشام يُجبرون على دفع مبالغ معتبرة من أجل أن يسمح لهم بالمرور بسلام بأرواحهم وأموالهم وما يملكون.

في هذا الشعب حيث القوافل تحتاج عادة ساعة من الوقت لعبوره ولكن الجيش التركي توقف هناك لأن قبيلة حرب قد أغارت عليهم فجأة ولكن وبعد حين من القتال الشديد اعتقد الأتراك أنهم قد حققوا الإنتصار عليهم. هكذا لحقوا بهم وتوغلوا في عمق المسيل حيث وصلوا إلى منطقة كانت الجبال العالية عن اليمين والشمال مليئة وبكثافة بفرق من الوهابيين والذين وصلوا قبل يوم واحد من نجد ولم يكن لدى الأتراك أدنى علم عن هذا الأمر.

كان الوهابيون بقيادة عبد الله وفيصل أولاد سعود يقودان فريق مشاة من عشرة آلاف جندي وراكبي جمال ومن ستة إلى ثمانماية فارس. وبعد الإنسحاب إلى قرية جديدة وتحصين أنفسهم هناك فإن الأتراك سيوقفون الهجوم وسيحصلون على معاهدة استسلام مشرفة.

وحيث أن عدد أفراد العدو جعلت من المستحيل عليهم أن يبقوا في نفس النقطة ولكن عند أول صرخة إنذار فإن المشاة الأتراك انكفأوا وكان على

الفرسان تغطية انسحابهم وبعدها لحقوا بالإنسحاب أيضاً بينما عدوهم الرشيق من خلفهم يضغط عليهم ويجعلهم يفرون بمحاذاة أسفل الجبال ويصبون عليهم وابلاً من الرصاص. ولكن طوسون لم تنتقص سمعته الموصوفة بالشجاعة وكان لديه مرافقة خاصة من فارسين في البداية وقد عمل على تجميع قواته المنسحبة. فتعجل إلى المؤخرة وغطس داخل صفوف العدو حتى يتفرقوا ويكفوا عن اللحاق بهم.

ويقول بوركارت) إن الأشخاص الذين كانوا يتواجدون هناك أكدوا لي بأن الدموع كانت تفيض من عيني طوسون والذي كان يتعجب من الأتراك الفارين إذ يقول لهم «ألا أحد منكم بقربي؟» وقد بقي حوالى عشرين فارساً إلى جانبه يدافعون معه في نفس الوقت. ومن حسن حظه أن الجيش الوهابي قد سعى إلى نهب ممتلكات الجيش التركي وهذا ما أخر تقدمهم وعندما عاد الجيش التركي واحتل المساحة خلف المدخل الخاص بالشعب وتجمع فرسانه وحموا الباقين بطريقة أو بأخرى ومع كل ذلك فإن الوهابيين دفعوا الأتراك أمامهم صوب الجبال بحيث أنهم كانوا سيبيدوهم عن بكرة أبيهم ولكنهم انشغلوا بشوق بنهب ممتلكات وأمتعة الأتراك. أربعة مدافع ميدان وكل الجمال وكثير من الأحذية الموجودة بين جثث العسكر الأرناؤوط والذين اغتنوا بسبب نهبهم للمماليك في مصر. وقد قتل في هذه المعركة ألف ومئتين من قوات طوسون في ذلك اليوم واضطر بعدها للإنسحاب حتى بدر حيث أشعل المعسكر بالنار لأنه لم يكن يملك أي وسيلة لنقلهم وتركهم ولهذا فإن مالية العسكرية عادت إلى خليج برامكة غربي بدر حيث كانت مجموعة من السفن راسية هناك فأبحر مع بعض المرافقين وأكمل إلى ينبع بالبحر أما باقي جنوده فوصلوا بعد عدة أيام مع الشعور بالوهن والإحباط. ومن حسن حظهم أن الوهابيين اعتقدوا بأن هناك مجموعات كبيرة متحصنة داخل خنادق عند بدر ولهذا فإنهم لم يتعجلوا اللحاق بهم لهذا فإن كل من كان قوياً وقادراً على إتمام الرحلة وصل أخيراً إلى ينبع.

وعندما اكتشف الوهابيون أن جنود العدو قد أمنوا أنفسهم عند ينبع

أرسلوا بعض الفرق ليرقبوا المدينة عن قرب. وعندما علم الشريف بهزيمة الأتراك انضم مباشرة إلى الوهابيين شخصياً عند بدر وقد كان الإقتراح في البداية الهجوم على ينبع ولكن هذا الإقتراح أهمل وذلك لأنهم خافوا من المواطنين العرب والذين سوف يحاربون من دون أي هدف حيث أنهم قد تبنوا المنفعة التركية بحماس. وقد وجد الوهابيون أن حصار المدينة لن يكون مفيداً أبداً حيث انسحبوا إلى داخل الجزيرة العربية ولكنهم كانوا جاهزين للوصول مرة أخرى عند أول إشارة وإذا ما فكر الأتراك أن يدفعوا بجيشهم مرة أخرى إلى الأرض المكشوفة. وعند عودتهم أمر الوهابيون قبيلة حرب أن يضايقوا الأتراك بغاراتهم وأن يقطعوا عنهم التموين من المدينة.

ونظراً للموقف الخطير الذي وضع فيه طوسون وخصوصاً أن جنوده قد تخلوا عنه فيما عدا فارسين ويسجل بوركارت حكاية عن أحد هذين الفارسين الشجاعين وكان اسمه إبراهيم آغا وكان بمثابة رئيس المماليك عند طوسون وكان إبراهيم آغا صغيراً أي في حوالى العشرين من العمر وكان من «ادنبورغ باسكوتلاندا» واسمه الأصلي «توماس كيث». وكان أسر أثناء حملة على مصر مع بعض من هم في مجموعته «الفيلق ٧٢» هايلاندر حيث خدم كصانع أسلحة ثم تحول إلى الإسلام وقد بيع من قبل الجندي الذي أسره كعبد اشتراه أحمد آغا بونابرت وقد تشاجر هذا العبد من اسكوتلندا مع عبد آخر من صقلية وهو مفضل عند سيده أحمد آغا حدث إطلاق نار وسلت السيوف ووقع الصقلي صريعاً وهرب إبراهيم آغا خوفاً من سيده أحمد آغا بونابرت وأوى إلى بيت محمد علي وطلب الحماية لدى زوجة محمد علي التي أشفقت عليه وطلبت من ولدها طوسون بك أن يجنده في خدمته وكان طوسون من النوع المتقلب المزاج ولديه نزعة متسلطة أمر بأن يلقى الإسكتلندي الصغير عقابه وهو القتل من أجل سبب تافه وهو إهماله في واجباته. ولكن هذا الصغير الشجاع استطاع أن يدافع عن نفسه ثم يهرب وينجو بنفسه مرة أخرى إلى أم طوسون حيث قامت بالتوفيق بينه وبين طوسون سيده. حيث شفعت له عنده. ومع الوقت أصبح طوسون يعلم مدى قدرته وشجاعته كجندي، فعينه رئيساً للخدم وبعد

تعرفه بشجاعته في جديدة عينه في وظيفة خازن أموال. وكان هذا هو المنصب الثاني في بلاط الباشا وقد قاتل ببسالة في المدينة وعند ترابة فيما بعد وعين بعد ذلك حاكماً على المدينة في نيسان ١٨١٥ وبعدها بشهرين وفي نفس الأسبوع الذي دارت فيه معركة واترلو عندما انطلق مع مجموعة من الجنود يقدرون بمائتين وخمسين فارساً لمساعدة طوسون بك حيث كان معسكراً في منطقة القصيم في وسط الجزيرة العربية وقد قهرته قوة كبيرة من الوهابيين الذين اقتسموا مصائرهم هو ومن معه حيث قتلوهم جميعاً وخلال هذه المعركة قتل هذا الفارس الصغير أربعة وهابيين بيديه قبل أن يصلوا إليه وقد اعترف عبد الله بن سعود أن طوسون بك ومساعده المخلص مسؤول المالية كانا أشجع رجلين في العسكر التركي.

أما الخسائر التي أصابتهم فقد بدأت توهن عزيمة القوات الغازية وقد صرح صلاح آغا وعمر آغا قائدي المشاة بأنهما لم يعودا قادرين على الإستمرار في الحرب في الحجاز فقرر طوسون عند ذلك إعادتهما إلى مصر وخلال رحلتهما إلى القاهرة أخذ مرافقيهما من الجيش وهذا ما لم يرضي الباشا وعند وصولهم إلى المدينة فإنهم اكتشفوا بأن هذا التصرف العدائي من جانب محمد علي ليمارس مهارته يستميلهم ويغريهم مرة بواسطة الهدايا ومرة أخرى بواسطة التهديد لكي يغادروا مصر. وقد عمدوا إلى سرقة المناطق الغنية في مصر العليا ثم ركبوا من ميناء الإسكندرية وبحوزتهم ثروة كبيرة.

وكانت قوات طوسون قد فقدت كميات كبيرة من الخيول بسبب التعب والمعاناة من طول الرحلات البرية وحتى قبل أن يصلوا إلى ينبع وقد أنقذوا فيما بعد بواسطة بعض الفرسان البدو والذين رافقوهم وقد قتل بالإضافة إلى ذلك مئتي حصان عند جديدة. وعندما عاد الجيش إلى ينبع فإن أولئك الذين استطاعوا أن يتجمعوا لم يتعدوا المئتي شخص وبسبب نقص الطعام فقد اضطر الفرسان إلى بيع خيولهم وقد أعيد أولئك الفرسان إلى القاهرة من أجل إعادة تدريبهم هناك.

وحالما عرف الجميع بهزيمة طوسون بذلت جهود كبيرة من أجل إرسال

حملة جديدة. أرسل محمد علي كميات كبيرة من الأموال إلى ولده لتوزيعها على جيرانه من شيوخ البدو مع الأمل بأن يجعلهم ذلك في حل من تأثير الوهابيين عليهم وقد مضى كل ربيع وصيف سنة ١٨١٢ في التجهيز بينما كانت عملية تدعيم الفرق مستمرة وكذلك الذخيرة وصلت إلى ينبع. وقد نجح المحروقي التاجر الدبلوماسي أخيراً بالدفع بالعملة الذهبية بتوزيعها على أفراد كثر من قبيلة حرب بما فيها العشائر المهمة من تلك القبيلة وتسمى بني سالم وبني صبح وهم يحمون ممر الصفرا وجديدة. وحتى أن الشريف غالب عندما اقتنع بأن محمد علي قد قرر إطالة وقت المعركة فاستعاد سياسته القديمة وأبلغ طوسون بك أنه لم يشارك مع الوهابيين في بدر إلا لخوفه منهم. ومجدداً عرض أن يفتح أبواب جدة ومكة أمام القوات التركية حالما يتم الإستيلاء على المدينة المنورة.

وفي سنة ١٨١٢ اعتقد طوسون بأنه قوي بدرجة كافية ليقوم بمحاولة هجوم ثانية على المدينة وقد أصبح البدو في الطريق إلى المدينة حلفاءه وكذلك كثير من أفراد قبيلة جهينة قد أصبحوا محسوبين عليه وتحت رايته وبينما كانت الأخبار تصل بأن الوهابيين كانوا غير فاعلين في نجد وهذا عزز من أمله بالنصر ونقل مركز القيادة إلى بدر وأخذ أحمد آغا «بونابرت» زمام قيادة الجيش والذي تقدم باتجاه الممر حيث مسرح الهزيمة السابقة لهم. وقد وضعوا حامية عسكرية لهم وقوية في «جديدة» حتى وصل إلى أسوار المدينة وبدون أي مناوشات على الإطلاق والتي كان يحتلها الوهابيون منذ السنة الفائتة وكانت في حمى حصين من الجيش الوهابي ومملوءة بالمؤن والذخيرة لفترة طويلة.

وقد كان القائد الوهابي غير فعال ولكن النصر في جديدة تواصل تأثيره على كل العرب الشماليين وفي سنة ١٨١٢ جمع حشوداً من قبائل صغيرة تعيش بالقرب من بغداد وحلب ودمشق وبعد أن باع المسروقات في مكة والتي كان استولى عليها خلال معركة جديدة. ثم عاد إلى الدرعية وكان جنوده فرحين بانتصارهم وكانوا يحتقرون الأتراك لتصرفهم بالمعركة واعتبروا أن باستطاعتهم دحرهم دائماً مرات ومرات وفي أي وقت كان.

وهكذا فقد توقع سعود ربما أنه من الممكن على المدينة أن تقاوم لفترة طويلة وأن كمية التموين ستجعلهم يقاومون القوة التركية لفترة طويلة إلى أن يتراجعوا وكان يتوقع أن يتخلى أفراد قبيلة حرب عن حلفائهم الأتراك والذين بدورهم سوف يهزمون بسهولة.

وبعد مناوشات خفيفة مع الوهابيين في الحامية دخل أحمد آغا بونابرت إلى ضواحي المدينة وطرد الوهابيين إلى داخل المدينة وحين دخول الأتراك طردوا السكان وكان داخل المدينة قوي ومحصن بسور عال وقلعة حصينة وتحتاج إلى قصف وضرب شديد ولم يكن الأتراك يملكون من هذه الوسائل التدميرية شيئاً. وكان لديهم أسلحة ميدانية خفيفة وخلال الحصار الذي دام خمسة عشر يوماً عملت الحامية العسكرية بضعة تسللات. وقد حاول الأتراك عمل نفق تحت الأرض ولكن الأمر كان يبدو مكشوفاً واكتشفه الوهابيون سريعاً وأحبطوا عمله. ثم عمل نفق آخر تكلل بالنجاح وفي منتصف (نوفمبر) تشرين الثاني ١٨١٢ وبينما كان الوهابيون مشغولين في صلاة الجمعة هدم جزء من السور ودخل الجنود الأرناؤوط بسرعة إلى المدينة وتفاجأ المدافعون فوق الأسوار فحاولوا الركض باتجاه القلعة ولكن أكثر من ألف منهم قد ذبح في الشوارع بينما نهبت المدينة وقتل من الأتراك خمسين فقط أما الرجل الإسكتلندي الأصل إبراهيم آغا فقد برهن على شجاعته حيث كان أول الداخلين إلى المدينة وقد أوى ألف وخمسمائة وهابي إلى داخل القلعة هرباً. ولم يستطع الأتراك دخولها فلم يكونوا يملكون المعدات اللازمة لاقتحام قلعة وكانت تلك القلعة مبنية فوق صخور صلدة وكانت تستعصي على أي نقب أو حفر في جدارها أو أسفل منها. ولكن بعد ثلاثة أسابيع من الحصار أوشكت المؤونة لديهم على الإنتهاء استسلم الوهابيون مقابل وعود من أحمد آغا بونابرت لهم بمنحهم مخرج آمن ولائق من المدينة. وافق على أن يحملوا معهم وبدون أي مضايقات كل أغراضهم وأمتعتهم ويعطوا الجمال لكل من يريد العودة منهم إلى نجد.

وعندما بدأت الحامية بالإنسحاب وجدوا أن هناك خمسة عشر جملاً فقط

بانتظارهم بدلاً من ثلاثمائة كانوا قد وعدوا بها من قبل لذا فإنهم اضطروا لترك معظم أمتعتهم خلفهم والخروج بأخف الأحمال وبكل ما هو ضروري فقط وما أن خرجوا من المدينة حتى لحق بهم الجنود الأتراك فقتلوا ونهبوا كل ما استطاعوا أن يصلوا إليه من الوهابيين وقليل جداً منهم نجا عدا أولئك الذين ركبوا الجمال.

أما هذا التصرف المخادع للأتراك في المدينة المنورة لم يكن حكيماً أبداً وحيث أنهم كانوا يقاتلون عدواً جريئاً وصريحاً أي الوهابيون والذين كانوا معروفين بإيمانهم الصحيح وبتنفيذهم لوعودهم الشفاهية وشهد لهم حتى أكثر الناس تشكيكاً بصدق إيمانهم وصحته.

أما أحمد بونابرت فقد جمع جماجم كل الوهابيين الذين قتلوا في المدينة المنورة وبنى فيهم نوعاً من البرج على الطريق المؤدية إلى ينبع ووضع حارساً بالقرب من هذا البرج. وبالرغم من ذلك فإن الأعراب وحتى سكان المدينة أنفسهم نجحوا في إزالة هذا الرمز المخيف شيئاً فشيئاً.

وبعد الإستيلاء على المدينة المنورة جهزت حملة من ألف فارس وخمسمائة من المشاة. أرسلت من خلال ينبع إلى جدة ومكة وكانوا بقيادة مصطفى بك صهر محمد علي والذي كان يحب أحمد بونابرت وكان يميز نفسه بتعصبه الشديد للمتمردين المصريين.

وكان الشريف غالب قد أبدى انبهاره وإعجابه بسقوط المدينة المنورة وأرسل الرسائل إلى القائد التركي يدعوه إلى مدينتيه مكة وجدة.

قليل هم السكان الذين بقوا في جدة عند قدوم الأتراك إليها والغالبية قد تركت جدة إلى مكة حيث عثمان المضايفي كان قائداً للقوات الوهابية فلم يجد نفسه قادراً بشكل كامل وقوي لخوض معركة وانسحب باتجاه الطائف قبل ساعات من دخول الأتراك إلى مكة في كانون الثاني ١٨١٣. وقد احترمت خصوصية أهل مكة والتي احترمت من قبل من قِبل الوهابيين أيضاً.

وقد انضم غالب إلى الأتراك مع أكثر من ألف من أعوانه من العرب والعبيد من السود.

وبعد أربع وعشرين ساعة على الإستيلاء على مكة من الوهابيين أكمل الأتراك تقدمهم نحو الطائف وحصلت مناوشات هناك حول المدينة فقام عثمان المضايفي بالهرب في الحال فقام الشريف غالب والقائد التركي مصطفى بك بدخول الطائف التي بقيت بأيدي الوهابيين لمدة عشر سنوات والتي عانت منهم أكثر مما عانت أي مدينة أخرى في الحجاز.

وأصبح القائد الجديد مصطفى بك الحاكم مغتبطاً من النجاح وكثر شرب خمر الطائف واعتقد بأنه قادر على الإحلال محل الوهابيين. وترابة التي تبعد عن الطائف حوالى سبعين ميلاً لجهة الشرق وكانت إحدى أهم النقاط القوية والحصينة حيث تصل الوهابيين في نجد مع وهابيي عسير في جبال اليمن. وعند ترابة كانت تقيم قبيلة «باقوم» والتي منذ حرب الوهابيين مع الشريف غالب قد حصنوا مدينتهم بسور منيع وخندق يحيط به وأما أشجار النخيل الكثيفة حيث تحيط بالمدينة كسور أيضاً زادت من مناعتها وجمالها.

وزحف مصطفى بك باتجاه ترابة ولكنه أجبر على التقهقر والعودة إلى الطائف مع خسارته لأربعمائة أو خمسمائة قتيل وبعدها لم يعد عثمان المضايفي غير فعال. بل إنه قد شهر المنطقة وشغلها بعدد من الفرسان وحاول الهجوم على مجموعات من الفرسان الأتراك وكثيراً ما قطع طريق الإتصال بين الطائف ومكة. وخلال فترة فصل الصيف لسنة ١٨١٢ أحرج الحامية التركية في الطائف وضايقها كثيراً وقد أبدى الشريف غالب نوايا حسنة بعرض خمسة آلاف دولار كجائزة لمن يقبض على عثمان المضايفي وهو العدو الشخصي لصهره والذي كان السبب الرئيسي لسوء حظ الشريف غالب مع الوهابيين وهو هنا قد تخطى الحكم فهو لم يحسبها جيداً هذه المرة فلم يرد إلى ذهنه أن البدو حول مكة إذا ما فقدوا زعيمهم «عثمان» فإن الأتراك حينها سيجدونها فرصة مناسبة لتثبيت أقدامهم في البلاد ويحجبوا عنه كل الإمتيازات.

وفي أيلول ١٨١٢ أوقف عثمان المضايفي خلال إحدى الحملات في قلعة صغيرة والتي كان قد بناها في الجبال على بعد أربع أو خمس ساعات إلى الشرق من الطائف وقد علم الشريف بوجوده هناك مجهز فرقة قوية من الطائف

حيث حاصر المكان وأشعل فيه النار وبعدها استطاع عثمان المضايفي وثلاثون آخرون من أتباعه اختراق طريقهم بين المحاصرين بعد أن تنكروا بزي بدو فقراء بثياب رثة ولكن فرسه قد جرحت فلم يستطع أن يذهب بعيداً عن المكان فترجل عن الفرس وعدى على رجليه ونجا من لاحقيه وفي اليوم التالي وبينما كان يبحث عن مأوى في إحدى الخيم لأحد أفراد قبيلة عتيبة البدو، ألقي القبض عليه وأخذ إلى الشريف غالب فوضع في الأغلال وأرسل بعدها إلى جدة ثم إلى القاهرة وبعدها إلى اسطنبول حيث قدمه الإبن الأصغر لمحمد علي مع مفاتيح الكعبة وبعض الهدايا الأخرى على السلطان.

وكما كان متوقعاً فقد قطع رأس عثمان مباشرة بعد وصوله وهكذا فقد الوهابيون أجرأ شريك وأكثرهم فعالية في الحجاز.

وهكذا فقد طوعت الحجاز بكاملها ووصلت قافلة الحج من القاهرة إلى مكة في تشرين الثاني ١٨١٢ بنفس طريقة الإحتفال السابقة أي ما قبل الوهابية ومع أن القافلة الشامية لم يكن بإمكانها حتى ذلك الوقت المرور خلال الصحراء وذلك بسبب عدم توفر التجهيزات للقلاع والآبار الخاصة بهم والتي أصبحت تحتاج إلى ترميم وتحسين.

أحمد بونابرت عاد إلى القاهرة وعُين طوسون بك باشا لجدة وعاد إلى مكة حاجاً في شتاء سنة ١٨١٢ تاركاً ديوان أفندي رئيس مكتب بلاط محمد علي حاكماً من قبله على المدينة المنورة.

ومع أن الخمس مدن الحجازية مكة والمدينة والطائف وجدة وينبع أصبحت الآن في أيدي الأتراك، وقد بدت القوة الوهابية غير مندحرة فقبائل نجد لا تزال تعترف بسلطة سعود والأتراك في نفس الوقت وكلما واجهوا بدواً في الصحراء فهم ينهزمون أمامهم.

ولهذا فقد قرر محمد علي باشا زيارة موقع الحدث وليعطي الإشارة العاصفة والتي ستشيد له صرح امتيازاته في سيطرة ثابتة على الجزيرة العربية بحيث تخول هذه الخطوة محمد علي الإعلان عن نفسه بأنه المنتصر الوحيد

وهذا ما يليق به. وأكثر من ذلك فإن طريقة حكمه قد جعلته حكماً على رأس جيوشه في البلاد. وحيث أن مصر أصبحت منذ ١٨١١ تخضع بالكامل لسلطاته فلم يعد لديه من مبرر للتأخير في بت الأمور. ركب السفن عند السويس مصحوباً بألفين من رجال المشاة بينما كانت فرق الفرسان تنطلق بنفس عدد المشاة يصحبها أيضاً ثمانية آلاف جمل عبر البر.

كان طوسون باشا في تلك الأثناء مشغولاً بتجميع فرقه في مكة عندما وصل أباه إلى جدة في أيلول ١٨١٣ وصادف وجود الشريف غالب أيضاً هناك في تلك الأثناء. وقد أصلح سفينة الباشا وكان ما يزال على ظهرها وذلك حتى يكون امتنان الباشا له من قبل أن ينزل إلى البر.

وتلك كانت المناسبة المشهورة التي أقسموا فيها على القرآن أن لا يحاول أحدهم خيانة الآخر أو يعمل عملاً يؤذي مصلحة الآخر أو حياته. وهو قسم كانوا يقسمونه بكل خشوع ووقار أمام الناس. وقد أعيد تجديده عند الكعبة بعد عدة أسابيع ونزولاً عند رغبة الشريف غالب. وكانت أيضاً مناسبة لحل بعض الأمور العالقة مع الباشا بسبب مشاكل مع حاكمية جدة التركية والتي ومنذ تاريخ إنشاء هذه الحاكمية في القرن السادس عشر اعتادوا على اقتسام إيرادات جمرك ميناء جدة بين باشا الأتراك في جدة وحاكم مكة، وإن الشريف غالب يرغب بتجيير هذه الإيرادات كلها لمصلحته. فوعده الباشا أن لا يشاركه فيها مطلقاً وهكذا وللمرة الثانية وبعيداً عن القهر والإحتلال بواسطة الغازي فإن الشريف غالب استغل وبمهارة فائقة هذه المناسبة ليضمن امتيازات أكبر وحتى قدر أكبر من الحرية.

وبوصول محمد علي إلى مكة وزع الهدايا على العلماء والصدقات على الفقراء وبدأ الإصلاحات في الكعبة وقد رصد مبالغ ضخمة من أجل خدمة الحرم وكذلك من أجل تزيينه وتحسينه. ولكن الأمر الذي كان أكثر إلحاحاً بالنسبة للباشا في تلك الأثناء هو في كيفية نقل المؤن من جدة إلى مكة والطائف وقد أصبحت جدة مستوعباً عظيماً من المؤن والذخائر للجيش وكانت كل السفن في ميناء جدة وميناء ينبع قد وظفت لنقل البضائع فقط ومع هذا فإنها

لم تكن لتكفي وكان على محمد علي أن يتفق مع إمام مسقط من أجل استئجار عشرين سفينة في السنة.

وكان يأمل في أن بارجته الحربية الصغيرة وهي السفينة الحربية الوحيدة الخاصة به والتي كانت عند الإسكندرية وكان يأمل في أن يأتي بها عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى البحر الأحمر ولكن الحكومة البريطانية لم تكن لتسمح له بذلك. ومع العلم بأن هذه السفينة وعلى الحالة السيئة التي كانت عليها قد تضيع في البحار التي ربما لم يطأها الأتراك من قبل، نظراً للخسائر التي عانى منها الأتراك بسبب المكائد البريطانية.

وقد اقترح رجل إنكليزي كان يقيم في مصر أن يحول اتجاه السفينة في المياه العليا للنيل حتى القاهرة ثم تجر بعد ذلك بالدواليب والأسطوانات عبر البر حتى السويس. وتبين أن هذا المشروع سيحول الأمر بعيداً عن غايته الأساسية.

وقد تبين أن نقل المؤن لمسافة قصيرة من جدة إلى مكة أكثر صعوبة من نقلها بين مصر وجدة. وكانت معظم الجمال المستعملة في الإرسالية من مصر وحتى الحجاز تهلك بعد وصولها إلى الحجاز ولكثرة مرور القوافل التي تنقل متتالية فإن الأعشاب قرب الطريق قد نفذت واستهلكت فأصبحت الجمال دون طعام إلا بعض الحبوب في المساء وقد كان أيضاً نصيب السائقين اختلاس بعضها وبيعها إلى البدو في الحجاز. ومن بين الثمانية آلاف جمل التي أرسلها محمد علي عن طريق البر تبقى خمسمائة جمل فقط بعد ثلاثة أشهر من وصولهم وأن هذا العدد المستعمل كان بالكاد يكفي الحاجات اليومية للجيش في مكة والطائف وقد منح الباشا بعض الأموال للبدو لكي يعيروه جمالهم ليستعملها في خدماته.

وعند وصوله إلى مكة وجد أن الأمر طارىء فضغط على الشريف ليستعمل كل نفوذه للتأثير على الأعراب المجاورين ليوفروا له الكمية المطلوبة من الجمال وقد أعطى لهذه الغاية كمية كبيرة من المال سلفاً لتوزع بين شيوخ القبائل ولكن زعيم من البدو لا يملك سلطة استبدادية على قبيلته فيغتصب

جمالهم وهذا يعتبر عملاً دنيئاً. ومع أن مبالغ أخرى طلبت من الباشا لتسليم الجمال ولكن لا جمال سلمت ولا ظهرت في الأفق.

والباشا الذي كان في زيارته الأولى لمكة بصفته الحميمية للشريف غالب أصبح الآن أكثر برودة في علاقته معه. والشريف من ناحيته كان يتذمر من أن الإتفاق مع محمد علي على الإيرادات لم ينفذ وأن ضباطه كانوا يحجزون المبالغ عندهم وأصبح كل فريق يتهم الفريق الآخر بالخداع. وكانت العلاقات الودية مع جيرانه من القبائل والتي منذ القبض على عثمان المضايفي أصبحوا ينظرون إليه على أنه الحامي لهم من كلا القوتين الوهابية والتركية. وهذا ما أثار الشكوك لدى الباشا وأصبح مقتنعاً أنه طالما أن الشريف يحتفظ بالسلطة لنفسه على الناس فإنه وبصفته الباشا لن يكون له حظ في القيام بمهماته كحاكم مطلق وبنجاح.

وقد أول محمد علي الفرمان الذي كان وجهه إليه السلطان وكأنه يعطيه الصلاحية تجاه الشريف كما يعتقده ملائماً لطموحاته. فكان صمم على أن يتركه في السلطة على رأس حكومته أو يعزله ويأخذه سجيناً ولا خيار آخر.

وقد أصبح هذا الأمر من أولوياته في أن يقبض عليه ويسجنه ولكن هذا الأمر كان صعب التنفيذ فقد كان مع غالب ألف وخمسمائة مقاتل في مكة ومجموعات أخرى في الطائف وجدة. وكان الجيران العرب أغلبهم يميلون إلى تأييده وتفضيله على الباشا وهو الشخص الذي يجعلهم يقفون موقفاً معادياً مع كل من يقف ضده. هذا وقد بنى الشريف قصراً حصيناً على أحد منحدرات التلال في مكة والذي منه كان الإتصال بقلعة حصينة بواسطة خندق تحت الأرض والقلعة كانت قد بنيت بواسطة أخيه الأكبر سرور والتي أعاد ترميمها وتدعميها بنفسه عندما سمع بخطط محمد علي لغزو الجزيرة العربية وكان المكان مزوداً بكل المؤن والطعام والذخائر والماء الذي جعل داخل خزانات للماء مقفلة.

وكانت هناك حامية عسكرية ثابتة من الرجال المنتخبين مع حوالى دزينة من الأسلحة الثقيلة كانت تحرس المكان باستمرار. وكانت المدينة بكاملها

تحت سيطرة القلعة، والتي كانت تعتبر حصينة ضد الوسائل الموجودة لدى محمد علي.

وكثيرون من أتباع غالب مثل الأشراف وأتباعهم من الحراس الشخصيين والعبيد المسلحين والمرتزقة من اليمن ظلوا في مكة نفسها مرابطين أو انتدبوا أنفسهم لدور الحماية له.

وإذا ما تأكد بأن غالب قد خرق العهد المقدس الذي قطعه مع الباشا بحيث يهاجم الباشا الذي كان له ألف ومئتي مجند في مكة وإذا ما طرده من هذه المدينة بمساعدة البدو فلا يمكن لألد الأعداء الإثبات بأنه خرق العهد شخصياً.

وقد زار غالب الباشا بعد ذلك زيارة ودية كما في السابق وكلما كان يذهب لزيارة الباشا في مسكنه بالقرب من المدرسة المحاذية للحرم كان يصحبه عدة مئات من الجنود. ثم بعد ذلك توقفت هذه الزيارات نهائياً ولم يفارق مكانه إلا يوم الجمعة حيث يذهب للصلاة.

وكان محمد علي يحاول ويبوهن أن يتخلص منه من بين حرسه، وقد زاره الباشا مرتين بصحبة عدد قليل من الضباط وكان كأنه يريد له أن يقلده بهذا التصرف عند زيارته له. وقد حاول وفكر في طريقة للقبض عليه داخل الحرم نفسه ولكنه غير رأيه وخصوصاً بعد أن أقنعه القاضي بحجة قوية. وكان هذا القاضي التركي قد وصل حديثاً من اسطنبول والذي جعل الأمر شاقاً عليه أن يجبر على حفظ المكان المقدس غير منتهك.

وقد مضى على ذلك الأمر يوم وليلة فقط وقد بذل الباشا خلالها جهداً مضنياً حتى يستطيع أن يحقق خطته وفي النهار توصل إلى الحل إذ طلب محمد علي باشا من ابنه طوسون باشا والذي كان أثناءها في جدة أن يحضر إلى مكة في ساعة متأخرة من الليل. وكانت اللياقة تقتضي بأن يخرج الشريف لملاقاته والتسليم عليه وكان إلغاء هذا اللقاء يعتبر بالنسبة للأتراك كإعلان حرب وكان على غالب أن يقوم بهذه الزيارة قبل أن يكون هناك تخطيطاً جديداً ضده.

فذهب في وقت مبكر من اليوم التالي لوصول طوسون فنادى أمام البيت وكان معه فرقة صغيرة وقد رؤي ذلك المشهد وكان محمد علي قد أمر حوالى مائة جندي أن يختبئوا داخل الغرف الملحقة بفناء البيت حيث مكان إقامة طوسون وقد فعلوا ذلك حتى لا يثيروا انتباه الناس وعندما وصل غالب قاده الحراس إلى الطابق العلوي بحجة أن طوسون متعب من رحلته ولا يستطيع النزول وطُلب من حراس غالب الأساسيين أن ينتظروا في الطابق السفلي ثم دخل غالب على طوسون باشا في غرفته وتبادلوا أطراف الحديث لبعض الوقت وعند الإستعداد للمغادرة أمره عابدين بك رئيس الجنود الأرناؤوط بأنه يجب أن يبقى لأنه مقبوض عليه وقفز الجنود المختبئين من غرفهم السرية وأمر عابدين بك وطوسون باشا الشريف أن يظهر قرب النافذة ويأمر جنوده بالذهاب إلى منازلهم وذلك حيث أن النية السيئة بالأذى غير موجودة.

وعندما عرف هذا الحدث وانتشر بين الناس لجأ أولاد غالب إلى القلعة مع جنودهم واستعدوا للدفاع وقد أبدى الشريف غالب برودة أعصاب شديدة وقال لهم: لو ثبت لكم أنني خائن حقاً لما فعلتم هذا معي. هكذا قال لطوسون باشا بوجود ضباط الباشا عندما قيل بأن فرماناً لم يدر أحد إن كان صحيحاً أم لا بأنه يجب حضور الشريف إلى اسطنبول، أجابهم: فلتكن مشيئة الله لقد أمضيت عمري كله في حرب مع أعداء السلطان ولا أخاف الآن المثول بين يديه بعد كل ذلك. ولكن وطالما أن القلعة لا زالت بيد أولاد غالب فإن العمل لم يتحقق بالكامل لذا فإن الشريف قد أجبر على كتابة ملاحظة لأولاده بأن يسلموا القلعة لمحمد علي ولكنه رفض توقيع هذا الأمر إلا أنه وضع بين خيارين أما خيار قطع رأسه أو التوقيع فوقّع..

وفي اليوم التالي دخل الجنود الأتراك القلعة وانتشرت الحامية التابعة للشريف بين البدو في المناطق المجاورة ولكن كثيراً منهم لحق بالوهابيين وانضموا إليهم.

وقد عُين القاضي وضابط من قبل الباشا وضابط من قبل الشريف من أجل جرد ممتلكات الشريف بالكامل وقد فتشت القصور المختلفة للشريف

بدقة وقدرت قيمة الممتلكات الموجودة بحوالى ستة عشر «محفظة» أي ما يعادل مائتين وخمسين ألف جنيه استرليني.

وبعد عدة أيام من إلقاء القبض على الشريف في مكة أرسل في أيلول من نفس السنة إلى جدة حيث حجز على ظهر السفينة في الميناء وكانت السفينة متجهة إلى القيصر في مصر. وعند وصولها إلى مصر العليا في ١٠ كانون الثاني ١٨١٤ ويقول بوركارت الذي التقاه شخصياً هناك عند وصوله: إن معنوياته كانت عالية وكان يتكلم بشجاعة وبكثير من العنفوان ولكنه لم يذكر أبداً اسم محمد علي أو طوسون وكان معه مجموعة من الخصيان وبعض الخدم العرب واثنين من أبنائه واللذين رافقاه طوعاً عند ميناء جدة وكان ضمن أمتعته علبة شطرنج أنيقة وقيل إنه كان يمضي بعض الساعات كل يوم يلعب الشطرنج مع أحد عبيده الخصيان.

وفي القاهرة وصلت زوجات غالب عن طريق السويس مع أملاكه كما أحصيت في مكة لأن الأوامر وصلت بأن لا يحتفظ الباشا بشيء منها. وقد توفي أحد أبناء الشريف في الإسكندرية وتبع الآخر والده إلى سالونيك والذي جعل له الباب العالي مسكن إقامة دائم وجعل له معونة شهرية حسب مستوى مرتبته وبعض العبدات وأبناءه الصغار وأخت له جميعهم بقوا في مكة أما الشريف نفسه مع أفراد أسرته قد ماتوا في تركيا بوباء انتشر أثناءها في كل مكان من الشرق الأوسط وكانت الوفاة في صيف سنة ١٨١٦ [وقد بنى ابنه عبد المطلب قبراً تعلوه قبة وقد شاهدها حفيده سمو الشريف عبد المجيد سنة ١٩١٢ ولكنها لم تعد تشاهد هذه الأيام وقد بني فوقها سنة ١٩٢٢].

ثم ألقي القبض - بعد يوم واحد من إلقاء القبض على الشريف غالب - على عبد الله بن سرور ابن أخي غالب، ورحلوه إلى القاهرة أيضاً ولكنه نجح في الهرب ثم قبض عليه مرة أخرى وأعيد بواسطة بدو السويس. وحيث أنه كان دائماً في عداوة مع عمه غالب فإنه لم يكن لديه أي جرم يحاكم عليه سوى أنه كان ذو شعبية داخل مكة إذ كان له أتباع أقوياء داخل مكة. ولكن وبأوامر عليا من السلطان أطلق سراح عبد الله بن سرور فيما بعد.

وخلال حكم الشريف غالب لمكة أظهر شجاعة في حربه مع الوهابيين تماماً مثل حربه مع المقربين منه والذين عارضوه دائماً وكانت علاقته الحميمة بالبدو ومعرفته بسياستهم ثم فصاحته وتأثيره النافذ في الناس قد أهلاه لحكم مكة ولكن فرضه للضرائب العالية على مخالفات بسيطة وخصوصاً في الفترة الأخيرة لحكمه جعلته أقل شعبية. وكثير من الناس يعتقدون بأنه قد احتفظ لنفسه بمبالغ طائلة من الأموال والمقتنيات قد أرسلها سراً إلى الهند الشرقية وخصوصاً بومباي حيث كان على علاقات تجارية، ومحمد علي نفسه قد ألمح إلى أن الشريف كان يطمح باللجوء إلى بومباي. ولكن ومع هذا الإهتمام بتحصين وتجهيز قلعته في مكة كان الأمر يتضح بإصراره على المقاومة والبقاء وحتى مقاومة الأتراك أنفسهم ولو اضطر الأمر على تخوم الحرم المقدس وهو ما يناقض هذه الأقوال وينفيها من أساسها.

الفصل الثالث عشر

الحرب ضد الوهابيين في وسط الجزيرة العربية ١٨١٣-١٨١٤

الحرب ضد الوهابيين في وسط الجزيرة العربية ١٨١٣-١٨١٤

كان لحادثة إلقاء القبض على الشريف غالب الأثر الكبير في إخافة أهل مكة والبدو وخصوصاً رؤساء العشائر الذين عرفهم غالب علي الباشا محمد علي والذي بدأ يتشاور معهم حيث هربوا وعادوا إلى ترابة. وكل أصدقاء غالب في مكة ومجموعة من العائلات القوية ومن يواليهم قد تركوا مكة والتجأوا إلى خيام عند البدو في المناطق المجاورة لمكة. وكان من بين هؤلاء الشريف راجح وهو قريب لغالب غير لصيق القرابة وكان أكثر الرجال صراحة في الحجاز بعدله وتحرره. وقد أعطاه محمد علي إمرة بعض مئات من البدو وحمله مسؤولية انضمام آخرين معه في الخدمة. ولكن في ليلة القبض على الشريف غالب فإن راجح ترك مكة وغادر مع كل الموالين له إلى الدرعية عاصمة سعود والذي كان مسروراً جداً بانضمام هذا الحليف. وأعطاه مبلغاً من المال وعينه في مكان عثمان المضايفي بوظيفة أمير الأمراء لبدو الحجاز.

وبعد سجن غالب أصبح هناك تبلد في الشؤون السياسية في البلد وكانت الخديعة قد طالت بأذاها حتى أولئك الذين كانوا في عداوة شديدة مع الوهابيين وأصبح موقف محمد علي محرجاً وأي إنسان عاقل لا بد وأن يفكر أنه إذا قرر القبض على الشريف فإنه لا بد وأن ينتظر حتى يستطيع استمالة بعض الشيوخ

النافذين ليشتركوا معه وقد يجعلهم متورطين بعملية عدائية ضد الوهابيين مما يجعلهم مضطرين للبقاء على ولائهم للباشا مهما كان الأمر ومن شبه المستحيل التخلي عنه. وقد حكم الباشا بدون شك على نوايا الشريف بنفسه ويخشى أنه هو نفسه قد وقع ضحية خديعة بأن كرس وقته في مسألة غالب ليقضي على خطته وقد اتخذ أول بادرة وكانت خطأ فادحاً. ولم يكن غالب صديقاً مفضلاً لدى العثمانيين بحال، ولكنه كان يتفق معهم بأنه لم يحب الوهابيين مثلهم تماماً. وكان مشروعه بدون شك يهدف إلى جعل كلا الطرفين الوهابي والتركي يضعفان بعضهما البعض بالقتال المستمر وبدون أن يفكر بخداع الباشا وذلك لأنه يحفظ القسم المقدس الذي قطعه على نفسه.

أحد الرجال من أسرة الأشراف واسمه يحيى بن سرور ابن أخو غالب وكان خصماً له فيما سبق قد عين الآن حاكماً لمكة من قبل محمد علي باشا والذي لم يعلم عنه أي مواهب تذكر سوى أنه «صفر» وقد احتفظ الباشا بكل إيرادات الشريف غالب في جدة ومكة محدداً ليحيى منحة شهرية. فأصبح في الواقع أحد ضباط محمد علي.

ولم يكن عند محمد علي باشا من عمل سوى إرسال التموين من جدة إلى مكة والطائف. وبعد أن جمع كمية قليلة عند الطائف قرر أن يضرب بحزم أعداءه الذين ازدادت شجاعتهم بسبب إهماله لهم لفترة طويلة والذين كانوا يصلون إلى أبواب الطائف وبالقرب من مكة بجمالهم يأخذون بضاعة لهم، ولكن بداء البدو ينظرون باحتقار إلى قوة الباشا وقد كرهوه بسبب المكيدة التي عملها مع الشريف غالب.

ومن بين الذين يكنون شعور العداء للأتراك حول مكة لم يظهر أحد منهم الكره مثلما أظهرته قبيلة باقوم العربية. والذين في حقبة سابقة من الزمن هزموا مصطفى بك. وقد أخذ معظم جيش غالب ترابة ملجأ لهم بعد القبض على سيدهم وكذلك ركز الشريف راجح مقر قيادته هناك وانضم إليه علي المضايفي أخو عثمان والذي له تأثير كبير على قومه وهكذا أصبحت ترابة نقطة التقاء لكل الوهابيين الجنوبيين مثلما هي الدرعية كانت مقراً للشماليين.

أما قبيلة باقوم العربية والذين منهم الرعاة وبعضهم كانوا مزارعين وكانت ترأسهم أرملة تسمى غالية وكانت زوجة لأحد رؤساء ترابة وكانت تملك أكثر من أي عائلة أخرى مجاورة وكانت توزع الأموال والغذاء على جيرانها من الفقراء من قبيلتها والذين أبدوا استعداداً لحرب الأتراك. وكانت المرأة العجوز مشهورة بسمعتها وصيتها في العدل وعلمها السديد بكل ما يحتاجه أهلها وما يحيط بها من القبائل ولم يكن صوتها مسموعاً فقط في الإجتماعات ولكن وبشكل عام سادت وعمت وهي كانت بالفعل تحكم قومها من باقوم مع أنه كان يرأسهم شيخ قبيلة شكلياً وكان اسمه الشيخ ابن خرشان وكان على رأس الذين هزموا مصطفى بك بالقرب من ترابة واسم الأرملة انتشر في كل البلاد وحتى الجيش التركي نفسه كانت مخاوفهم قد زادت من تأثيرها عليهم وقد اعتبروها رئيسة إتحاد الوهابيين وأوردت في حقها قصصاً تافهة عن قوتها المستمدة من السحر والشعوذة وأنها تمنح بركاتها للقواد الوهابيين وهم بهذه الطريقة فإنهم لا يقهرون في المعارك وهذه التقارير أوهنت قوة العثمانيين. وهو ما جعل البدو يستلهمون الثقة بأنهم سيساهمون في إفشال حملة طوسون.

وقد قرر محمد علي أن يجري هجوماً آخر في نهاية تشرين الأول أو أوائل تشرين الثاني في سنة ١٨١٣ مرسلاً ألفي رجل ليستولوا على ترابة القرية التي بين المدينة والطائف وكانت بيد قبيلة معادية هي بني سعد النصار وبالتحديد قبيلة عتيبة. والذين أبدوا حيادهم عندما أتى الشيخ الحاكم وكذلك معظم شيوخهم إلى مكة وكان ذلك بقصد التباحث مع الباشا ولكنه بعد أن قبض الباشا على الشريف غالب تراجع هؤلاء عن حيادهم ثم انسحبوا إلى مناطقهم الأكثر وعورة في المرتفعات وبدأوا يغيرون على الطائف وعلى القوات التركية.

وعندما أمر محمد علي ابنه طوسون بالمسير من الطائف أخذ معه مؤنة ثلاثين يوماً والتي استنفذها خلال حربه طوال الوقت مع قبيلة عتيبة والذي كان يتصيدهم داخل الصحراء وما حولها مقللاً بذلك من عدد العشائر المشاركة في حربها ضده. وعند وصوله إلى ما قبل تربة كان قد بقي معه مؤنة ثلاثة أيام

فقط. وقد أمرت الفرق بمهاجمة المكان ولكن العرب أبلوا في الدفاع المستميت عند أسوار مدينتهم. كأنهم يتحركون بواسطة القوى الخفية لغالية. بينما الأتراك لا أمل لديهم بالنصر ولا غنائم ثمينة بانتظارهم، فقد عانوا الكثير من كثرة السير والرعب من التعاويذ الغريبة والتي سرعان ما اكتشفوا زيفها فيما بعد.

وأمر طوسون بالهجوم مرة أخرى في اليوم التالي ولكن الجنود يرفضون بصرامة هذه المرة أو مواجهة غالية ولكن الضباط شرحوا لطوسون أنها حجة بسبب التعب الذي أنهكهم ونقص التموين وأنه إذا ما صار صد لهجومهم مرة أخرى فسوف يموتون من الجوع والعطش واقترحوا أن يغير طريقة الهجوم بأن يكون الأمر بالإنسحاب باتجاه الطائف وقد علم البدو في الداخل عن الوضع لدى الأتراك في الخارج فبدأوا يخرجون من المدينة أثناء تراجعهم وأخذوا يهاجمونهم من الخلف ثم استولوا على الممرات المؤدية إلى الطائف فأخذوا يلاحقونهم ويضايقونهم بشدة مما اضطر الأتراك لترك أحمالهم وخيمهم وبنادقهم ومؤنهم. فقتل أكثر من سبعمائة شخص في الإنسحاب وآخرين ماتوا من الجوع والعطش وقد حفظ الجيش من الإبادة بواسطة الحماية المقدمة من مائة من الفرسان والذين كانوا برفقة طوسون ولم يكن المشاة البدو ليستطيعوا المقاومة أمام ضربات الفرسان الثقيلة للأتراك والتي لم يكن لديها سوى حظ قليل في التحرك خلال المنطقة الجبلية الصخرية الوعرة.

وبعد أربعة أيام من المعاناة وهرب كثير من الجنود وصل طوسون باشا إلى الطائف مع البعثة الباقية من جيشه وقد وصف فشل هذه الحملة بشكل رئيسي نقص في التموين ونقص في الجمال لنقل المشاة ولم يعد هناك من جمال في الطائف أصلاً كي ينقل رجاله وكي يزودوه بالمؤن الطازجة ومع عدم القدرة على التقدم سوى من الخبرة التي اكتسبها من هذه الهزائم، فقد اضطر محمد علي بعد هذه الملاحظة عن هزيمته أن يكمل احتلاله القديم بأن يرسل القوافل ذهاباً وإياباً من وإلى جدة ومكة والطائف مع اقتناعه بأن أي عملية ضد العدو يجب أن توجه كأفضل حل من الطائف وقد تبع الوهابيون الأتراك خلال

يوم رحلة تقدر بمسافة من الطائف باتجاه تربة ومرة أخرى ضغطوا وضايقوا قوافل الباشا بهجمات طيارة. وهذه القوافل لم يكن باستطاعتها المرور في القرى بدون حماية كبيرة بحيث أنها قبل أن تصل إلى مكانها المحدود تستهلك ثلث مواد الغذاء المحمول.

وفي تشرين الثاني ١٨١٣ كان الحج يؤدى بطريقة معينة، قدم سليمان باشا من الشام قادماً مع الحجاج السوريين خلال الصحراء وبدون أية عقبات مع أن البدو خلال الصحراء قد أجبروه على دفع ضريبة على المرور خلال العشر سنوات السابقة والتي توقف خلالها الحج من الشام إلى الحجاز ولكن كثيراً من الحجاج قدموا من آسيا ومن اسطنبول إلى الحجاز عن طريق السويس ثم جدة فمكة وقد ابتهج الناس برؤية المدن المقدسة يعاد نشاط الحج إليها من أجل الإنتعاش الإقتصادي والمدخول الناتج من الحج والذي كان يقتسمه الوهابيون معهم وقد وصلت مجموعة كبيرة من الجمال إلى محمد علي مع قافلة الحج المصرية ودعم قوي للفرق العسكرية بينما مصطفى باشا قد عاد إلى مصر كي يجلب كميات من الخيول بدل تلك الكمية الضخمة التي فقدها سابقاً، وخلال شتاء ١٨١٣ وبداية ١٨١٤ بقي الجيش التركي بدون فعالية تذكر إلا في استجلاب الرجال.

كل حملة كانت ترسل ضد العدو كانت تفشل فيما عدا تلك التي استولوا فيها على المدينة وقد فكر الباشا بأنه يجب أن يكون هناك خطة والتي إذا ما حالفه النجاح خلالها فسوف يرفع من معنويات جنوده وسوف يشد انتباه الوهابيين في أي نقطة يكون الهجوم وقد ظهرت حملة بحرية في ميناء جدة تحمل ألف وخمسمائة جندي وكثيراً من الحمالين من مؤنة كاملة وقد كان قائد هذه الحملة حسن آغا وسيوم أوغلو وقد أبحروا حتى القنفذة وتبعد سبعة فراسخ جنوب جدة.

وكان هذا الميناء في السابق تابعاً لسلطة الشريف غالب ولكن خلال الخمس سنوات الأخيرة كان تابعاً لسلطة شيخ قبيلة من عسير أحد القبائل الجنوبية والأكثر تمسكاً بمبادىء الوهابيين. وكان موقع القنفذة يبدو وكأنه جيداً

بالنسبة لإدارة المعارك منه على جبال عسير بالتنسيق مع الحامية الموجودة في الطائف وحيث أن المكان يمكن تزويده بسهولة بالتموين والرجال. وأن الإستيلاء عليه يعتبر خطوة متقدمة للإستيلاء وعلى اليمن والغنى الذي شد محمد علي بدون شك، وهكذا فإن التخطيط لم يكن بالرأي السيء حين صمم عليها واحتفظ تامي في القنفذة بحامية عسكرية صغيرة وأخذها سنة ١٨١٤ وبدون إراقة دماء ولكن معظم الناس قد تركوا البلد وهربوا. وقد وصل من جدة بمحاذاة ساحل البحر بمجموعة من الفرسان تقدر بأربعمائة فارس ووصلوا عندما انتشر خبر الإستيلاء عليها، وكانت القنفذة محمية بسور عال تستعصي على العدو الذي لا يملك بنادق مثل جيش الوهابيين ولكن الماء كان غير متوفر داخل الأسوار وكانت مصادر الماء على بعد ثلاث ساعات من المدينة وبالقرب من الجبال وأنه كان يجب أن تبنى هناك التحصينات عند آبار الماء. ولكن الطريق منها إلى مدينة القنفذة محمية بعدة أبراج متصلة أو بطاريات وحيث أن الأتراك لديهم كميات وفيرة من المعدات الثقيلة ولكن هذه الإحترازات قد أهملت في النهاية.

لقد وضع قرب آبار الماء حوالى مائة وخمسين من الرجال الأرناؤوط ولم تكن كافية حتى تحميهم من العدو أو حتى تمنع الأعراب المجاورين من أن يرووا عطش قطعانهم. وبعد أن استقر الأتراك في القنفذة لمدة شهر غير مبالين بتاتاً. إذ تفاجؤوا في صبيحة يوم من أيام شهر أيار بمجموعة ضخمة تقدر بثمانية أو عشرة آلاف وهابي حيث هاجموا الرجال الأناؤوط عند نبع الماء بقيادة تامي والبعض قاوم حتى المساء ببسالة والآخرين هربوا باتجاه المدينة فانتشروا بشكل مرعب هنا وهناك وبدون محاولة المقاومة من فوق السور القائد المصدوم من هول المفاجأة كان معظم جنوده يركضون حتى مياه البحر باتجاه السفن الراسية في الميناء وقد دخل الوهابيون إلى المدينة وقتلوا مجموعة من الجنود الأتراك والخدم التابعين لهم والذين لم يقدروا أن يقفزوا بأنفسهم في الماء إلى السفن أو القوارب أو ربما لم يستطع السباحة. وقد ذبح كثير منهم داخل الماء وبالقرب من السفن بواسطة الوهابيين والذين سبحوا خلفهم

والسيوف بين أسنانهم وحاربوهم داخل الماء وقد نجا القائد التركي بنفسه وأصبح على ظهر السفينة آمراً للتو أن ترفع الأشرعة استعداداً للإنطلاق السريع تاركاً للموت كل من لم يستطع الصعود إلى السفينة. ولم يحصل الوهابيون على غنيمة أكبر وأغنى من تلك التي حصلوا عليها في القنفذة كل الأمتعة والصناديق وكل البنادق أصبح كل شيء ملكهم ولم يحمل الأتراك معهم سوى ما كانوا يرتدون وكان أهم ما غنموا من هذه الوقعة مئات الخيول مجموعة لا بأس بها من الجمال وكانت السفن لا تحتوي على كثير من الماء والزاد وقد توفي كثير من البحارة والجنود في هذه المسافة القصيرة بين القنفذة وجدة والبعض القليل من الجنود الذين بقوا في المعركة يحاربون خلال النهار وفي القنفذة قد هربوا في الليل وعادوا إلى جدة ووصل منهم اثنا عشر شخصاً إلى مكة وقد كافأهم محمد علي على شجاعتهم وأدخلهم في فرق جديدة وخصوصاً أنهم قد تعاهدوا أن لا يعملوا بإمرة سايم أوغلو.

وأثناء حدوث هذه الحملة الكارثة إلى القنفذة ذهب محمد علي إلى الطائف وذلك لأن جوها ألطف وسيكون هكذا أقرب إلى موقع الحدث وإلى البدو الذين بدأ يخطط لعمل علاقات ودية معهم وفي أيار ١٨١٤ وصلت من القاهرة فرقة من ألف وخمسمائة من المشاة من المصريين المنتخبين وكانوا بإمرة حسن باشا وكان ضابطاً من الأرناؤوط والمشهورين وكان مخلصاً ومقرباً من محمد علي وقد تقاسم معه الحظوظ من قبل أن يصبح محمد علي باشا مصر. وقد أظهر لمحمد علي مؤخراً حماساً شديداً في صد ثورة متمردة قام بها لطيف باشا عندما كان الباشا غائباً عن القاهرة وهذا الشخص كان مملوكاً لمحمد علي أرسل يوماً مع إسماعيل باشا لتقديم مفاتيح مكة والمدينة إلى السلطان حيث رقاه السلطان وعينه برتبة باشا من ثلاثة أجنحة (وظيفة باشا التركي أعلى رتبة بثلاثة أجنحة ثم اثنتين تليهما وأقلهما بجناح واحد) وذلك تعظيماً لسيده محمد علي باشا. ولكن تقريراً أشيع في القاهرة بأن محمد علي توفي وأن تصرف لطيف باشا قد أوحى بالشكوك بأن لديه نوايا للإستيلاء على السلطة وقد انتشر بين الناس شائعات بأن الباب العالي أصدر فرماناً بأن يفعل

لطيف كما فعل حيثما توفرت المناسبة لهذا الفعل. وقد عمل نائب الحاكم مع حسن باشا على احتواء الموضوع واتخاذ كافة التدابير اللازمة لعدم سيطرة الثورة التي سيقوم بها لطيف وقد طوقوا قصر لطيف باشا لمدة ثلاثة أيام وقد ألقي القبض على لطيف باشا بعد ذلك متنكراً بلباس أحد الفلاحين فأخذ وقطعت رأسه فوراً.

وعند وصول حسن باشا إلى الحجاز والذي أرسل بواسطة محمد علي لكي يؤسس مركز قيادة في القرية وكان لها آبار مهمة على بعد ثمان أو تسع ساعات إلى الشرق من الطائف وفي الطريق المؤدية إلى ترابة وذلك خلف قمة سلسلة الجبال.

أما طوسون الذي لم يستطع تقديم الشفاء لوالده من خيبة الأمل بعد فشل الهجوم السيء على ترابة فبقي في مكة.

وكان عدم الرضا شائعاً بين القواد والجنود الأتراك الذين صرفوا كل مدخراتهم على مستلزمات الحياة اليومية وكانوا يقبضون بالقروش المصرية وكانت قيمتها أقل بكثير في الحجاز من قيمتها في مصر. وبهذه العملية يفقدون ثلث قيمة مخصصاتهم وكانت معظم ملابس الجنود وأسلحتهم النارية وباقي المستلزمات في حالة مزرية. وكثير من الجنود وسائقي الجمال والخدم والفنيين قد زيدت رواتبهم وقد أبحروا من جدة وينبع باتجاه مصر ولكن محمد علي منع هذا الإجراء تحت طائلة العقوبة وبهذا المنع أصبحوا أكثر انزعاجاً وتضرراً وكان الجندي التركي في كل الأحوال جندي متطوع ويستطيع التقاعد من الجيش ساعة يشاء وكثير منهم تركوا مراكزهم في مكة والطائف وأتوا بشكل خاص إلى جدة على أمل الهرب على ظهر إحدى السفن ولكنهم بعد أن بدأوا بملاحقتهم فإنهم كانوا يعادوا ويساقون مشياً بالأصفاد إلى مراكزهم وبالإضافة لهذه الأسباب من التذمر فإن الهواء كان غير صحي أبداً والماء الرديء في الحجاز. أما اليأس والناتج عن المرض بدون أمل بالشفاء أصبح شائعاً تلك الأيام وأهمل محمد علي وسائل التشجيع للجنود أو يرفع معنوياتهم بزيادة رواتبهم أو يوزع المكافآت على البعض ممن يرون أنهم يستحقونها.

ربما كان محمد علي الرجل الوحيد في بلاطه وجيشه الذي لم يفقد الأمل بالإنتصار النهائي ويعلم حقيقة العلم بأن الإنهيار والنفي من مصر سيكون مؤكداً له إذا لم يحقق أي إشارة تقدم في الجزيرة العربية.

ومنذ وصوله إلى الطائف عمل على تحقيق علاقات صداقة مع البدو وفي هذا الإتجاه نجح جزئياً عن طريق المال والصبر ففي آب ١٨١٤ كانت قبائل هديل وثقيف وبني سعد وجزء من قبيلة عتيبة قد دخلوا في حلف جديد مع محمد علي وكانوا كلهم عدا عتيبة يتجولون بين مكة والطائف أما عتيبة فكانت أبعد قليلاً باتجاه الشرق وقد أتى شيوخهم إلى مراكز القيادة وأكثر من خمسمائة من رجالهم كانوا مسجلين تحت راية محمد علي وكان يمنحهم كل فرد ضعف المبلغ الممنوح لأي جندي تركي وفي آب ١٨١٤ كان البدو يأتون يومياً إلى مركز قيادة محمد علي ليحصلوا على الملابس والمال وكان أكثرهم يأخذون المال ويعودون إلى خيمهم ويخبرون الوهابيين بكل ما رأوا في الطائف وآخرين بقوا على الحياد. والباشا كان في سبيل أن يبقى مسيطراً على البعض أعطى كثيراً من الكلمات المعسولة وهدايا للجميع وكان يستمع لكل ما يقولون ويشرحون وأحياناً يراوغون في كلامهم بدرجة غير معقولة يتحملها الباشا بصبر وجلد وإظهار الرضا.

هؤلاء أبناء الصحراء يوجهون محمد علي إلى أقصى درجات الديمقراطية والمرونة واستعمال البساطة بعيداً عن الرسميات والشكليات تماماً مثلما هي العادات عندهم. وينادونه في أغلب الأحيان باسمه المجرد محمد علي وبدون لقب. وأحدهم وهو رجل من قبيلة عتيبة قدم نفسه للباشا وقبل رأسه وبدأ يستفسر عن أمر قال: هل تركتُ دين الإسلام؟ وهل أنا مؤمن حقاً باتباعي الطريق الوهابية كما يصنفون نفسهم، لقد مشيت على دين الأجداد [وهذا ما يصنف به الوهابيون غيرهم من المسلمين] أنا اتبعت دين محمد علي. وهذه الحماقة غير المقصودة جعلت الجميع يضحكون فأجابه الباشا من خلال المترجم والذي كان بالكاد يعرف العربية: أرجو أن تظل هكذا دائماً خارج عن الدين.

وحتى أن الشريف راجح نفسه والذي كان يقود أعداء محمد علي والذي انحاز بنفسه إلى صفوف الوهابيين في الهجوم على طوسون باشا في ترابة قدم اقتراحاً لكي يعود إلى محمد علي ومن أجل ذلك فإن تصرف الباشا أظهر بأن الشريف غالب كان الإنسان الوحيد بين جميع الأشراف الذي لم يحبه الباشا من بين أشراف الحجاز كلهم. ويمكن لراجح أن يثبت بوضوح بأنه ترك الباشا خوفاً من أن يصل إلى نفس مصير غالب.

وقد عاد الشريف راجح إلى الطائف في شهر أيلول واستقبله الباشا بكل لطف وكياسة ومرة أخرى وضعه في قيادة جنوده البدو.

وبالإضافة إلى سياسة التواضع والتي تعود عليها الباشا من معاشرته للبدو فقد وضع محمد علي طاقته في سبيل استرضاء مواطني الحجاز نفسها. وكان هناك بعض الضرائب الصغيرة فرضت بواسطة الشريف راجح ألغيت. والواردات المأخوذة على أصناف متعددة وخصوصاً القهوة قد قللت ووزعت مبالغ كبيرة على الفقراء والمحتاجين من جميع الطبقات بالإضافة إلى كميات من الحبوب. وكل الموظفين والعاملين على المساجد والمعلمين وزعت عليهم العطاءات وأصلحت الأماكن المقدسة وخلال إقامة الباشا هناك لاحظ الأكثر تشكيكاً طرق أداء خاطئة للمناسك.

والجنود الأتراك في كل الحجاز قد أمروا بأن يكفوا عن لغة الشتائم تجاه المواطنين وهم سيعاقبون بشدة على ذلك منذ الآن.

وعندما يتورط أحدهم في هذا العمل الإستبدادي الفوقي ـ وقد اعتادوا على هذه الطريقة في مصر ـ سيكون عقابه شديداً. ولم يعد يجرؤ أحد من الجنود على المغامرة بأخذ أي شيء بالقوة أو بنصف الثمن من السوق فإذا ما أتى أحدهم بشكوى إلى محمد علي أو أحد الضباط المسؤولين فإن الحق يكون في الأغلب مع المواطن.

وهكذا فإن حقد المواطنين على الغرباء بدأ يقل شيئاً فشيئاً مما جعل رصيد الباشا كبيراً عند الناس في فرض العدالة واهتمامه بالأعمال الخيرية والإنسانية.

في أيار ١٨١٤ مات سعود بالحمى فخسر الوهابيون قائداً لا يكل ولا يمل وقيل بأنه أوصى ابنه في آخر لحظات حياته عبد الله بن سعود ونصحه بأن لا يدخل معركة مع الأتراك في سهول مكشوفة وهو مبدأ لو اتبعه عبد الله أكبر أبناء سعود بدقة لكان استعاد لشعبه منطقة الحجاز وعبد الله الذي دان له الوهابيون بالولاء حتى في حياة أبيه أصبح الآن القائد والوريث لقيادة عليا رسمية على الجمع. ولكن بعض الإشكالات حصلت نتيجة تعدد أخوة سعود والذين احتجوا على اقتسام الإرث المادي وكان أحد الأخوة واسمه عبد الله أيضاً وكان مدعوماً من فريق كبير من العلماء في الدرعية. وبعد عداوة دامت فترة محدودة أعيد تعيين عبد الله بن سعود كرئيس لمجمع الوهابيين. وكانت سمعة شجاعته وذكائه في الحرب قد تخطت وطغت على تلك التي عرف بها والده سعود ولكنه لم يعلم كيف يسيس القبائل كوالده تحت قيادته أو الشيوخ الكبار والذين بدأ البعض منهم يفكر بالإنفصال عن المجموعة. أما الوهابيون الجنوبيون والذين كانوا عرضة للهجمات أكثر من غيرهم فلم يتسلموا مساعدات من الشماليين والذين كانت فرسانهم بإمكانها مساعدتهم وحتى الشيوخ من الجنوبيين كانوا مختلفين فيما بينهم وهكذا فإن الباشا لم يعد أمامه سوى قبيلة واحدة ليكافحها أكثر من مواجهته لمجموعة متحدة القبائل. وهذه الحاجة إلى الوحدة بما نفسره على أنها احتقار للجيش التركي كيف عومل من قبل أعدائه.

وفي أيلول سنة ١٨١٤ كانت قوات الباشا موزعة على النحو التالي حوالي مائتين من الرجال مع إبراهيم آغا حامل أختام الباشا محمد علي.

وحوالى مائة وخمسين جندياً مع محمد علي في مكة وحيثما كان.

وحوالى مائة وخمسين جندياً مع الشريف يحيى.

وبين ثلاثمائة وأربعمائة جندي مع ديوان أفندي وكانوا في المدينة.

ومائة جندي للحامية التركية في ينبع.

ومائتين من الجنود المعسكرين في جدة.

وثلاثمائة وخمسين من الجنود معسكرين بين ينبع والمدينة بإمرة طوسون باشا وكان مع محمد علي في الطائف ثلاثمائة تركي والذين من بينهم مائة فارس وألف من العسكر مع حسن باشا وكان قائداً للداخلية وكان من العسكر الأرناؤوط وكان عابدين بك آمراً لأصحاب الرتب من الجيش ولديه ألف ومائتي جندي أرناؤوط وأربعمائة فارس وصلوا حديثاً من القاهرة وهؤلاء الرتباء قد تقدموا ثلاثة أو أربعة أيام في رحلتهم جنوب الطائف في أراضي قبيلة نصار وباتجاه زهران حيث شيخ من غامد من العرب وكان العدو الأساسي للأتراك وكان لهم الحسنة الكبرى في المنطقة حيث تمركزوا وكان فيها كل أنواع الحبوب فكانوا مستقلين بحاجاتهم عن المخازن في الطائف.

كان الدعم اليومي يأتي من مصر وكان بالكاد يكفي لإكمال باقي الرتب والتي صنفت أصحابها بسبب الأمراض والمواجهات الفاشلة مع الوهابيين وكمية الجنود التي كانت عند محمد علي في مصر كانت صغيرة بحيث أنها لا تكفي لسحب كميات كبيرة إلى الحجاز لأنه لا يمكن إحلال كمية الجيش في مصر بحيث تكون عرضة لأي هجوم من الخارج فلو أصبح ضعيفاً لتوقع في الحال هجوماً من اسطنبول أو المماليك أو من انكلترا مثلاً.

وعندما أصبح معروفاً في تلك البلاد التي تضم أكبر مجموعة من الجنود والتابعين للباشا التركي ـ وبالتحديد كانوا من البانيا وروميليا وساحل آسيا الصُغرى ـ وأن المعسكرات في الحجاز أصبحت شيئاً محبطاً للجنود الملتزمين بها وقد جيء ببعض الجنود إلى مصر ولكن محمد علي كان مضطراً لإبقاء مندوبي البعثات والضباط من طرفه في تلك البلاد والذين ما كان باستطاعتهم القيام بواجباتهم إلا بعد صرف المبلغ اللائق من أجل تجنيد الجند وكان جنود الباشا لا يزيد عددهم عن خمسة وثلاثين ألف مجند وكان منهم عشرون ألفاً في الحجاز وخمسة عشر ألفاً في مصر.

ومن أجل حماية المدن المقدسة ومن أجل ضم المناطق المجاورة فقد كرس ما بين أربعة إلى خمسة آلاف رجل كعدد بالإضافة إلى المساعدة من أربعمائة بدوي منتخبين من مجموعة من القبائل كانت رواتبهم مضاعفة عن

رواتب الأتراك ومع هذا الجيش فإن الوهابيين لن يهزموا مع العلم أن الباشا حينما انطلق من القاهرة قد وعد حكومته بإخلاص بأنه سوف يقوم بإخضاعهم. وكانت كل جهود الباشا منصبة على طلب الجمال التي يحتاجها في عمليات النقل من الطائف إلى مكة ومنها إلى جدة وحيث أن جوانب الطريق مليئة بهياكل وجثث الجمال، مما يدل على الحاجة الدائمة للتجديد المستمر للجمال والقوافل وهو شيء أساسي ومهم. وفي ضواحي مكة وفي مكان يسمى «المعبدة» حيث تتوقف القوافل القادمة من جدة والطائف. يُرى المكان مغطى بمئات الجثث القديمة المهترئة للجمال ورائحة قوية ونفاذة مما يجعل المكان موبوءاً. وبناءً على إلحاح من المواطنين فإن مجموعة من العبيد السود استئجرهم الحجاج لكي يجمعوا كميات من الأعشاب اليابسة ويكدسوها فوق الجثث وأشعلوا فيها النيران حيث تحولت إلى رماد.

وبحسبة معتدلة منذ بداية الحرب في سنة ١٨١١ وحتى ذلك الوقت كان هنالك ثلاثين ألف من الجمال تخص الجنود قد نفقت في الحجاز وبعضها بقي في مصر وقد عولوا على استجلاب كميات من هذه الجمال من بلاد الزنج تصل حتى «سينار» ونقل هذه الجمال من غينية إلى القصر ومن القاهرة إلى السويس وهو يحتاج إلى كمية هائلة لكي يتبقى منها القليل حياً كي يستعمل في منطقة الحجاز. وقد أرسل الباشا ضابطاً إلى دمشق ليحضر له الجمال من هناك فيشتريها من بدو الشام وكان متوقعاً وصول تلك الجمال في موسم الحج المقبل وبينما عمل إبراهيم باشا كل ما بوسعه لجمع الجمال من قبل القبائل الليبية أيضاً والتي مثل الأخرى سوف ترسل مع موسم الحج المقبل مع قافلة الحج المصرية، إلى الحجاز. وهكذا فإنه حتى يوم وصولها سيكون هناك خطوات دفاعية ممكنة فقط. أما هجومية فلا.

وخلال ذلك عمد الوهابيون إلى الإغارة مرات ومرات على الطائف وعلى القبائل التي كانت تؤيد الباشا والذي من جانبه عمل على مضايقة العدو بإرسال مجموعات صغيرة من الفرسان للإغارة. وقد عمل الشريف يحيى أيضاً مع رجاله من العرب حملة في آب ١٨١٤ وسار على طول الخط الجبلي

الواصل جنوباً إلى «القنفذة» حيث جلب معه غنائم من الجمال والخرفان ولكنه ما إن عاد إلى مكة حتى ثأر «تامي» لنفسه بإرساله حملة من ستمائة جندي من راكبي الهجن من قبيلة قحطان باتجاه جدة وهكذا فقد قطع خط السير بين جدة ومكة ولكن بعد أن أنهى الوهابيون هدفهم من الغارات عادوا إلى منازلهم وقد انطلقوا من مسافة خمسة عشر يوماً سيراً حتى يغيروا على ذلك الطريق وهو نتيجة لمعرفتهم الجيدة بالمناطق جعلتهم يأخذون ذلك المسار حتى يصلوا إلى الهدف.

ومنذ أخذ الأتراك المدينة المنورة بقيت الحامية التركية هناك غير فعالة وذلك حيث أن المؤن كانت ترسل لهم من ينبع وكانت لا تكفي حاجاتهم اليومية وحاجات الناس هناك إلا فيما ندر. وقد استمرت قبيلة حرب المجاورة بالتعامل بود معهم وكان شيخ قبيلة حرب «الجازي» الذي ساهم بالإستيلاء على الموقع قد ذهب في حزيران سنة ١٨١٤ في مهمة إلى ديوان أفندي أمر الحامية العسكرية وقد مكث يوماً كاملاً مجتمعاً إلى ديوان أفندي وقد روى أنه لم يتحمل الأتراك الفارغين المتفاخرين والتافهين المتعجرفين وقال على الملأ: أصمت يا ديوان أفندي كل الناس يعرفون بأنني أنا الذي مهد لك الطريق للدخول إلى المدينة ولولا هذا السيف ما كان هناك أتراك يدخلون إلى المدينة. ولكن القائد التركي فقد أعصابه لسماعه هذا القول فانهال عليه بالشتائم بأقذع الألفاظ ثم لطمه وأمر بأن يوضع في السجن ووضع في الأغلال وفي اليوم التالي أعلن أنه قتل نفسه في السجن. وهناك أدلة واضحة تثبت أنه كان يقوم بالإتصال سراً مع الوهابيين. ولكن هكذا أسباب لهكذا هدف لا بد وأن تكون قد أعلنت بوضوح. وحالما علمت قبيلة حرب أن شيخهم قد قتل أقفلوا منافذ الطرقات الجبلية في وجه القوافل القادمة من ينبع وبدون أن يتصلوا بالوهابيين بدأوا بالإعتداء على المراكز البعيدة للأتراك.

وعلى أمل وقف هذا الخلاف أمر محمد علي ابنه طوسون باشا بأن يذهب في الحال إلى المدينة فوصل إلى بدر في أيلول ووجد أن حرب تهاجم بشدة الحامية عند مدخل «الجديدة» وقد حاولوا أن يمنعوا دخوله بالقوة وطالبوا

بكل جراءة بقتل ديوان أفندي مقابل موت شيخهم ولحسن الحظ فإن ديوان في تلك اللحظة قد مات ولكن وليس هناك احتمال للشك بأنه مات مسموماً. وقد استلم شيخهم الجديد والرؤساء الأقل هدايا قيمة ودفعت دية الشيخ إلى أهله وهي عادة جرت عليها البدو وعاد السلام يعم بينهم.

وبعد مروره بالمراسم الإستقبالية وصل طوسون باشا إلى المدينة في تشرين الأول سنة ١٨١٤ مع ثلاثمائة من جنود المشاة وخمسمائة من الفرسان ومعظم هؤلاء قدموا حديثاً من القاهرة.

وفي تلك الأيام كانت الأمور التركية تسير على ما يرام في كل الحجاز وكانت الآمال معقودة على الباشا بنفسه بعمل ما ضد العدو وذلك حيث حدثت هزيمة أخرى مع عابدين بك ورجاله من الجند الأرناؤوط باحتلالهم مناطق من زهران جنوب الطائف لمنع الهجمات اليومية للعدو. فجعل المنطقة قاحلة على مسافة أربعين ميلاً ودمر كل ما من شأنه يفيد المارة من خلال تلك المنطقة.

وكان معسكراً على أحد أطراف تلك الصحراء الصناعية وكان العدو بقيادة الشيخ بخروج وكان متمركزاً على الجانب الجنوبي لهذه الصحراء. وفي يوم مبكر من أيام أيلول وقع الوهابيون على هؤلاء الجند الأرناؤوط وهم نيام والذين كانوا في شوق للضغط على الزناد ولو طلقة واحدة فقط ولكنهم تركوا المعسكر وكل ما يحويه ولكن قوة صغيرة من الجنود قاومت وهم من روميليا بإمرة «محو بك» وهو أكثر قواد الباشا فعالية ونشاطاً في منطقة الحجاز ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة القوات المسيطرة للوهابيين وهرب كل الجنود إلى خيولهم برئاسة زعيم شامي اسمه حسن بك والذي حاول تغطية انسحابهم من المعركة ولحق بهم «بخروج» لمدة يومين وهكذا فإن الأتراك قد أضاعوا كل خيامهم مرة أخرى وكل معداتهم الحربية الثقيلة وحوائجهم الشخصية وتموينهم. وقتل في هذه الواقعة ثمانمائة جندي تركي من المشاة وثمانين فارساً ولم يستطيعوا أن يتوقفوا حتى حضرت قوة أخرى على بعد أربع ساعات من الطائف فتوقفوا وتمركزوا مرة أخرى بأوامر من الباشا، باتجاه زهران ولكن الإضطراب قد

سيطر على الجنود الأتراك. وقد انضم عابدين بك منذ تلك اللحظة مع السمعة الطيبة في الشجاعة والذكاء.

وكانت فرقته من أقوى الفرق في الجيش ولكن آخر كارثة أقنعت جيشه بأن مقاومة أخرى ضد هذا الكم الهائل للعدو ستكون عقيمة ولم يكن هناك جندي واحد من الأتراك لم يتمنى باشتياق لأن يجد نفسه سليماً معافاً في مصر. وحيث أن الأتراك يفهمون أكثر من أي شعب آخر فإن الحاجة إلى وجه جريء في ظروف شيطانية أصبح حاجة ماسة.

وقد وصف الأتراك هزيمتهم الأخيرة وكأنها نصر لأن الفرسان قد جلبوا معهم رؤوس ستين من الوهابيين إلى الطائف بينما كان الجيش يرتجف من الخوف بين أسوار المدينة وقد أطلقت نيران البنادق في جدة إعلاناً عن الإنتصار وأضيئت القاهرة لثلاثة أيام متتالية احتفالاً بالنصر البطولية لعابدين بك.

الفصل الرابع عشر

الحرب ضد الوهابية في وسط الجزيرة العربية (١٨١٤-١٨٤٠)

الحرب ضد الوهابية في وسط الجزيرة العربية (١٨١٤-١٨٤٠)

مباشرة وبعد هزيمة عابدين بك وصلت حشود الدعم من الفرسان من القاهرة وكان هؤلاء الفرسان قد اختيروا من القبائل الليبية البدوية وكانوا قد عسكروا بالقرب من وادي النيل خلال فصل الصيف وكان ثمانمائة منهم قد غادروا إلى الحجاز وكانوا هم أنفسهم بدواً. وكانوا معتادين على طرق البدو في الحرب والمنتشرة بين الوهابيين وكانت خيولهم متدربة على المصاعب مثل الفرسان تماماً وكان كل فارس يرافقه جمل يحمل عليه المؤن للمسافات الطويلة في الحملات العسكرية. وقد انضم إلى طوسون باشا نصف هؤلاء الفرسان وهو في طريقه إلى المدينة المنورة. أما الآخرون فقد أكملوا مسيرهم إلى الطائف وما إن وصلوا إلى هناك حتى اختلط عليهم الأمر فلم يعودوا يميزوا أنفسهم عن الآخرين وبأنهم ذاهبون في مهمة ضد الوهابيين المتمركزين على مسافة بضعة أيام غربي تربة وكان يصاحبهم أدلاء من البدو من نفس المنطقة وكانوا كلهم مسلحين ومشهود لهم وفي إحدى حملاتهم أحضروا معهم ثمانية آلاف رأس من الغنم من معسكر للوهابيين.

وقد وصلت قوافل الحج في تشرين الثاني من مصر ومن الشام ومع الأخيرة وصل ثلاثة آلاف جمل والذين كان محمد علي قد اشتراهم من الشام. وألفاً أخرى اشتراها طوسون باشا من قوافل أخرى عابرة. والقوافل المصرية

أحضرت معها ألفين وخمسمائة جمل بالإضافة إلى دعم كبير من الرجال يقدر بألف فارس وكل هذه التجهيزات ستكرس في الأمور الحربية وقد حجزت كل القافلة إلى ما بعد موسم الحج وأرسل المحمل بعد انتهاء الموسم بواسطة البحر عن طريق السويس.

وقد انحدر الباشا من الطائف ليؤدي مناسك الحج وليقاتل سليمان باشا من الشام والذي عاد ورافق القافلة من الشام وقد كرم الباشا إحدى السيدات وهي أم طوسون والتي أتت عن طريق البحر للحج وكانت حاشيتها عظيمة بقدر ما أمكن لمصر أن تبدي هذه العظمة.

وقد حمل أمتعتها أربعمائة جمل من جدة إلى مكة وكانت خيمتها قد بقيت عند أسفل منحدر جبل عرفات وكانت رائعة المنظر في ا لنوعية والضخامة وقد حجت هذا العام مجموعات من عليه القوم أتت من اسطنبول وقد أقيمت شعائر الحج وكان مجموعهم هذا العام حوالي ثمانين ألف حاج من كل الطبقات والجنسيات، وبعد مواسم الحج بقيت القافلة الشامية لبضعة أيام في مكة ولكن محمد علي أمن لها الحماية لعشرة أيام زيادة عن الوقت المحدد لها طالباً منهم كل الجمال لديهم وكانوا في حدود اثني عشر ألفاً وذلك لنقل أمتعة وحوائج جنوده من جدة إلى مكة قبل أن يرحلوا إلى بلادهم.

وعندما جمع ونقل كل قواته وفعاليته من جدة إلى مكة ثم إلى الطائف وكانت حالة مستودعاته وكمية جماله قد رفعت معنوياته وأمله بالنصر وقد أعلن عن نيته في أنه سيجعل نفسه على رأس الجيش وهذه الخطوة قد رفعت بطريقة أو بأخرى درجة الإستعداد الروحي والجسدي لدى الحبش.

وقد حددت ترابة مرة أخرى على أنها هي النقطة الأهم للهجوم وقد جهز لهذه الغاية أسلحة ثقيلة هي عبارة عن اثنتي عشرة قطعة حربية والتي شجعت الجنود فيصدقوا بأن أسوار ترابة لن تبقى صامدة ولا أحد يمكنه أن يقيم حائطاً في وجه العدو كما كانت الحالة عندما هاجمها طوسون من قبل. وكان هناك خمسمائة بلطة جاهزة لقطع أشجار النخيل والتي قد تعيق التقدم نحو ترابة.

وكان هناك عشرين بناءاً ومثلهم من النجارين الذين هم قد ألحقوا بالجيش وذلك من أجل عمل الخنادق ومفاجأة العدد ولكي يكون الجنود متأكدين من النجاح والنصر المؤكد أخذوا معهم حمولة من بذر البطيخ جلبت من وادي فاطمة (كان يعرف سابقاً بوادي مر) وحملت بموكب مهيب خلال مدينة مكة. وكان المقصود من هذا العمل هو رفع معنويات الجند بأن التدمير سيكون محتماً لترابة ثم تزرع هذه الحبوب وتنثر فوق أنقاضها مما جعل الجنود متوترين بدل التهدئة إذ استنتجوا أهمية ترابة كموقع لا بد من السيطرة عليه ولو لم يكن ذا شأن لما نال كل هذا الاهتمام.

ولرفع المعنويات وتشجيع الجنود أكثر فقد ألقي القبض على مجموعة من البدو من ثلاثين شخصاً على الطريق إلى جدة ووجهت إليهم تهمة السرقة وانتمائهم للوهابيين [والذي ظهر فيما بعد أنهم إنما ذهبوا إلى جدة لشراء بعض الأغراض والمؤن من السوق] أخذوا وأعدموا في باحة عامة في مكة أمام حشد كبير من الناس.

وتلا هذه المذبحة الغريبة ـ وحيث أصبح كل شيء جاهز للحملة والتي ستقرر مصير هذا الحكم برمته ـ ترك أحمد بونابرت مكة على رأس أكبر مجموعة من المشاة وبموكب عسكري حاشد في ١٥ كانون الأول لسنة ١٨١٤. وكان على الباشا أن يتبعه بألف ومئتين من الفرسان في يوم ٢٤ كانون الأول ١٨١٤.

وعندما وردت الإشارات السرية من مُخبري الباشا إلى أن الوهابيين يتحركون بنشاط في القنفدة وباتجاه جدة. أثار هذا التقرير أموراً خطرة وبدأت المجموعات الكثيفة من البدو يذهبون لاستطلاع الأمر. وحدث إرباك شديد وهو الخشية من أن الوهابيين إذا لم يهاجموا المدن نفسها فإنهم على الأقل سيقطعون خط الإمداد والاتصال مع مكة حيث أن الماء كان من الأمور النادرة جداً في جدة وقد بدأت الحكومة بملأ خزانات الماء على عجل وبطريقة اضطرارية. وقد سحب المواطنون حاجاتهم البسيطة من الماء من مسافات بعيدة حوالى ثلاث ساعات عدواً بالحصان. وارتفع ثمن المواد الغذائية

والتموينية إلى ٣٠٪ وهذا ما كان يحدث بعد كل شائعة. وبعد فترة هدأت نفوس الناس وكفوا عن الإرباك وذلك عندما علموا أن فرقة صغيرة فقط من جيش تامي قد نصبت خيامها قرب القنفدة.

وبعد عدة أيام من وصول الأخبار عن أن قبائل من الوهابيين من زهران قد أغارت على مناطق البدو المتحالفة مع الباشا وقد نهبت قرية محصنة جداً حيث يتواجد فيها معسكر للجند الأرناؤوط بينما كانت تربة في حالة تحضير كامل من الدعم والتحصين في كل الأمور ومن جميع الإتجاهات من أجل صون البلدة من الهجوم المتوقع.

وفي كانون الثاني ١٨١٥ تحرك محمد علي من مكة بكل خيله ورجاله وجماله التي أمكنه جمعها وحشدها من أجل الانضمام إلى حسن باشا وعابديون بك ومحمود بك وأحمد بونابرت وطوبوز أوغلون والشريف راجح ورؤساء آخرين من جنده وتجمعوا في نقطة حيث يكون هناك تجميع كان يكفي لستين يوماً وعندما وصل إلى «زيحا» المحطة التالية من الطريق الشمالية من مكة إلى الطائف. أخبره رسله السريعين بأن مجموعة كبيرة من العدو تتجه صوب حلفائه من القبائل العربية. وهكذا تعجل محمد علي في زحفه وبعث في نفس الوقت الشريف راجح مع جنوده من البدو والفرسان الليبيين ليؤازروا قبيلة عتيبة. وقد اكتشف أن الوهابيين يملكون عدة أماكن لمصادر المياه بينما يحمل الجنود الأتراك الماء معهم من مناطق بعيدة وكان مجموع عدد الوهابيين يقدر بخمسة وعشرين ألف مقاتل مصحوبة بخمسة آلاف جمل ومن دون أسلحة ثقيلة بحوزتهم. وكان يرأسهم من القواد كل رؤساء المناطق من جبال اليمن (عسير) ومن الجنوب الشرقي للجزيرة العربية. وكذلك فيصل بن سعود.

وقد عمل الوهابيون فصيلاً متفرغاً لمهاجمة القنفذة وذلك لكي يحولوا أنظار الباشا عن هدفه الأساسي بالهجوم على ترابة ولكنهم وقعوا وبطريقة غير مقصودة على خط سير الأتراك وهكذا فإن فرسان الباشا عندما تقدموا باتجاه القنفدة في الوادي وكان ينوي وضع قطعة ثقيلة من قطع أسلحة الميدان وكان

الوهابيون يطمحون فقط بمنعه من الوصول إلى المناطق المرتفعة فعندما وصل بقوا في أعالي الجبال. وكان اليوم الثاني قد صرف في المناوشات مع العدو بدون الوصول إلى نتيجة.

ومع ذلك فقد ذهب بعض الضحايا في هذه المناوشات وبدأ الأتراك يفقدون الأمل بالنجاح فيما خاض الوهابيون بأمل دموي حرباً غير متكافئة لإضعاف قوة العدو. ولكن وبسبب كثرة الهزائم التي جعلت كثيراً من البدو المنخرطين مع جيش الباشا وكذلك بعض الجنود الأتراك يبدأون بالتراجع وانسحبوا عائدين إلى مكة وليغطوا على سبب ارتدادهم وتراجعهم فإنهم أشاعوا في مكة أخباراً عن هزيمة ساحقة لحقت بالباشا. وإن الباشا قد قتل وكوارث أخرى ألمت بالجيش.

يقول بوركارت:

«إن الرعب الذي تسببت به تقارير هؤلاء في مكة لا يمكن تخيل رد فعلها. فإن كثيراً من الجيش والمحاربين والحجاج الأتراك كانوا يستعدون للعودة إلى بلادهم وكذلك فعل التجار الأتراك وحتى الجيش المتواجد في المدينة كلهم توقعوا الموت المحتم عند وصول الوهابيين المنتصرين وقد بيعت نقلة الجمال الواحدة بأربعمائة قرش من مكة حتى جدة ومع هذا فإن القلة القليلة من البدو الذين تملكون بعض الجمال قد صعدوا بهم إلى الجبال بعيداً وذلك بعد سماعهم للشائعات عند انكسار الباشا. ولكن آخرين قد رابطوا في المعسكر داخل القلعة فوضعوا البسط البدوية والأغطية تمويهاً كي يثبتوا أنهم ليسوا أجانب ولم يكن يبدو على أحد منهم الرغبة في الدفاع والشريف يحيى نفسه مع أنه لم يستلم أي تقرير رسمي فقد كان جاهزاً من أجل عودة شريفة إلى جدة وأنا مقتنع من ناحيتي بأن الباشا لو تعرض لهزيمة فإن الوهابيين سيعترضون كل الفارين من وجههم على طريق جدة فيقطعوا كل أمل لهم بالنجاة وقد فكرت بأن أكثر وأسلم طريقة لنجاتي هي في اللجوء إلى المسجد الكبير (الحرم) وذلك حيث أن الوهابيين كانوا في كل الأوقات يحترمون عدم تدنيس هذا الحرم المقدس وبعد أن وضعت بعض الأدوات القليلة والثمينة التي

أملكها داخل شنطة مع كمية بين البسكويت والتي كنت أتموّن بها وذهبت مصحوباً بعبدي إلى الحرم وتوطنت المسجد حيث كان هناك كثير من الحجاج الفقراء قد آووا إلى المسجد لنفس السبب الذي أويت إليه وهذه الكمية من البسكويت التي كانت معي مع ماء زمزم كانت من الممكن أن تكفيني لأكثر من أسبوع ولكن هذه الحشود الكبيرة من الحجاج الأتراك لم يحذوا حذوي وأعتقد لأنهم ربما يستطيعون الدفاع عن موقفهم تجاه الوهابيين أو ربما لأنهم لم يقتنعوا بأن جندياً في نشوة الإنتصار قد ينظر إلى مكان مقدس وقد تبين لنا فيما بعد بأن خيالنا قد بنى أفكاراً كارثية لا معنى لها. وذلك أنه وبعد ليلة واحدة من القلق والفزع ذهلنا وسررنا بالمفاجأة في صبيحة اليوم التالي لسماع أنباء رسمية عن هزيمة كاملة وساحقة للوهابيين».

محمد علي باشا كان يعلم بأنه لن ينتصر طالما أن العدو كان ما يزال مسيطراً على المناطق الجبلية المرتفعة وكان يعلم أيضاً أنه إذا لم ينجح في اليوم التالي فإن مهمته في الحجاز ومصر ستنتهي إلى الأبد. من أجل ذلك فقد أرسل خلال الليلة السابقة كل قوى الدعم والتعزيزات من قوى المشاة مع أسلحة الميدان الثقيلة لتأخذ أماكنها في موازاة القوات الوهابية. ومع إشراقة صباح اليوم التالي عاود الهجوم بفرسانه ولكن الوهابيين صدوا الهجوم ثم بعد ذلك جمع ضباطه وأمرهم أن يتقدموا بمجموعاتهم أقرب فأقرب إلى المواقع الوهابية أكثر من قبل وبعد أن أطلقوا نيران بنادقهم تراجعوا بشكل غير منظم وحسبما خطط لها الباشا تماماً وعندما رأى الوهابيون تراجع العدو حسبوا أن فرصة النصر قد حانت وبدأت لحظة الإجهاز على العدو بالكامل. فتركوا أماكنهم المحصنة تحصيناً قوياً فوق الجبال ولحقوا بالأتراك الهاربين فكان الأتراك عند السهل وحدث كما توقع الباشا فعندما تأكد أن العدو أصبح بعيداً عن الجبال استجمع فرسانه واستداروا لمواجهة اللاحقين بهم وحالاً حسم المعركة لصالحه.

وقد تبادل المشاة الأتراك المواقع مع العرب فهاجموهم أما الشريف راجح والذي وصل للتو مع مجموعته بعد أن صد الهجوم الضعيف للوهابيين على قبيلة عتيبة. انضم إلى جيش محمد علي وتقدم إلى الوادي حيث

يهاجمون الوهابيين ويجبروهم على التراجع ثم يفروا منهم متشتتين. وحالما رأى محمد علي الأعداء منهزمين أعلن بين جنوده أنه سيدفع ستة دولارات عن كل رأس من رؤوس الوهابيين وخلال ساعات قليلة كانت كومة من خمسة آلاف من رؤوس الوهابيين قد تجمعت أمامه وفي خلال واد ضيق حوصر أكثر من ألف وخمسمائة وهابي حيث أعمل فيهم الأتراك القتل وقطعوهم إرباً وكان معسكرهم وخيمهم وأمتعتهم وأكثر جمالهم غنيمة حرب في أيدي الأتراك.

وقد أخذ ثلاثمائة من الوهابيين أسرى وبعد صدور أوامر عليا من محمد علي وهبوا الرحمة. وقليل جداً من هؤلاء الأعداء قد تذلل من أجل طلب الرحمة.

وقد لحق الشريف راجح مع بعض فرسانه بالهاربين وكان أثناء ذلك ينضم إليه الكثير من الجيران العرب في بحثه عن الفارين من الوهابيين.

وقد حارب الباشا شخصياً في هذه المعركة وذلك أنه عندما طلب من فرسانه أن يستديروا لمواجهة اللاحقين بهم عند تنفيذ خطته. وقد استحق الفخر بحق لأنه عرف كيف يزرع روح الثبات والجرأة في نفوس الجنود بعد أن كانوا قد تخلّوا عن كل أمل لهم بالنجاح.

وبجانبه لم يميز أي إنسان نفسه أكثر من تمييز الشريف راجح الذي كان يمتطي فرسه السوداء المشهورة متسلحاً برمحه ثم جال وصال بعيداً حتى المقدمة وأمام حشود العدو وباتجاه خيمة فيصل. وكانت الخيمة الأكثر بروزاً في كل المعسكر رامياً رمحه في الأرض أمام خيمة فيصل مدافعاً عن نفسه ضد مجموعة كبيرة من الوهابيين حتى تقدم أصدقاءه ونجدوه ولم يكن لدى الوهابيين غنيمة أكثر أهمية من الجمال وقد وجد راجح داخل خيمة فيصل مبلغاً من المال يقدر بألفي دولار. وحصلت مشاجرات بين الجيش التركي وحلفائهم من البدو الذين يرافقون راجح فيما يخص الغنيمة وكان الباشا منحازاً لجهة البدو. وكان أغلب الجمال من نصيب البدو وقد تبين فيما بعد أن الأتراك قد خسروا ما بين أربعمائة وخمسمائة رجل.

إن الهزيمة الكاملة للوهابيين قد تكون ناتجة عن نزولهم من المرتفعات الجبلية إلى السهل حيث لم يكن لديهم ما يقاومون به قوة الفرسان الأتراك. وقال سعود في آخر كلماته لابنه محذراً أن يتجنب الوقوع في مثل هذا المأزق المؤدي إلى الهزيمة. ولكن الإحتقار الذي واجه به الوهابيون الجيش التركي والرغبة في إنهاء السيطرة التركية وربما الرغبة في إنقاذ شخص محمد علي جعلهم ينسون كيفية القتال الحقيقي والطريقة التي اعتادوها فيجدون أنفسهم فجأة مسيطر عليهم مما جعل قوتهم تصاب بالشلل.

وفي الحال بدأ الرسل يصلون إلى اسطنبول والقاهرة مخبرين عن النصر والأتراك أصبحوا مبتهجين. أما أهل الحجاز فإنهم بالرغم من أنهم فرحوا لإنقاذهم من سيطرة الوهابيين مرة أخرى، ولكنهم حزنوا لرؤيتهم العرب يندحرون على يد الأتراك واشمأزوا للقساوة التي تعامل بها هؤلاء مع العرب قبل وبعد المعركة. والثلاثمائة سجين والذين كانوا قد وعدوا بالعفو قد أرسلهم محمد علي إلى مكة واحتفل بالنصر هناك بأن جعل منهم خمسين يجلسون على خوازيق أمام أبواب مكة. وكان اثنا عشر منهم عند كل بيت من بيوت القهوة الإثنا عشر بين مكة وجدة يعانون آلاماً كالموت وأما الباقون فقد أجلسوا على خوازيق عند باب مكة في مدينة جدة حيث كانت تنهش جثثهم الكلاب والنسور.

وبعد أربعة أيام من نهاية المعركة وصل محمد علي عند ترابة حيث هرب منها فيصل حالما وصل إليها محمد علي والمواطنون الذين تخلوا عنهم حلفائهم قد استسلموا وقد ثبت محمد علي مركز قيادته هناك لبعض الوقت وقد نهب الأتراك هناك بعض البيوت وحملوا معهم بعض النساء العربيات الجميلات والذين أعيدوا إلى أهلهم بعد ذلك بناءً على أوامر من الباشا.

والتجأت غاليه المشهورة إلى منطقة من مناطق البدو وقد كانوا يطمحون بأخذها إلى اسطنبول كتذكار للإنتصار. ولكن لم يوجد إقتراح يستميلها للعودة أو أن تضع ثقتها بإقتراحات الأتراك.

وحالاً وبعد الإنتصار وجه محمد علي الشريف يحيى للسير مع قواته من

العرب إلى القنفذة وقد دعم قواته بقوات محو بك وأرسلت الأوامر إلى جدة لكي يؤمنوا النقليات للمؤن العديدة إلى القنفذة. وحيث أن قوة الوهابيين أصبحت مركزة في المنطقة الجنوبية فقد قرر محمد علي نقل الحرب إلى عقر دارهم وأن يبيدهم إبادة كاملة وشاملة وحمل كل ما يمكن حمله على خمسة آلاف جمل.

وقد تحرك الجيش الأساسي من تربة باتجاه الجنوب إلى رانيا وبعد أربعة فراسخ من ذلك المكان وصلوا إلى منطقة بيشه وهو واد خصب يخص قبيلة بني سالم حيث رئيسهم ابن شقبان كان قائداً من قواد الوهابية وقد بنى هناك قلعتين صغيرتين بأوامر مباشرة من سعود.

وقد مكث الجيش لمدة أربع وعشرين ساعة في بيشه وهي أهم موقع في المنطقة كلها وهي إلى الشرق من جبال اليمن، وأطلق عليها البدو الشماليين مفتاح اليمن. وقد انضم إلى الباشا هناك مجموعة من البدو وهم الذين لم يكونوا على وفاق مع الوهابيين وكل من له علاقة بهؤلاء الشيوخ الذين عزلوا عن مراكزهم قد أتوا إلى محمد علي لكي ينصفهم ويعود إلى مناصبهم وقد بدأ محمد علي يمشي على نهج سعود في هذه الأمور حيث غير شيوخ القبائل فأصبح مؤيدي محمد علي هم الأقوى في المراكز فتكونت مجموعة موالية له بين القبائل. في الجبال، وبدأت الأخبار تصل عن محاولة «تامي» لتجربة حظه من جديد لخوض معركة جديدة مع محمد علي وبدأ محمد علي يوجه جيشه باتجاه الغرب من بيشة.

وفي هذه المسيرة عانى رجاله عناءً شديداً من الجوع والتعب وقد نفقت أغلب الجمال لديه وعدد كبير من الخيول لحق بالجمال وكان ركب طلائع الجيش يأكل الأخضر واليابس من حول الطريق من كلأ وحبوب ولهذا فإن بقية الركب لا يجد بعد ذلك ما يأكله. وعند تقدم الأتراك كان العرب يهربون في كل اتجاه ومعهم مواشيهم ومؤنهم بينما البدو الذين والوا الجيش فقد انتهزوا فرصة الفوضى الحاصلة كي يختلسوا كثيراً من الأحمال لدى الجيش وعند كل توقف تسقط بعض الجمال حيث تذبح فيتسابق الجنود على أكل لحمها بشراهة

وآخر كمية من البسكويت قد وزعت عند بيشه وبعدها ترك كل جندي يدبر أمره بنفسه كما يشاء. وقد وجد الباشا أن يمنح كل جندي بعض المال بمقدار قرش زيادة عن مدخوله اليومي، ولكن هذه الأموال لم تكن ذات قيمة في منطقة تضيف الذرة إلى الخبز بقدر ما تحتمله شهية الإنسان ويكلف اثنا عشر قرشاً.

وبعد مسيرة يومين من بيشه دخلوا إلى المنطقة الجبلية والتي كانت قد أخليت تماماً من سكانها تقريباً، وقد أمضى الأتراك بين عرب الشهران بعض أيام الراحة ومات مائة حصان في يوم واحد وأصبح بعض الجنود غير مرتاحين للواقع، وعندما أحسوا بأن التراجع قد يؤدي إلى كارثة كبيرة فإنهم عدلوا عن هذا التفكير واستمروا في المسير.

وأمر الباشا قواده أن يفكوا خيامهم ويشدوا الرحال ويكون كل منهم على رأس فرقته وقد وعد جنوده غنائم عظيمة وكثيرة من سلب المدن في اليمن وهكذا فقد حاول أن يحفظ معنوياتهم عالية وقد أنشيء سوق عند كل توقف أمام خيمة الباشا حيث كان البدو يبيعون الجنود كل ما يمكنهم حمله أو سلبه من العرب على الطريق. وكان الباشا بنفسه يرأس وينظم عمليات التجارة بحزم.

وقرب منطقة عسير فإن المنطقة الجبلية الوعرة والشائكة أحياناً قد شكلت عوائق بالنسبة لمرور الأسلحة الثقيلة وقد دخل الأتراك هذه المنطقة بعد اثني عشر أو أربعة عشر يوماً من انطلاقهم من بيشة. وعند توقفهم عند القلعة المسماة «تور» والتي تقف على صخرة مرتفعة ويحيط بها الجبال من كل الجهات وقد بنيت بواسطة أبو نقطة الذي كان يتولى قيادة المنطقة قبل «تامي» وكانت هذه القلعة تعتبر من القوة والمنعة بحيث أن أحداً من العرب لم يكن قادراً على احتلالها، وقد جمع تامي من ثمانية إلى عشرة آلاف مقاتل. وعندما هاجم الباشا العشيرتين وجنودهما الذين يهاجمون بإطلاقهم النار دون توقف أبداً وقد قتلوا ثلاثمائة تركي وكان تامي يبدو ممتطياً حصانه في مقدمة جيشه يحركهم وهو ينشد أغاني الحرب. ولكن في اليوم التالي استعمل الباشا الأسلحة الثقيلة فانهزم الوهابيون على أثرها وكان تامي آخر واحد هرب من

الميدان، وقد اكتشفت أماكن تخزين لكمية كبيرة من المؤن والذخيرة والتي كانت مهمة لخدمات الجيش مثل البنادق والذخائر والتي كان الوهابيون قد استولوا عليها العام السابق من الأتراك في القنفذة كما وجدوا كميات كبيرة من «عدة إشعال السلاح الناري» كانت موضع تقدير من العرب غالباً وبشكل خاص.

وكان الجيش بعد هذا التعب المضني والزحف المنهك قد بدأوا بالتصريح بشكل مباشر بأنهم يودون العودة إلى مكة ولأن الوسيلة الوحيدة لتهدئة رجاله فإن محمد علي قد وعدهم بإرسالهم إلى مصر في الحال ولهذا فإنه بدلاً من الاستمرار بالمسير جنوباً باتجاه اليمن فقد توجه غرباً إلى القنفذة وبعد أن انهزم «تامي» في المعركة التي خسرها توجه غرباً إلى القنفذة وبعد أن انهزم «تامي» في المعركة التي خسرها لجأ إلى جيرانه في العريش في بيت الشريف. وقد وجدها الشريف فرصة مناسبة لكي يتجنب غزو معاد من قبل الأتراك وفرصة لإظهار حسن النوايا بالخضوع والتوبة. لذا فقد قيد تامي بالسلاسل وأرسل رسولاً إلى مركز القيادة التركية مع رسالة نعت فيها الشريف نفسه كالتالي «عبد محمد علي باشا» ويسأل عن الطريقة التي يجب أن يسلم بها «تامي» وكان الشريف راجح في تلك الأثناء يجوب المناطق الجبلية بحثاً عن الهارب فوصلته الأنباء من القيادة بأخذه أسيراً إلى القنفذة حيث وصل الجنود إليها تلك الأثناء ليجدوا بأن المؤن قد وصلت من جدة بشكل ضخم عن طريق البحر.

وأرسل محمد علي من رانيا حملة باتجاه زهران من صوب الشرق وفيما كان محو بك ينحدر من الجبال من صوب الشرق بطريقة ذكية وضع جماعة «بخروج» بين نارين فهزمهم هزيمة ساحقة وأخذ بخروج نفسه أسيراً وحمل إلى القنفذة.

وفي القنفذة مكث الباشا عدة أيام وقد وضع الأسيرين في خيمة قريبة من خيمته وكان رد فعل تامي تجاه الجيش الإحترام. وكان يتوجه إليه الباشا أحياناً بالحديث للمزاح والتسلية كما يتلهى النمر بفريسته قبل أن يلتقطه ويلتهمه ولكن

تصرفات تامي الوقورة قد بدلت هذه الشخصية التركية المرعبة. وقد وعده محمد علي أن يكتب إلى السلطان ما هو في مصلحته وسيطلب منه أن يخوله العيش في المنفى في روميليا.

وكان تامي ذا قوة فطرية طبيعية، وكان قصير القامة ذا لحية طويلة بيضاء وكانت نظراته ثاقبة وكان في العموم متهكماً ولكنه كان مؤدباً تجاه الباشا التركي. بينما كان بخروج على عكسه تماماً فكان صامتاً عبوساً وكان مقتنعاً بأن محمد علي لن يصفح عنه وحتى أن الباشا لم يكن يرغب برؤيته أصلاً وفي أحد الليالي وقد وجد حراسه نائمين استطاع بخروج أن يلتقط خنجراً ويحاول فك قيوده ثم هرب من المعسكر فلحقوا به فاستطاع قتل اثنين وجرح ثالث قبل أن يصلوا إليه والإمساك به. فسأله محمد علي في اليوم التالي بأي حق قتل جنوده فأجابه بخروج: عندما أكون حراً وبدون قيود فأنا أفعل ما أريد وعندما أكون حراً سأفعل ما أريد فقال له الباشا وأنا سأفعل مثلك، مثلما أريد. ولكي يدرب رجاله الأتراك ويرضي رغبته بالثأر من بخروج جعله يجلس بين الجنود المحيطين به من كل جانب (وهم من الحرس الخاص لمحمد علي) وأعطاهم تعليماته بجرح السجين بسيوفهم برقة وذلك حتى يطيل فترة تعذيبه وظلوا عاكفين عليه هكذا إلى أن هلك دون أن يشتكي. ثم قطع رأسه وأرسل بصحبة تامي إلى القاهرة ثم بعد ذلك إلى اسطنبول، وتامي وصل إلى اسطنبول فحزت رقبته في الحال.

ثم مشى الباشا من القنفدة إلى مكة والتي وصلها يوم ٢١ آذار بعد أن تركها لمدة خمسة عشر يوماً في حملته العسكرية، ومن بين آلاف الجمال التي صحبت الحملة العسكرية عاد إلى مكة أقل من ثلاثمائة جمل وكان أكثر الجمال قد قضى أثناء الطريق. معظم الأحمال والأمتعة والذخيرة قد أبيدت أو تلفت وذلك لعدم توفر وسيلة لنقلها ومن الخيول تبقى فقط ثلاثمائة عند العودة إلى مكة وبقي من الأربعة آلاف تركي أرسلوا من مكة فقط ألف وخمسمائة وكانوا بمعظمهم من أصحاب الرتب العالية فالأقل وكانوا في أسمال بالية أنهكهم التعب والوهن وبدون مال لديهم [وقد خرق محمد علي وعده لتامي

فعند وصوله إلى القاهرة كان يجر سلسلة ثقيلة حول رقبته ووضع فوق جمل وعرض في الأسواق حيث رأس بخروج يتدلى من كتفيه ضمن كيس].

ونظراً للوعد الذي قطعه محمد علي على نفسه في القنفذة سمح للجيش بالسفر إلى مصر من جدة بحراً جميع أفراد الجيش ما عدا حسن باشا والذي تركه في الحجاز مع عدة مئات من العسكر الأرناؤوط وحضر في الحال مجموعة كبيرة من مصر من الجنود الجدد ليحلوا محل القدامى والذين غادروا.

أما الوهابيون فقد نقص عددهم بشكل ملحوظ وخصوصاً في الجنوب وعاد عبد الله بن سعود من القصيم إلى الدرعية بعد أن سمع بهزيمة أتباعه الوهابيين على يد محمد علي متوقعاً هجوماً جديداً منه. وعند عودة محمد علي باشا إلى مكة جمع كل العلماء ورجال الدين ووجهاء وأعيان البلد وقرأ عليهم رسالة سيوجهها إلى عبد الله بن سعود عارضاً عليه وناصحاً بالاستسلام والخضوع ومقترحاً خطة للسلام محملاً إياه مسؤولية إعادة الكنز الذي أخذه والده من عند قبر الرسول في المدينة المنورة إذا لم يكن يرغب بالوصول إلى نفس مصير أصدقائه في الجنوب وقد أرسلت هذه الرسالة إلى الدرعية بواسطة جندي تركي مصحوباً ببعض البدو.

وبعد أن مكث محمد علي قليلاً من الوقت في مكة عين حسن باشا حاكماً للمدينة هناك وحسين بك رئيس الفرسان والشريف راجح مسؤولاً عن الحامية العسكرية في ترابة وبيشة وانطلق إلى المدينة حيث وصل دون سابق إنذار يوم ١٤ نيسان مع ثلاثين أو أربعين من التابعين يمتطون الجمال قاطعاً كل المسافة عن طريق البر.

وعندما وصلت أخبار محمد علي إلى قبائل الشمال فإن كثيراً م ن الشيوخ عملوا اقتراحات إلى طوسون باشا والذي كان أثناءها في المدينة أن يساهموا معه في حربه ضد الوهابيين وحيث كانت قوته ذائعة بصيتها وعنفها في قبائل الشمال أكثر منها بين قبائل الجنوب، وفي آذار أتى معظم شيوخ القصيم إلى المدينة الواحد تلو الآخر مؤكدين لطوسون باشا رغبتهم في المشاركة حيث وزع عليهم المكافآت وأرسل معهم أربعمائة من الفرسان ليحمي قراهم.

وأصبح طوسون نفسه يحدوه الأمل بالنصر على نجد وجدير بالملاحظة أن شجاعته الشخصية قد لعبت دوراً وكان دائماً سيء الحظ في حملاته في الحجاز وأصبح قلقاً كي يحقق انتصارات شبيهة بانتصارات والده والتي تحققت أخيراً. ولكنه لم يحسب حساب الوسائل الحقيقية المتوفرة لديه. ومحمد علي لم يعد يثق أصلاً بقدرة ابنه على إدارة الأمور والمسؤولية عن إدارة أي مبلغ من المال عالماً بكرمه المفرط وأحياناً في غير موضعه وربما لم يكن يريد لأي إنسان أن يشتهر أو يظهر بقربه وطوسون كان بالتالي بحاجة إلى الجمال والطعام وقد حاول أن يحل مسألة التمويل الخاصة به فترك المدينة في نهاية آذار متجهاً إلى الحناكية وهي قرية مهدمة مع أسوارها وهي على مسيرة ثلاثة أيام من موطن قبيلة عنيزة في الطريق إلى القصيم وكان معه أربعمائة جمل يحملون المؤن والذخيرة ويصحبه أيضاً بين مئتين وثلاثمائة فارس وأربعمائة من المقاتلين المشاة ويتبعه عدة مئات من أحلافه البدو وبشكل أساسي من حرب ومطير.

وبقي بعض الوقت في الحناكية وظل حتى وصل والده إلى المدينة وكان السبب الأساسي لزيارة محمد علي للمدينة المنورة ربما لرغبته بالحصول على معلومات فيما يخص شمال الحجاز بالإضافة إلى زيارة قبر الرسول (ص) وعند وصول محمد علي إلى المدينة بدأ يرسل الأوامر إلى ابنه في الحناكية بالعودة إلى المدينة وذلك للتباحث معه في وجهات النظر. ولكن طوسون كان قد قرر نهائياً القيام بهذه الحملة. وحالما وصله كتاب محمد علي باشا وبدلاً من أن يطيع الأوامر فإنه انطلق باتجاه القصيم وحيث أنه كان في رتبة والده باشا بثلاث شعب فقد كان محمد علي مخطئاً إذ جعله يعتمد عليه بالكامل، وكانت واردات جمارك جدة والتي كانت من حق الشريف قد وضع طوسون يده عليها وقد حولت إلى طوسون وكان الباب العالي قد حولها سابقاً إلى محمد علي من أجل تغطية نفقات الحرب.

ومنذ تلك اللحظة كانت تصل طوسون باشا تقريباً مساعدة يومية مثل بقية قواد الجيش. وقد ثبت محمد علي كل شمال الحجاز بيد ابنه طوسون وقد جعل مع ابنه طوسون ضابط ارتباط بينهما وهو ضابط من بلاط محمد علي

والذي من خلاله تمر المعلومات من وإلى محمد علي وكان محمد علي طلب منه المشاورة معه عن طريق هذا الضابط في كل المناسبات وذلك لأنه كان يعتقد بعدم أهلية ابنه لتحمل المسؤولية وحيداً.

ومباشرة وبعد وصول هذا الشخص إلى المدينة والذي جعل نفسه غير مرغوب فيه بالنسبة لتلميذه والذي في لحظة من لحظات الغضب جعله يأمر بقطع رأسه. وعند ذلك حدثت فوضى كبيرة في إدارة الأمور وكانت العلاقات بين الأتراك وجيرانهم العرب في حالة سيئة فقد ارتكب الجنود حماقات وسرقات. وكان طوسون يرغب باقتناء الجمال فكان يلتقطها من أي قطيع لأي بدوي يصادفه في طريقه، وكان محمد علي حين وصوله إلى المدينة قد قرر أخذ الخطوات الهجومية باتجاه العدو ولكنه بدلاً من ذلك أصبح يتريث من أجل إصلاح الأعطال الإدارية والأضرار التي حدثت نتيجة أخطاء طوسون باشا وقد لحقت بطوسون باشا قوة مؤلفة من مائتين وخمسين فارساً بقيادة إبراهيم آغا (توماس كيت) وبما أنه كان هناك كتيبة مشاة كانت وصلت من ينبع برئاسة أحمد بونابرت قادمة لتوها من القاهرة، وكان طوسون في أيار وبعد مسيرة عشرة أيام أو أحد عشر يوماً من المدينة المنورة وصل بعدها إلى القصيم. وكان خلال هذه المسيرة قد هاجم بدو حاتم وأخذ منهم خمسمائة من جمالهم والتي أرسلها إلى المدينة لتحمل المؤن من ينبع وعند وصوله إلى الرس إحدى مدن القصيم المهمة وكانت محصنة بسور وكان مصحوباً بكتيبة فرسان وكانت قد سبقته قبل فترة وقدم إليه شيوخ القصيم ومن عدة مناطق للتباحث وأخذ الشورى.

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن سعود على رأس جيش من البدو والمزارعين من نجد كذلك قد دخل القصيم أيضاً وأقام مقر قيادة عسكرية على بعد خمس ساعات من الخبرا حيث معسكر طوسون باشا وهنا وجد طوسون باشا نفسه في موقف خطير وغير ثابت الركائز.

وقد سمع طوسون بأن خازن ماليته إبراهيم آغا (توماس كيت) قد حوصر وهو في طريقه إليه وقطعت كتيبته أرباهو وفرسانه.

هذه المنطقة الخصبة من القصيم قد أنتجت مؤونة وحاجات جنود أكثر من جنوده ولكن الفرق القليلة من الوهابيين كانت تحرم المؤن على الأتراك والذين اعتمدوا على قريتين أو ثلاث من الموالين لهم من أجل طعامهم اليومي وقد تبين فيما بعد وبسرعة بأنه نادر جداً. وكان الطريق إلى المدينة مليء بالأعداء ولم يكن هناك أي معلومات أو مخبرين لنقل الأخبار الصحيحة عن خطوات محمد علي وتحركاته في ذلك الاتجاه حيث الفريقين يتهيآن لمعركة حاسمة. ولم يستطع طوسون وضع ثقته بالبدو الموالين له لأنه كان يعلم بأنهم قد يتخلون عنه في الحال لصالح الطرف الآخر في أول انهزام له وعندما أراد أن يحسم المعركة ويبدأ الهجوم كان ضباطه وجنوده غير مستعدين لذلك. وذلك لأن حجم الوهابيين الضخم والذي يفوق حجمهم قد أفزعهم وأصبحوا مقتنعين تماماً بأنه في حال هزيمتهم فلن ينجوا منهم مبشّر وكان من الحكمة عمل تسوية مع العدو أفضل من مواجهته وقتاله والأكثر من ذلك أن محمد علي يكون قد فوض ابنه من أجل تنفيذ سلام بشروط مفيدة. وكان بعض البدو قد عينوا ليعلنوا عن وضع قائد الأعداء والذين أرسلوا أحدهم وهو حباب ليسبر لهم غور خطط طوسون.

وقد استقبل طوسون حباب بالترحاب والذي أرسل يحيى أفندي طبيبه وهو مواطن سوري يتكلم العربية أكثر من أي تركي ليتباحث مع عبد الله بن سعود. وكان يحمل بعض الهدايا وبقي هناك ثلاثة أيام في المعسكر الوهابي وقد رغب الطرفان بأن تكون نقاشاتهم من أجل السلام وقد استخلصت نتائج المحادثات وكان أحد رجال الحاشية لعبد الله ينتظر خلف طوسون ليصدق على الإتفاقية وفي هذه الإتفاقية أبرز عبد الله كل الشكاوى المتعلقة بملكية الأراضي المقدسة. مؤثراً نفسه بأنه شخص مطيع للسلطان وأنه يجب أن يكون له حرية التنقل في أماكن السيطرة التركية بما يؤهله لأداء واجبات الحج بكل يسر وسرور وقد تخلى طوسون لعبد الله عن مدن القصيم والتي هي أصلاً بحوزته وطرد كل الشيوخ الذين انضموا إليه من تلك المنطقة سابقاً وقد تخلى له عن كل القبائل البدوية والذين كلاهم وأراضيهم تتواجد خلف منطقة الحناكية

محتفظاً لنفسه بتلك المناطق التي تتواجد بين الحناكية والمدينة المنورة وفي مناطق المدن المقدس. ولم يذكر أي شيء عن الوهابيين الجنوبيين وفي مقابل ذلك فإن طوسون بعدها مباشرة انصرف عائداً. وعاقب عبد الله البدو وخصوصاً قبيلة مطير والذين انضموا إلى عدوه وحيث أن كلا الطرفين قد قبض على خونته فإن صعوبات قد ظهرت بسبب أفضلية الإنطلاق أولاً حيث أن عبد الله بن سعود وبعد جدال طويل وافق على أن يقوض معسكره أولاً ولكنه أصر في الوقت ذاته بأن يأخذ معه أربعة قواد أتراك كرهائن معه يبقون عنده حتى يصل إلى مكان آمن وعندها يرسلهم مرة أخرى. وكان طوسون ولضعف موقفه فقد ناقش معترضاً كسباً للوقت بهذه النقطة وبعدها عاد من الخبر إلى الرس وبعد أن مكث ثمان وعشرين يوماً في منطقة القصيم إلى المدينة عند نهاية حزيران ١٨١٥ وقد صحب طوسون اثنين من الوهابيين أرسلوا من قبل عبد الله بن سعود إلى محمد علي حاملين أدوات السلام ورسالة من رئيسهم إلى الباشا وأخرى إلى السلطان.

ولكن طوسون لم يجد أباه في المدينة وقد اقتنع بأن المصدر الأساسي والوسيلة الوحيدة للحرب هي في المناطق الشمالية للحجاز لم تكن لتعطيه الأمل بالنجاح. ولذا فإن محمد علي قد عزم على ترك فرصة الشك لابنه بدلاً من أن يتعرض للمجازفة بأن يقلل من أهمية وعظمة سمعته التي صنعها والمستوى الرفيع الذي وصل إليه.

وبينما كان طوسون غائباً فإنه لم يُرسل إليه رسول واحد من قبل محمد علي ولذا فإنه بقي جاهلاً بما يجري في المدينة وأماكن أخرى ومحمد علي لم يكن يعنيه أمر مصالح ابنه الشخصية كثيراً فتركه دون أن يمنحه أي مبالغ من المال وعندما وصل طوسون إلى المدينة فإنه استقرض بعض الأموال لأجل مصاريفه اليومية. ربما كان هناك سبب جوهري لماذا محمد علي ترك المدينة المنورة ثم بعد ذلك ترك الحجاز بالكامل في شباط وآذار ١٨١٥ وذلك لأنه خاف من هجوم على الإسكندرية بواسطة قائد البحرية الأميرال الأعلى الذي وصل من بحر مرمرة مع أسطول قوي وكان يمر بالأرخبيل اليوناني وكانت

الإسكندرية ورشيد محصنتين بقوى كبيرة وكان حاكم القاهرة يرسل الرسل مستعجلاً بالبر والبحر حتى يوصل لمحمد علي الأحداث التي تجري.

وفي ١٩ أيار وصلت رسالة مستعجلة إلى سليم آغا حاكم ينبع من المدينة المنورة تأمره بأن يجهز سفينة للإبحار ذلك المساء فوراً تحت طائلة عقوبة الموت. وفي اليوم التالي امتطى محمد علي باشا وحاشيته الهجن ووصلوا إلى ينبع ودون استراحة على الشاطىء تعجلوا إلى السفينة وانطلقوا في الحال ولم يكن ليسمح الباشا لقائد السفينة بأن يبقى على موازاة الساحل وكما هو معروف عادة. ومع أنه عرف بأن السفينة قد زودت بالماء بشكل ضعيف ولكنه جعله يبحر في العمق مباشرة نحو القصير.

وعند وصولهم إلى البر في القصير لم يستطع أن يحصل على حصان أو جمل مباشرة، وبدون إضاعة الوقت امتطى حماراً يقوده خلال الصحراء إلى قنا وينحدر إلى النيل. وهذا التهديد بالهجوم على الإسكندرية قد بدأ يتلاشى بعد فترة وهكذا سافر ولكن بهدوء وروية أكثر إلى العاصمة القاهرة والتي وصلها في حزيران ١٨١٥ بعد غياب دام سنتين تقريباً والتي عانت فيها صحته الكثير وأكثر ما عاناه كان من طقس ا لجزيرة العربية وهو لهذا فإنه لم يعلم شيئاً عن اتفاقية السلام التي وقعت مع الوهابيين ولكن ولكي يكون استقباله حائداً وحماسياً فإن أخذ الدرعية بواسطة طوسون وإبادة الوهابيين بالكامل قد أعلن من قبله عند وصوله.

وفي شهر آب وبعد أن عاد محمد علي إلى مصر فإن أكثر هؤلاء العسكر الذين صاحبوا محمد علي من خلال حكمه للجزيرة العربية قد أظهروا إعراض التمرد، أي فيلق محو بك وآخرين قد بدأوا ينهبون العاصمة. ووجد الباشا نفسه مضطراً للتقوقع داخل قلعته في القاهرة وهذه الفرق من الجيش والتي وعدت الوعود في الحجاز ومنيت الأماني قد وجدوا أن التصليحات التي وضعت سوف تقلل من رواتبهم وتزيد من أوهامهم وقد أدخل الباشا إلى المؤسسات ما يسمى «بنظام جديد» أي نظام أوروبي متطور للتدريب والتطوير والخطوات التي عملت في هذا الاتجاه أثبتت أنها مهلكة بالنسبة للسلطان سليم

ولكن عندما بدأ التمرد يتوقف نحوه فلم يجرؤ محمد علي على معاقبة المتمردين.

وكان الصيت الذي صنعه واشتهر به محمد علي في الحجاز قد أثر على شخصيته وغير من طبيعتها، فاللطف الذي ميزه عن غيره من الباشاوات انقلب إلى تعجرف وبدلاً من المؤسسة العسكرية البسيطة التي كان يديرها ويرعاها بدأ ينغمس في الفخامة والإستعراض ويحتكر كل الصادرات والواردات لمصلحته الشخصية وذلك أدى إلى الإخلال بمصالح العمال والصناع في البلد.

إن المبعوثين الذين أرسلا من قبل عبد الله بن سعود في قافلة طوسون باشا إلى محمد علي وصلا إلى القاهرة في آب خلال فترة تدريب الجيش وكان أحدهما يسمى عبد العزيز وكان قريباً لمؤسس الوهابية محمد بن عبد الوهاب والآخر كان ضابطاً لعبد الله بن سعود وقدموا لمحمد علي الإتفاقية التي وقعت بين طوسون باشا وعبد الله بن سعود. وعند رحيلهم سلموا رسالة مرسلة إلى عبد الله بن سعود من الباشا وكتب له بأكثر الطرق غموضاً والتباساً فيما يخص قضية الحرب والسلم. وقد منح تأكيداً الموافقة على الإتفاقية التي تمت مع ابنه طوسون بشرط أن يتنازلوا له عن منطقة الأحساء وهي إحدى أهم المناطق الخصبة والتي هي جزء من المنطقة التي تحت أيدي الوهابيين.

وقد أصبح جلياً أن طوسون باشا قد خدع الوهابيين في القصيم أو أن محمد علي قد أثبت أنه يستخف بكل ما يلتزم به بسهولة. وكان طوسون باشا الذي هو في مستوى أبيه في الرتبة الباشوية قد وضع تلك الإتفاقية والتزم بكل بنودها مستفيداً من كل الإمتيازات الواردة في الإتفاقية من أجل ضمان سلامته وسلامة جنده من الإبادة وقد بدا والده قلقاً لبحث المسألة في اسطنبول من وجهة نظر مختلفة وحيث أنه قد ألزم نفسه القضاء على الوهابيين بأخذه الدرعية فكان لزاماً عليه إقناع سيده السلطان العثماني بأنه لم يهمل ذلك الهدف بعد. وإن تلك الإتفاقية قد وضعت بواسطة ابنه، فلن تكون أكثر من هدنة مؤقتة.

وفي ٧ تشرين الثاني ١٨١٥ وصل طوسون باشا إلى القاهرة مع بضع مئات من الجنود وذلك بعد عودته إلى المدينة من وسط الجزيرة العربية وقد

أعيدت الإتصالات عبر كل منطقة الحجاز مع الوهابيين وكانت القوافل تأتي من نجد إلى المدينة ومكة وفي كانون الأول أدى كثير من الوهابيين شعائر الحج لم يجهد أي قائد تركي نفسه مثلما أجهد طوسون نفسه خلال الحرب وقد أظهر بسالة ولكن كل جهوده كانت دائماً غير ناجحة، وقد قوبل بالترحاب في القاهرة، بكل التقدير والتشريف بناءً على رتبته العسكرية وشجاعته. ولكن وعند زيارته لوالده في الإسكندرية استقبل ببرود [توفي طوسون باشا في سنة ١٨١٦ بالوباء في رشيد بعد أن حشد الفيالق وعسكر هناك للدفاع عن الساحل المصري وفي نفس ذلك الصيف أيضاً في حزيران توفي الشريف غالب وجميع أفراد عائلته في سالونيك في منفاه بالوباء أيضاً].

وعند قرب نهاية ١٨١٥ حضر مجموعة شيوخ من العرب إلى القاهرة يطلبون حماية الباشا وكانوا من أقارب الشيخ الذي عينه محمد علي رئيساً على منطقة عسير في مكان تامي ولكنه عندما عاد إلى القاهرة فإن جماعة تامي قد أجبرت هؤلاء الشيوخ الموالين للباشا على الهرب وكان حسن باشا غير قادر على مسايرتهم فاستقبلهم محمد علي بكياسة في القاهرة وقدم لهم بعض الهدايا وأرسلهم ثانية إلى مكة. ولكن لم يكن بإمكانه توفير أقل مجموعة مهما كانت من أجل الحجاز وذلك لانشغاله في حشد الجنود والتجهيزات للدفاع عن هجوم متوقع على السواحل المصرية من جهة البحر ونسبة للتقارير كان يعتقد بأن الإنكليز هم المعنيون بالموضوع. وكان قد سمع أثناء وجوده في الحجاز عن أول سلام في باريس وعن فشل نابوليون بونابرت وأصبح مقتنعاً بأن الإنكليز سوف يرسلون قوات كثيرة من السواحل الجنوبية لفرنسا إلى مصر حيث كانت مصر هي الهدف المفضل والمحبب لدى كل القوى الأوروبية وهذه المفاهيم قد جددت بواسطة الإتفاقية الثانية لباريس وبعد عدة أشهر تبدل الإنذار فوجه نظره تجاه الحجاز فقرر إرسال حملة قوية حيث يوجد الآن ابنه الثاني إبراهيم باشا وقد تداولت الرسائل في كانون الثاني سنة ١٨١٦ إلى كل شيوخ العرب في الحجاز يبلغهم بسرعة انطلاق إبراهيم باشا تجاههم ويحضهم على مساعدته ويؤكد لهم بأن محمد علي يخطط لإعادة زيارة مناطقهم في خلال وقت قصير ويتوج انتصاراته السابقة بأخذه للدرعية وخلال تلك الرسائل

لم يذكر أي شيء يخص الإتفاقية الموقعة مع عبد الله بن سعود ولم يستلم كذلك أي رد على رسالته التي أرسلها محمد علي إلى عبد الله بن سعود بخصوص الأحساء.

وفي آذار ١٨١٦ وصلت أخباريات من مكة تفيد بأن أحداثاً قد وقعت في الجنوب. وقد دمرت الحاميات العسكرية في بيشة ورانيا وترابة وبعض البدو فقط في خدمة الباشا ظلوا في الحامية العسكرية في ترابة بينما كان الوهابيون يرغبون بالمنطقتين.

وفي آب ١٨١٦ انطلق إبراهيم باشا من القاهرة إلى الحجاز ولديه أوامر بالهجوم على الدرعية متخذاً طريقة عبر المدينة المنورة ثم القصيم. وكان يصحبه ألفين من جنود المشاة والذين أتوا عن طريق القصير إلى ينبع بحراً. وألف وخمسمائة من الفرسان البدو الليبيين والذين وصلوا براً عن طريق السويس وهؤلاء الفرسان قد اختارهم إبراهيم باشا بنفسه من ضمن مجموعات كبيرة من الفرسان من قبائل مصر العليا وفي هذه البقعة كان هناك فرنسيان من الضباط وكان أحدهما رئيس كتيبة وكان مع نابوليون بونابرت عند قلعة روش [روش فورت] ونتيجة أوامر بتركه فرنسا لجأ إلى مصر حيث استقبله محمد علي بكل ترحاب بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الفرنسيين لجأت سنة ١٨١٥ إلى مصر.

وبالاستفادة من فشل طوسون فقد شارك محمد علي ابنه إبراهيم في عمليته حتى يضمن حياد قبائل وسط الجزيرة العربية ولم يكن ذلك حتى سنة ١٨١٧ حيث أعطى كلمته بالتوجه شرقاً إلى الرس وهي أول مدينة محصنة جعلتهم يتريثون ويتوقفون لعدة أشهر قبل أن يتمكنوا من أخذ الدرعية عاصمة الوهابيين وأرسل إلى مصر طالباً دعماً من العدد والعتاد حيث جعلها خراباً كما هي اليوم وأرسل القائد الوهابي إلى اسطنبول ليموت هناك في المنفى حسب أوامر السلطان محمود. وأخذ إبراهيم باشا الأحساء في المنطقة الشرقية وكل الجزيرة العربية أيضاً جاعلاً مركز قيادته في بريدة القصيم.

وهكذا فقد أصبحت نجد والحجاز تحت السيطرة المصرية التركية

العسكرية ولكن محمد علي لم يفكر في إضاعة موارده على ممتلكات قاحلة وأعطى أوامره لإبراهيم باشا بالانسحاب إلى المدينة المنورة ويعسكر في الحجاز. أما اليمن وتهامة فقد بقيت بيد الإمام اليمني منذ ١٨١٣ ثم أعيد احتلالها سنة ١٨٣٢.

وكان المصريون ممثلون في مكة نفسها بواسطة «المحافظ» أو الحاكم (الحامي) بينما العثمانيون وكما جرت العادة السابقة فقد أرسلوا الوالي إلى جدة وهكذا فبين محافظ مكة وحاكم جدة كان يحيى بن سرور. ولم يكن للشريف أي نصيب في الإدارة ولم يترك له أجداده إلا قليلاً من التأثير وكان الباشا المصري هو الذي يعطي الهبات والعطاءات وهدايا من القمح المزروع في منطقة الجزيرة في مصر. وكان أهل مكة ينظرون إلى الحكم والنظام وعمل الخير.

وقبل أن يترك محمد علي الحجاز فقد نصح لمحافظ مكة أن يعتمد على نصائح أحمد بن تركي من مكة وهو مخلوق مخادع والذي كان الشريف غالب يستعمله في مهمات خاصة ويفضله على الشريف يحيى.

وحتى وبعد وفاة أحمد بن تركي سنة ١٨٢٠ فإن يحيى قد طرد من الإدارة بواسطة الباشا والذي تعامل مع وسيط آخر واسمه «شمبر» من عشيرة العبادلة الأشراف والذين من أعدائهم فرع بني زيد من العائلة نفسها وقد بدأوا يتوحدون مع أهل مكة ومن فرع البدوي أيضاً تجمعوا ليقووا كرههم. وعند بداية ١٨٢٧ اغتيل شمبر داخل الحرم المكي بواسطة يحيى بن سرور وتعجل إلى بيته وتحصن بداخله للدفاع عن نفسه ضد الباشا ولكنه ووجه ببنادقه حيث رمى السلاح واستسلم ووعد بالسفر إلى مصر براً وفي الحقيقة أنه لم يبذل أي مجهود ليسافر حتى خلف صحراء قبيلة حرب.

ثم إن الباشا بدأ يعطي دعمه وتأييده لعبد المطلب بن غالب وغالب الذي نفي من قبل الأتراك إلى سالونيك سنة ١٨١٥ والذي وافق عليه الشعب على أنه شريف مكة.

وحيث كان يحيى مع قبيلة حرب ويرغب بالهجوم فإن عبد المطلب اهتم

بأن يقوي القبائل قرب الطائف وأن حرباً ستقع حتماً عندما أصبح معلوماً أن محمد علي في مصر قد عين محارباً قديماً ومندوباً عنه على مصر. محمد بن عبد المعين بن عون والذي ساعد المصريين قبل سنتين للإستيلاء على عسير من أيدي الوهابيين. وقد وصفه ديديه بأنه رجل حكيم ومعتدل ويمتلك شخصية دبلوماسية طوله حوالي ١٧٠سم وسيم الطلعة له ذقن بارزة وأسنان حسنة وذو خصائل شعر طويلة جداً وعندما رآه ديديه كان يلبس اللون الأحمر والأصفر وفوطة رأس خضراء وفوقها عمامة بيضاء كبيرة وبزة عسكرية ملونة من الجلد. وقميص من الموسلين وسروال من القطن مطرز يدوياً وكان يحمل خنجراً من الذهب ويحمل سيفاً فارسياً طراز عثملي وكان يحمل في يده باستمرار عصا للجمل معقوفة النهاية» ويقول أم بولتا الذي رآه في سنة ١٨٣٧.

«إنه من غير المعقول ولكن من المذهل الإحساس بأنك مسحور بالنبالة البسيطة والسهولة المميزة لأحد الأشخاص البدو بالفطرة وبالقلب وقد اكتشف بموهبته الخاصة الطريقة المثلى فيوجه نفسه نحو محيط جديد».

ولكن أم. بولتا بالتأكيد لم يكن عالماً أو لم يُعطَ معلومات كافية عن التاريخ العريق للعائلة وإلا لكان أقل اندهاشاً. يحيى وعبد المطلب قد ووجهوا بالتحرك الجديد للمصريين وأملوا بالانضمام إلى القوات ولكن يحيى قُبض عليه بواسطة الفرسان المصريين بعد أن ترك الطائف وأخذ إلى مصر متوفياً هناك سنة ١٨٣٨.

أما الشريف الجديد محمد فقد كان قادراً على تطويع القبائل بواسطة إعانات مالية كبيرة وقد أفسده محمد علي باشا بالأموال قبل أن يترك مصر وقد جاهد عبد المطلب بكل وسيلة لرفع شأن القبائل والأشراف الآخرين وأتباعهم ولكنه في النهاية فقد صحب قوافل متجهة إلى الشمال إلى الشام سنة ١٨٣١ حيث كان متجهاً إلى اسطنبول.

وكان محمد بن عون قد تبين أنه يهدف إلى أخذ خطوات عظيمة باتجاه الإستقلال ولقوة أكثر من سباقيه وقد ساعدته الظروف سنة ١٨٤١ حيث جرفت الكوليرا الباشا المصري في الحجاز ومن صار بعده واجه صعوبات شديدة مع

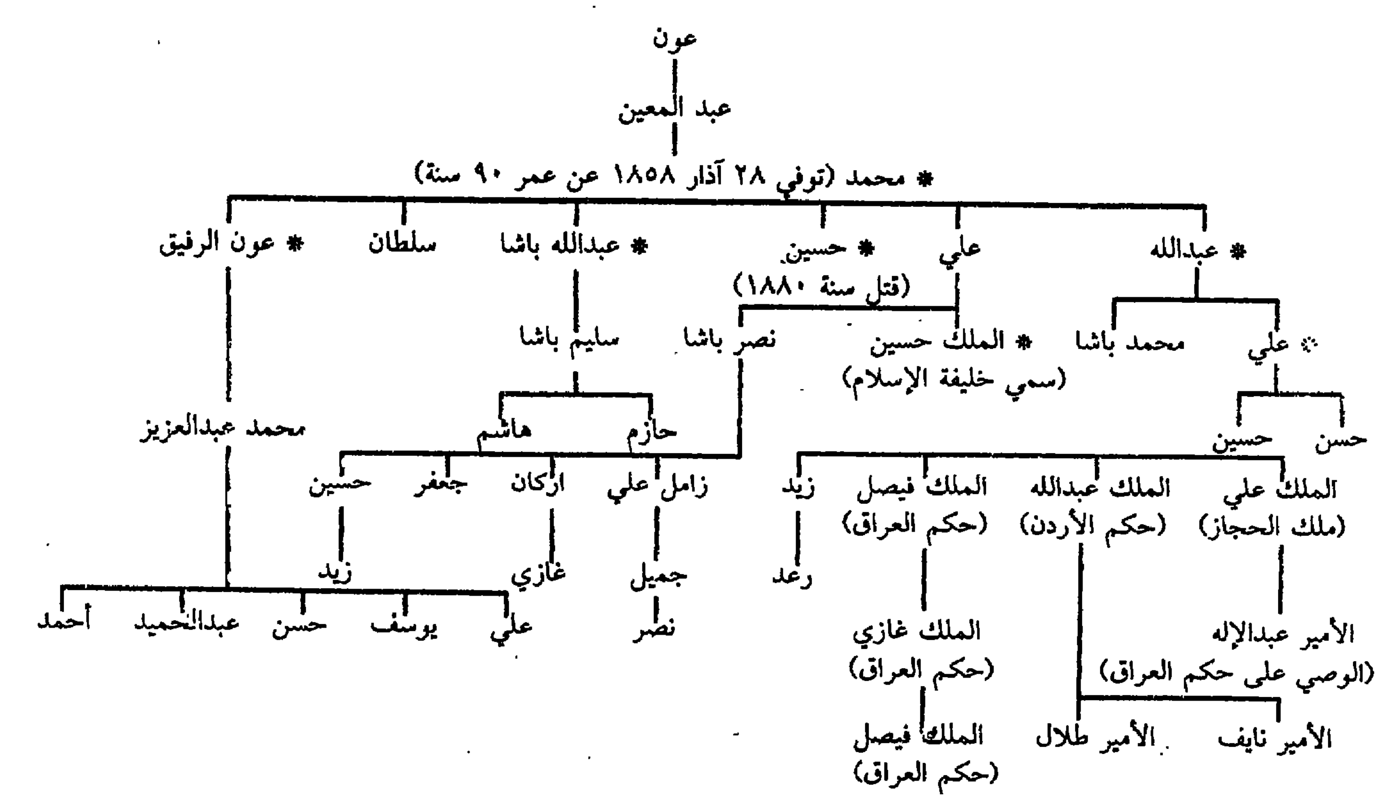
الفرق العسكرية غير المنتظمة أو المنظمة والذين كانوا يطالبون بمستحقات مالية لم يقبضوها من العهد السابق ولعدم قدرته على وضعهم في حلقة النظام الصحيح غادر معظمهم إلى مصر. واستطاع الشريف بعد ذلك أن يقوم بطرد القوات التركية إلى جدة حيث قاموا هناك بسرقة عدة محلات اختفوا بعدها في أماكن متعددة ليتوطنوا هنا أو هناك أو يبحثوا عن مناطق أخرى مجاورة يلجأون إليها.

وفي سنة ١٨٣٣ قرر الشريف أن يعيد السيطرة على المنطقة حول بيشة وزهران وغامد والتي كانت عرضة لهجمات العسريين ولكن وبفشله بالحصول على الدعم المالي والمؤن. والتي كان وعد بها من قبل أحمد باشا المندوب المصري في الحجاز عاد وهو غاضب ومتشائم. وكلا الشخصين الباشا والشريف لاما بعضهما البعض وتجلى ذلك بالمراسلات التي كانا يراسلان بها محمد علي باشا كل على حدا. والذي استدعاهما بعد ذلك كلاهما إلى القاهرة. وعندما و افق محمد علي على اقتراح الباشا بأنه سوف يعود إلى الحجاز بدون الشريف خلال فترة استلام زمام السلطة والسيطرة على العسيريين وإصلاح الأمور. وبقي الشريف ضيفاً بالإكراه في مصر[1] بينما الباشا في جدة قد أرجأ بقاءه في الحجاز ولم يحصل على نتيجة مقنعة ولكن على الأقل فإن التهديد من قبل نجد قد انتهى وأن السيطرة على الحجاز قد تحقق بالنسبة للباب العالي وهكذا فإن نائب السلطان في مصر قد قرر استدعاء وجلب جنوده إلى الوطن ولكي يفعل ذلك بسرعة أرسل على عجل الشريف محمد بن عون إلى الحجاز سنة ١٨٤٠ والذي وعد بتخليصهم وبقدرته على ذلك أثبت الشريف أنه جدير بقوة الحكم.

---

(١) [يقول ديديه تفصيلاً للمحادثة التي جرت حرفياً بين الشريف وخورشيد آغا وهو الضابط التركي الكبير والذي كان كما يقول ديديه: إعلان الحرب بطريقة لبقة فقد وصف الشريف بأنه عندما كان يسير متكئاً على اثنين من خدمه عندما سأله الباشا إذا كان مريضاً فأجابه أن شرف طبقتي لا معنى له بدوني وهكذا كان يبدو الشريف عند ذلك الوقت أثناء احتفال بسبب دخوله بين اثنين من مساعدين].

(ملحق) عشيرة ضحو عون



الفصل الخامس عشر

محمد بن عون وأنداده
عشيرة ضحو زيد
عبد المطلب بن غالب
(١٨٤٠ـ١٨٨١)

محمد بن عون وأنداده
عشيرة ضحو زيد
عبد المطلب بن غالب
(١٨٤٠ـ١٨٨١)

بصرف النظر عن الغزو الآتي من وسط الجزيرة العربية. كان الشريف غالب يناضل مع وجود أصداء عن معركة ستجري في البحر الأحمر بين القوى الغربية. فهناك الأمبراطورية الغربية (بريطانيا) والتي أرسلت له عملاء وجواسيس، وكذلك فعلت دولة أخرى إذ كانت ترسل له مبعوثين خاصين ومواطنين سياسيين وملحقين عسكريين من أجل تجارة الأسلحة.

وفي النهاية فإن كل الحنكة السياسية للشريف قد فشلت وسقط تحت وطأة الشكوك العثمانية مما أدى في النهاية إلى خطفه نتيجة لمكيدة دبرها له الباشا التركي ونُقل تحت أنظار مناصريه الضعفاء ونفي إلى اسطنبول بواسطة حكام الخلافة الإسلامية متحصنين بسيطرتهم واحتلالهم العسكري. وبحلول سنة ١٨٤٠ كان المد الشرس الذي طغى على أوروبا فأزاح عدة عائلات حاكمة هناك وكذلك في الجزيرة العربية إذ وصل الوهابيون حتى حدود العائلة الحاكمة ونفوذها ثم اضمحلت قوتهم لاحقاً.

وكان يبدو هذا السكون وكأنه فترة سلام لتبادل التجارة وعادت مواسم الحج والفوائد التي عادت تعم على الناس وكان لا بد من إنشاء نظام إيرادات ثابتة وقوية لكل المنطقة مرة أخرى.

وقد مر وقت نسي فيه الناس المتعصبين الدينيين، ثم أن القوى العثمانية والتي كانت تبدو هي المسيطرة قد بدأت تقل تدريجياً إلى أن وصلت إلى حفنة من العسكر كحرس الباشا المرافق ومرافقي قوافل الحج الشامية والمصرية.

وفي سنة ١٨٣٥ عندما عين يعقوب يوسف كقائم بأعمال القنصل البريطاني الفخري في جدة جاء تعيينه عفوياً وبدون أي اعتراض من أي كان من الناس. وحتى أكثر المتعصبين الإسلاميين لم يبدوا أي تحفظ تجاهه. وكذلك عند تعيين مستر أوغيلفاي كنائب قنصل رسمي في جدة في الرابع من آب سنة ١٨٣٨ لم يلاقِ تعيينه اعتراضاً من أي من القوى هناك. وهذا دليل على أن هناك مغزى وراء هذا التعيين وفي أكثر الأيام سلاماً. وفي منتصف فصل الصيف هناك في جدة وكيف أن هذا القنصل نفسه كان المتنبي أو عرف عنه بأنه سوف يكون المبشر لقدوم القوى المسيطرة الجديدة والمزعجة في المنطقة. وخلال فترة قصيرة على إنشاء فكرة القداسة والتحكم الطوعي والتلقائي والروحاني أيضاً لسلطة لا يحدها تاريخ وغرابة إحياء الحب الوثني للمسيحيين والمسلمين.

وفي أقل من مئة عام حيث يأتي فرع من هذا العرق من الشعب مصحوباً بمجموعة من العرق الأوروبي والذين سيكتشفون الإختراعات الجديدة مع الإعتقاد الراسخ والملتهب بفعالية صنعهم ثم استغلافهم لمصادر بلادهم الطبيعية الضخمة والتي سيبددوها في مناطق من العالم القديم والجزيرة العربية من أجل استخراج المعادن المحبوسة فيه والتي بواسطتها سيقودون الآلات والتي تعمل كأسرع من أسرع الدواب وتحلق في الهواء لآلاف الأمتار وعندما تبدأ الآلات بالعمل بصوتها الرتيب والدؤوب الممل أمام أعيننا فإننا نحس كأن معجزات الأنبياء المشهورة ومن أتى بعدهم من خدام الأديان السماوية لينظروا إلى قوانين المبادىء الدينية فيدققوا فيها بعناية ويتفحصوها باندهاش لسبر غور هذه المكتشفات.

في البداية لم يأت أي شيء من هذا القبيل إلى الحجاز ولم يظهر أن له تأثير عليهم ولم يتنبأ أحد بما سيكون تأثيره عليهم ولم تحدث أي شكوى أو

تذمر فيما سيقال أو سيرسل إلى هنا أو هناك. وكان الأمر الصغير عادة يبدو في الحجاز وكأنه أمر كبير جداً ويصل مضخماً.

وكان الشريف يعلم جيداً أن السلطان في اسطنبول يحتجز لديه ابن الشريف السابق عبد المطلب بن غالب وأن السلطة العثمانية كانت بصدد استبداله بحاكم آخر إذا ما أظهر عدم الانسجام بينه وبين مصالحهم ورغباتهم أو إذا ما قل ولاءه لهم. وكان عبد المطلب المرشح لعشيرة منافسه هي عشيرة ضحو زيد من نفس العائلة. ونظراً لمؤيديهم الكثر في مكة فإن التغيير لن يكون صعباً وخصوصاً إذا ما أمر السلطان بذلك. ولكن محمد بن عون كان له المراكز الأقوى في الحجاز ولكن الأقل عدداً وتأييداً. وكانت القوة نتيجة لتأييد نائب السلطان في مصر.

وفي سنة ١٨٤٤ بدأ الشريف في مكة يقع في الأخطاء بسبب نائب السلطان وذلك بالرغم من دبلوماسيته. وكان عثمان باشا مديراً للمسجد الشريف في المدينة المنورة ونظراً لخدمته هناك عدة سنين لذا فإن لرأيه وزناً عند السلطان وأول خطوة أحدثت بروداً في العلاقة بينهما كانت بسبب المشاكل التي نتجت في منطقة قبيلة حرب. حيث أن شيخاً ينتمي لأحد فروع قبيلة حرب واسمه «ابن رومي» قد تمرد لأن الباشا رفض أن يوقع له مباشرة الإعانة المالية والتي اعتاد على قبضها مقابل حماية الحجاج المارين في المنطقة. وقد أبلغ عدم رضاه هذا بعمل هجومي على الحامية العسكرية التركية في الميناء الصغير في «رابغ» وهو مرسى المدينة المنورة. وكانوا في الحامية مسرورين بالاستسلام له مقابل حمايته للحدود.

وأرسل الباشا إلى ابن رومي مولماً له وتكون فرصة للمناقشة بهذه الأمور التي تهم الطرفين مع التأكيد له على سلامة هذا اللقاء وأمنه على حياته.

وكان اتفق معه على حماية مبنى القلعة ومستودع الذخيرة الملحق بالقلعة والكائن على طريق رابغ مقابل الإعانة المالية وحيث كانت هذه القلعة غير بعيدة فإن الباشا أرسل أحد ضباطه واسمه «كردي عثمان» مع حماية عسكرية ترافقه حتى يستلم من ابن رومي نوبة الحراسة. وعندما وصل إلى الخلايص

أرسل بتحياته القلبية إلى ابن رومي وعزمه إلى وليمة وبعد الانتهاء من الطعام قام مهرج بتسلية الضيوف من قبيلة حرب وبينما كان هذا المهرج يقوم بالتسلية اعتذر كردي عثمان لترك الخيمة للحظات وبعد أن خرج من الخيمة أعطى أوامره بالقضاء على كل الضيوف في الخيمة. حيث قطع رجال كردي عثمان حبال الخيمة وفي لحظات كان الجميع في مصيدة كالسمك داخل شباك الصيد. وبعد انتهاء عملية الذبح الجماعي للضيوف بقي صبي في الثانية عشر من العمر وهو أخو ابن رومي وكان مختبئاً خلف صندوق كبير وعندما قام ليهرب لحقوا به وأخذ ثم قطعت رأسه كما قطعت رؤوس الآخرين جميعاً وكان هناك طفل أصغر وهو ابن الشيخ وقد أنقذه كردي عثمان. وكان عدد الذين ذبحوا في تلك المجزرة خمسة وعشرين رجلاً من قبيلة حرب وأرسلت خمس رؤوس لأهم الشخصيات إلى مكة حيث وضعت هذه الرؤوس على خوازيق بعد أن قطعت أنوفها وآذانها وعمل منها عقود زينت بها أعناق الإبل والتي كانت تنقل هذه الرؤوس إلى مكة مبشرة بالنصر المؤزر بعد الوليمة الفخمة.

وكان لابن عون علاقات قوية مع قبيلة حرب وكانت هذه المذبحة ضربة قاسمة لكبرياء الشريف ودفعه إلى الخلف لسياسة يحاول التقدم بها لدعم موقعه معهم وتقويته. ولم يكن التأثير هو ما كان يطمح إليه الأتراك تجاه قبيلة حرب حتى تجعلهم أعداءً لها لدودين. وفي الحقبة المقبلة سوف تحدث أمور لا حصر لها على طريق الحج إذ كان على قافلة الحج التركية أن تمر فقط بعد أن تدفع مبلغاً كبيراً من المال بدل حماية وفي حدود الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي كان للأتراك كثير من المشاكل مع قبيلة حرب وفي منطقة رابع أيضاً وفي سنة ١٨٦١ كان الأتراك قد أجبروا على زيادة المبلغ المدفوع لحرب إلى ٢٥٠,٠٠٠ فرنك سنوياً ومع ذلك فإن الصعوبات والعداء الشديد كانا يكبران سنة بعد سنة بين قبيلة حرب والأتراك وكل ذلك كان عائداً إلى قتل ابن رومي وجماعته وبالإضافة إلى هذا العداء الذي تولد عنه الشعور بعدم الثقة الذي ساهم في سهولة تحريض أولاد وأحفاد محمد بن عون للقبائل العربية ضد العثمانيين في الثورة العربية.

وكان الشريف يحقق نجاحات في مجالات أخرى حيث سار إلى القصيم ومنطقة الواحات شمال الرياض العاصمة الجديدة للأمير الوهابي والتي أبدلت بالدرعية بعد تدميرها من قبل الأتراك، وهزيمتهم للوهابيين. وهزم الشريف قوات فيصل بن سعود الأمير الوهابي والذي أجبره على دفع الأتاوة وكذلك مكن شيخ من عشيرة العبد وهي فرع لقبيلة شمر والذي كان يعزز من قدراته بأن يطردهم من الرياض معتمداً بذلك على دعم الشريف في مكة من خلف الستارة حكم القصيم المستقل. وقد دعم الشريف هذا الإستقلال وأصبح المؤسس الأول لإمارة شمر لمنطقة جبل شمر وعاصمته حائل، والتي أصبحت مشهورة في أوروبا بسمعة خيلها الأصيلة ودماء سلالتها النقية.

وقد أمل الأتراك منذ فترة بالسيطرة على اليمن ويخضعون قبائل الجنوب لسلطتهم. وفي سنة ١٨٤٢ أرسل أشرف بك مفتشاً عن طريق جدة ليتحقق من سير الأمور الإدارية وفي السنة التالية استلم شريف «مخا» الشريف حسين فرماناً أمبراطورياً بترقيته إلى درجة باشا واضعاً إياه في مرتبة أدنى من شريف مكة. وفي سنة ١٨٤٨ هوجم من قبل إمام صنعاء وهزم. ومن أجل ذلك جهز الأتراك حملة سنة ١٨٤٩ باتجاه اليمن مروراً بجدة حيث صحبها الشريف محمد بن عون من هناك والذي وعد بتحييد قبائل عسير بنفوذه عليهم وذلك حيث كان من المفروض أن تمر الحملة من خلال مناطق نفوذهم وقد وصلت الحملة بنجاح إلى الحديدة حيث حضر الإمام لتوقيع إتفاقية سلام حيث وافق على وجود حامية تركية في اليمن ووافق على دفع جزء من إيراداته كجزية سنوية.

وقد دخل الثلاثة قائد الحملة التركية المفوض توفيق باشا والشريف محمد بن عون وإمام اليمن إلى صنعاء سويةً وعند صلاة الجمعة في اليوم التالي لدخولهم صنعاء دعي في المساجد باسم السلطان العثماني بدلاً من اسم الإمام. وفي نفس اليوم قتل عربي على يد تركي نتيجة خلاف حدث في السوق حيث هرع المواطنون إلى بنادقهم وجعلوا يطلقون النار على الجنود الأتراك وتوفيق باشا نفسه قد جرح في هذه الواقعة والذي عمد حالاً إلى تغيير الإمام

واشترى سلامته من الإمام الجديد عند الانسحاب بمبلغ ٢٠,٠٠٠ قطعة فضية. وهكذا فإن مكانة الأتراك كانت رخيصة جداً ولو أنها زادت حينها فإنها إنما زادت لوجود الشريف بصحبته. وكان العشيريون لا زالوا حلفاء الشريف وبدون وجوده ما كان للأتراك أن يمروا أبداً إلى اليمن ومع أن صيته ومكانته في نجد أقل ولكنه كان ناجحاً أيضاً فكان يكفيه حليفه هناك أمير شمر. وإذا كان نفوذه عند قبيلة حرب أقل فهو لأن الأتراك كانوا هم السبب لقلة نفوذه بينهم ومع ذلك فإنه كان من الممكن أن يعيد إصلاح هذه العلاقة معهم من جديد. وقد تبين أنه كان على علاقة حسنة مع نائب السلطان في مصر عباس باشا.

وبالرغم من هذا التأثير أو ربما بسببه أو بسبب مكيدة من الشريف عبد المطلب بن غالب من بلاط السلطان العثماني في اسطنبول استلم باشا جدة أوامر عليا في آب سنة ١٨٥٢ بأن يرسل الشريف محمد بن عون وابنيه الكبيرين إلى اسطنبول. وقد أُغري الصبيين بزيارة جدة بدعوى أن هناك معدات عسكرية جديدة كي يشاهدوها وفي نفس اليوم وحالما ذهبوا إلى هناك فإن عسكر الباشا أحاطوا بقصر الشريف وكان رجال المعدات الثقيلة العسكرية جاهزة والكبريت جاهز للإشعال بين أيديهم وكان الشريف لو أُعطي فرصة لمدة ساعة واحدة لتمكن من حشد القبائل ولكان استدعى حرساً لا يحصى عدده وعندما تأكد من أن لا شيء يمكن عمله في تلك اللحظات وضع على ظهر السفينة بهدوء وتسلم مكانه منصور بن يحيى زمام الأمر في الشريفية إلى أن يحضر عبد المطلب بن غالب من عشيرة ضحو زيد من بلاط السلطان.

وكان على الشريف عبد المطلب أن يقابل الحاكم الإنتقالي وعبد الله بن ناصر الذي اختاره الشريف الجديد ليساعده فكانا كلاهما بانتظاره بشوق في جدة حتى يتعاونا معه وتمنيا اختيار النفي بعيداً عن المسؤولية والتعامل مع الإضطرابات المتسببة بواسطة إصرار الأتراك على مبدأ يقف ضد العبودية بما يسمى قانون حاتي حميون. وكان هناك شغب ينمو في الشارع المكي بحيث أن الأتراك لم يستطيعوا التنقل بحرية وسلامة في كل مدن الحجاز وكان هناك احتجاجات كثيرة من الباشا من جهة والطلب اليومي للناس وتذمرهم من جهة

أخرى. وكان عبد المطلب قد وصفه سير ريتشارد بيرتون وسنوك هورغونج وأم. ديديه. بأنه غامق اللون أسود تقريباً وذلك بالرغم من النشاط الرافض لبعض من أحفاده لقانون إلغاء العبودية. يقول أم. ديديه:

«إنه رجل كبير يناهز الستين طويل القامة ولكنه نحيف مع تصرفات الفخامة والعظمة وكان مميزاً من كل النواحي من اللون البني الغامق لبشرته وجلده الرقيق.. يرتدي رداءً أزرق اللون طويل وعمامة من صوف الكشمير وخنجر رائع مطعم بالذهب وموضوع في جبة لامعة داخل زنار يطوق خصره».

وقد وجده متحضراً زيادة عن محيطه واعتقد أنه نادراً ما كانت هذه المسألة تدعو للتعجب وللتساؤل والسبب أنه أمضى خمسة وعشرين عاماً في بلاط السلطان باسطنبول وأن الأحداث قد طغت عليه قبل أن يصبح معروفاً لدى الناس الذين كان غائباً عنهم وأن محاولاته السريعة لإعادة النظام والأمن بدت للأتراك وكأنها تمهد لتهديد عسكري ضدهم، وفي يوم تلقى الباشا كرة على طربوشه فلم تتحسن نفسيته وكانت المساعدة مجردة قليلاً من تركيا والتي كانت مشغولة في حرب القرم ولحسن الحظ فإن عودة الباشا قد أقرت ولكن كانت عودته كما أشيع بسبب صدور أوامر عليا إليه يخلع الشريف عبد المطلب. ولما علم هذا الأخير بالشائعات ركب في الحال إلى مسكنه الصيفي بالطائف وانتكست مكة بشيء يشبه الفوضى ولم يعد يذكر اسم السلطان في المساجد. وقد هوجم الأتراك في الطائف بثورة أجهضت في الحال. وفي وسط كل هذه الفوضى أعلن عن عودة محمد بن عون، والذي وصل إلى جدة في ١٧ نيسان ١٨٥٦ وبعد عدة أيام تحفظ الأتراك على عبد المطلب ثم أرسلوه إلى سالونيك بتركيا في نفس المكان حيث توفي والده وكانت مقاومته للعثمانيين في الواقع أقل مما كان متوقعاً. وكانت التعزيزات في حالة تجهيز والإرسال من مصر، عندما وصلت أخبار عن استسلامه للباشا بعد مقاومة قليلة عند بحرة الواقعة على الطريق بين مكة وجدة.

وفي جدة كان القنصل الفرنسي قد هوجم سنة ١٨٥١ ولم يقبض على المهاجمين. وفي آذار من نفس العام أرسلت فرنسا إلى ميناء جدة سفينة شراعية

صغيرة وتسمى يوريديس وكان قائدها يسمى كابتن دوفيسوغراف نزل إلى البر وطلب الإستئذان ولكن رفض طلبه وكذلك حدث في السنة التي تلت عندما كرر زيارته وفي سنة ١٨٥٣ «الأميرال لاغير» وصل على السفينة «جان دارك» مصحوباً بالشراعية الصغيرة أيضاً «كايمون» وكانت هذه الزيارات تتكرر باستمرار ولكن لم يكن هناك من جدوى وراء هذه الزيارات والحصول على الإذن بالنزول إلى البر لأن أوضاع البلد كانت في اضطراب أثناء حكم عبد المطلب بن غالب والذي كان يبذل جهوداً مضنية من أجل الإمساك بزمام الأمور وإعادتها إلى طبيعتها الأولى.

وقد تبين من الأخباريات عن الهجوم الذي تم في جدة ضد القنصل الفرنسي قد شاع بين الناس ولم يعلم عن معاقبة أحد أو تغريم أحد عن هذا الحدث.

وفي آذار ١٨٥٨ توفي محمد بن عون عن عمر يناهز التسعين سنة وخلفه ابنه عبد الله وكان يعد عضواً في مجلس أعيان السلطان في اسطنبول وكانت المعلومات عن الشريف الجديد أنه رجل متعلم وصفاته متطابقة مع ما ذكره «سنوك هورغونج» رجل متعلم ومتفهم لعقلية الأجانب ومتأقلم معها وهذه الشخصية تميز عشيرة العبادلة عن غيرهم (كتاب مكة مجلد ١ ص١٧٠) وقد خالط أترابه العرب بما فيه الكفاية حتى يكون فوق كل العرب أترابه.

وقبل أن يصل إلى الحجاز حدثت مشكلة كريهة أخرت موعد الإحتفال بدخوله مكة حتى خريف نفس العام، ووصلت الأنباء إلى جدة من نوع جديد.

الإعلان عن شركة سفن بخارية لتقوم بدور نقل البضائع والركاب في البحر الأحمر وحالما نوقشت ودققت هذه الأنباء من قبل البحارة والربانية وأصحاب السفن من العرب أصابهم الغم والقلق أكثر فأكثر. وكان أغلب البحار من حضرموت أو اليمن ومن أبعد الزوايا لشبه الجزيرة العربية وهي أماكن مصانة لكل الأجانب وسفنهم.

إن هؤلاء العاشقون لسفنهم ومراكبهم والبحر من خلال حفظهم لحياتهم

وحياة الآخرين وفي نفس الوقت الإذعان اليومي في سفنهم الضعيفة لسطوة وهياج العوامل الطبيعية فيصلون إلى اكتشاف نظرة مختلفة للحياة عن تلك التي يحملها من يعيش على البر وعند زيارتهم للديوانيات عند أصحابهم فإنهم يسمعون أكثر وأكثر قصصاً مزعجة وعندما يعودون لإصلاح أشرعتهم أو سد الشقوق بين الألواح مع الآخرين على الشاطىء يتناقشون إلى أن يتحققوا من أن شيئاً شريراً ربما يحاك ضدهم أو أن سوء طالعهم يخبىء لهم الأسوأ. وكان التجار الأذكيار مثلهم مثل المتدينين المتزمتين فكلهم عملوا وخططوا لنفس الحدث. وقد أضيفت القنصلية الفرنسية إلى القنصلية البريطانية في جدة فأصبح الأجانب بزيهم المختلف يميزون فيمشون في شوارع جدة بخيلاء وكأنه حق من حقوقهم ويخططون لتغيير الإقتصاد العربي دون استشارة الشعب بالأمر.

وفي ١٥ حزيران سنة ١٨٥٨ وبناءً على حكم صدر عن المحكمة الإستشارية البريطانية فقد أُمر بتخفيض العلم التركي عن زورق شراعي واسمه «إيراني» ويملكه اثنان من البريطانيين ووضع مكانه العلم البريطاني. وتم هذا الإجراء بتنفيذ الحكم من قبل لابسي الحاكتيات الزرقاء من البارجة البخارية اتش. ام. اس سايكلوبس والتي تصادف وجودها في مكان رسو السفن وفي نفس المساء حوالى الساعة السادسة ودهم مستر بيج نائب القنصل البريطاني في بيته في جدة وقتل ونهب بيته في الحال بواسطة بعض الأشرار من الخدم. وقد ذهب القتلة في الحال إلى القنصلية الفرنسية ولكنهم وبواسطة جهود من المستشار ام. إمارت منعوا من الدخول. وقد أبلغ الملازم أول المتواجد في الحامية التركية والذي رفض إرسال أي من رجاله (كانوا في حدود مائة جندي تحت إمرته) إلا بأمر من رئيسه نامق باشا والذي كان على بعد خمسين ميلاً في مكة.

وكان حارس القنصلية قد جرح وكذلك أم أمارت والذي أنقذ ونقل بواسطة حج جزائري اسمه محمد. وقد دخل الرعاع إلى البيت من الشرفة المنخفضة وأطلقوا النار على مدام «ايفايار» والتي أنقذتها زوجة أحد الجنود والتي كانت العائلة قد تعرفت إليها قبل عدة أيام. كل المسيحيين الأجانب

والذين استطاعت الحشود الوصول إليهم وكانوا أربعة عشر شخصاً قد قتلوا بعد ذلك ونهبت منازلهم أو أتلفت وبعض الناجين الذين هربوا سبحوا في البحر حتى وصلوا إلى السفينة «ساكلوبس».

وفي اليوم التالي وبينما كانوا يدفنون الأموات ذهل المسلمون لعدم رؤية أم إمارت حيث لم تكن جثته بين الأموات. وقد صدر بحقه حكم بالموت نتيجة لقتله اثنين من المسلمين خلال القتال في القنصلية وكان هناك مؤمنون يحثون الناس ليبحثوا عنه لتنفيذ حكم الإعدام به وبعد ثلاثة أيام عاد نامق باشا إلى جدة على رأس كتيبة.

وفي اسطنبول وعد وزير الخارجية التركي السفير الفرنسي والسفير البريطاني بأن أوامر السلطان قد حولت إلى جدة وبأن التحقيق مع حاكم جدة هناك جار وأعطي الأوامر بأن يسجن ويعدم كل القواد من الذين قاموا بعمليات الشغب والقتل وأخذ التعويض من مدينة جدة وإعطائه للمتضررين. وقد وقعت الحكومات الثلاث الفرنسية والبريطانية والتركية على أن ترسل كل حكومة مندوباً عنها إلى جدة ليتحققوا من تنفيذ أوامر السلطان وأبحرت السفينة الشراعية «دخيلة» من مرسيليا إلى جدة من أجل مساعدة ودعم المفتشين ووكلاء السلطنة العثمانية.

وكانت السفينة البريطانية السايكلوبس قد وصلت أولاً وطلب القائد أن ينفذ حكم الإعدام بقطع رؤوس الفتنة فأجابه نامق باشا بأنهم رهن الاعتقال ولكنه ينتظر أوامر السلطان من أجل تنفيذ الحكم، ولكن قائد السايكلوبس لم يتردد وبدأ بإطلاق القذائف المدفعية والتي لم تدم طويلاً حتى حضر المفتش العثماني ومعه الأوامر بتنفيذ الحكم وقد نزل إلى البر جزء من جنود البحرية البريطانية وعند فجر يوم ٥ آب قطعت رؤوس أحد عشر رجلاً بواسطة سياف من المواطنين أمام كوخ حيث التقوا واتفقوا لتنفيذ الهجوم على القنصلية.

أما بالنسبة للدية فقد اتفق عليها حالما وصل المفتشان البريطاني والفرنسي والتي لم تتم حتى نهاية العام وسلوك طريق الإستعلام عنها ثم

بواسطة «ام امارت» السريع والمستشار الفرنسي والذي أنقذ بشجاعة وخبىء في مكان أمين بواسطة الجزائري الأمين. أولم الباشا لجميع وجهاء البلد للغداء عنده وعند انتهاء الغداء أعلن لهم بأنهم ضيوفه الدائمين وقد صدر حكم الإعدام بحق ثلاثة مذنبين أساسيين. رئيس البوليس السابق ورئيس الحضرموتين، والقائمقام. وقد حُزت رؤوسهم في الحال كما في الحالة السابقة كان المنفذون من أهل البلد وأمام نفس الكوخ حيث قاموا بالتدبير للموضوع مع الآخرين والذين أعدموا قبلهم. وكان بعد هذه الحادثة مباشرة أن تم الإعتراف بوجود القنصليات رسمياً في جدة وأعطيت لهم الحماية ومع ذلك فإن «مستر جي.آي. ستانلي» القنصل البريطاني بعث تقريراً يوم ٢٦ نيسان ١٨٦٤ عن الصعوبات التي كان يواجهها للمحافظة على مركزه وكان الحاكم العام لجدة يرفض أن يكون للبريطانيين أي حق عند مكة أو في أي مكان يموتون فيه ويقول بأن (كلمة مال) تعني أي شيء سافل وحقير. وأضاف بأنه يقترح تعيين قناصل عرب في المدن المقدسة.

وفي سنة ١٨٦١ أرسلت قوة من الحديدة باليمن لاحتلال جيزان حيث كان العسيريون يتصدون للعثمانيين حيث كانوا يغرقون مراكبهم في البحر ويقتلون كل رجالهم تقريباً وبدون أن يتمكنوا من النزول إلى البر أبداً. ولهذا فقد قرر نائب السلطان في مصر أن يرسل تعزيزات كافية من أجل ضمان الإحتلال الدائم لجيزان والعريش حيث تكفل الشريف نفسه وعلى مسؤوليته الخاصة تحقيق ما لم يستطع الأتراك تحقيقه. وتجمعت الحشود عند القنفذة وكانت القوات البرية مصحوبة بسفينتين من السفن البخارية البريطانية الصنع وتحمل المؤن والذخائر وكذلك ٨٥٠ جندياً مصرياً. وقد غادر في هذه الحملة كثير من طاقم النظام الحجازي. وكل ذلك بفضل مهارة الشريف في موقعه العسكري ودبلوماسيته. وقد استسلم العسيريون بعد قليل من المناوشات ووافقوا على الانسحاب من جيزان والعريش وليدفعوا أتاوة سنوية على شرط أن ينصب رئيسهم بوظيفة «أمير الأمراء».

وقد أصبحت الشريفية مليئة بالإهانة والإذلال أكثر منها في أي وقت

مضى. إن افتتاح مجرى مائي مباشر من اسطنبول وحتى السويس على البحر الأحمر بواسطة شق قناة من البحر الأبيض المتوسط وحتى البحر الأحمر قد بدل من العلاقات السياسية بين الشرق والغرب وبين السلطان والشريف وحتى أنه جعل العلاقة أكثر قوة وسرعة في الارتباط والاتصال.

وقد عانت أرتال الرجال المتعبين من فقدان كثير منهم وجرح آخرين خلال سيرهم الطويل في الصحراء والذي يلزمهم وقت أطول للوصول إليها منذ نهاية الأحداث التي سبقت حملتهم هذه.

ومنذ سنة ١٨٧٠ أصبح باستطاعة الجنود الإنتقال عن طريق البحر ويمكن أن يتزودوا أو تصلهم قوات الدعم والذخائر والمؤن بطريقة أسرع ومن خلال قناة السويس.

وهكذا فإن الأتراك سنة ١٨٧٢ كانوا قادرين على اللحاق بحملة الشريف ويغلبون اليمن بدون الحاجة لمساعدته.

وفي ذلك الوقت من سنة ١٨٧١ ولاحقاً لم يعد يوجد قنصل بريطاني في جدة ولكن كان هناك قنصل بدون معاش قد عين بتاريخ شباط ١٨٧٤ وتحت إشراف وكيل التاج البريطاني في مصر. وكانت التعليمات المعطاة إليه هي في أن يعطي تقاريره عن تجارة الرقيق وكانت رسالته تدل على أن هذه التجارة مزدهرة نوعاً ما. وكان تقريره يشير إلى أن مئات من العبيد يمرون خلال الميناء في وضح النهار وأن الضريبة عليهم تقدر بعشرة قروش لكل منهم وفي ٢٠ حزيران مثلاً ظهر حسب تقريره أن عددهم يقدر بستة وتسعين عبداً. من الأولاد والبنات في حالة شبه عارية وصلت للتو وقيدوا خلال البوابة إلى داخل المدينة مثل قطيع؟. ويبدو أنه كان مجتهداً بالبقاء قرب الواجهة البحرية للمدينة ويعد بدقة هذه البضاعة العربية السوداء.

وفي سنة ١٨٦٩ كان على الشريف أن يخضع إلى الجمعية البلدية المفروضة. وكانت استقلاليته قد بدأت تسمع يوماً بعد يوم عن الإزدراء لمواضيعه.

وفي سنة ١٨٨٠ كان أخيه وخليفته حسين «المعتدل المتحرر» فإنه وقع ضحية الإغتيال في جدة «بتشجيع من الازدراء الشعبي لسياسة الأمراء» ومع أن الرجل الذي قام بالاغتيال لم يعط أي تبرير منطقي للدافع الذي دفعه للاغتيال وحتى لحظة إعدامه ظل بدون أن يصرح بشيء. وقد وصف «داوتي» حسين بالعجز عند لقائه به في الطائف. قال داوتي: «هو رجل ذو وجه بشوش ونشيط بوقار في عينيه وفي السلوك الإنساني ويتكلم بصوت معتدل ومحبب ويبدو إذا جلس كشخصية نبيلة طويل القامة بلونه الأسمر البني وصدره العريض وأطرافه القوية. وكان يرتدي لباساً عادياً كالمتعارف عليه في المدن العثمانية عبارة عن جبة طويلة زرقاء اللون ولباس من الصوف المصفر ويجلس في ديوانه وعليه ملامح الوسامة والإتزان ويدخن الغليون كتركي عجوز، وكانت الطاسة الشرقية البسيطة قد وضعت فوق صحن أمامه وكان غصن الياسمين الأبيض لديه بطول الحربة تقريباً. نظر إلي نظرة بشوشة ورحب بي بوقار وتهذيب. [الصحراء العربية - داوتي - المجلد ٢ صفحة٥٠٨] وقال هوغارث في كتابه الجزيرة العربية ص١١٤ «هذا الرجل المعتدل والذي وقع بضربة سكين في جدة بعد لقائنا بسنتين حيث اعتنى به الدكتور وارتابت الطبيب البريطاني وهو ضابط مقيم معين في منطقة البحر الأحمر.

وكان حراس الشريف عند ذلك من الجنود من بيشة والبوادي وقد وصف داوني بيشة وكأنها واقفة عل درج القصر وتقوم بتحتينا أثناء المرور وكلا المجموعتين كانتا توظفان لحماية الشريف الشخصية يعيش في القصر وحوله ومع أن عسكر البوادي كانوا أكثر قرابة بقوة لحراسته في مكة وفرقة بيشة سميت كذلك لأنهم أتوا أصلاً من بيشة وكانت المجموعتان تقبضان على المجرمين وتقودانهما إلى نفس السجن. والأتراك كانوا يحاكمون من قبل الوالي التركي أو القاضي التركي وأما العرب فكانوا يحاكمون بواسطة الشريف إلا إذا تطلبت الحالة محاكمة بواسطة المحكمة الشرعية.

أما البند غير المكتوب بأن يحكم الشريف بين الأشراف والبدو والمكيين

بالمولد وهو قانون فعال فقط في الحالات الشخصية الفردية ولا يمكن العمل به كنظام دائم طالما أن هناك حالات استثنائية كثيرة لا تخضع لهذا القانون. ورجال الشريف وجنود الوالي أو السنجق يقودون المجرمين إلى نفس السجن ويقول «سنوك هوغنج» بأنه قد قابل شخصياً حالات عن رجل حوكم من قبل الشريف وبعد ذلك أطلق سراحه من قبل الوالي أو احتجز من قبل الوالي وطالب بمحاكمته من قبل الشريف وغالباً ما تكون الأحكام متناقضة وتختلف حسب كل حالة بمفردها وهناك أكثر من حكم أخذ على عجل ودون تمحيص. وقد توصل بعض الولاة النشيطين إلى حق الإدارة والإشراف على الأعمال الخاصة بالبوادي كما الأعمال الخاصة بالإشراف على حامياتهم العسكرية.

والشريف الجديد الذي تسلم السلطة من الشريف حسين كان من عشيرة ضحو زيد الكهل عبد المطلب الذي حكم مكة مرتين من قبل والذي سافر من اسطنبول التي بقي فيها فترة طويلة منفياً في بلاط السلطان. وقد حياه مواطني مكة بالتصفيق الحزين وقد تأثروا إذ رأوه وقد تقدم به العمر ودهشوا للمعلومات الكثيرة عن بلاط السلطان العثماني وخبرته الطويلة خلال فترتي حكمه السابقتين لمكة والتي لم يتذكرها إلا الكهول من أبناء مكة. وقد فاجأ الناس بخدمته لهم مما جعلهم يحترمونه أكثر من السابق ولأنه أوضح حال استلامه للسلطة علناً أنه يحتقر التجار الحضارم الأغنياء وكل من يعبد المال، وكل ما فعله لأجل مواطنيه في البداية من خدمات بدا وكأنه استثمر عن طريق وسيط بلمسة ساحرة. وعندما أمر بإلقاء القبض عل ثلاثة رجال في منتصف الليل لا لسبب إلا لأنه ارتاب في أمرهم فقط وبعد ذلك عاقبهم بالجلد وعذبهم بالمشاعل حتى مات اثنين منهم وهذا يدل على أنه يخوض حكمه عن طريق قوة المغامرة الجديدة. وكان أحد أشراف العبادلة والذي كان يملك قصراً مقابل بيت عبد المطلب والذي أصدر حكماً بهدمه لأنه يتوجب عليه بعض المستحقات التافهة.

وقد تقدم بعض البدو بشكوى للوالي نتيجة سوء المعاملة التي يلقونها من قبل رجال الشريف وحرسه. وما كان رده إلا أن أغار عليهم وقتل بعضهم وهذا

العمل جعلهم يحترمونه ويخافونه أكثر ولم يجعلهم يكرهوه. وقام بإلغاء عدة رخص منحت من قبل الشريف السابق ثم باعها لآخرين بعد ذلك.

وقد عومل الأغنياء من قبله بصرامة أكثر من الفقراء واستعمل سوريين ومسلمين أجانب في الإدارات وتسيير الأمور المدنية. ولكن وبالتدريج فإن حكومة هذا الرجل العجوز والنشيط، أصبحت لا تطاق من قبل أكثرية الأشراف وأكثرية وجهاء مكة وأعيانها. وبدأت الشكاوى تساق إلى رئيس عشرية أشراف العبادلة وكذلك إلى الوالي.

وفي تشرين الثاني ١٨٨١ عُين قائد عثماني جديد أكثر نشاطاً وحيوية من سابقه واسمه عثمان نوري باشا والذي وصل مع فرق جديدة من العسكر. وحتى لا يكون هناك شكوك قد تنتج عن الشريف فإن الوالي القديم عزت باشا قد أعيد تعيينه باشا على الحجاز وفي الحقيقة أن هذا الوالي الجديد قد تسلم أوامر من اسطنبول بأن يضمن سلامة الشريف العجوز بأن لا يفر إلى البدو أو إلى الطائف وحيث أنه ما زال هناك أناس يميلون إليه وعلى استعداد للموت في سبيله لذا فإنه أمر رجاله بمحاصرة بيت الشريف الصيفي في «المشفى» دون تحذير مسبق وكانت البنادق مصوبة تجاه البيت من التلال القريبة. وكان أشراف العبادلة قد تهيأوا بعد حين وبهدوء حشدوا رجالهم واستعدوا بالقرب استعداداً لأي احتمال طارىء.

وعند الفجر قُرأ على الشريف عبد المطلب الفرمان الذي فيه إقالته من منصبه ثم أخذ أسيراً إلى الطائف وبعد ذلك أخذ إلى قرب منى حيث بيته الذي سمح له بالعيش فيه حتى توفي في ٢٩ كانون الثاني ١٨٨٦.

وكان كثير من الناس الذين كانوا يؤيدونه حتى آخر يوم من حياته ولكن الشريف اعترف بنفسه «أن أيام التلغراف الجديدة والسفن البخارية والبندقية ذات مخزن التلقيم (وكانت كلها اختراعات جديدة) لم تترك لي مكاناً بينها».

وذهب الناس جميعاً إلى جنازته في مكة وكثير منهم نزل من أعلى السطوح بواسطة حبال بين جموع الناس من أجل لمس الجثة لتوديعها قبل

دفنها. وحتى أن الوالي التركي الجديد والشريف الجديد بدوا وكأنهم تأثروا بعمق وسيطر عليهم الحزن لرؤية كل هذه الشعبية التي كانت تندب رمزها.

وهكذا مرت مرحلة حكم عبد المطلب وهو بحكمه قد عمل على إعادة تتويج روح العصور الوسطى لعشيرة زيد وعشيرة قتادة من الظلم والعناد في سبيل تطبيقها ولكن بطريقة رمزية لعظمة السيد. . . وكان يبدو وكأن من دفن ليس فقط جثة عبد المطلب ولكن جثة التاريخ الخاص بالعصور الوسطى قد دفنت أيضاً معه.

الفصل السادس عشر

عون الرفيق - وعلي - والملك حسين وعلي ملك الحجاز (١٨٨٢-١٩٢٥)

عون الرفيق - وعلي - والملك حسين وعلي ملك الحجاز (١٨٨٢-١٩٢٥)

بالرغم من موافقة الوالي ورغباته فقد عين الباب العالي عون الرفيق بدلاً من أخيه الأصغر عبد الله لمركز شريف مكة والذي كان الوالي قد وافق عليه كخليفة للشريف السابق في حكم مكة ولفترة انتقالية حتى يحضر الشريف الجديد من اسطنبول.

وهكذا فقد انتهى النظام القديم حيث كانت ملامح الحياة الشرقية النقية هي السائدة، ومن الآن فصاعداً أصبح التغيير للعادات القديمة الراسخة والتنافس على التجديد أمراً شاقاً ولكن مستمراً. وصار الاختلاف عن الماضي والتطلع إلى التجديد كمن يرتكب فاحشة في نظر اسطنبول وأصبح الطموح نوعاً من الجنون. وكان الحكام الذين يودون ممالأة الشعب والسير في نفس الاتجاه من أجل كسب تأييدهم ودعمهم وبدأت طريقة التعامل داخل مقر الحاكم في مكة أكثر مرونة عما قبل.

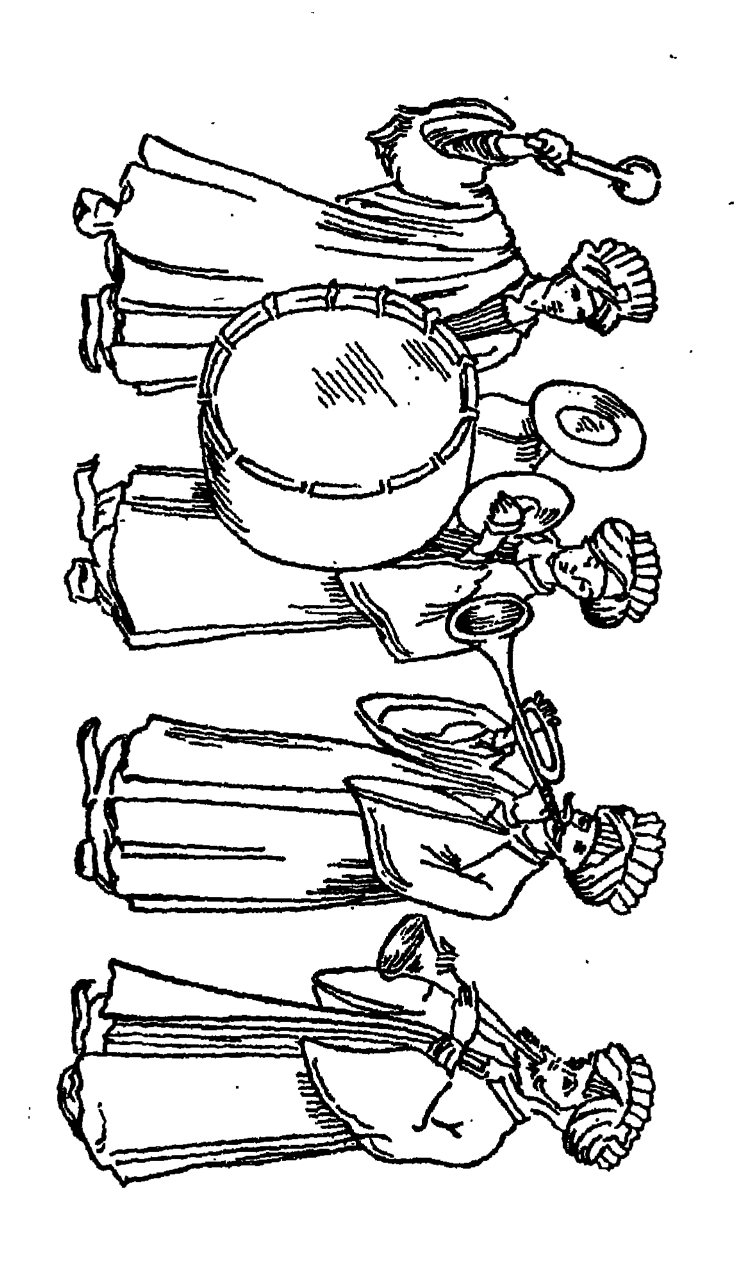
كان البروتوكول الجديد عند الشريف من مراوح ريش النعام ونافخي الأبواق صباحاً لإيقاظ الشريف عند صلاة الفجر والمسلحين السود والمظلة الوارفة تظلله ومجموعة من حملة السيوف يتقدمون موكبه وقارئي القرآن العمي يرتلون القرآن في الممرات حوله. وكان حملة الرماح والحراس الشخصيين

والفرقة الخاصة يوسعون الطريق أمام موكب الشريف أينما ذهب. وحتى أن لباس الشريف العمامة الضخمة. والأكمام الواسعة والمقفلة عند المعصم والرداء الموشى بالذهب من أجود القماش وكل تلك المظاهر القديمة من لباس قد بدأت بالتلاشي أو قل استعماله خلال الخمسين سنة القادمة.

والذين يذكرون أحداث هذه الأيام وبداياتها مع أن سجلات التاريخ قد سطرت عن قرب وكذلك الجرائد اليومية عن القصة الحقيقية.

وتصف الروايات عون الرفيق أنه كان في الخمسين من العمر عند تسلمه زمام الحكم في مكة ومظهره جديد وحسب موضة تلك الأيام وبدلاً من العباءة الحمراء الموشاة بالذهب والعمامة العظيمة للشريف السابق كان يلبس دائماً عمامة صغيرة بيضاء ولباس أسود عادي وكان عندما يسافر يستعمل فوطة وعصابة للرأس والتي يستعملها البدو عادةً.

وكان مجلسه اليومي لاستقبال الناس للأمور الشكلية، حيث لم يكن يبحث عن أمور السياسة إلا فيما ندر أو فيما يخص الأمور الإدارية اليومية. وكان يحتفظ بمناقشة هذه المسائل مع وزيره وخازنه أو عندما يكون مع الوالي أو في لقاء مباشر مع الضباط لمناقشة مسألة عاجلة أو قيد البحث. هذه العزلة الفريدة والجديدة من نوعها أصبحت اليوم شيئاً عادياً ولكنها كانت مدهشة للناس مما جعلتهم يتكلمون عنه ويعتقدون أنه فيلسوف. وكلمة فيلسوف في اللغة العربية تعني أكثر مما تعني في اللغة الإنكليزية فهي تعني بالعربية صوفي أو غامض وقد تعني ناسك ومتفكر أعمق مما تعنيه هذه المعاني باللغة الإنكليزية. وقد ظهر أن تراجعاً أو انحساراً للمظاهر البدوية والنبالة المكية قد بدأ. وذلك حيث كان الناس يقضون أوقاتاً كثيرة في بيوت القهوة العامة أو في الديوانيات حيث يدخلها الرجال ويخرجون منها كيفما اتفق وبحرية كاملة. وتعتبر هذه العادة غريبة على مجتمع مكة. وكان الشريف يريد أن يحصن نفسه من الوالي التركي ولكي يجعلهم غطاءً ضد الطبيعة المتحمسة المزعجة والناتجة عن سيطرتهم على البلد.



وكان الضباط العثمانيون يأخذون كامل عائدات ميناء جدة من الضريبة الجمركية ولم يعودوا يدفعوا الجزء المستحق للشريف على اعتبار أنه ليس من حقه وأنه يستحق راتباً، شهرياً فقط مثلهم سواء بسواء. فكانوا يدفعون رواتب الحرس الخاص به وبواسطة وسطاء يستدعون للتوسط بينهم وبين الشريف في حال وقع إشكال قد يؤثر على طبيعة تحالفهم أو بما يتعلق بالأمور الإدارية وتكون في أغلب الأحيان لمصلحتهم. هذا وقد قام الباشا بعمل بعض الأشغال المدنية لتحسين مصادر المياه في جدة. وأعاد بناء قناة نبع زبيدة، وكذلك إنشاء مبنى جديد للحكومة ومعسكرات ودساكر للجند وكل ذلك في نطاق سلطة الشريف. ولتكون الأمو أسوأ فإن الباشا لم يسمح بأي شكل من الأشكال للمحاكمة التي تجري تحت سلطة الشريف لأي شخص كان. عدا أفراد الأسرة الخاصة بالشريف والبدو والأشخاص من غير الدم التركي والمولودين في أراضي مكة نفسها. وقد كان الوالي يبحث عن إمكانية السيطرة على طريق القوافل مباشرة فأرسل حملة باتجاه قبيلة حرب ولكن بقوة كاملة من الأتراك وبدون أي مشاورات مع الشريف.

وفي النهاية لم يستطع الشريف تحمل هكذا تدخل أكثر من ذلك فسافر إلى المدينة ويصحبه جميع أفراد أسرته من النافذين في مكة ومجموعة من وجهاء البلد والتجار وكذلك مفتي الشافعية وكذلك قافلة من القضاة الصغار ورجال الدين.

هذه الهجرة الغريبة كانت خلال الليل وفي الصباح وجد الأتراك أبواب المسؤولين والوجهاء في البلد مقفلة في وجوههم ولم يجدوا سوى بعض الموظفين الصغار لتسيير الأمور اليومية وكان الناس يقرأون هنا وهناك أفيشات وملصقات «أن الدخول إلى الجنة مضمون بدون دفع رشوة لكل من يخلص مكة من الوالي، الملعون والفاسد» ومن المدينة بدأت الرسائل تتجه إلى اسطنبول مع احتجاجات الشريف. وإنه لا هو ولا أي شخص من الأشخاص النافذين في المدينة سوف يعودون إلى مكة حتى يغادرها الوالي وإلى الأبد.

وكان السلطان ينظر نظرات احترام إلى الشريف عون الرفيق وقد أفسح

الباب العالي في المجال أمام حل للموضوع نهائي إذ أرسل الوالي عثمان باشا والي حلب إلى جدة وهكذا فإن الشريف عون الرفيق وجميع رجاله عادوا إلى مكة ورفعوا اسم الباشا عن كل المستندات في جميع المكاتب الرسمية. وإثباتاً للإنتصار فقد حفروا فوق باب قصر الشريف بخط كبير «مكتب الشريف النبيل وحكومته المظفرة».

وعندما حضر الوالي الجديد للحجاز جمال باشا وجدوه أكثر دبلوماسية من سابقه ولم يكن أقل تقبلاً لتأثير الشريف ومكانته. وقد أصر على التسريح من الوظيفة لفرد من عائلة الأشراف عبد الله بن زين والذي كان قد سمي من قبل الوالي السابق باسم حاكم الوادي وقد عين مكانهم من رجال عثمان. ومع ذلك فإن تأثير الشريف على شعبه أصبح أكثر من السابق وقد بدأ يأخذ تدريجياً حصته من الموارد أكثر فأكثر وكذلك في إدارة شؤون الحجاز أيضاً كان له الباع الطويل.

وكان حكم عثمان للحجاز أو محاولته للحكم قد تميزت بقوة مشاريع الماء العثمانية للحجاز ولم يتمكن العثمانيون من بعده من الحكم بشكل مباشر وفعال إلى الدرجة التي حكم بها عثمان للحجاز.

وقد تقدمت فرقهم إلى داخل الجزيرة العربية سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٥ كان هناك أزمة حدود في الجنوب مستخدمين اليمن وكأنها أرض مقتطعة من أملاكهم عند التعامل مع البريطانيين. ولكن كان هناك جفاء من قبل العرب تجاههم وكان حكم عون ومركزه بعد ثلاث وعشرين سنة من حكمه أكثر قوة ومنعة ونجاحاً عما كان عند استلامه للحكم.

وكلما كانت قوته تزداد كلما كانت شخصيته وحتى شكله بدأا يختلفان، وصورته الفوتوغرافية تظهر تكبّره البارز والسجلات التركية تحمل آثار توجهات لطيفة في رسائله. وحيث كانت العادة من قبل فإن الشريف قد استرجع بكثير من الصبر بعضاً من قوته التي انتشلت من إمارته من قبل الوالي العثماني.

وعندما توفي عون الرفيق سنة ١٩٠٥ كان الوالي تلك الأيام أحمد راتب

باشا الذي طلب من الباب العالي تعيين ابن أخي عون الرفيق علي بن عبد الله بن محمد بن عون والذي كان يتهيأ لأخذ قصر الشريف القديم. وكان أكبر أفراد عائلة عون هو عبد الله باشا أخو عون الرفيق والذي كان مزعوجاً في اسطنبول وكان تعليقه المرير قد ترك أثره لاحقاً.

وفي مكة نفسها بدأ الوالي يبدي قوة نفوذه وأن هناك شريف جديد عينه هو بقوة نفوذه وتأثيره ولكن لعدم شعبيته فإنه حمل الشريف معه أيضاً في قطار كره الناس له، وهكذا فإنه عندما أعلنت تركيا عن دستورها في سنة ١٩٠٨. فإن أحمد راتب باشا قد أقبل بواسطة الأتراك الأصغر سناً حيث أنه كان من أمراض الماضي القديم الذي لا شفاء له. قد قذف في هوة النسيان والإذلال فسحب في أذياله الشريف علي والذي أنقذ مصيره ببحثه بجد عن ملجأ تحت سلطة الحكومة البريطانية في مصر. وبينما كانوا يعلنون عن تعيين عبد الله باشا كان الشريف الجديد كهلاً ولكنه كان فرحاً جداً. وقد عاش فترة لا بأس بها لم يعشها أي من معاصريه من أفراد أسرته. وقبل وفاته بقليل ذهب ليودعهم جميعاً في قبورهم الوداع الأخير وهناك وعلى قبر ابنه حيث ركع قرب القبر أصيب بغيبوبة مفاجئة توفي بعدها بعدة أيام في أميرغون على البوسفور في منزله هناك حيث دفن هناك وكتب على قبره فقط «شريف مكة واسمه» ولا شيء آخر.

وأسرع إلى السراي في مكة وإلى مكتب الوزير وإلى كل بيت له نفوذ في مكة عيون وجواسيس علي حيدر من عشيرة ضحو زيد وكذلك جواسيس الحسين بن علي من عشيرة ضحو عون. وكان حسين قد حبس في صغره لإظهاره روح التمرد بينما الآخر تقدم بخطوة غير عادية بتزوجه من امرأة بريطانية، وفي النهاية فإن حسين هو الذي استلم الخلعة والفرمان لحكم مكة.

وقد استدعي الشريف حسين بن علي إلى اسطنبول مع أسرته سنة ١٨٩٣ عندما كان في السابعة والثلاثين من عمره وكان لديه ثلاثة أبناء في مرحلة الشباب وكانوا في المدارس في اسطنبول علي وعبد الله وفيصل وقد عاشوا هناك مدة خمسة عشر عاماً في العاصمة التركية كانوا هناك شبه سجناء لدى

السلطان وقد تركوا اسطنبول بعد ذلك في خريف سنة ١٩٠٨ وبناء على أوامر السلطان نفسه وذلك عندما عين حسين الشريف الكبير لمكة. ومنذ أن ترك الحجاز فقد أنجز خط سكة الحديد حتى المدن المقدسة خلال تلك الفترة. وكان الابتهاج كنوع من وسيلة التحول لتسهيل وصول الحجاج في رحلتهم الروحية إلى المدن المقدسة ولكن حسين والأشراف الآخرين قد لاحظوا بأن تدعيم القوات التركية في الحجاز سيكون من السهل تنفيذه بسرعة عظيمة وإيصاله إلى مكة. ولكن حتى خريف سنة ١٩٠٨ بقيت خطوط سكة الحديد بين يدي المهندسين الألمان والذين وصلوا حتى المدينة المنورة فقط وفي الحقيقة وبسبب الانشغال بالحرب العالمية الأولى لم يصلوا إلى مكة أبداً.

وبينما خط السكة الحديد كان يتلوى في طريقه إلى الجزيرة العربية. وكانت الأفكار الجديدة والموجة الجديدة من الأفكار الوطنية بدأت تحور في كل مكان في المجتمعات العربية للأمبراطورية العثمانية. وقد تكونت جمعيات سرية عربية ونظموا أنفسهم، وإحدى هذه الجمعيات كانت لمصلحة الأمبراطورية العربية التركية على شاكلة الوحدة النمساوية الهنغارية وهي جمعية أقل حماساً وطموحاً وأكثر تعصباً في تطرف مبادئها، أما الزوار من الغرب فقد تنبهوا عن غير قصد نتيجة لرغبة العرب بالاستفسار عن الطريقة الأمثل للاستقلال. والمسألة لم تكن سوى إعادة تعديل للتاريخ والجمعيات السرية لم تكن تكفي وكان من المحتم على العرب أن يتحركوا لما هو أكثر حزماً وحسماً إذا كان الهدف هو الحرية الكاملة الحقيقية.

وكان هذا هو الجو السائد عندما فكر الشريف حسين بالسفر إلى مكة سنة ١٩٠٨ في البداية اعتقد البعض أنه على ولائه للأتراك ولكن بعد أن أرسل الحملات إلى عسير والقصيم انشغل بتصحيح أمور الشريفية و تأثيرها الذي خبا تحت سلطة الشريف علي. وبالتالي أصبحت الشكوك تحوم حوله من قبل الأتراك المتواجدين في الحجاز.

وفي سنة ١٩١٣ عقد اجتماع عربي في باريس حيث تم التصويت على الاستقلال التام واتخاذ الإجراءات الكفيلة بذلك وبدا في البداية أن السلطة

العثمانية موافقة على الأمر ولكنهم استمروا بالعمل على إضعافه. إن «جمعية الإتحاد والترقي» بالرغم من اسمها الكبير فقد أظهرت قليلاً من الاهتمام من أجل دعم وتبني حركات التقدم من أجل الاستقلال وعبد الله بن الشريف والذي هو عضو في البرلمان التركي تقدم بخطوة جريئة وهي باستدراج لورد كيتشنر المندوب البريطاني من مصر في شباط سنة ١٩١٤ كي يطلعه على رأي الحكومة البريطانية بخصوص حرب قد تنشأ بين العرب وتركيا. فلم يتلق أي تشجيع على ذلك وإن طلبه لشراء بنادق بريطانية قد رفض ولكن زياراته لبريطانيا فتحت العيون في الحكومة البريطانية على عمق العداوة العربية التركية وعلى مشاعر العرب في الاستقلال عن تركيا.

وكان الضابط البريطاني الذي زار مكة خفية وبشكل متنكر كتب عن مشهد موسم الحج وشعائره تحت سلطة الشريف:

«كان هذا اليوم يوم الاحتفال بالعيد كانت الحشود ترتدي أبهى ما عندها من ثياب وكان منظر المعسكر يبدو في حلة جميلة مزينة. وفي الصباح ذهبنا لنشهد تقديم الهدايا إلى الشريف. وكان معسكره على هضبة مرتفعة قليلاً أعدت خصيصاً كي تنصب فوقها أربعة سرادقات عالية وخيم متعددة أخرى صغيرة الحجم. وكانت صفوف من العسكر قد شكلت ممراً كي تصد تدافع الناس وكانت مجموعات أخرى تستعرض جيئة وذهاباً في المساحة الفارغة. ثم بدأت الهدايا الكبيرة المتعددة تصل الواحدة تلو الأخرى وترافقها الحماية المناسبة وكانت تسلم للشريف الجالس على المنصة في البعد داخل السرداق حيث اجتمع مندوبون من البلاد الإسلامية حاكم مكة وبعض المسلمين النافذين من الهند وبلاد أخرى من الشخصيات المهمة.

وعندما اجتمعوا جميعاً وجلسوا أتى السفير التركي بصحبة هدية السلطان محمولة على طبق من ذهب ولا أستطيع وصف تلك الهدية لأنها كانت مغطاة بالقماش ولكنني أُبلغت بعد ذلك أنها كانت عدة ألوف من العملة النقدية التي جرت العادة على تقديمها من قبل السلطان في هذه المناسبة. وبعدها تقدم الشريف حتى حرف المنصة لاستقبال هذا الزائر ويرافقه إلى الداخل.

وحالما انتهى الاحتفال وركب السفير التركي مغادراً، تقدم وجهاء مكة وكبرائها والحجاج لتحية الشريف فكانوا يمرون الواحد تلو الآخر. وقد غادر المسعودي للسلام عليه ولكنني لم أفعل لأنني خشيت أن أسأل عن شخصي.

والشريف الجديد السيد حسين رجل مشهور وله شعبية وذلك لأنني رأيت إقبال الناس عليه والمكانة التي يحفظ نفسه بها ويحترمه الناس لأجلها. وبعد أن غادر حياً ليحفظ موقعه استطاع أن يحيي تراث النبي والخلفاء الراشدين، والذين كانوا مقبولين من الجميع مع كل الاختلافات التي حدثت. وأن يضع في حيز التنفيذ نظرية المساواة والأخوة والتي تضمنها القرآن الكريم» [من كتاب الحج الحديث في مكة ص٢٠٩ تأليف جي. بي. وافيل].

[يصف وافيل كتاباً مخطوطاً ثم بعد ذلك مشهوراً في الحجاز ومنذ ذلك التاريخ طبع في القاهرة بدون النص الذي يتعرض للدين كنص أدبي رصين].

وكانت شعبية حسين في الغالب على هذه الصورة وذلك قبل أن يبدأ بإزعاج السلطات العثمانية في الحجاز وجيرانه العرب.

وفي محاولة العثمانيين لقمع الحركات الخارجة عن أمبراطوريتهم المنهارة سعت إلى تشجيع الثورات عن غير قصد معلنة أن هناك حركات سرية تخطط للقيام بعمليات غير مشروعة وما توصل إليه اليونانيون من قبل قد بدأ العرب يمشون في نفس الاتجاه ما قبل الحرب العالمية الأولى بسنة. وبدأت نواديهم المتحررة وقواتهم المختبئة أصبحت قوة متنامية مؤتمرة بإمرة وإلهام الشريف حسين - شريف مكة. فجمعية «الوحدة» في العراق وجمعية «الحرية» في سوريا كانت كلتاهما ترسلان مبعوثين سريين إلى الشريف وتتبادلان معه الرسائل فكان الشريف يمثل بالنسبة لهما الملهم وهو الحاكم العربي للمدينة المقدسة وقائد له وزنه في الثورة العربية فيما بعد عندما يحين وقتها. ولم يكن هناك قائد آخر يمكن أن يلائم منصب القيادة الذي من الممكن أن تتوحد كلمة العرب حوله.

وبعد ثمانية عشر عاماً من اللجوء السياسي في العاصمة التركية قد علمت

الشريف حسين نقاط الضعف في السياسة التركية، ثم بدأ بتحديد الطرق الأكثر قوة والأبعد عن التطفل لتقوية إمارته تهيئةً للحظة الاستقلال. ولكن هذه العملية لم تكن من اليهولة ببمراقب الأجنبي بحيث يمكن أن يقتنع بتحقيقها وذلك لسبب بسيط هو أن الحجاز كانت تحت السيطرة العثمانية منذ سنة ١٥١٦ والذين كانوا مسلمين أيضاً وكان على رأس الأمبراطورية العثمانية آنذاك أمبراطور قوي وقبل في البداية كونه الخليفة أي خليفة المسلمين. وقد جرت العادة أن يوفد بعض النافذين العرب أولادهم إلى اسطنبول للعلم كما هي حالة ابن الشريف حسين وهذا التعليم التركي قد أعطى أبناء الأشراف القشرة اللازمة للمظهر التركي في الحكم. وكانت اللغة التركية تستعمل مع اللغة العربية في المناطق العربية. وكان ثلث الجيش التركي من العرب وكانت الآثار المقدسة للنبي محمد (ص) قد عرضت باسمه في أوقات الشدة وقد وضعت بوقار في السراي في العاصمة التركية وكان هناك دائماً قوات تركية في المدن المقدسة وأن هؤلاء ما كان باستطاعتهم الاهتمام والمحافظة كما يجب على هذه الآثار الخاصة. وكان الاعتقاد سائداً في البداية بين المسلمين بأن السلطان في الحقيقة وبكل بساطة هو اسم على مسمى «سيد العالم» وأن ستة من السلاطين الغير مخلصين والذين يدفعون الضريبة له والذين لا تمثيل لهم في اسطنبول لا أهمية لهم عند السلطان.

ولكي يكون هناك سفير فلم يكن يوجد الكثير ممن ليس لديهم معلومات من الأقاويل والإشاعات عن العواصم الأخرى كإشارة إلى الخضوع. ولهذا فإن هذا الزواج لهذا التمازج المختلف للمسلمين لا يمكن فصله في يوم وليلة. وكان هناك على الأبواب حرب ستجري بين القوى المسيحية المختلفة في العالم ستكون العذر الأخير للمسلمين والمبرر لحدوث الطلاق النهائي.

ولكن موجة الثورة بدأت تتنامى في سوريا ومنطقة ما بين الرافدين وعندما بدأت اقتراحات للدعم والمناصرة أرسل الشريف ابنه فيصل إلى الشام ليتدارس اقتراحاتهم ومشاريعهم. وكانت تقاريره بين تفضيله لحظة إرسال أخيه الأكبر علي إلى المدينة المنورة كي يجمع رجال القبائل بهدوء وسرية وكذلك

من القرى والبدو. ويتهيأوا للخروج عندما يطلب منهم فيصل ذلك. أما عبد الله الأخ الثاني لفيصل قد طلب منه أن يبقى على اتصال بالبريطانيين ويحبس بغضبهم في ثورة ضد الأتراك.

وعندما وقعت الحرب العالمية الأولى في آب ١٩١٤ كان المندوب البريطاني في مصر أثناءها في بريطانيا في إجازته الرسمية فبدأ يتجهز للعودة إلى مركزه في مصر ولكنه لم يتخطى خلف دوفز حتى أرسل خلفه ليعود بناءً على طلب رئيس الوزراء وليعينه وزيراً للخارجية لشؤون الحرب.

وعاد السير رونالد ستورز السكرتير الخاص بوزير الخارجية لشؤون الشرق إلى مركزه في مصر وحيداً دون رئيسه ولم يكن كسولاً، فالصراحة التي تكلم بها عبد الله من قبل عدة أشهر وشرح له الانشغال الكبير للعرب بمسألة الاستقلال وعدم الرضى عن الحكم العثماني للعرب جميعاً. وقد رأى ربما بالنسبة لعصره أكثر من أي شخص آخر أن يجير كل ما يحدث لمصلحة بريطانيا، وأن الاستشارات التي أجراها السكرتير لشؤون الشرق مع العرب المقيمين في مصر والذين كانوا من العرب النافذين والذين زادوا وجهه نظرة قوة. فكتب بصورة شخصية إلى لورد كيتشنر يخوله صلاحية إقناع العرب الوقوف في الحرب مع بريطانيا.

وأسرع كيتشنر إلى تبني هذا الموضوع في الحال وأرسل إلى «ستورز» للاستعلام خصوصاً من عبد الله إذا ما كان في نية تركيا الدخول إلى جانب المانيا في الحرب هل هو على استعداد للوقوف مع بريطانيا أم مع تركيا في هذه الحرب. هذه التعليمات قد صدرت في آخر أسبوع من شهر أيلول وذلك قبل ستة أسابيع من إعلان الحرب على تركيا. وقد مرت بضعة أيام قبل أن يتمكن ستورز من إيجاد الرسول الذي يمكن الاعتماد عليه للسفر سراً إلى االحجاز وأن يدخل إلى مقر عبد الله بدون أن يلفت إليه الأنظار. وهذا الرسول مصري الجنسية يعرف باسم علي أفندي والذي وصل إلى مكة حوالي منتصف تشرين الأول وسلم الرسالة وعاد إلى القاهرة قبل نهاية الشهر جالباً معه رداً من عبد الله.

وعند وصول الرسالة من كتشينر إلى الشريف في موقف لين، وكان يبحث عن فرصة ملائمة ليؤكد على أحقيته بحكم الحجاز حتى ولو أدى ذلك إلى خرق تحالفه مع الأتراك. وقبل عدة أشهر من اشتعال الحرب عندما كانت الخلافات بينه وبين الأتراك متعلقة بالأعمال فقط في الحجاز. والآن وبعد أن اشتعلت الحرب وبدا أن دخول الأتراك فيها أصبح وشيكاً أصبحت المشاكل متعددة وواضحة وستورطهم ومستقبل العرب جميعاً الخاضعين لسيطرة الأتراك، وقد كان أمامه طريقين مفتوحين أما أن يقف مع تركيا في محنتها ويحصل على امتنانها وشكرها والاعتراف به من قبلها أو أن يقف ضدها ثم يبحث عن حريته على رؤوس السيوف والأسنة.

وقد استشار اثنين من أبنائه كانوا من رأي معاكس، ففيصل فضل الخيار الأول وكان مقتنعاً بأن فرنسا لها خطط حول سوريا وأن بريطانيا في المنطقة الجنوبية من العراق وأن عرض كيتشنر لا يشتمل على أي ضمانة ضد الأخطار. وهو لم يكن يعتقد بأن العرب كانوا مهيئين بعد بشكل كاف وأن أي ثورة يقومون بها قد تفشل. أما عبد الله فكان رأيه وقد كان منضماً إلى إحدى الجمعيات العربية السرية والتي أعطته بعد نظر لقوة الثورة ومشاعره تجاهها. وكان متفائلاً فكان له ملء الثقة بأن دمشق وبغداد سوف تتجاوب بكل فخر واعتزاز إلى نداء الثورة. ووجد أن الطريق الصحيح هو بأن لا يهمل عرض كيتشنر لسبب أنه غير كاف ولكن ليفسح في المجال للمباحثات إذا ما كان المقصود به ضمان كامل لاستقلال العرب.

وكان الأخوين مخلصين بعناد كل برأيه في كل الاجتماعات يهمسان بها وكذلك في كل المؤتمرات التي كان والدهما يدعوهما إليها. وكان حسين ميالاً بالكامل لإشراك فيصل في وجهة نظرة في عدم استعداد العرب وخصوصاً في المناطق العربية الأخرى ومع ذلك فإن إصرار عبد الله جعله يتريث، وفي النهاية توصل إلى قرار معتدل، أرسل مبعوثين إلى سوريا من جهة وإلى وجهاء العرب من الحكام لاكتشاف الحالة الحقيقية لمشاعرهم ولكي يهيء الحكام ويستمع لآرائهم ومن جهة أخرى فإنه سوف يعطي كيتشنر ما يكفي ولكن لا

أكثر من تشجيع ليجعله دائماً مساهماً في العملية. وقد كتب رسالة إلى ستورز ووقعها عبد الله والتي وصف نفسه بها على أنه يريد أن يصل إلى تفاهم مع بريطانيا العظمى ولكنه ليس بقادر على الخروج حتى تلك اللحظة عن حياديته حيث مركزه في الإسلام يدفعه إلى المراقبة واستدرك بأنه يجب أن يكون هناك إمكانية بأن يقنع تابعيه المباشرين لكي يثوروا ضد الأتراك مع وجود قناعة لديهم بأن بريطانيا سوف تقوم بالدعم الفعال.

والرسالة التي وصلت إلى ستورز قبل نهاية تشرين أول وبعث بتلغراف إلى لندن في الحال وكان نص الرسالة قد وصل إلى ليتشنر في نفس الوقت الذي وصلته الرسالة من صديقه القديم السير جون ماكسويل وكان أثناء ذلك قائداً للقوات البريطانية في مصر والذي كتب له من مصر بتاريخ ١٦ تشرين أول في لحظات حرجة جداً والذي جلب له قناعة دائمة وراسخة. وحول موضوع الحجاز فإنها أعطت الحسين التأكيدات الثابتة التي التمسها منهم في حين أن ما يخص مواضيع المناطق العربية الأخرى قد فتحت الباب على مصراعيه على منظر مغر من التحرر الوطني. وكانت بنود الرسالة عامة في دراستها ولكنها حقيقية وبالشكل الذي يمكن أن تصل إلى ما يتمناه عبد الله وكانت تتكلم عن «الأمة العربية» وعن «انعتاق العرب» ومهما كانت هذه الكلمات تعني بالنسبة للمحتل كيتشنر عندما استعملهم في رسالته إلى الشريف فإنها توصل إليه دعوة غير خاطئة بدعوة العرب إلى الثورة وفي هذا الاتجاه قرأ الرسالة الموجهة إلى ابنه مثلما أرادها كيتشنر حيث كانت شهرته في الشرق كانت أعظم من شهرة أي إنكليزي وكانت كلمته مسموعة بدون أي استفسار ومن تلك الزاوية ومنذ ذلك الوقت أصبح يدير نشاطاته.

وقد جعل جواباً على سؤال يصل إلى مصر حيث كان عبد الله قد وضع والده أمام سياسة لحلف غير مصرح به مع بريطانيا العظمى. وقد ضغط عبد الله مرة أخرى على عدم قدرة الشريف قبل التحضيرات المطلوبة وذلك من أجل الالتزام تجاه أي عمل عدائي مفتوح على الأتراك. وقد سأل عن الوقت حيث يمكن أن يكتشف قدراته ويسيطر على قواته وبعدها يبحث عن فرصة

ملائمة كي ينفصل وقد وعد ستورز بأن يرسل معلومات إضافية لاحقة تخص القضية هذه. وهذا الجواب وصل إلى مصر في أوائل شهر ديسمبر ـ كانون الأول ومعه الفصل الأول من العلاقات العربية البريطانية المتآمرة على الأتراك قد توصل إلى بند صريح. أما الفصل الثاني فقد فتح بعد ذلك بثمانية أشهر في تموز وهو حالما انتهى الحسين من طرح مساءلاته بين القادة العرب ومحادثاته معهم وقد فتح هذا الفصل بملاحظة من الشريف إلى السير هنري ماكماهون وهو المفوض السامي البريطاني في مصر وهي أول ملاحظة من مجموعة متصلة من الملاحظات الدبلوماسية والتي كونت ما سمي «بمراسلات ماكماهون»، المندوب السامي البريطاني في مصر.

وفي مكة كان الشريف يشق طريقه بحذر، وكان عرض ليتشنر في ٣١ تشرين أول والذي وصله سوية مع إصدار فتوى بالجهاد قد أعادته بكل تأكيد مرة أخرى إلى وجهة نظر عبد الله والتي هي عكس وجهة نظر فيصل ولكنها كانت ما تزال غير ناضجة من أجل بدء التحرك. وكان عليه أن يتناقش أولاً مع الوطنيين في سوريا والعراق وجيرانه في الجزيرة العربية وأن يختار درجة الدعم التي سوف يعتمد عليها. والمسافات الموضوعة في الحسبان والعناية المطلوبة لحفظ السرية مما يعني التأخر لشهور، وكان الأتراك تلك الأثناء يضغطون من أجل تجيير «الجهاد» من أجل دعمه الفعال. وكانت الرسائل تمطر عليه والتلغرافات تغمره قادمة من اسطنبول من الوزير المعظم «انفير طلعت» وشخصيات أخرى ذات شأن. والآن جمال باشا يعين قائداً عاماً للجيش الرابع في سوريا وكان يضغط على الشريف حسين ليعلن الجهاد المقدس بنفسه على الملأ ويطالبه بإحضار راية النبي محمد (ص) إلى دمشق وأن يحشد مجموعة من جنود القبائل الحجازية لهذه الغاية.

وكان الشريف حسين بحدة ذهنه ودهائه أكثر من أن يكون أداة بيد الأتراك وتعامل مع الأتراك بمهارة بارعة وخبث.

ولكل من كانوا يناشدونه لإعلان الجهاد أي (الحرب فريضة على كل مسلم) أجابهم إجابة حماسية وبعبارة كلاسيكية غامضة بأنه يدعو لهم بالنصر

المؤزر من كل قلبه ويبارك خطواتهم. وكان يشعر بأن السلطان بحكمته المعهودة سيتفهم موقفه والصعوبات التي تواجهه. وخصوصاً أن قوات البحرية البريطانية في البحر الأحمر كانت تتعاظم ويمكنها حجز تحركه وهكذا فإن الحصار عليه يضر بشعبه في الحجاز. وبعد فترة كانت تصله أخبار عن الأمراء العرب والشيوخ الأكثر قوة وردات فعلهم تجاه الأتراك وكذلك كان هناك تساؤلات من قبلهم عن موقفه من الأتراك وعن ولائهم تجاههم وقام الشريف حسين بالاتصال بالسيد علي الميرغني الشخصية العربية النافذة في السودان وصديق الحاكم العام سير ريجينالد وينغيت ولنفس الغاية.

وبسبب تجنبه أو رفضه إعلان الجهاد فإن حسين قد أغضب الأتراك وإن عزله قد أصبح وارداً. وكل ما كان باستطاعتهم فعله هو التظاهر بأن إعلان الجهاد قد تم التصريح به من الشريف حسين وعملوا من مسألة نقل راية رسول الله محمد (ص) من المدينة إلى دمشق شيئاً عظيماً وذا شأن ولكن غياب حسين وأولاده عن هذا المشهد ومتابعته قد أوضح للعرب وبدون أدنى شك عدم تأييده لطلب الأتراك.

وكان رد فعل عثمان باشا في الحجاز تجاه الشريف وتصرفاته تجاهه قد أقنعت الشريف بأن مؤامرة ما تحاك ضده. وعندما سُرقت أوراق الباشا وأحضرت إلى الشريف حسين تبين له من خلالها حقاً بأن شيئاً ما يخطط ضده. فلم يضيع وقته فأرسل ابنه فيصل إلى اسطنبول وليشكو بالتحديد إلى السلطان وحكومته والأهم في هذه طريق الرحلة حيث أنه في طريقه سوف يلتقي كل الزعماء العرب والوطنيين السوريين ليشرح لهم كل ما لم يعلموا به من محادثاته مع البريطانيين من خلال ابنه عبد الله والموقف العام كما يراه هو.

وخلال فترة غياب فيصل في تركيا فإن السوريين الذين قابلهم في طريقه قد استنبطوا بروتوكول أو معاهدة فتوى تحدد الشروط التي يعتقدون أنها توجب الاشتراك في الحرب جماعياً إلى جانب بريطانيا من قبل العرب.

وعند عودة فيصل من تركيا شك بأن تتقبل بريطانيا هذه المعاهدة، ولكنه

تعهد بأن يسرع إلى مكة ويعرض الموافقة على والده من قبل تركيا، وكان الجزء الأول من هذه الوثيقة يشير إلى الاعتراف من قبل بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية والتي حددت مساحتها بامتدادها حتى مرسين واضنه وأورفا وماردين وجزيرة بن عمر وكانت عدن هي الوحيدة المستثناة من الجزيرة العربية نفسها ومن ناحية الغرب عند البحر الأحمر والبحر المتوسط كانا هما الحدان النهائيان لحدود الجزيرة العربية ومنذ تلك اللحظة كان نشاطه يشمل هذه المساحة المتفق عليها. وقد رسمت بالنسبة للتحالف الدفاعي بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة مستقبلاً كمنطقة مهمة لمصلحة بريطانيا الاقتصادية. وكان قسم التحالف قد أخذ من ستة زعماء عرب مجتمعين على الاعتراف بقيادة الشريف حسين المتكلم الرسمي باسم كل العرب. وكانت السيادة الوقورة لاجتماع دمشق قد منحت الشريف حسين خاتم الريادة وهو تقليد لعادات قديمة فيوصل هذا الخاتم إلى الشريف كإشارة بالتفويض وارتهان له في تحمل المسؤولية.

وعندما بدأ الشريف حسين نقاشاته مع البريطانيين كانت الحرب حينها تسير في غير مصلحة الحلف البريطاني في الشرق فالهجوم على شبه جزيرة غاليبولي قد فشل ومصر لا زالت مهددة وكان الأتراك في اليمن قد أغاروا على منطقة عدن وفي العراق وحيث كان البريطانيون يتقدمون كان التفاوت في ميزان القوى لمصلحة الأتراك قوياً، وكان السير هنري مكماهون مشغولاً بموضوع التهديد الخطر اللاحق بمصر عندما وصلته رسالة من الشريف حسين وهي من ضمن المراسلات التي كانت ما تزال جارية بينهما ـ والتي عولجت ودرست بعد ذلك من مراجع مختلفة لتعلقها بالقضية الفلسطينية ـ وفي أيار أبرق الشريف حسين إلى ستورز من خلال ميناء السودان طالباً منه زيارة ابنه عبد الله في الحجاز.

وكان من نتيجة هذه المرسالات وزيارة ستورز للحجاز ـ وبصرف النظر عن كيفية تفسير هذه المراسلات من قبل جهات ومراكز سياسية مختلفة ـ ولأن حملة تركية كانت على وشك المسير إلى اليمن من المدينة المنورة وكان على

هذه الحملة أثناء مرورها بالحجاز أن تسقط الشريف حسين والذي دخل الحرب رسمياً إلى جانب الحلفاء وأعلن عن ذلك يوم الخامس من حزيران ١٩١٦.

وأعلنت الجريدة المكية «القبلة» عن طرد الحامية التركية من قبل الشريف حسين وقد ترجم جورج انطونيوس هذا الخبر من العربية إلى الإنكليزية عن الجريدة وكان التاريخ من ١٤ إلى ١٧ آب ١٩١٦:

«في الساعة الثالثة والنصف من قبل فجر يوم السبت يوم ٩ شعبان (العاشر من حزيران) بنادق من المساندة فتحت النار على الثكنات العسكرية في مكة وعلى بناية الحميدية حيث تتواجد مكاتب الدوائر الحكومية وقد ضرب طوق من الحصار حول القوات التركية في مراكزها المتعددة أينما كان.

وقد اتصل الضباط هاتفياً بقصر الشريف ليسألوا عن توضيح لما يحصل وقد أجيبوا بأن البلد قد أعلنت الاستقلال عن الحكم التركي وأن عليهم الاستسلام وقد رفض الضباط ذلك. وكان القتال يدور يوم الاثنين في ١٢ حزيران والدائر منذ يومين ولكن اليوم قد عنف القتال وخصوصاً حول مقر مكاتب الحكومة في الحميدية حيث مقر نائب الحاكم العام وهو برتبة ضابط في الجيش قد حصن نفسه في الحامية والذي لا يكف عن إطلاق النار بطريقة عشوائية طائشة. وقد قررت فصيلة من القوات الشريفية الهجوم ونجحت في قصف المكان وأجبرت الحامية على الاستسلام وقد أخذ جميع الضباط بما فيهم نائب الحاكم العام إلى السجن وكان مقرهم في قصر الشريف وكتبوا رسائل إلى الضباط الآخرين والذين ما زالوا يتمسكون بثكناتهم يقترحون عليهم الاستسلام ولكنهم استمروا بإطلاق النار حيث كانت الرصاصات تصيب أستار الكعبة أو تقع حولها في الحرم. ولم يقف إطلاق النار إلا بعد أن وصلت البنادق من جدة عندها اقتنعوا واستسلموا في ٤ تموز. وفي ٩ تموز أخلى الأتراك جميع مراكزهم في مكة. وعند هذا التاريخ يكون قد مضى على سيطرتهم أربعمائة عام على الأراضي المقدسة.

وأخبار هذه الثورة قد سببت إنذاراً في تركيا والمانيا وقد حجبت عن الناس لفترة دامت عدة أسابيع. وقد وقع الحاكم العام للحجاز في الطائف غالب باشا في مصيدة عبد الله في شهر أيلول وقد أخذت باقي المدن الكبيرة في الحجاز عدا المدينة في صيف ذلك العام ثم تبعتهم المدينة بعد ذلك مباشرة.

وفي أول تصريح له شرح الحسين هذا العمل داعياً كل المسلمين إلى أن يحذوا حذوه وقد بنى قراره ومبدأه على أساس ديني ووطني في آن معاً، وتصريحه يشجب العداء للممارسات الدينية للمسلمين ضمن «جمعية الاتحاد والترقي» والحكم الاستبدادي للحكومة التركية وعلى الأخص في تصرفات «الضابط أنفير طلعت والضابط جمال باشا» والذين تبين بأنهما كانا مسؤولين عن عمليات الإعدامات وعمليات الإرهاب في سوريا. وقد انتهت هذه الأعمال بعد أن أطلق النداء إلى جميع البلاد الإسلامية للقيام بمثل ما قام به الشريف حسين في منطقته وذلك بسبب واجبه عليهم كشريف لمكة وبسبب التماسك وصلابة المواقف الإسلامية.

وكان جمال باشا في حالة سعار، وفي كانون الثاني قد ألقى خطبة في دمشق مبدياً غضبه الشديد وحتى بعد بداية الثورة بستة أشهر، وقد أرعد وأزبد ضد الشريف حسين ونشر الخطاب في كتابه «اليقظة العربية» رجل وضيع في قلب المدينة المقدسة الإسلامية قد ربط نفسه مع القوات المسيحية والتي هدفها سلب العالم الإسلامي والاستيلاء على عاصمته «اسطنبول». وإن العمل الخياني سيعود على بريطانيا بالخدمات، ومع ذلك فعندما عبرت القوات التركية قناة السويس وأبادت البريطانيين كان من أولى أولوياتها أن تقطع رأس ذلك الوغد في مكة».

وكانت الحملة الفرنسية والبريطانية. كان المقدم س.س. ويلسون يقود الحملة البريطانية فيما يسمى «الخدمة السياسية السودانية» وكانت الحملة الفرنسية بقيادة مقدم بريمون والذي أرسل إلى جدة وكانت إدارة الخارجية تحت مسؤولياتها إستشارية ولكن بعض الضباط أصبحوا بعد ذلك موظفين تنفيذيين مرموقين.

وكان التأثير المباشر للثورة عسكرياً أن يبطل فعالية المحاولة الألمانية التركية لإغلاق البحر الأحمر من اليمن وهذا الرأي أكده دكتور هوغارت وهو عالم مسؤول عن مكتب القاهرة العربي وكذا الكولونيل بريمون.

وفي أيلول زار ستورز الحجاز مرة أخرى مبحراً على السفينة ا لأميرال ويميز يوراليوس والذي أوصل «المحمل» إلى جدة وهي أول مرة يحمل فيها على متن سفينة بريطانية وكان الأميرال قد دعي لركوب السفينة على رأس قيادتها إلى جدة ولكنه اعتقد بأنه من الحكمة رفض هذه الدعوة.

وفي تشرين الثاني أعلن عن تتويج الشريف حسين ملكاً على البلاد العربية وكانت الأخبار قد نقلت عبر التلغراف إلى كل العالم بواسطة الشريف عبد الله الابن الثاني للشريف حسين وكان يمثل وزيراً لخارجيته ولكن أحداً لم يعترف بذلك خارج الحجاز. وقد أبلغت حكومتي فرنسا وبريطانيا الشريف في كانون الثاني ١٩١٧ بأنهما تعترفان به ملكاً على العرب. وفي نفس الوقت فإن أحد الأتراك النافذين في الحجاز قد ألقي القبض عليه بواسطة قوات الشريف فيصل والبحرية البريطانية. وكانت المدينة نفسها حينها بيد الأتراك ولكن الشريف علي حيدر والذي وصل إليها قادماً من اسطنبول وكانت لديه أوامر من الباب العالي بأن يخلف الشريف حسين على المدينة المنورة. وعندما تبين له أنه لا أمل له بخلافة الشريف حسين وخشي من أن يُقبض عليه فطلب من السلطان السماح له بالعودة إلى ليفانت وحيث بقي معزولاً في لبنان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

وكان أولاد حسين يقومون بدورهم الكامل في الثورة وكان علي الصغير أكبر أولاده على رأس قواته التي أمسكت بالمدينة المنورة وعبد الله الحيوي كما في أكبر أولاده كانا يقومان بالغارات من وادي عيص والابن الثالث فيصل كان يقود القوات ويحضر تجهيزاتهم في الوجه وكان على استعداد للتوسع بالعمليات في أي وقت كان.

وفي تموز كانت العقبة شمال الحجاز قد سقطت بيد الشريف وكانت المرحلة الأولى من مراحل الثورة قد انتهت. وكانت المرحلة الثانية هي في

التقدم صوب دمشق بالتناسق مع اللورد اللنبي بعملية تأتي من مصر. ولكن هدف فيصل كان أبعد من عمل عسكري بسيط، لقد تغلب على رؤساء القبائل التي هو بحاجة لتأييد ومساندة أعضائها. وكان يريد أن يعقد تحالفاً معهم كل على حدا فيقنع كل منهم برأيه فيحل المشاكل والاختلافات بينهم ويشجعهم عن طريق الذهب الممنوح لهم والذي زودوه به البريطانيون وعن طريق المصير الذي كان يخصه هو. وفي كل ذلك وخلال عمليات الإغارة وعندما بدأوا بدأ الضابط ملازم أول تي. إي لورنس من المهمة البريطانية الخاصة. فكانت حملات فيصل تحوي لورنس أيضاً معها فكان يسافر بعيداً في ميدان القتال وأحياناً خلف خطوط العدو في سوريا. وكان العرب من المجندين في الجيش التركي من أصحاب الرتب بدأوا بترك وظائفهم والاسنحاب من الجيش التركي وعندما تقدم الجيش البريطاني إلى فلسطين استقبلوا كأنهم المحررين للشعب.

وكان المرابطون في ليفنت والعمليات التي كان يقوم بها العرب تحت قيادة فيصل قد وصفت بالكامل في الكتب وهي كانت مرحلة من الحرب العالمية الأولى وعلى الأخص بواسطة لورنس. و عند نهايتها كان الشريف نصر وبعض رؤساء قبيلة عنيزة كانوا أول من ركب إلى دمشق في مساء ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨ وكانت رسلهم تعدوا في نفس المكان وكانت الراية العربية ترفرف وكرواد للجيشين المنتصرين. وفي اليوم التالي يوم ١ تشرين الأول كانت كتيبة من الفرسان العرب ولحق بهم نصر وبعد يومين دخل لورد اللنبي إلى المدينة تماماً كما فعل فيصل وألف من رجاله دخل من ناحية الصحراء وقد وصفت المدينة على أنها كانت مغتبطة من شدة الفرح.

ومع أنه بعد سنتين من هذا الحدث قام الفرنسيون بطرد فيصل من دمشق فقد وجد عرشاً آخر له في بغداد وكان عبد الله يحكم في عمان. وهكذا فإن حرب الشريف حسين على مدار الساعة لم تحقق الأمل المنشود منها فهو مع هذا قد أثر بشكل مباشر في جزء كبير من آسيا العربية وهي مساحة أكبر من أي مساحة أخرى لحاكم عربي آخر وكان قد استلم حوالي ستة ملايين جنيه ذهبية من الحكومة البريطانية خلال الحرب وكان قد اعترف به كل الزعماء العرب في

سوريا كرئيس للحركة العربية ومفاوض باسمهم مع الحلفاء وكان الحلفاء قد اعترفوا به ملكاً على الحجاز.

وكانت المنفعة اللاأخلاقية قد طغت على سياسة الحلفاء بدعمهم للصهيونية في رغبتهم بأخذ فلسطين وكانت فرنسا في ليفنت تعارض كون حسين ملكاً على كل العرب. وكانت هي حقيقة تبعوها فقط. وكان ابن سعود وبعيداً عن اتفاقيته مع البريطانيين أصبح مستقلاً بالكامل عن كل العلاقات والارتباطات الخارجية وحتى شيخ الكويت فقد اعترف به على أنه مستقل في إمارته. وكذلك سلطان مسقط كان سلطاناً منذ وقت ليس بالقليل وكان في الاتفاقية القديمة وله علاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وكانت البحرين وعسير واليمن أيضاً مستقلة عن الشريف حسين. ولكي يكون معترفاً به ملكاً على العرب كان غير مسموح به ولم يكن أكثر من أمر تافه ما عدا أنها حركة لا أمل من ورائها، وهذا ما حدث غالباً بعد ذلك وكان ابن سعود في وسط الجزيرة العربية قد منح أسلحة وأموالاً من قبل الحلفاء ولكنه لم يستعملها إلا في مهاجمة الشريف حسين وقواته في ترابة سنة ١٩١٩ وليهزم ابن الرشيد. وكانت ثورته في شمال الجزيرة العربية وكان متحالفاً مع الشريف حسين بعد الحرب. وكان الإسلام والتقاليد العربية تمنع حسين من التحالف والارتباط بشكل علني ومفتوح على كل الاحتمالات وضد ابن سعود وأما الأتراك الذين كانوا في مركز الثقل في الجزيرة العربية فقد انهارت دولتهم في الجزيرة العربية وكان الخليفة الجديد قد ألغي مفعوله من قبل الأتراك الجدد وعندما فرض الأتراك على عبد المجيد أفندي وعائلته مغادرة اسطنبول فقد غادر على عجل وإلى الأبد عند الفجر من يوم ٤ آذار ١٩٢٤ وقد أصبح حسين يائساً ورأى أن هذا اللقب قد أفرغ من معناه عند الشونة في الأردن يوم ١١ آذار ١٩٢٤.

وكان حسين فخوراً جداً أن ينهي خلافاته مع بريطانيا ومع ابن سعود أو على الأقل مع واحد منهم وفي آخر حالة ربما كان عنده الحق بالتفكير بأن لا شيء مهم وثابت سينتج عنها. وكان هناك ضغينة قديمة ومنافسة لا يمكن لأحد أن يقلل من حدتها فتصبح صداقة حقيقية.

وقد طلب منه البريطانيون أشياء كثيرة وذلك لأنهم كانوا يبحثون وسيلة ليشتروه حسبما بدا له. وكان حزيناً جداً ومذهولاً لما نتج عنه مؤتمر سان ريمو من قرارات وخصوصاً وضع فلسطين تحت الإنتداب البريطاني وكذلك العراق والاتفاقية المناسبة التي وضعتها بريطانيا حيث تقدم الحماية وأكملت عملية التغيير في مقابل الاعتراف بصهيون وقد وصفها جورج انطونيوس في «اليقظة العربية» كما يلي:

في سنة ١٩٢٣ وصيف ١٩٢٤ فتحت الحوارات مرة أخرى وتناقلت مرة أخرى.

«ومع التصلب الذي انتهى بالضغط على أعصاب موظفي الدول الأجنبية والذي داوم على الاحتجاج برسالة بعد أخرى وذلك أنه لم يتحرك من وجهة نظر ضيقة أو تحرك أناني وأن رد فعله كان قد درس بعناية وتبين أنه لا سلام للبريطانيين ولا اليهود ولا العرب في فلسطين طالما أن هذه الأخيرة (فلسطين) قد شُكك بكونها هدف نهائي للصهيونية وأن الغاية هي تأسيس دولة يهودية في قلب المنطقة العربية وعلى حساب طموحاتهم الوطنية».

وفي آب كتب حسين إلى رئيس وزراء المملكة المتحدة البريطانية مناشداً وضع الوعود البريطانية له موضع التنفيذ والتي قطعوها على أنفسهم خلال فترة الحرب ولكنه وللأسف لم يستلم أي رد منه وذلك أنه وقبل أن يشارف الشهر على نهايته كان الوهابيون يجتاحون الحجاز وفي تشرين الأول انتهت صفته الملكية.

إن ادعاءه للخلافة الإسلامية أعطى ابن سعود وكذلك المسلمين الهنود وكان الناطق الرسمي باسمهم شوكت علي مبرراً كي يطعن أهداف حسين. وكان قد اتهم من قبلهم بأنه إنما يبحث عن أهدافه وطموحاته الشخصية، وكانت هذه الاتهامات غير صحيحة وذلك لأن الشريف كان تقياً مثله مثل أي واحد من منتقديه، ولكن كان قبوله باللقب ومع أنه كان متردداً فإنه أعطاهم مبرراً ظاهرياً للحقيقة من أجل انتقادهم له.

وفي عزلته تلك عاد إلى بريطانيا ولكن عند ذلك الوقت كان يشعر في

وايت هول بأنها كانت تضغط على أنفاسه وكما قال انطونيوس في كتابه اليقظة العربية:

«كان ينظر إليه كشيء سخيف ومقيء. وكانت العادة بدأت بسرد روايات عن الرجل العجوز وخصوصياته وكان البعض منها بدون شك مضحكة وبينما كانت تلك القصص تتداول كانوا يخترعون له قصصاً أخرى وجعل الطلب يتزايد على المزيد منها. . . وهكذا فقد أصبح حسين مادة للضحك ولكنه بعد ذلك أخذ جدياً من قبل الخدام المدنيين».

وهكذا فإنهم استجابوا لندائه من أجل المساعدة ضد ابن سعود وذلك أنهم اعتبروا أن هذا الصراع إنما هو شجار ديني وأنهم لا يستطيعون التدخل فيه إلا إذا طلب منهم وبشكل محدد أن يتدخلوا. وهكذا فإنهم يصبحون كحكام بين فريقين مختلفين. ولعلمه أنه هو المنتصر في النهاية فقد رفض ابن سعود تدخل أي وسطاء بينه وبين الشريف حسين لحل الخلافات بينهما.

وهكذا ففي ١٣ تشرين أول ١٩٢٤ ضاعت مكة مرة أخرى من أيدي الأشراف وسقطت في أيدي الوهابيين وأجبر الشريف حسين على التخلي عن العرش في نفس الشهر لصالح ابنه الأكبر علي. وقد احتفظ علي بجدة لمدة عام واحد بينما ابن سعود كان ينتظر فرصة ملائمة وواصل مراسلاته مع المسلمين الهنود محققاً تمهيداً للطريق لطرد الخوف الذي ألم بالبعض نتيجة المجازر التي أحدثها جنوده مع المواطنين في الطائف وأن هدفهم هو هدم الحرم الصغير في المدينة ومكة ومنع كل المذاهب الأخرى المسلمة من ممارسة الشعائر ما عدا أولئك الذين يتبعون ا لمذهب الوهابي في المدينة وينبع حيث وطن قتادة القديم لا زال قائماً. وهكذا فإن علي قد حكم هذه المدن الثلاث المحاصرة كملك للحجاز وهذه المدن حيث استمرت أكثر فأكثر مع أقل أمل يوم بعد يوم ومع إيرادات ضعيفة وإلى أن يأتي الشتاء المقبل ١٨ كانون ثاني ١٩٢٥ حيث أعلن للقنصليات الأجنبية نبأ الطرد وفي اليوم التالي وصل الوهابيون ودخلوا مدينة جدة وفي ٢٢ أبحر على سفينة بريطانية إلى البصرة واتخذ لجوءه عند أخيه فيصل في بغداد في القصر.

واستمر ابن سعود بإصدار بيانات يستميل فيها بدبلوماسيته المعروفة المسلمين بشكل عام والحجازيين بشكل خاص ويدعو إلى مؤتمر إسلامي ليلعب على فكرة تعيين شريف جديد وليجس نبض الأجانب ولكنه في النهاية استلم هو زمام الأمور جميعاً وهذا بدون أدنى شك ما كان ينوي دائماً فعله في قرارة نفسه. وإن الحكم المباشر للمدن المقدسة والحجاز من العقبة حتى حدود اليمن.

وهكذا فإن حسين قد توفي ضعيفاً وكبرياءه محطم في عمان في ٤ حزيران ١٩٣١ وعلي في بغداد يوم ١٤ شباط ١٩٣٥ وكانت النية أن يؤخذ جثمان الملك علي بواسطة زورق مساءً على طول نهر دجلة خلال وسط بغداد من بيته على ضفة النهر إلى المقابر الملكية في ضاحية الأعظمية. وكان الجنود على ظهر سفينة مغطاة بالسواد اجتمعوا والشعب يقف حزيناً على طول ضفة النهر أو راكباً مرافقاً في زوارق عندما بدأت عاصفة بالهبوب واكفهرت السماء وكان الماء يتلاطم على جسم السفينة وفجأة هبت ريح أقوى جعلت المشاركين في توديع الجنازة يلجأون إلى المداراة من الريح بالجدران وهكذا كان سير الجنازة الحزين إلى القبر لآخر الحراس الهاشميين الذين حكموا مكة، وكان رئيس الأحزان هو ابنه الوحيد الأمير عبد الإله والذي ذهب براً في يوم ضبابي من كثرة الغبار ليحضر الدفن.

ملحق تفسيري

الآغا: هو لقب لقائد تركي أو رئيس قبيلة كردي عادة غير متعلم في وظيفة ذات صلاحية معينة. وكذلك كان لقباً للمخصي من العرق الأبيض أو الأسود وفي المدينة ومكة كان الخصيان يرعون شؤون الحرم. وكان الخصيان في المدينة يفسحون في المجال لاستعمال الأماكن العامة مقابل مبلغ من المال تدفعها الدولة العثمانية للأفراد. أما مجموعة الخصيان في مكة رفضوا إعطاء المال للدولة فجمعوا مبالغ طائلة منها وكانت الأماكن العامة منتشرة بشكل كبير في مكة وربما كانت أقدم مجمع للخدمات العامة المستمر في إعطاء الخدمات في العالم دون توقف وكانت هذه المجمعات في السابق أكثر عدداً هناك أما الآن فهم تحت سيطرة بعض المئات من المجموعات القوية في مكة.

العالم: هو عالم وغالباً متخصص في الدين وإن اللفظ غالباً يصادف في حالة الجمع «العلماء» وهو يستعمل بشكل فضفاض لوصف رجال الدين المسلمين.

أرناؤوط: جيش شعبي (ميليشيا) من منطقة مقدونيا (أو كوسوفو) وكانوا يعتنقون المسيحية والإسلام ولكن غالباً الإسلام فقط. وبعدها أصبحوا من العسكر الألباني.

بسطنادو: وهي من أصل اسباني «بسطوم» وهي العصا ومعروفة في العربية والفارسية تحت اسم الفلق والبسطنادو كانت نوعاً من العقاب تحت الحكم العثماني. فكان اثنين من الرجال يمسكانها كل واحد من طرف وهي في

وضع أفقي ومشدود في أطرافها حبل توضع القدمين بين العقدتين وتشد على العصا إذا ما لفت العصا وتعرض الأقدام لأعلى. فيُلقى المعذب على ظهره أو ترفع رجليه فيبقى مستنداً على رقبته وكتفيه على الأرض فقط ويأتي رجل ثالث فيضرب الرجلين العاريتين بعصا غليظة. وبناءً على لائحة العقاب العثماني ودرجاته فإن هذا النوع من العقاب مفروض على الرجال فقط من الدرجة الرابعة أو الأخيرة من المجتمع. وكان الأمراء أو المتحدرين من سلالة النبي محمد والعلماء، والأحرار وخاصة الناس التي تعتاش على مواردها الخاصة أو مما تصنع فكانوا معفيين من هذا العقاب ولكن القرآن يقول بالنسبة للنساء. **﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾** [سورة النساء].

ولم يكن السوط ذو الشعب ببعيد عن الاستعمال العثماني للتأديب في مناطق نفوذهم وفي السفن الشراعية وكان استعماله اليومي عادة للتنشيط وليس للعقاب التأديبي.

بك: لقب تركي ما دون الباشا، وما زال استعمال هذا اللقب في مصر ويمنحه الملك كلقب شكلي وهو يعطى كمنصب شرف لأبناء الباشا وغالباً كرمز للاحترام. أما في تونس فهو لقب للأمير الحاكم ووظيفة باشا لم تعد متداولة في تركيا حالياً.

خليفة: وهي نفس الكلمة بلفظها في اللغة العربية تقريباً وبنفس المعنى. أما في العربية فإن معناها الأصلي كل من يخلف الآخر في الحكم.

وكان لقب الخليفة أول ما أطلق في العربية على أبو بكر الصديق عندما تولى حكم المسلمين بعد النبي محمد (ص) بعد وفاته. وبعد أن كبر حجم الأمبراطورية أصبحت الكلمة تعني أعلى رتبة في الحكم الإسلامي.

وكان الخليفة العباسي من العصر الأول قد انتهى حكمه بقدوم المغول في سنة ١٢٥٨ ميلادية ولكن بعض الذين بقوا على قيد الحياة من العباسيين والذين وصلوا إلى القاهرة حيث كان المماليك يحكمون احتفظوا بهذه التسمية للخليفة كرمز عندهم ومن خلفه من سلالته ولم يكن يعترف بهم خارج مصر.

وعندما استولى العثمانيون على مصر سنة ١٥١٧ أنهى العثمانيون هذا الخط وتلاشت الصفة نهائياً. وعلى خط مواز في شمال أفريقيا كان منصب الخليفة أيضاً. وفي وقت من الأوقات انتقلت هذه الخلافة من شمال أفريقيا إلى القاهرة في عصر الفاطميين وقد انتهت هذه الخلافة قبل أن تنتهي الخلافة العباسية. وفي آخر فترة من القرن التاسع عشر أعاد السلطان عبد الحميد استعمال هذا اللقب في تركيا وأطلقه على نفسه متبعاً سياسة حكم جميع المسلمين. وهذه التسمية الخاصة بالعثمانيين لم تلق قبولاً في أي مكان خارج تركيا وقد انتهت بقدوم الثورة الكمالية سنة ١٩٢٣. أما سلطان المغرب (سلطان مراكش) وإمام اليمن فكانت لديهما الإمتيازات واللقب في منطقتيهما فقط كل على حدا. وكان آخر خليفة عربي هو الأمير، ثم الملك حسين. ومنح لقب شريف مكة أيضاً ولكن لقب الخليفة لم يكن معترف به كثيراً ولم يستعمله أحد من أبنائه من بعده. مثل الملك على ملك الحجاز آخر من تسمى بشريف مكة. وكان اللقب المرافق لكلمة خليفة هو أمير المؤمنين.

الدورة: مجموعة من الموسيقيين في مكة تحت سلطة الشريف وكانوا يعزفون في العادة عند تغيير الحرس وربما أدخل هذا التقليد بعد سنة ١٥١٧ وكانوا في الغالب من أربعة أشخاص وكانت وظائفهم في الغالب بالوراثة.

الديوان: في المعنى العربي للكلمة الصالون، أو غرفة الإستقبال في المدن لعلية الناس.

أمير: لقب عربي قديم يعني «قائد» أو «آمر» ويستعمل حتى اليوم في الغالب ولكن ليس بشكل واسع كما مثلاً ما زال تستعمل في الجزيرة العربية كلقب لحاكم منطقة أو قائد لمجموعة أشخاص مهما كان عددهم وكذلك تستعمل للأمراء أبناء الملوك. وكذلك تستعمل هذه الكلمة مجتمعة مع كلمة أخرى أو لقب آخر كما في «أمير المؤمنين» أو القائد أو في معناه أو أمير البحر وتعني أميرال في «الإنكليزية والتي هي حتماً مأخوذة منها» أو أمير الحج وتعني قائد الحجاج. وفي العاصمة العثمانية فإن وجيه عائلة الأشراف الساكن هناك كان يسمى «أمير باشا».

الفتوى: لفظة معتبرة من قبل المسلمين وتطلق على السلطة الدينية للحكم المسلم.

فرمان: أمر شكلي يكتب ويوافق عليه السلطان في تركيا أو شاه فارس.

حج: الذي يحج إلى مكة حاج، وحجي هو الذي أكمل شعائر الحج في مكة.

حرم: المكان المحترم والمصان ومخصص للعبادة من قبل الرجال والنساء.

حريم: وتعني «نساء» بالتحديد وهي تعني في الكتاب بالمعنى الأشمل وهو الاستعمال الإنكليزي للكلمة وبالتحديد تشمل المكان حيث تتواجد النساء.

الهاشميون: أعضاء من العائلة المتحدرة من النبي محمد (ص) وحكموا مكة حتى سنة ١٩٢٥ وهم يتحدرون من عمرو هاشم جد الرسول (ص) وهو غالباً يطلق على أحفاد الحسن وأحفاد الحسين وكان أحفاد الحسن هم الذين حكموا مكة حتى سنة ١٩٢٥ وكان المتحدرون من عمرو هاشم ويختلفون عن المتحدرين من صلب أخيه عبد شمس والذين من صلبه بني أمية والذي حكموا الشام وكانوا دائماً في موقف مخالف للهاشميين وكذلك كان بني أمية حكام قرطبة.

حجاز: المنطقة الغربية من الجزيرة العربية المنطقة الفاصلة. أو المنطقة ما بين ساحل البحر الأحمر والهضبة الداخلية للجزيرة العربية.

إحرام: اللباس الخاص أو حتى قطعة القماش توضع دون لبس أي بدون أي رباط صناعي وتوضع على الجسد من قبل الحجاج قبل الوصول إلى مكة حتى لحظة الإنتهاء من مراسم الحج وقد يضاف إليها قطعة قماش فوق الكتف الأيسر وتحت الذراع الأيمن وفي السنوات الأخيرة استعمل الحجاج قطعة قماش من المناشف الخاصة بالحرم توضع فوق الكتفين ولباس للرأس غير مسموح به في الحج.

إمام: الذي يقف في الصلاة أمام المصلين يتبعونه في الصلاة، وقد يكون متخصصاً بأمور الدين جليلاً أو قد يكون شخصاً عادياً يتبعه المصلون أثناء الصلاة فقط.

ولفظة إمام تستعمل في اليمن بوظيفة حاكم لليمن وكذلك كانت تستعمل كلقب لابن سعود واسمه عبد الرحمن وعندما حكم الابن كان الأب وهو الإمام ما زال على قيد الحياة.

إسلام: الإعتقاد الذي بشر به النبي محمد (ص).

جامع: لغوياً هو مكان للجمع أو التجمع للناس. وهو بشكل عام لاجتماع الناس في الصلاة ليوم الجمعة عند الظهر أو في أوقات أخرى. وفي المدن هناك عدة جوامع تسمى «المساجد» ولكن الجامع واحداً.

الإنكشارية: الجيش التركي وقد أطلق هذا الاسم بعد سنة ١٤٧٢ وتلاشى سنة ١٦٢٨ [دائرة المعارف البريطانية] و[المسيحية والإسلام تحت حكم السلطان ـ هاسلوه يونيفرستي برس ١٩٢٩ ـ مجلد ٢ ص٤٨٣ـ٤٩٣.

الجهاد: وتعني لغوياً واجب محدد أو فرض واجب على كل مسلم وهذا يعني الحرب مقدسة وخصوصاً عندما يطلق النداء من أجل الجهاد من قبل الخليفة أو يُفتى بها من قبل العلماء.

الكعبة: المكعب الضخم أو «بيت الله». في الحرم المقدس عند مكة والتي عند حائطها الخارجي مثبت حلقة كبيرة من الفضة بداخلها الحجر الأسود الذي هو جزء من المبنى ويقبله الحجاج.

قائمقام: وتعني لغوياً القائم بالأعمال وقد استعملت لتحديد مناطق حكم الحاكم المقدم في الجيش أيضاً. وكان هذا اللقب يمنح لحاكم جدة أيام الأتراك وحتى اليوم.

الكتودا: الوكيل التركي.

الخطيب: الذي يلقي خطاباً في يوم الجمعة وهو عادة رجل دين.

الخديوي: وهو استعمل قليلاً مؤخراً للحاكم في مصر وكان آخر خديوي في مصر هو عباس حلمي الثاني وأقيل عام ١٩١٤.

الخلعة: رداء شرف.

الخطبة: ما يقال بواسطة الخطيب يوم الجمعة من وعظ وفيها يذكر مدح الرسول وخلفائه الأربعة وأبنائه. ويذكر اسم الخليفة وهو تقليد استمر عليه الحكام فأصبح طموحهم أن يذكر اسمهم في خطبة الجمعة في مكة المكرمة منذ أن سمح بأن تكون هناك وظيفة مهيمنة.

كسوة: رداء شرف للكعبة أو للإنسان العادي. الكسوة أو الغطاء الخاص بالكعبة وكانت ترسل في العصور الوسطى في فترة الحج من المدن الكبيرة من بغداد أو القاهرة أو دمشق أو حلب وأحياناً من اليمن ولكن ومنذ سنة ١٤٧٢ كانت ترسل فقط من القاهرة سنوياً. مع بعض الانقطاع عن ذلك بعض السنين.

القرآن: وهو كتاب الوحي الشفهي الذي نزل على النبي محمد (ص) وقد جمع وكتب بعد وفاته مباشرة أي سنة ٦٣٢ ميلادية.

لاوند: وتعني البحرية العثمانية أو القيادة العثمانية وكانوا يختارون من أصغر وأشرس الرجال لديهم وكانوا في أج قوة الدولة العثمانية يبعثون الخوف الشديد في النفوس.

المحمل: طريقة حمل الكسوة إلى الكعبة وهو المحفة والكسوة معها أثناء نقلها إلى مكة. ومراحل انتقال عادة يتبعها مظاهر احتفالية منذ انطلاقها من القاهرة والكسوة على الحمل في العصر الوسيط ويحرسها فريق من العسكر.

مملوك: وتعني لغوياً المقتنى أو مجازاً العبد وعلى الأخص المملوك خلال فترة حكم الأسرة المملوكية في مصر والتي انتهى حكمها سنة ١٥١٧ بواسطة السلطان سليم.

مسجد: وهو مكان الصلاة والسجود لله وهو مثل الجامع «وموسك» في الإنكليزية مأخوذ من الإسبانية الذي هو تحريف لكلمة مسجد والمسجد ممكن أن يكون أي مكان مفتوح من الأرض يختاره المسافرون للصلاة أو أي مكان

مؤقت للصلاة هو مسجد والمسجد ليس أكثر من مجموعة حجارة فوق بعضها البعض لها مكان محدد يشير إلى القبلة وهي الكعبة والقيمة في العمل داخله ولا قيمة للبناء كحجارة.

المجلس: لغوياً تعني مكان الجلوس مجموعة أشخاص مثل البرلمان مثل التقاء مجموعة حول القهوة.

المؤذن: الذي ينادي إلى الصلاة في وقت محدد.

المسلم: الذي يتبع دين الإسلام وهو الإعتقاد الذي بشر به النبي محمد (ص).

النقيب: وهو رئيس السادة أو الأشراف وهو الذي يحتفظ بعلم النسب في المدن العربية.

الباشا: لقب تركي عثماني ما زال ساري المفعول في مصر وأقل منه في الأردن.

القاضي: هو الذي يطبق حكم الشريعة الإسلامية في الحكم بين الناس.

السنجق: هو العلم العثماني أو راية الحرب وأكثر من هذا فهي تعني الضابط المسؤول عن الراية. وكذلك تعني مقاطعة أو نصف مقاطعة.

السيد: وهو الرجل من نسل النبي محمد (ص) والشخص عادة يكون من نسل الحسين وهو حفيد النبي محمد (ص) وهو منتخب من بين الأشراف الآخرين من نسل الحسن أخو الحسين وهي مستعملة حتى الآن في العراق أو بلاد الشام بدون أن تعني السيد كصفة للمنادى.

الشريف: النبيل وهو من نسل النبي محمد (ص) من خلال حفيده الحسن ومنه «شريف مكة» وكان لقب لحاكم مكة وكان معروفاً بالنسبة للأوروبيين بالشريف العظيم.

السلطان: وهو لقب الحاكم الزمني للمسلمين في دولة مسلمة وهذا اللقب لم يكن متداولاً قبل الحكم العثماني وهو لا يزال قيد الاستعمال من قبل حاكم زنجبار ومراكش وكذلك في عدة دول أخرى من العالم.

التراويح: وهو جمع لكلمة ترويحة وهي صلوات إضافية بعد صلاة العشاء وتستعمل بشكل خاص في رمضان.

تهامة: الخط الساحلي لغرب الجزيرة العربية وهو على الأغلب مالح التربة ويعني أيضاً الخط الساحلي لليمن.

وادي: مجرى سيل أو نهر ـ أخدود.

والي: وتعني لغوياً «الحارس نيابة عن» وكانت تستعمل بكثرة في خلال الحكم العثماني كمنصب لحاكم منطقة أو حاكم مقاطعة أو وكيل عام للسلطنة. وكانوا يعينون من الأتراك فقط في منطقة الحجاز كوكيل عن السلطان في اسطنبول. أما في العراق فكان الوالي هو الحاكم أيضاً.

الوزير: هو الإداري الأعلى في السلطة ويمثلها.

الزاوية: هي مكان إقامة شعائر الدراويش.

ملاحظة حول سجلات الأمبراطورية العثمانية

إن السجلات القديمة للدولة العثمانية بما فيها تلك الخاصة بالباب العالي وهي تحت سيطرة رئيس الوزراء خلال تعاطفه ومساعدة سكرتيره باي عادل ديرنسو وهو صديق من الأيام الأولى لاجتماعات مكتب الأمم المتحدة في لندن حيث كان باستطاعتي أن أتفحص تلك الأوراق.

السيد دبليو. دي الين وكان قنصلاً في السفارة البريطانية في تركيا حيث قدمني إلى باي تحسين أوز مدير متحف التوب كابي سراي وهو مؤلف دليل الأرشيف في سراي السلطان العثماني والتي بموجبها كان مجلدين قد نشرا يشملان كتب. وقد تفضل تحسين بإعطائي نسخ عنها.

وقد دونت المعلومات بالطريقة التسلسلية للحروف الأبجدية بواسطة مؤلفين منهم هانسيلي بك زاوي ولم يعد هناك شيء آخر يمكن إضافته. فالمكتبة التي تحوي كتباً ومخطوطات قيمة موطدة في بناية سيت المكتبة الجديدة على نسق السراي المقابل لها رقم ٢٦٠ الخاص ببنزير «الحريم» والموجودة في الشمال الغربي بناحية بلاط القصر الثالث وقرب بوابة النافورة والسرادق الخاص حيث «العبادة المقدسة» أو «هوكاي سريف أوداسي» والتي وضع بداخلها أثر من آثار النبي ومن ضمن الكنز الخاص بهذه المكتبة تحت

مسؤولية باي كمال سيغ وهي شجرة النسب الأمبراطورية وشجرة نسب النبي وسلالته (ص) وكثير منهم مضاء بشكل متقن.

ومعظم حالات هذه المستندات من العصر العثماني مذيلة في حاشيتها بتعليق من بي.وتيك «وهو الآن أستاذ المادة التركية ومدرسة الشرق الأفريقية للدراسات في لندن» وفي بيزنطيون ١٩٣٨ في مقال بعنوان «السجلات التركية» المجلد الثالث عشر ص٦٩١ ـ ٦٩٩ فإن الكاتب يصف المستندات تحت خمسة عناوين:

١ ـ مستندات الباب العالي وكان مركزه في مبنى معروف باسم باسباكنليك لمكتب الوزير المعظم والذي هو قرب مصر فيلايت وهي ما تزال في نفس المكان في باي كنعان تونا، ومجموع هذه المستندات هنا وفي المستودعات الملحقة بهذا القسم قد قدرت من قبل المسؤولين بأنها في حدود المليون، والمهايمي دفتيري وسجل القانوني وموجودة أيضاً في «الباي بكنيلك» ومن خلال لطف الباي ناصيف «بيلوك بايي» رئيس التشريفات في الغالي في اسطنبول وقد قدموني إلى رئيس سجلات الباي بكنيلك».

٢ ـ سجلات الوزارة السابقة للمالية كانت في بيت بالقرب من السجن القديم في «مترهاني» في جناح السلطان أحمد والمستندات في الطابق الأول في حالة جيدة أما المستندات في الطابق الثاني فكانت موضوعة في أكياس، وكانت المستندات هي التي لاقت صعوبات عندما عرضت للبيع سنة ١٩٣١ وكانت في وضع ميؤوس ومحزن كما وجدت وقد لفتت انتباه الشرطة السرية التركية لحالة هذا الكنز التاريخي للممتلكات الحكومية وقد تم البيع من خلال إدارة الأملاك القديمة لوزارة المالية التي قررت إخلائهم من المبنى. وقد بيعوا إلى مقاول حيث أرسلهم إلى بلغاريا بعد أن اشتراهم كمهملات تالفة. وهكذا في يوم ما من شهر أيار ١٩٣١ كانت قافلة من سيارات الشحن (الكميونات) تحمل ثلاثين ألف أقة من الأوراق القديمة قد وجهت إلى المحطة. والآن وبعد ذلك فقدت بعضها هنا أو هناك ربما أستاذ مدرسة كان يمر من هناك استرجع بعضاً منها ومن ضمنها أرسلت الأوراق التي تهم فترة السيطرة على «فيينا» سنة ١٦٣١

والأعمال المتعلقة بملكية «عائلة غازي ميخال» في قرية قرب «بليفنا» بأمر من الحامية عند نيش في صربيا والفرمان الصادر عن السلطان سليم الثاني في مصلحة الشاعر الشيخ غالب، وإن حساب طباخ القصر مكتوب بخط اليد الرائع وهكذا. . . كما أن الرأي العام له ما يدفعه إلى الاحتجاج وباقي الأوراق كانت موضوعة ومحفوظة داخل صناديق، وقد أصبحوا الآن في نفس المنطقة حيث توجد المستندات الخاصة بالباب العالي في قصر الفيلايت ولكن وبشكل عام فإنهم غير مفهرسين.

٣ ـ دفتر إي الحقاني، ففي المستودع القديم ربما من العصر البيزنطي ومركزه خلف مسجد أيا صوفيا. فهي اليوم في الباي باكنليك مع باقي المستندات المذكورة سابقاً.

٤ ـ ومستندات شيخ الإسلام أو (مزياحات) قد تضررت من خلال حريق حدث سنة ١٩٢٦ وقد نقلت بعد ذلك إلى قصر العدل سنة ١٩٣٣. وهذه المستندات محفوظة الآن في مكتبة ملحقة بالجامع وتعرف باسم السليمانية والمسؤول عليها دكتور مصطفى كويمان.

٥ ـ أما أرشيف أوقاف مودورلوغي والتي كانت موضوعة في مدرسة بالقرب من الإدارة العامة للأوقات وجزء آخر في بناية قرب مسجد أيا صوفيا. ولهذه المستندات ذات الأصول الدينية وموروثات قد أضيفت وهي تابعة لوزارة البحرية وللأوقاف الفرعية ومع أن معظمها قد اختفى وخصوصاً ما يخص بروزاً على سبيل المثال فقد بيعت على أساس أنها أوراق مهملة منذ سنوات عديدة، أما تلك المستندات عن أوقاف اسطنبول فقد تلاشت بعد حريق سنة ١٩٢٦. وهذه المستندات التي ليس لها فهرس مصور مطبوع قيل بأنها موجودة في أنقرة ولكن بعضاً منها في باي بكانليك في اسطنبول. وكثير من هذه المستندات قد أزيلت من أيا صوفيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى وأخذت إلى وسط الأناضول من أجل حمايتها. وبالإضافة إلى ما ذكر ومذكور في السجلات التركية في بايزانشين ١٩٣٨. ولا بد أن يكون هناك سجلات عن الجيش القديم

وقيادته ولكن من المستحيل الحصول على مصدر يعتمد عليه للحصول عليها أو حتى معرفة مكان تواجدها.

وحالة المكتبات في اسطنبول قد نشرت بواسطة مظفر غوكمان من إدارة المكتبة الشعبية لبايزيد في القسم الثاني من المنشور المصنف للمكتبات ويحتوي على حوالى ١١٠,٠٠٠ مخطوطة ومجموع ما هو مصنف ومفهرس وغير مفهرس من هذه المخطوطات (والكتب) والمحفوظة تبلغ حوالى ٤٥٠,٠٠٠ على الأقل.

بعض الظواهر الطبيعية الكونية والتي شوهدت في الجزيرة العربية

في سنة ٥٩٢ هجرية وبعد انتهاء موسم الحج غطت عاصفة سوداء مكة المكرمة وأمطرت السماء بعض الرمال الحمراء وقد اهتز الحرم لدرجة أن بعض حجارة الركن اليماني قد تساقطت [من كتاب خلاصة الكلام لابن زيني دحلان].

إن المؤلف لا يقيم مصادر معلوماته.

إن سنة ٥٩٢ هجرية يقابل، وتأكيداً للظاهرة التي حدثت مباشرة بعد انتهاء موسم الحج وكان ذلك في حدود سنة ١١٩٥ ميلادية والاحتمال الكبير أن تكون في الأسبوع الأول لشهر كانون الأول.

مباشرة وبعد الثالث من محرم قد شوهد في مكة نجم طولي الذنب مثل رمح في اليد وقد مكثت على تلك الحال منذ شروق الشمس وحتى غروبها وقد اهتاج الناس وقلقوا لرؤيته وبعضهم قال بأن هذا فأل سيء أو شيطاني. (ايبد)

وقد أعطي التاريخ المقارب في ٣ أيلول ١٧٧٠.

يوم الاثنين بتاريخ ١١ محرم ١٠٧٩ وبعد ساعتين من شروق الشمس ظهر شعاع قوي في السماء رُئي كأنه صادر من الشمس أو قريباً منها وهذا

الشعاع امتد صوب الغرب وكل من كان ينظر إليه كان يصاب بعمى مؤقت وكانت ألوان هذا الشعاع زرقاء وصفراء وحمراء وقد تلاشى الخطين الحاجزين لهذه الألوان وأصبح قلب الشعاع منتفخاً وبعدها انفجر بصوت كالرعد.

وبعد الانفجار تحول باقي الضوء إلى دخان وتلاشى.

[محمد حيدر الحسيني في كتابه تنضيد العقود] فصل من أحداث السنة.

والتاريخ المسجل يقابل ٣١ حزيران ١٦٦٨.

في يوم ١٩ ذو القعدة ١١٤٦ هجرية كان هناك كسوفاً للشمس من منتصف النهار وصاعداً. وكان الكسوف كاملاً وكانت النجوم ظاهرة. (ايبد)

وقد أعطى التاريخ المقابل ليوم ٢٤ آذار ١٦٣٧.

وفي سنة ١٠٩١ ظهر نجم مذنب إلى الشرق وبقي كل السنة. (ايبد)

وسنة ١٠٩١ هجرية تبدأ في يوم ١٢ شباط ١٦٨٠.

ويوم ٢٣ رمضان لسنة ١٠٧٨ هجرية كان هناك لهيب ضخم من النور عبر السماء صوب الغرب واستمر لثلاث ليال وبعدها بدأ يتلاشى ولكنه أصبح أطول حتى اليوم الثالث واستمرت حتى خمسة عشر يوماً وذلك حتى يوم ٨ شوال. (ايبد)

وأول تاريخ يقابل ٨ آذار ١٦٦٨ وكانت هناك ملاحظات في السجلات القديمة عن مذنب شوهد في غوا في الهند بواسطة مبشر مسيحي يوم ٩ آذار حتى ٢١ منه وهذا يثبت أن التواريخ متطابقة في الهند والجزيرة العربية.

الفهرس الثالث

أمراء مكة منذ الأمير قتادة ومن أتى بعده:

قتادة (١٢٠١ ـ ١٢٢٠):

وقد سمي بالأمير النابغة لذكائه، واشتهر باسم أبو عزيز وهو من مدينة ينبع وتعتبر ميناءاً للمدينة المنورة ولد سنة ١١٣٢ وانتصر وكان أمير مكة الثالث عشر من نفس السلالة التي حكمت مكة.

وهو قتادة بن ادريس بن مطعن بن عبد الكريم بن محمد (أبو جعفر الثعالب) بن عبد الله الخبر بن محمد الثائر بن موسى المثنى بن عبد الله المحاث بن الحسن المثنى بن حسن بن علي بن أبي طالب صهر رسول الله (ص).

حسن بن قتادة (١٢٢٠ ـ ١٢٢١).

راجح بن قتادة (١٢٢١ ـ ١٢٥٤):

(تخلل ذلك سبع مرات من التوقف والانقطاع عن الحكم).

وكان قائداً مصرياً بين ١٢٢١ ـ ١٢٢٩ ويطلق عليه اسم بو سعد الحسن بن علي بن قتادة ومع أبو نمي شيحا بن قاسم الحسني من المدينة سنة ١٢٤٠، حجاز بن حسن بن قتادة أقبل بواسطة ابن راجح (غانم).

ادريس بن قتادة (١٢٥٣ ـ ١٢٥٤):

(حكم بالتناوب مع محمد أبو نمي حتى سنة ١٢٧٠).

محمد أبو نمي (١٢٥٤ ـ ١٣٠١):

اسمه المصغر أبو مهدي ويطلق عليه اسم نجم الدين بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة.

وحكم مع بعض الانقطاع سنة ١٢٥٨ عندما حكم ابن حسن بن قتادة سنة ١٢٧١ وعندما جاز بن شيحا من المدينة وغانم بن ادريس الذي حكم فترة أربعين يوماً وكذلك بعض الانقطاع سنة ١٢٨٨.

رميثة (أبو عرادة) (١٣٠١ ـ ١٣٤٤):

القوي المتوحش أسد الدين بن محمد أبو نمي وقد حكم مع انقطاع ست مرات عن الحكم وحل مكانه أخاه حميضة وعين مكانه عطيفة وأبو الغيث ثم عاد وحكم هو.

عجلان (أبو سريع) (١٣٤٤ ـ ١٣٧٥):

لقبه عز الدين بن رميثة وحكم بالتناوب مع ثقابا، أحمد، سناد، معيمس.

أحمد بن عجلان (١٣٦٠ ـ ١٣٨٦).

محمد بن أحمد (١٣٨٦).

عنان بن مغيمس (١٣٨٦ ـ ١٣٨٧):

وحكم معه أحمد بن ثقابا وعقيل بن مبارك بن رميثة.

علي بن عجلان (١٣٨٧ ـ ١٣٩٤).

حسن بن عجلان (١٣٩٤ ـ ١٤٢٥):

وحكم معه بركات بن حسن وأحمد بن حسن وقد انقطع فترة حين حكم رميثة بن محمد بن عجلان وعلي بن عنان بن مغيمس.

بركات بن حسن أبو بركات الأول (١٤٢٥ ـ ١٤٥٥):

حكم مع فترات انقطاع وذلك عندما حكم علي بن حسن (١٤٤٠ ـ ١٤٤٢) وأبو القاسم بن حسن.

محمد بن بركات (١٤٥٥ ـ ١٤٩٥).

بركات بن محمد بن بركات أو بركات الثاني (١٤٩٥ ـ ١٥٢٤):

فترات انقطاع عندما حكم هزاع بن محمد وأحمد الجازان بن محمد (سيطر السلطان سليم على مصر خلال فترة حكمه ١٥١٧).

حسن بن أبي نمي (١٥٨٤ ـ ١٦٠١).

ادريس بن حسن وشهرته أبو عون (١٦٠١ ـ ١٦٢٤):

وحكم معه أبو طالب بن حسن، فهيد بن حسن، محسن بن حسين بن حسن.

محمد بن حسين (١٦٢٤ ـ ١٦٢٨).

أحمد بن طالب الحسن (١٦٢٨ ـ ١٦٣٠).

محمد بن ادريس (١٦٣٠).

عبد الله بن حسن (١٦٣٠).

محمد بن عبد الله (١٦٣١):

وحكم معه زيد بن محسن.

زيد بن محسن (١٦٣١ ـ ١٦٦٦):

فترات انقطاع عندما حكم نافي بن عبد المطلب فتظاهر بالحلم.

سعد بن زيد (١٦٦٦ ـ ١٦٧١):

فترات انقطاع عن الحكم كما يلي.

بركات بن محمد (١٦٧١ ـ ١٦٨٢).

سعيد بن بركات (١٦٨٢ ـ ١٦٨٣).

أحمد بن زيد (١٦٦٩ ـ ١٦٧١) (١٦٦٤ ـ ١٦٨٧).

سعيد بن سعد (١٦٨٧ ـ ١٧١٦):

مع فترات انقطاع متعددة.

أحمد بن غالب (١٦٨٧)، محسن بن حسين (١٦٨٩ ـ ١٦٩١)، مسعود بن سعد (١٦٩١)، عبد الحسن بن أحمد (١٧٠٤)، عبد الكريم (١٦٩٣ ـ ١٧٠٤)، ثم استأنف حكمه من ١٧٠٥ وحتى ١٧١١ ثم في سنة ١٧١٥.

عبد الله بن سعيد (١٧١٦ ـ ١٧١٧) (١٧٢٣ ـ ١٧٣٠).

علي بن سعيد (١٧١٧).

يحيى بن بركات (١٧١٧ ـ ١٧١٨).

مبارك بن أحمد (١٧١٩ ـ ١٧٢١) (١٧٢٣).

بركات بن يحيى (١٧٢٢ ـ ١٧٢٣).

محمد بن عبد الله (١٧٣٠ ـ ١٧٣٢) (١٧٣٢ ـ ١٧٣٤).

مسعود بن سعيد (١٧٣٢ ـ ١٧٣٣) (١٧٣٤ ـ ١٧٥٢).

مسعد بن سعيد (١٧٥٠ ـ ١٧٥٨) (١٧٥٩ ـ ١٧٧٠).

جعفر بن سعيد (١٧٥٨ ـ ١٧٥٩).

عبد الله بن سعيد (١٧٧٠).

أحمد بن سعيد (١٧٧٠).

عبد الله بن حسين (١٧٧٠).

سرور بن مسعد (١٧٧٣ ـ ١٧٨٨) [عبد المعين بن سعيد ١٧٨٨ ـ ١٨١٣].

غالب بن مسعد (١٧٨٨ ـ ١٨١٣).

يحيى بن سرور (١٨١٣ ـ ١٨٧٢):

[كان يقبض راتبه من محمد علي باشا ـ مصر].

عبد المطلب بن غالب (١٨٢٧ ـ ١٨٢٨) (١٨٥٢ ـ ١٨٥٦) (١٨٨٠ ـ ١٨٨١):

أنظر الأربعة التالين له.

محمد بن عبد المعين بن عون (١٨٢٨ ـ ١٨٣٦) [قائد مصري ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠] (١٨٤٠ ـ ١٨٥٢) (١٨٥٦ ـ ١٨٥٨).

عبد الله بن محمد بن عون (١٨٥٨ ـ ١٨٧٧).

حسين بن محمد بن عون (١٨٧٧ ـ ١٨٨٠).

عبد الله بن محمد بن عون (١٨٧٩ ـ ١٨٨٠).

عبْد الله باشا (١٨٨١ ـ ١٨٨٢).

عون الرفيق بن محمد بن عون (١٨٨٢ ـ ١٩٠٥).

علي بن عبد الله بن محمد بن عون (١٩٠٥ ـ ١٩٠٨).

حسين بن علي (١٩٠٨ ـ ١٩٢٤).

علي بن حسين (١٩٢٤ ـ ١٩٢٥).

عبد الإله بن علي بن حسين: الابن الوحيد لآخر شريف معظم الملك عبد الله ملك الحجاز شارك في حكم بغداد.

عبد الله بن حسين: الأخ الأصغر لآخر شريف معظم الملك عبد الله (أصبح ملكاً على الأردن).

فيصل بن غازي بن فيصل بن حسين: وهو حفيد الشريف حسين بن علي (١٩٠٨ ـ ١٩٢٤) سمي ملكاً على العرب وخليفة المسلمين.

فهرس الكتاب